الأدب السنغالي العربي

الهدية السنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان

تأليف الأستاذ المبرز
الدكتور عامر صمب
مدير المعهد الاسلامي لافريقيا السوداء

الجزء الأول



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، يقول أسير ذنوبه والفقير إلى ربه الأستاذ المبرز عامر صمب بن إبراهيم بن حبيب الله الكبمبري مولداً والسنغالي وطناً . أما بعد فان هذا الكتاب سميته : « الهدية السنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان » وقد طال أن أخذ هذا الموضوع بمجامع قلبي زمناً طويلاً وراعني ملياً ، هذا ولمّا ظهر دين الإسلام منذ ألف عام ، وتعلّم أهل سنغال لغة الضاد ودرسوها وعلموها آن الوقت أن نثبت للعالم ما تستطيع بذله العبقرية الزنجية من جهود جبّارة ، وقضاءه من أمور جسيمة حين اتصلت بحضارة أجنبية أو بثقافتها . وانه لغني عن البيان أن أذكّر القارئ برجال كبار من الجنس الأسود ذوي قريحة وافرة مثل عنترة الشاعر الذي أبقاه على غابر الدهر أسطورته الملحمية أو الجاحظ أشهر الكتّاب في الأدب العربي وأكبرهم ان لم يكن أعظمهم . وفي حقّه قال الأستاذ شارل بلا : انه كان للجاحظ جدّ أسود . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ألم يكن أمراً هائلاً الغرض الذي إيّاه أقصد وهو أن أبين ما كتبه قوم ليست العربية اللغة الأمّ لهم وان كان انتاجهم الأدبي كثيراً بثيراً ؟ واعلم أيها القارئ الكريم انّ هذا الإنتاج لوافر . أيسعني تحصيل جميع ما قد ألّفه أهل السنغال الذين لهم اليد الطولى في التأليف ؟

ذلك ان بعض المكتبات قد أكلتها الارضة والفيران ان لم تصبها الحرائق بغير إرادة الناس أو تتلفها تغيرات في الهواء ، كالمطر ، والنداوة ، والحرارة أو السرقة وهلم جراً . وأضف إلى ذلك أن المسلمين من السودان لمولعون بكل ما هو مكتوب بالحروف العربية ولاجل هذا نجد بعض مخطوطات ذات قيمة مخبوءة في الصناديق أو تحلت بها النحور كالتمائم أو امتلأت بها الجيوب فتبلى وتصير خسارة لا تعوّض وثلمة لا تسدّ .

فانّ هناك لعاملاً جوهرياً يتطلب منا مزيداً من المساعي والصعوبات وهو ان كان هذا الانتاج الأدبي مديناً للأدب العربي بكثير من أغراضه أهو ممكن أن تكون

لأدباء السنغال أيّة اصالة ما ؟ وان نسج كتّاب بلادنا على منوال الكتّاب العرب هلاّ يؤدّي الأوّلون للآخرين إتاوة مرهقة ؟ وكيف يمكننا أن نعرف ما هو شخصي مبتكر مما لم يكن إلا صورة مطابقة للاصل متداولة مبتذلة وأن نميّز ما هو جديد عما هو بال وأن نعلم ما هو مبتدع ممّا هو مشاكل أو مما يدلّ على التوارد أو على اتجاه الجهود إلى غاية واحدة ؟ أيجب علينا أن نترك مشروعنا وأن لا نحاول تأليف هذا الكتاب أمام عدّة من مشاكلنا ؟ هلاّ نجد أدباً فارسيّاً أو باكستانيّاً مكتوباً باللغة العربيـة ؟ فاذا كتب بعض الأدباء مجموعاً أدبياً ألّفه بالفرنسية نفر من أهل بلاد السودان فلم لا نجتهد في جمع نصوص أدبية ألّفها بالعربية قوم من سكّان افريقيا عامّة ومن أهل سنغال خاصّة ؟

ولمّا بلغ بعض مواطنينا ومن هو أجلّهم [1] وأعلاهم قدراً ومرتبة أننا أخذنا في تأليف مقالة من انتاج أدباء سنغال طرحنا على أنفسنا هذا السؤال : « لم لا نقضي حاجة بعض أصدقائنا السنغاليين شأن الذي كتب الينا مثلاً هذه الرقعة تشجيعاً لنا وقال : « ستقوم بعمل جدير بالذكر يطلع العالم في مرة أخرى على مساهمة الجنس الأسود في تحقيق الثقافة العربية ، وعلى رغم شتى العراقيل التي تعترض عليك في سبيلك لا تألو جهداً في انجاز وعدك وتحقيق عملك الرائع ويكون عملك رائعاً لانك فاتح أبواباً جديدة للعلاقات التي تجري بيننا وبين العالم العربي وقلنا لك بالاجمال انّنا ننتظر عملك هذا بشدّة فرح وحدّة مرح » .

وعلى وجه التحقيق سأقرّ بشكري ووفائي واعجابي وصداقتي لأساتذتي الأجلاّء بالسربون وخاصّة لبروفسور روبير برنشويك الذي أراد أن يعينني بنصائحه وأن يأخذني تحت حمايته باشرافه على تحرير مقالتي هذه ، ولمّا طلب احالته على المعاش شرع زميله شارل پلا في رفع المنار بعده .

وأخيراً سيكون هذا التأليف وصولاً إلى هدف قديم واصابة مرمى وضالّة كنت أنشدها منذ زمن طويل إذ حتى الآن لم يكن أحد يهمّ بتحقيق ذلك العمل أو يهمه

(١) أعني « لوبولد سدار سنغور » رئيس الجمهورية السنغالية الذي لم يزل يشجّعني ويرسل إليّ وثائق أدبية أعطاه إيّاها بعض الشيوخ ولا سيّما المرحوم الحاجّ الفاضل البكيّ الخليفة الثاني **للمريدية** .

انتاج الأدباء السودانيّين الافريقيّين . وانّ العرب الذين هم أولى من غيرهم بأن يحلّوا هذا الانتاج محلّ الانتباه لقد ذهبوا بالحميّة القوميّة اللغويّة إلى أن الذي لا يذهب مذهب أبي الطيّب المتنبّي أو ابن خفاجة أو أحمد شوقي فلا يسعه أن يحسن الكتابة شعراً كان أو نثراً وأنّ المستشرقين ولا سيّما الأوروبيين رغم كونهم بحّاثين محبّي الاطلاع على كل شيء لقد وجّهوا جلّ حركاتهم العلمية نحو الشرق أفعلوا ذلك كي يبرّروا اشتقاق تسميتهم ؟ لا أدري ! وحملتني أيضاً هذه الغفلة والنسيان على اطلاع هؤلاء وأولائك على مقدرة الأسود العجيبة على استساغة كل طعام ثقافي واعجابه بكل مصدر جمال وحسن . واعلم أيها الأخ العربي أن السنغاليّين كانوا ولا يزالون ذوي مسامّ لكل ريح هبّت من كل ثقافة وحضارة شرقاً وغرباً .

ولأجل ذلك أبت مساهمة بلاد سنغور في الأدب العربي إلاّ أن تصير تحدّياً وضماناً أمام التاريخ . وكأن العرب نسبوا الأسود إلى العجز عن فهم ثقافتهم ، ولمّا كان الأسود قابلاً للتأثير والتأثّر وراسخاً في الأخذ والردّ أو كما قالوا في « العطاء والقبول » رفع التحدّي وارتضى بالمناظرات وكيف لا وقد جعل الله الغرب وارثاً من اليونان وقد حلّ المشرق الإسلامي محلّ بابل في أداء رسالة مثالية ، وقد وعد الأسود بأن لا يكون كاتباً مقتدراً فحسب بل شاعراً مفلقاً مهما يكن الاستعمار الثقافي الذي كابده من كل حدب وصوب وعلى مرّ الأجيال وان ذلك لوعد مهم وفذ انجزه أسود .

وعلينا أن نجعل قبول السنغالي للتأثير من قبل العرب في ميدانه الجغرافي والتاريخيّ والثقافي وهذا حثّنا على تقسيم كتّابنا وأدبائنا وشعرائنا ، بحسب مدنهم وقراهم ومبولهم التصوّفية وتعلّقهم بشيخ طريقة اعتبروه حجّة فيها والمرجع في كل أمر عظيماً كان أو زهيداً ، ولبس بحسب أغراض وفنون أدبية طرقوا أبوابها . ولمّا ذهبنا هذا المذهب واتخذنا هذا المنهج تركنا تصنيفهم على حسب التاريخ بل خطّطنا حدود عملنا ورسمنا سطور كتابنا بوجه أوضح وهذا التقسيم مع استوائه وايضاحه جعلنا قادرين على أن نستخرج من أدب السنغال باللغة العربية منظراً اجمالياً منذ نشأته في القرن التاسع عشر للميلاد حتى أيّامنا هذه .

وفي الخلاصة بعد أن أعدنا موضوعنا إلى محلّه الجغرافي والتاريخي والثقافي صنّفنا أدباءنا بحسب مدنهم ومراكز تعليمهم ومدارسهم أو كما قالوا بحسب « دارهم » أي زواياهم التصوّفيّة وكلما عثرنا على منظوم كلام صار عند مواطنينا إلى شعر أنشدوه ورتّلوه وترنّموا به وتغنّوا في حفلات ليلية لا بدّ لنا أن نلاحظه إذ قلّما جاء

مساء يوم السبت دون أن يقوموا باحتفالات يسمّونها « أغنيات دينية » يرتّلون أثناءها بعض قصائد محمد البوصيري[1] رحمه الله أو بعض أشعار شيوخ السنغال .

غير أنه قبل تأليف كتابنا هذا افتقرنا إلى البحث عن خزائن المحفوظات الوطنية والوثائق التاريخية لكل صاحب قلم واحتجنا إلى زيارة أهله وذريته أو أحفاده واستملنا القلوب امّا بدراهم واما بمحادثات طويلة تحت شجرة تمر الهندي ودرسنا كتبه واستخبرناها وطالعنا وقرأنا مؤلّفات عديدة وأطلنا النظر في صحّتها وعرفنا غثّ الشهادات من سمينها وعلمنا قصّة التاريخ الشفهي من فضّته وقمنا ببعثات إلى داخل السنغال . فلا بد للتاريخ الشفهي أن يكون عند كل محقّق ذي أمانة كثير القيمة وعلى المحقّق أن يزور أثناء تفحّصاته وبحوثه كل من هو طاعن في السن ، واعلم أيها الأخ الكريم أن الشيوخ أعني الكبار في السنّ يعدّون محفوظات حيّة لكل ما يتعلّق بشؤون افريقيا السوداء . ولله درّ « أَحْمَدُ هَمْبَاتْ بَهْ » القائل انه « كلما توفّي شيخ من الشيوخ عندنا كأنما مكتبة أُحْرِقَتْ » ! وليس أحق من هذه الملاحظة وأصدق ولكنها محزنة ومقوّية معاً وهي محزنة لأن مكتبات حقيقية ان لم تخل البلاد منها فانها لنادرة جداً ، وهي مقوّية لأنه تبقى لنا تلك المحفوظات الحية نعني الشيوخ غير ان رقّة حال المصادر هذه واضحة كالشمس في رائعة النهار وهي كمثل عيون ما عنّمت أن يتغيّض ماؤها بين عشية وضحاها ولأجل ذلك نوصي المحقّقين بتدوين نصوص رواها الشيوخ كما فعل الاخباريون شأن الأصمعي وأبي عبيدة والسكّري وابن السكّيت الذين درسوا على الأعراب في البادية لعملهم الدواوين نوصيهم به قبل فوات الأوان .

وقبل كل شيء يلزمنا أن ننبّه القارئ الكريم تنبيهاً . فإننا للمختارات والمنتخبات لموردون نعم سنورد نصوصاً شعراً كانت أو نثراً نستحسن معانيها ونعجب بأسلوبها وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه : « ان في كل كلام مقبولاً ومردوداً الخ » .

---

(١) شرف الدين البوصيري (١٢١٣ – ١٢٩٥ م) ولد في بوصير بمصر شاعر متصوف بربري الأصل محدّث وخطّاط ماهر له ديوان ، وقصيدة البردة في مدح رسول الله صلعم اشهر قصائده . ومطلعها :

« أمن تذكّر جيران بذي سلم — مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم »

وقبل أن أخذنا في التأليف باللغة الفرنسية قد ترجمنا بعض الأحيان من العربية إلى (الولفية) والنقل إذا كان نقل شعر أي نقل كلام سحريّ يؤدّي الشاعر إلى همومه واهوائه وخوفه ورجائه وسرائر قلبه ويأسه ورخيم صوت انتظاراته القلقة وآلامه وحنينه المكلوم فهو غدر وختر ! لأنه مهما تكن شدّة ما يعطفه الناقل إلى صاحب قلم ومهما تكن كثرة مفرداته ومهما يكن كمال تمكنه من اللسانين المختلفين ومهما تكن ميوله الطبيعية فقلّما وجد لفظاً يصيب وعبارة تلائم ومعنى يفي ورأياً يظهر فروق الأفكار الدقيقة لكن هذه أوصاف حسنة يجب على كل ترجمة حميدة أن تتصف بها . وفي شأنه (الترجمان) قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ما يلي : « ان الترجمان لا يؤدّي أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيّات حدوده ولا يقدر أن يوفّيها حقوقها ويؤدّي الأمانة فيها ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجريّ »[1] .

ازدادت الصعوبات كلما كان الأمر نقل شعر وينبغي إذ ذاك أن يكون هذا النقل مثل رسالة رسول صدّقها قومه ومثل تخيير بين العبودية والحرية ومثل شريعة تؤدّي إلى موارد بها ينفجر الماء صعداً ومثل فكرة تسير بالناقل إلى أوّل خاطر الأديب أي مثل « مشاركة » على طريقة أخرى فهو أيضاً مثل مغامرة وكل من أوغل فيها فكأنه سافر بحراً وهو منفرد بلا خارطة له ولا نجمة .

وان نلق عرق القربة وان يكن أمرنا كثير المصاعب وان تكن الشجيرة ذات أشواك فهل ينبغي لنا أن نرتدّ على أعقابنا ونرجع القهقرى وان نحجم عن قطف الورد ؟ كلاّ !

وجدير بالذكر أننا قمنا بقطف هذه الزهور وتأليف هذا الكتاب لأن أسرتنا اشتهرت بعلمائها وكلفها بالدراسة وتمسكها بكتاب الله واتباعها سنة نبيه صلعم ولأجل تهذيب الأهل ايّاي بمبادئ الإسلام وتعليمهم ايّاي مكارم الأخلاق . وقد ولدنا ونشأنا راضعين لبن الثقافة الإسلامية والعربية بين أظهر مؤمنين مرتّلين آيات قرآنية أو مترنّمين بقصائد دينية في الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفّس . ولقد عاشرنا اللغة

---

(١) انظر إلى الروائع ١٨ صفحة ٣٧ بقلم فؤاد افرام البستاني ، منشورات الآداب الشرقية بيروت ١٩٤٢ .

العربية ومارسناها مدّة عشرين سنة ، وليس هذا عبارة عن أننا أحطنا بكل شيء من هذه اللغة وهيهات أن يعوزنا التواضع بهذا المقدار ! لكنه بقلّة معرفتنا لها يمكننا أن نشير إلى أعلى قيمة بعض نصوص مختارة سواء في الشعر أم في النثر يستطيع الأدباء السنغاليّون أن يجعلوهـا زاداً كافياً لهم في سبيل يؤدّي بهم يوماً ما إلى أسواق عكاظ عصرية يحضرها الشعراء العرب ويتناشدون بها ما أحدثوه من القريض !

وألّفنا أخيراً هذا التأليف خدمة لأمّة السنغال ونفعاً لتاريخها وافادة للعرب وثقافتهم .

وقبل أن نختم هذه التوطئة فلنعترف بأننا أكثر وعياً بما هو ناقص من كتابنا وانه لعزيز علينا أن نبدي رأياً نهائياً ونتمنّى لو ساهمنا في تحريض بحّاثين آخرين على القيام بدراسة خاصّة لكل أديب سنغالي ليعرفوا وليعرّفوا أدب بلاد (لَتْجُورْ) بالعربية حقّ المعرفة .

والله نسأل أن نكون قد وفّقنا إلى ما أردنا ، وهو وليّ التوفيق .

عامر صمب

النطاق الجغرافي للسنغال

انّ لبلاد السنغال في اجمال الكلام شكلاً مثلّث الأضلاع وان كانت صورة شبه جزيرة العرب مربّعاً منحرفاً فلماذا تخجل سنغال من شكلها المثلّث ؟ والسنغال قطر يقع بين ١٢ درجة و ١٨ دقيقة و ١٦ درجة و ٤١ دقيقة في العرض الشمالي من جهة وبين ١١ درجة و ٢١ دقيقة و ١٧ درجة و ٣٢ دقيقة في الطول الغربي لكرنوتش من جهة أخرى ، وبلغت مساحتها ١٩٧ ١٦٧ من كيلومترات مربّعة . ويتاخم السنغال البحر المحيط الأطلنطكي غرباً ويفرّق النهر « السنغال » الذي يعطيها اسمه بينها وبين الجمهورية الإسلامية الموريتانية شمالاً وتتاخمها الجمهورية المالية شرقاً وتحدّها الجمهورية الديمقراطية الغينية و « غِينَيا بِسَاُو » جنوباً .

ومن البحر المحيط دخل في سنغال قطر شكله مثل اصبع القفّاز طوله ٣٠٠ كيلومتر وعرضه ٣٠ كيلومتراً واسمه « غامبيا » التي كانت مستعمرة للانكليز بينما كانت سنغال مستعمرة لفرنسا لكنه لا فرق من الطبيعة ولا من السكّان ولا من أسباب المعاش . وسنغال بلاد سهول الاّ أننا نجد رأساً عالياً بركانياً تقع فيه « دَكَارْ » و « الرأس الأخضر »[1] ثم تلال رمل على شاطئ البحر من « دَكَارْ » إلى « اَنْدَرْ »[2] ثم ثنايا بمدينة « جيِسْ » وثم سلسلة جبال أولى ملاصقة لسلسلة جبال أكبر منها ويقال لها « فُوتَا جَالُنْ » من جهة « كيدغ » .

وللسنغال أيضاً أراض متنوّعة جداً لأنّ أنهار « سنغال » و « سِينْ » و « سَالُمَ » و « غَامْبِيَا » و « كَاسَمَنْسَا » قد زوّدت البلاد بغرين ردغة أو بسبخة ونجد في شمالي الغرب بقعة ممزوجة بحديد وفي جنوبي الغرب أنجاداً مخلّطة بحديد يسمّى « لَترِتْ »[3]

---

(١) أي في الفرنسية : Le Cap-Vert .

(٢) أنْدَرْ هي مدينة كانت أوّل عاصمة لسنغال وهي واقعة على مصبّ نهر « سنغال » وقد سمّاها الفرنسيون « سَانْ لُويِسْ » .

(٣) اسم فرنسي (Latérite) .

وفي الوسط والجنوب سهولاً فيها رمل و « لَترِتْ » وفي « كاسمنسا » ربى فيها حديد في جنوبي الغرب أيضاً منضّداً وصوّاناً أو غريناً بردغة .

ومن أعلى سلسلة جبال « فوتا جالّن » – ذلك القسطل لافريقيا الغربية — فار نهرا « سنغال » و « غامبيا » وبلغ طول نهر « غامبيا » ٨٥٠ كيلومتراً ويجري في سنغال نحو ٦٧٨ كيلومتراً ثم يتّسع في مصبّه ، واما نهر « سنغال » فطوله ١٧٠٠ كيلومتر وهو ينفجر بين « دَلَب » و « مَمَ » فسمّوه هنا « بَفنْغَ » ثم ينصبّ فيه واد اسمه « بَكُيْ » بمدينة « بَقْلَب » .

وقد تزخر « بَكُيْ » بوادي « بُوْلْ » وفي « جغنتر » انصبّ في نهر « سنغال » جدول اسمه « فَلاَمى » طوله ٤٠٠ كيلومتر وصار حداً يفرّق بين سنغال ومالي في الشرق ومن هنا توجّه نهر « سنغال » نحو الغرب وقبل وصوله إلى البحر يتولّد منه بحيرة « غبيرْ » وبعض مغايض وجزيرة « العَاج » وبعد عبوره مدينة « أَنْدَرْ » بسبعة وعشرين كيلومتراً ينصبّ في الأطلنطكي وعلى رغم حاجز رمل يمنع البواخر الكبيرة من الدنوّ من الشاطئ طالما صار نهر « سنغال » أهمّ طريق تؤدّي إلى داخل البلاد شرقاً ومع ذلك بقي صالحاً للملاحة من « اندر » إلى مدينة « كاي » بمالي عند مدّ مياهه ومن « أَندَرْ » إلى مدينة « بُدُوْرْ » عند جزر مياهه .

وزيادة على هذين النهرين (سنغال وغامبيا) يروّي البلاد نهر « سَالُمْ » الذي يزخر بوادي « سِيْن » وطوله ١٣٠ كيلومتراً وهو صالح للملاحة من مصبّه إلى مدينة « كولخ » على نحو ١٢ كيلومتراً ويروّي البلاد أيضاً نهر « كاسمنسا » في الجنوب وطوله ٣٠٠ كيلومتر .

وأما ما يتعلّق بالمناخ فاعلم أيها الأخ الكريم اننا نتمتع في المنطقة التي وقعت في جنوبي الصحراء بمناخ قاريّ كاد أن يكون معتدلاً بقرب من البحر وتنقسم السنة إلى فصلين : فصل أمطار من حزيران إلى تشرين الأول وفصل يابس لما بقي للسنة من أشهر . في كانون الثاني دلّ المجرّ على ١٨ درجة على الأقلّ وعلى ٢٥ درجة على الأكثر في « دكار » وفي « اندر » يدلّ الطقس على ١٥ درجة على الأقلّ و ٢٧ درجة على الأكثر ثم في شهر أيّار يستطيع الطقس أن يبلغ ٣٠ درجة في

شاطئ البحر أو ٤٠ درجة في منطقة الساحل أو ٣٤ درجة في المنطقة السودانية أو ٢٨ درجة في « كاسمنسا » .

أيها القارئ الكريم لو زرت منطقة شاطئ البحر لرأيت أعشاباً وشجيرات وغابات من « بَاوُبَابْ » وشجيرات للتمر الهنديّ وفربيون وطلح ، بينما بقيت المنطقة الداخلية مغطّاة بسباسب ذات أشواك أو بشجيرات داسية وشجر صمغ وشجر « قَيْ »[1] وشجر « رُوْن »[2] ولرأيت أيضاً حقولاً من فستق ودخن ، ولو سرت إلى الناحية السودانية لشاهدت كثيراً من غابات كثيفة جداً وسباسب فيها خيزرانات وشجر « رُوْن » ورافية ، ولو وافيت « كاسمنسا لفتنك فيض من نباتات ؛ إذ فيها ينتشر نخل الزيت وحقول الأرز .

أتجاوزنا الحدّ في قولنا ان في كل مكان حقول فستق تزرع ؟ كلاّ ! وان لم يكن في ساحل البحر حيوانات فان داخل البلاد و « كاسمنسا » لم يزل يسكنها الأسد والوبر والهر الوحشي والضبع وابن آوى . وفي كل مكان نجد القرد والهلوف
يكن في ساحل البحر حيوانات فان داخل البلاد و « كاسمنسا » لم يزل يسكنها الأسد والوبر والهرّ الوحشي والضبع وابن آوى . وفي كل مكان نجد القرد والهلوف
والفار والحية والضب والحرذون . فتستطيع أن ترى الفهد والتمساح في « كاسمنسا » وكذلك « نِيُوكُولُوكُوبَا » حديقة الحيوانات الموجودة في جنوبي البلاد ، وهي الآن جنة للسيّاح .

ويسكن السنغال أنواع من الطير مثل النعام والبجع والبوم والباشق والنسر والرخم والقطا . ويالالاسف ربما زارها أضياف غير المرغوب فيهم نعني الجراد تلك الآفة لكل نبات يعترض في طريقه . والشاطئ السنغالي هو من أكثر العالم سمكاً فمن « دَكَارْ » إلى « اندر » يصيدون « سَرْدِينْ » وسمك المرجان وسمك موسى وسمك اللما وهلم جرّاً . ومعلوم ان محار « زغنشور » واربيانها وجراد البحـــر

---

(١) هو ما يسمّيه الفرنسيّون « كَاْيسدرًا » وهو شجر عال ذو خشب صلب .

(٢) هو شجر يشبه النخل وله أثمار ذات لبّ حلوة تؤكل .

والسلحفاة لمشهورة . وفي سنغال أيضاً يربّى الحمار والفرس والمعز والغنم والبقر وغيرها . وأما الجمل فانه يأتينا من موريتانيا .

وتنقسم البلاد إلى ثماني مناطق جغرافية ، ولكل منها تاريخها الخاصّ ففي الشمال تقع « فُوتَ طُورُو » وفي غربيها تقع « وَالُو » . ومن مصبّ نهر « سنغال » إلى « الرأس الأخضر » ومن البحر الأطلنطكي إلى بيداء « فِيرْلُو » نرى أقطار « جُلُفْ » و « كَجُورْ » و « بَوُلْ » . واما المنطقة السودانية الغربية فانها تضمّ كلّاً من « سِينْ » و « سَالُمْ » و « ربْ » بينما تتألّف « كَاسَمَنْسَا » من أرجاء « فُونِ » و « فُولُبْ » و « جَانِ » و « وُلْ » و « فُولاَدُو » و « غَامْبِيَا » الوسطى . وفي شرقي « كَاسَمَنْسَا » تقع « بُنْدُ » و « غُيْ » في نهر « سنغال » الأعلى .

وأخيراً نجد في الجنوب الشرقي السلسلة الأولى من جبال « فُوتَ جَلُّنْ » ووادي « غَامْبِيَا » الأعلى .

باب شعوب سنغال

وان شعب « وُلُفْ » لأكثر عدداً من جميع شعوب البلاد السنغالية إذ يبلغ عدده على الأقلّ ١٥٠٠٠٠٠ نسمة . واعلم ايها القارئ الكريم ان عدد سكّان السنغال يناهز أربعة ملايين ، فلغة شعب « ولف » أوفر انتشاراً في الأمة السنغالية ، فالولفيون يسكنون نواحي « وَالُو » و « جَامْبُرْ » و « كَجُورْ » و « بَوُلْ » وغربي « جُلُفْ » ثـم أهـم مـدنهم هي « أَنْدَرْ » و « لُوغَ » و « سَكَلْ » و « كِبمِيرْ » و « تِوَاوُونْ » و « جِيسْ » و « طُوبَى » و « جُرْبِلْ » . ويشتغل أكثرهم بالزراعة والتجارة والصناعة ويسكنون بيوتاً من عشب أو طين شكلها مربّع الزوايا ويعلوها سقف مخروطّي الشكل ، وفي الأرياف تؤلّف أكواخهم مربّعات أي « اقطاعاً » وتكوّن هذه الاقطاعات قرية في وسطها فناء فسيح مزيّن حتماً بشجرة محادثات ومسجد .

أما مجتمع شعب « وُلُفْ » فهو متألّف من الأعلى إلى الأسفل من طبقة الأحرار ثم من طبقة طوائف تعيّنها وتميّزها حرفها ، ثم من طبقة الرقّ . وتنقسم الطبقة الأولى إلى الأشراف ورؤساء الدين والفلاحين . ويطلق عليها الولفيّون اسم « جَامْبُرْ » أي من لا يعنيهم شيء . والطبقة الثانية اسمها « جِيجُ » أي كل من له حرفة كالحدّاد

والقوّال . أما القوّالون فهم مؤرّخون ومغنّون وعازفون ونسّابون . واما لفظ « جَامْ » فهو اسم يطلق على الأسرى والسبايا والأرقّاء من الذكور والاناث .

وبجانب شعب « وُلُفْ » ترى شعب « فُلاَنْ » الذي يقطن في بيداء « فِيرْلُو » وفي شرقي البلاد . فاليك صورة الفلانيين قد رسمها سنة ١٨٨٣ للميلاد / ١٣٠٠ للهجرة (كابتين جك سلّ) في مقالة تاريخية عنوانها « الفرنسيون في سنغال » قال فيها : « اما الفُلاَنِيُّونَ فشعب رجال لونهم ضارب إلى الحمرة عادت ملامحهم تشبّههم بالأروبيين وشعرهم يشبه الصوف أو يكاد ، وهم ذووذكاء بالكفاية وقابلون للثقافة . وهم أوّل من اعتنق دين الإسلام ، وقد أسّسوا دولة قويّة مثل دولة « حَوْصَا » ودولة « مَاسِينَا » ودولة « فُوتَا » بسنغال ودولة « بُنْدُ » ودولة « فُوتَا جَلُّنْ » ، ويلعبون اليوم (أي في سنة ١٨٦٤ م) نحو سائر الشعوب السودانية التي يجاورونها دور من دعا إلى الإسلام بالسلاح وقد إنتشروا في افريقيا المتوسّطة كلها حيث تظهر أعمالهم متفوّقة اليوم ، فان الفلانيين مطبوعون على عيشة الرعاة وكل من أسّس دولة منهم يتعاطى الفلاحة وكلما امتزجوا بالسودانيين الآخرين تفوّقت ميولهم في الزراعة » .

وامتزج هؤلاء الرعاة بشعبي « وُلُفْ » و « تُكُلُورْ » في « غامبيا » وفي « كَاسَمَنْسَا » العليا بالقرب من « فُوتَ جَلُّنْ » . وتظهر ملامحهم معتدلة بقدر كاف إذ يتموّج شعرهم وشكل وجوههم بيضيّ وأنفهم أقنى ولون بشرتهم ضارب إلى البياض .

وأما مجتمعهم فينقسم إلى طبقات يتميّز بعضها من البعض بالحرف . وان لغتهم يتكلّم بها أيضاً شعب « تُكُلُورْ » الذي يتأثّر في ملامحه بالبيضان الموريتانيين والفلانيين . ويسكن التكلوريون منطقة تقابل في الاجمال مملكة « تِكْرُورْ » القديمة وهي تقع بين مدينتي « بَاكِـلْ » وَ « دَغَنَ » على شاطئ النهر السنغالي . وانهم يشبهون الولفيين خلقاً فيشتمل نظام مجتمعهم على ثلاث طبقات وهي : طبقة « طُورُوبِ » أي طبقة الأشراف وأهل القلم وطبقة الفلاحين والصيادين وطبقة أهل الحرف والمهن .

وفي غربي منطقة « جيش » وفي منطقة « سِينْ » ومنطقة « سَالُمْ » وفي أطراف جنوبي الغرب لبيداء « فِيرْلُو » يقطن شعب « سِيرِيْر » ، وهو لا يختلف عن شعب « وُلُفْ » بكثير بينما يسكن شعب « مَنْدَنْغَ » على ضفتي « غامبيا » ويسكن شعب « سَرَخُلاَ » نواحي مدينة « بَكِـلْ » وفي منطقة « غُيْ » على ضفتي نهر « السنغال » وأما شعب « جُولاَ » فانه يقطن في « كَاسَمَنْسَا » السفلى وفي جنوبي « غامبيا » .
وانه لغني عن البيان ان نذكر أن البيضان الموريتانيين يعيش كثير منهم في السنغال حيث يتعاطون التجارة بالتفصيل ، وقد امتزجوا بالولفيين والفلانيين منذ بدء التاريخ بمحالفات وبيع وشراء وبغزوات في شاطئ النهر الأيمن وبدعاية دينية إسلامية . ألا نطرق باب التاريخ عن طريق هذه المحالفات ؟ بلى !

باب النطاق التاريخي

اعلم قارئي الكريم أن تاريخ سنغال يجب علينا أن نجمعه في ثلاثة مراكز : في مركز الممالك الأصلية وفي مركز تأصيل الإسلام في البلاد وفي مركز الاستعمار الفرنسيّ . أما النقطة الأولى فقد عقدوا لها دراسات تعتمد على مصادر مكتوبة وعلى روايات شفهية ، وان هذه المصادر لكثيرة غير أنها تثير مشاكل يضطرب بها البال لأجل قلّة الوثائق المكتوبة من جهة ولزخرفة الروايات الشفهية الممزوجة بالأساطير من جهة أخرى فالحقّ يقال ان لكل أمّة تأريخاً تلقاه أسطورة في بدء تكوينها .

ولو رجعنا إلى عهد سحيق في ماضي سنغال لم نجد الا ممالك متفاوتة في درجات الاستقلال لكن بعضها كان تحت حكم دول سودانية مثل بلاد غانا التي ضمّتها أيضاً إلى حضانتها مملكة تكرور ومملكة بمبك ومملكة بوصيّا . فكان موقع الممالك هذه على شاطئ نهر « السنغال » من الغرب إلى الشرق .

وفي « فُوتَ طُورُ » قدّمت لنا الروايات الشفهية تاريخ هذا القطر على خمس مراحل :

أوّلاً : مرحلة الفلانيين الذين جاءوا من الشرق مع « جَاُوُوبِي » فدامت دولتهم من ٩٣٤ إلى ١٥٣٤ م .

ثانياً : مرحلة « سَلْتِغ » الذين دامت دولتهم من ١٥٣٤ إلى ١٧٧٦ م .

ثالثاً : مرحلة « أَلْمَام » [1] الذين دامت دولتهم من ١٧٧٦ إلى ١٨٨١ م .

رابعاً : مرحلة الفوضى التي دامت من ١٨٨١ إلى ١٨٩١ م .

خامساً : مرحلة الاستعمار التي دامت من ١٨٩١ إلى ١٩٦٠ م .

وأما دولة « جُلُفْ » التي أسّسها « اَنْجَاجَانْ أَنْجَايْ » في القرن الثالث عشر للميلاد فكانت تضمّ دول « جُلُفْ » بالمعنى الدقيق و « وَالُو » و « كَجُورْ » و « بَوُل » وقطر « سِيرِيْر » وجزءاً كبيراً من « فُوتَا طُورُ » ، ثم جاء انقضاؤهـا حـوالي ١٥٥٥ للميلاد فصارت كل دولة مستقلّة ومنقسمة إلى ايالات وقرى يعيّن الملك ولاتها ؛ إذ كان لكل دولة ملك له لقب خاصّ وهكذا كان « بوربا » لقب ملك « جُلُفْ » و « دَمِيلْ » لقب ملك « كَجُورْ » و « تِينْجَ » لقب ملك « بَوُلْ » و « بُورْ » لقب ملك « سِينْ » و « سَالُمْ » وَ « بَرَكْ » لقب ملك « وَالُو » .

وأما « كَاسَمَنْسَا » فاسمها مشتقّ من اسم ملك جبّار من قبيلة « بَيْنُكْ كَاسَّا » الا وهو كاسمنسا . وأول من استولوا على ذلك القطر هم بنو قبيلة « بَيْنُكْ » وخلفهم أهل « جُولاَ » الذين امتزجوا بشعب « سِيرِيْر » في « كاسمنسا » السفلى ثم جاء بعدهم الفلانيون ثم شعب « مَنْدَنْغ » ثم شعب « تُكْلُورْ » ثم قبيلة « بَالَنْتَ » في « كَاسَمَنْسَا » العليا والوسطى .

وخلاصة القول ان الطبيعة قد جادت على بلادنا بمناظر رائقة ، وبسباسب شقراء ، وبديس وبراريّ شعراء موشّاة بغاب « بَاوُبَابْ » بدينة بطينة ونارجلات باسقة و « رُونِيَات » باذخة ، كما جادت عليها بحيوانات كثيرة . وأما سكّانها فنبسطون للغاية ، وكانوا ولا يزال بعضهم لحدّ الآن على المذهب النفساني ، فمعتقداتهم أقاموها على أسرار وعلوم خاصة . وفي تاريخهم تسير الأسطورة بجانب الحقيقة بجرأة ونشاط ولكنه عكّر صفوهم منذ عهد بعيد دين جديد ألا وهو الإسلام .

---

(١) أي مرحلة الأئمّة لأنّ « أَلْمَام » هو تشويه الأسم العربي « الأَئِمَّة » جمع إمام .

باب الإسلام وبلاد سنغال

وعلى قول مؤرّخي بلاد السنغال الذين قد كتبوا بالعربية يرجع عهد دخول دين الإسلام في وطنهم إلى أيام بلوغ جنود عقبة بن نافع ـ رضي الله عنه ـ شاطئ نهر « سنغال » . فكان تحت قيادته أخذ العرب في قهر البربر بالقوة ولكن قتل عقبة في الصحراء سنة ٦٨٣ م .

فواصل العرب مع البربر فتحهم شمالي الصحراء فمروا بسجلماسة وزم وذهبوا نحو افريقيا السوداء بوادي السنغال ونحو أودغست مملكة البربر الواقعة في شمالي الشرق لنهر السنغال وكانت بلاد التكرور وهي مملكة زنجية تحت سلطة أودغست ـ وليست عاصمة التكرور ـ بعيدة من قاعدة بدور .

وفي كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد عبدالله البكري القرطبي المتوفى عام ١٠٩٤ م جاء ما يلي : وبعد صنغانة بين الغرب والقبلة على النيل مدينة التكرور وسكانها من السودان الذين كانوا في الزمن القديم مجوساً كسائر أهل بلاد السودان ويعبدون الدكاكير وهو جمع دكور بمعنى الصنم وسار الأمر هكذا إلى وارجابي بن ربيس الذي صار ملكهم فأسلم وأدخل الشريعة عندهم وجعلهم قائمين به بعد أن فتح أعينهم على الحق ثم توفي وارجابي في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة للهجرة (الموافقة لسنة ١٠٤٠ م) وأهل التكرور هم على دين الإسلام اليوم .

ولهذا النص ثلاث أهميات وأولاها أنه دل على موقع هذه المملكة إذ كانت عاصمتها واقعة على ضفتي نهر السنغال وثانيتها انه أعلمنا اسم الملك الذي كان أول من نشر الإسلام في مملكة تكرور وثالثتها انه أخبرنا عن تاريخ وفاته أي سنة ١٠٤٠ م

لقد ذهب السيد Pathé Diagne إلى أن سماّه بوارجابي انجاي وقال السيد Félix Brigaut ان وارجابي كان مؤسس دولة مانة وأول من دعا إلى الإسلام أهل تكرور وقتل ملكهم الذي انتسب إلى قوم جاوغو وهم جاءوا من عكة بالشام على حد قول (سير عباس سو) .

ومهما يكن من الأمر فان تاريخ وفاة وارجابي دلّ على أمرين أولاً اعتنق الملوك ورعاياهم الإسلام وثانياً قد نشر دين الإسلام عند أهل السودان قبل فتح المرابطين حتى وقبل ان صارت مملكة التكرور تحت سلطة امبراطورية غـــانة (من ٧٩٠ إلى ١٠٧٦ م).

ومن المعروف أن مملكة أودغست بلغت قمة مجدها بين ٩٦١ م و ٩٧١ م وان الإسلام قد نشر فيها في القرن التاسع للميلاد وان غانة التي وصلت إلى ذروة مجدها سنة ٩٩٥ م قد نقضت طاعة أودغست عام ٩٩٥ م وان أهل غانة لم يزالوا يعبدون الأصنام ولكن كان ملكهم المسامح تاركاً المسلمين يبنـــون مساجـدهم وجوامعهم.

وبأهل الرباط (من ١٠٤٠ م إلى ١١٤٧ م) زاد الإسلام المجاهد نشاطاً وحمية وفي عام ١٠٣٤ م رجع يحيى بن ابراهيم من الحج وذهب بعبدالله بن ياسين وبربر قبيلة صنهاجة إلى رباط واقع في جزيرة لنهر السنغال في سنة ١٠٤٠ م ولما خرج المرابطون من خلوتهم ورباطهم متحمسين وشاكي السلاح ابتدأوا فتوحهم الملحمية سنة ١٠٤٢ م. وبعد أن خلف يوسف بن تاشفين يحيى بن ابراهيم أسس مراكش سنة ١٠٦٣ م وذهب يفتح مدينة فاس في عام ١٠٦٩ م. فاستحضره ملوك الطوائف فهزم الفونس ملك ليون وقشتالة ولم يقف إلا في جبال البرانس Pyrénés بعد فتحه اشبيلية عام ١٠٨٧ م وفي الوقت الذي كان يوسف بن تاشفين يخلع أمراء المغرب الأقصى وملوك الطوائف في الأندلس والملوك المسيحيين في اسبانيا، وكان عمه أبو بكر بن عمر سيد المرابطين في موريتانيا يغزو امبراطورية غانة ولكنه قتل في ادرار. فطالت الحروب أربعة عشر عاماً فانقضت غانة دولة (سرخلي) سنة ١٠٧٦ م فصار الإسلام يتغلغل في غربي بلاد السودان تغلغلاً حقيقياً رسمياً فدخل في الإسلام أهل سرخلي وتكلور وجلاوسنغاي هذا بسيف المرابطين واتباعهم الموريتانيون. فزادت فوت تورو ايماناً بدين الإسلام. وفوت تورو هذه هي مملكة التكرور القديمة التي كان جزء منها واقعاً في شمالي نهر السنغال ولما كان بربر لمتونة ثم بربر صنهاجة عموماً ثم تكلور مسلمين نشر الإسلام الموريتانيون والسودان في سائر ممالك السنغال تقريباً.

فتدرج الدين الإسلامي في تغلغله بالقوة والتجارة وتعليم العرب الأجانب الذين كان الأمراء المسلمون يدعونهم إلى بلادهم لاحماء وطيس ايمان رعاياهم البارد . فان قدرة دين الإسلام على أخذه بصبغ عوائد كل مكان وزمان قد سهلت دخوله في بلاد السودان .

ولم تكن الوثنية حاجزاً حقيقياً لتدرج الإسلام في تلك البلاد كيف لا ولقد جاء في كتاب عنوانه « المساهمة في دراسة الإسلام الأسود »[1] ما نصه : « فان هناك رسوماً متشابهة من كل أنواع في الإسلام والوثنية السوداء حتى جعلت هذه الوثنيين مائلين طبعاً إلى دين النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن المعروف أن المرابطين أدخلوا الإسلام الصوفي أول مرة في السنغال وانهم قد أسسوا طريقة مجاهدة سياسية دينية وان التصوف باطن متسرب في أسرار حقائق الدين مشتاق إلى معرفة كنه هذه الحقائق وان للتصوف درجات من المريد إلى شيخه ونظرية مشوبة بمبادئ أهل السنة وتعاليم مذهب مالك بن أنس وتأويلات شيخ الطريقة الصوفية وان كل هذه الصفات والميول لاءمت بين الإسلام ونفسية كل جنس وقوم ولا سيما قوم السنغال منذ عهد بعيد .

وان آمنت هذه النفسية السنغالية بقوى الطبيعة الباطنة وبوجود أشياء عاقلة مثل أشجار وأحجار وبقدرة فوق العادة لبعض بني آدم الأحياء شأن الكهّان والسحَرة وبحياة بعض أجداد موتى فانها آمنت أيضاً بقدرة إله واحد وآلهة متوكلة بأمر هذا الاله الواحد في الأرض . وينبغي لنا أن نلاحظ أن تلك النفسية نفسية مجتمع متألف جد التألف من أسر وأرهط وبطون وقبائل مائلة إلى معرفة أسرار كل حقيقة الأشياء لتربيتها وتهذيبها .

والدليل على ذلك هو أن نتدبّر جميع الاحتفالات التي قامت بها طبقات لـدات وجمعيـات سريـة . ورعـايـا ملوك البلاد مثل (بَرَكْ)[2] و (دَمِيلْ)[3]

---

(١) Contribution à L'Etude de L'Islam noir, par Marcel Cardaire, Ifan, Bamako,1949.

(٢) كان بَرَكْ اسماً اطلق على ملوك مملكة وَالُوفِي في السنغال في الزمن القديم .

(٣) كان دَمِيلْ اسم ملوك مملكة كجور .

و (تِينْجَ) [1] و (بُورْ) [2] حين تولى هؤلاء أمور بلادهم فلا شكّ في أنّ الذين يدعون اليوم مشايخ الدين منهم من لا يزالون قائمين مقام سفر العهد القديم .

والحالة هذه ، وجد الإسلام موضعاً مواتياً لنموّ الطرائق الصوفية في السنغال ولما طال الأمر على السنغاليين صارت شعائر الإسلام مشوبة بشعائر ما بقي من الوثنية القديمة فتغيرت فكدر صفوها حتى لا تعرف أو كادت .

فأنجب هذا الكدر مصلحين مضطرين في أكثر الأحيان إلى الجهاد في سبيل الله لاسترجاع صفو شعائر الإسلام الأولى فظهر سُلَيْمَانْ بَالْ وعبد القادر [3] في « فُوتَ تُورُو » المتوفى في ثُرِيكِه سَمْبَجُمْ سنة ١٨٠٥ م وَدِيلِهْ جَامْ الحداد الجَامْبُرِيّ في والو القتيل في عام ١٨٣٠ م والحاج عُمَر تَالْ (١٧٩٦ م – ١٨٦٤ م) خليفة التيجانيين في غربي افريقيا ومَابَهْ جَخُ (١٨٠٩ م – ١٨٦٧) في رِيبْ وسَالُمْ ومحمد الأمين دِيَاسُهْ في أعلى نهر السنغال وكانوا كلهم مجاهدين وكل منهم أخذ السيف لنشر الإسلام فجاء بعدهم مشائخ الطرقية الصوفية كالحاج مالك سِهَ والشيخ أحمد بَمْبَهْ البَكِيِّ (١٨٥٣ – ١٩٢٧ م) .

فاقتصر هؤلاء المشايخ على تأسيس طريقة صوفية وتعليم الشريعة وعلوم دين الإسلام في أيامهم وهؤلاء المجاهدون الأولون الذين يريدون اقامة مملكة أو امبراطورية وقد أقاموها كان يكافحهم قومهم أولاً والفرنسيون ثانياً .

الإستعمار الفرنسي

ومن حسن حظ مؤرخ فتح فرنسا بلاد السنغال ان كانت له شتّى مآخذ وهي وثائق ومعاهدات ومراسلات ودراسات وكتب وهذه المستندات هي أول اتّصالات

---

(١) كان تِينْجَ اسم ملوك مملكة بُولْ .

(٢) كان بُورْ اسمَ ملوكِ مملكتي سِينْ وسَالُمْ .

(٣) كان عبد القادر أولَ أئمة فُوتَ تُورُ بعد انتفاض دولة دَانِينْكُوبِ قد قتله الموريتانيون الغزاة .

البحارة الأوروبيين بنهر السنغال في كَنْجُولْ[1] إلى سنة ١٤٥٠ م وفي أيام هنري الثاني (١٥١٩ م - ١٥٥٩ م) بين فرانسوا الأوّل وتوما لمبيرت الجبيي[2] أسس أوّل موضع للتجارة في السنغال في عهد ريشيليو (١٦٠١ م - ١٦٤٢ م) ثم بنى لوغولِيَهْ أول حصن في أيام كَلْبيرْ في جزيرة سَانْ لُويِسْ[3] فسميت الجزيرة تجليلاً باسم الملك الفرنسيّ لويس الرابع عشر (١٦٣٨ م - ١٧١٥ م).

وحين الحرب التي دامت سبعة أعوام (من ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ م) بين فرنسا والنمسا من جهة وروسيا وانكلترا وبروسيا من جهة أخرى صارت جزيرة سَانْ لُويِسْ ملكاً للانكليز عام ١٧٥٨ م ولكن غزاها لُوزَنْ Lauzan وردّها إلى فرنسا فأقام أميراً عسكرياً في الحصن وأول أمراء سان لويس هو أَنْدرِ بْرو André Brué في سنة ١٧٠١ م وكان مديراً للشركة الملكية في السنغال وأقامها في طرف الجزيرة الشمالي ولمّا قامت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ م حذفت فوائد الطبقة النبيلة وبيع الارقاء السود والاحتكارات وألغت أيضاً الشركة الملكية. فتولى الأمير بلانْشو Blanchot أمر الجزيرة إلى وفاته عام ١٨٠٧ م فأخذت انكلترا الجزيرة بعد عامين وقد حاصرتها مدّة سنوات عديدة بأسطولها.

وفي سنة ١٨١٦ م أرسلت فرنسا حملة لاميدُوزْ La Méduse لاسترجاع الجزيرة فرجحت معاهدات فينا Vienne بسان لويس إلى فرنسا وغرق سفينة لاميدوز مشهور جداً وفي الحقّ لم يردّ الانكليز الجزيرة إلا في عام ١٨١٧ م ومن سنة ١٨١٧ إلى عام ١٨٢٦ م حاول الأمير بَارُونْ رُوجِي Baron Roger زراعة بعض أشجار فرنسية في شمال السنغال فأخفق في محاولته. ومن سنة ١٨٢٦ م إلى عام ١٨٥٤ م أخذت صعوبات وحروب تجري بين فرنسيّي الجزيرة والقبائل المجاورة فلنذكر أن بيع الارقاء السود قد ألغي عام ١٨٤٨ بعد ابتداء غزوة ضروس على من كانوا يستمرون في تجارة السّود في عام ١٨١٩ م

---

(١) هي منطقة مصبّ نهر السنغال في ناحية وَالُو.

(٢) Thomas Lambert Le Dieppois

(٣) سمّاها السنغاليون أَنْدَرْ.

وفي سنة ١٨٥٤ عيّنت فرنسا جنرالْ فيدرْبَة Faidherbe أميراً للجزيرة فبدأ استعمار بالقوة ففتح فوتَ تورو و والو وكجورْ و سينْ . ولم يفتح هذه البلاد دونا مقاومة طاحنة ذلك ان اضطر فيدربَة إلى أن لقي في طريق فتحه السنغال في شتى غزوات مستحرّة المشائخ المجاهدين حاملي لواء الإسلام وملوك البلاد .

وفي سنة ١٨٥٥ غلب فيدربه على مَبْنة نينده دميلْ الثالث والعشرين في حرب حضري Niomré سنة ١٨٥٥ وعلى مكودُ دَميلْ السادس والعشرين ولكنهم قد أبلوا بلاء حسناً وقاوموا مقاومة الأبطال فان دَميل بِرَاهيمَ مثلاً قد هزم جيش فيدربة أول مرة وهزمه مرة ثانية في جنةْ Diati ولكنه انهزم أخيراً وخلع في مدينة أمْبلْ M'Boul [1] .

ولا ريب في أن دَميلْ لَترجُورْ جُوبْ Latir Dior Diop (١٨٤٢ م - ١٨٨٥ م) كان عدوّاً ألدّ لفيدرْبَة . وكان برأس الحزب الوطني وهو ابن سبعة عشر عاماً وقد دلّت هذه السنوات أي ١٨٦٢ و ١٨٦٣ و ١٨٦٤ و ١٨٧١ و ١٨٧٥ و ١٨٨٢ و ١٨٨٣ على أهم مراحل سيرته الملحمية إلى أن توفي في عام ١٨٨٦ م ومع عَلْبُرِ أنجايْ Alboury N'Diaye المتوفى عام ١٩٠٢ م . كان لترجور جوبْ المثل الأخير للسلطان الأهلي وهو من الأبطال السنغاليين الذين أحيت الجمهورية الناشئة ذكراهم إحياء تعظيمياً .

ونشر الإسلام وإيقاظه من سباته نجم بعض مجاهدين في السنغال فلنذكرن وارجاني سليمانْ بالْ وألمَام [2] عبد القادر والحاج عمَرْ وديلةْ ومَابَة جخـة وأحمدْ شيخ التيجاني القتيل في معركة ساحة بلاد ينغو عام ١٨٧٥ م وهلمّ جرّاً وقد جاهدوا كلهم لأمرين : أحدهما كانوا يرغبون في احياء الايمان بالإسلام الفاتر والثاني كانوا يريدون جبار الوثنيين في بلادهم على اعتناق الإسلام أمـ

---

(١) كانت أمْبلْ مدينة كان ملوك كجورْ يسمّون بدَميلْ فيها .

(٢) ان هذا الاسم تغيير لكلمة العربية امام واطلق على ملوك فوت تور والذين حكموا بعد دولة دَاينكوبي منذ سنة ١٧٧٦ إلى عام ١٨٨٧ م .

بمواعظهم المستحرّة وامّا بالسيف . فواجهم ملوك السنغال الذين يمثلون الوثنية من جهة وجيوش فرنسا المستعمرة من جهة أخرى .

وبطبيعة الحال جمع القدر في آن واحد بين التيّارات الثلاثة لتاريخ السنغال فبلغ هذا الجمع بين تيّار السلطان الأهلي وتيّار الإسلام المجاهد وتيّار الاستعمار الفرنسي ذروته في نصف القرن التاسع عشر فأبى الله إلاّ أن غلب تيّار الإسلام على الآخرين وان بلغ تيار الاستعمار مؤقّتاً مراده أعني فتح السنغال بفضل استراتيجته ومهارته في السفارة وأسلحته النارية المتفوقة . وعلى رغم انتصار المستعمر لم يزل الإسلام يتدرّج ويتقدّم وان فقد السلطان الأهليّ بقية القيم العليا لماضينا بفضل الشعراء الأهليّين Les Griots الذين هم النسّابون والمؤرّخون والمغنون وبفضل رجال الثقافة أيضاً .

الثقافة السنغالية

انني لا أطنب في مشكلة ثقافة السنغال غير أنيّ أعطيها عجالة قصيرة . فان ثقافة السنغالي متألفة من أدب شفويّ وأغان وموسيقى ورقص وفنون . وزد تربية شاقّة بتهذيب الخلق وتدريب الإرادة . ويكتسب الولد من شتّى ألعاب عبراً متنوّعة وزد الاخلاص في التّفاني وفي التطوع ثم في المغامرة وحب ابقاء المجد القديم واكتساب الحسب والعرض النقي والقيام بالواجبات في الكرامة وفي الحوار واستعمال البلاغة وحبّ الجمال والسلام والتسامح .

فانّ السنغالي لشديد على نفسه وشجاع ولقد نوّه بشجاعته المشهورة فِيدِرْبَهْ وَغُورُو Gouraud وغِلِيِينِهْ Galliéni . فسل عن شجاعته جميع قارة افريقيا وجزيرة مَادَغَسْكَارْ Madagascar وشبه جزيرة الهند الصينية Indochine وسهول الوغى في أروبا ولا يزال محتاجاً إلى طرق باب المعالي وهو جدير في مشيته ظريف في هيئته أنيف في زيّه . وهو أبيّ الضيم وكثير الرماد وحليم ومحب للامداح ويتّصف الكهل بمكارم الأخلاق هذه وظهرت عند الشيخ أنوار الحكمة المقتبسة من تجارب شاقة وعبّر عن حكمته بأمثال عديدة وحجج ثابتة والشيخ هو قائد وحكيم وفيلسوف وهو كسُقْرَاطْ ومَنْتُورْ وبِتُونِيسْ معاً .

فانّ جميع هذه الصفات الحسنة نجد السنغاليّ مطبوعاً عليها وهي أصول النظرية الزنجية في تعظيمها قيم الأسود الأصلية وهي ناجمة من الجنس والتاريخ والأرض والمناخ . وهي ما نسمّيه أصالة الثقافة السنغالية وهي ملكة مشتركة لأهل بلاد كيفما كانت أنواع شعوبها مثل وُلُفْ وتُكُلُورْ وسِيرِيْر وفُلاَّنْ وجُولاَ وَلِيبُهْ ومَنْدَنْغَ وسَرَخُلِي وغيرها .

فانّ هذه الثقافة ذات القيم العليا بقيت فاتحة أبوابها لكلّ ثقافة أجنبيّة مخصبة إذ هي ثروة النفس وكرامة الفؤاد وحكمة العقل وتراث يعظّمه السنغاليّ بالغيرة عليه والحرص فلم يذهب الاستعمار ولا الإسلام بالمثل العليا المتألفة من صيانة العرض وشعوراً بالوفاء ومكارم الأخلاق وتعظيم البطولة وفتح الباب لكلّ فكر مخصب ولقد أغنى التّراث الزنجيّ الافريقي هذا ما هو أحسن في قيم الاستعمار وفي فضائل الإسلام إذ صارت لغة المستعمر لغة رسمية للسنغال وتكتب أغلب لهجات البلاد بحروف العربية ومن المعروف أن التعريب سار ولم يزل سائراً ونشر الإسلام .

اللغة العربية في السنغال

وإذا كان الإسلام العربيّ فاتحاً ومجاهداً في بلاد السودان الشرقية واستعمل الملاحة والتجارة في شرق افريقيا أخذ بصبغ التصوّف مع البربر ودخل السنغال بالسيف والتجارة وتعليم شعائر الدين أول من اعتنق ملّة الإسلام هم الأمراء والملوك في عهد بعيد ثم أسلم سائر الناس بعدهم بزمن قريب من أيّامنا هذه . فصار إسلام أهل السنة والجماعة المصبوغ بتعاليم مذهب مالك بن أنس تنجم منه ألوان من طرائق صوفية علّمها بعض مشائخ ودافعوا عنها ونشروها . ولذا كان هناك أنواع من المشائخ حسب أعمال كل منهم . ولقد أشرنا إلى الذين جاهدوا للدعوة إلى الإسلام أو لجعل كدره صفواً بالسيوف ومن هم الذين قد تولوا أمر تعليم مبادئه فقد كانوا مختلفين كما قلناه سابقاً ولقد فصّل طبقاتهم يُرْجَوْ Yoro Diaw (١٨٤٧ م إلى ١٩١٩ م) في كراريسه Ses Cahiers فوجدنا أوّلاً سَرِنْجَ[1]

(١) سَرِنْجَ هو معلّم وشيخ عند الولفيّين وجِرْنُ عند الفلانيّين وهو كلّ مربّ .

فَكْ تَالْ وهو الشيخ الذي مهّد موضعاً نظّفه وأضرم فيه ناراً وكان هذا الموضع اقطاعاً أعطاه اياه الملك لمّا طلبه منه وأمكنه أن يقيم به ويّحل وتلاميذه وأصحابه . وكان سرنج فك تال إذا أشعل ناراً بحطب في وقت الشفق صار تلاميذ يقرأون بضوء النار بعض الآي التي كانت مكتوبة على ألواحهم وكان هذا الشيخ سيّد قريته وقرمها ولم يدفع ضريبة ما لسكنه في الاقطاع الذي لم يكن تالداً ولكنه إذا مات شيخ خلفه على تلك الأرض أكبر التلاميذ سنّاً . وطالما كان لا يتدخل في أمور حكم البلاد ولا يخرج على ملكه خروجاً دينيّاً تركه أولو الأمر وشأنه وان خرج عليه عرض نفسه للخطر أو للموت .

يمكنك أن تلقى هذه الطبقة من الشيوخ في الأرياف أو في بعض مدن بلادنا حتّى الآن ولم يغيّروا منهاج تعليم تلاميذهم القرآن .

وقال يُرُجَوْ « ان هناك شيوخاً آخرين كانوا يتبعون الملوك والرؤساء وكان عملهم المهمّ صنع تمائم وطلاسم لذوي العقد والحلّ » فانّ هؤلاء المشائخ هم الذين خلفوا السّحّار الوثنيين . يعتبرهم المسلمون الحقيقيون مشعوذين وكهّاناً وفي ايّامنا هذه نفقت سوقهم عند رجال السياسة الذين يطلبون منصباً عالياً ويكثر حظهم جدّ الكثرة قبل الانتخابات إذ كل من الناس يحبّ أن يصبر نائباً أو وزيراً والحق أنه في أكثر الأحيان ليس هؤلاء « شُيُوخُ الأَسْرَارِ » كما نسمّيهم سوى كَذّابين وأخيراً قال يرجو انّ هناك أيضاً أسراً من المشائخ كانت تصحب حزب جِيدُّو[1] حتى صارت وثنية ولم تزل لسادة هذه الأسر ألقاب المشائخ[2] لأجل أصلهم . وقد كان بعضهم يحّل باقطاعات يدفعون خراجاً لها وامكنهم أن يجعلوها تالداً وصارت ملكة لأولادهم . وقيل لهم « سَرِنْجَ لَمْبَهْ » فاسم « لَمْبَهْ » معناه دقّ عظيم لم يدقّه الاّ بعض الرؤساء الكفّار إذا شاؤوا .

---

(١) كانت جيوش الملوك متألّفة من جنود سمّوا بجيدّوْ وكانوا أرقّاء التاج اي حرس العرش .
(٢) وللمشائخ ايضاً معنى العلماء .

وقد اضمحلّ هذا النوع من الشيوخ حين انقرض حكم « جيدّو » ولا ريب أن أشهرهم هو العالم العلامة وأمير شعراء دهره الشيخ القاضي مجخت كل نفعنا الله ببركاته آمين . واختار الملوك الجهال من هؤلاء العلماء كتّابهم لمراسلاتهم للحكّام الفرنسيّين وكيف لا وقد كانوا أدباء ذوي قريحة وتراجمة بارعين وشعراء أشير اليهم بالبنان وقضاة أفضل الفرسان في كل الميدان وكتّاباً ماتوا عن آثار لا ينازع أحد حقّ أصالتها ؛ إذ هي بلال كل غلّة وجلاء كلّ شبهة .

فانّ هؤلاء العلماء كانوا شأن الشيوخ المجاهدين يأخذون في أوّل وهلة عن « سرنج فكّ تال » ويقرؤون عليهم القرآن ثم يبدؤون بتخريجهم على العلماء الآخرين إمّا في بعض العلوم مثل الفقه والتفسير وإمّا في كلّ فن ثم يسمعون من الشيوخ الموريتانيين وينظرون في الأدب والعلوم الدينية والتصوف ولأجل ذلك كانوا يذهبون إلى موريتانيا لتكميل دراساتهم وتربيتهم .

ومن المعلوم انّ العلاقات بين السنغاليين والموريتانيين عرباً كانوا أو بربر ترجع إلى تقادم عهد . فانّ أوّل عاصمة لبلاد « وَالُو » وهي « أَنْجُرْبِيلْ » كانت واقعة على الشاطئ الأيمن لنهر « سنغال » اذن فلنعلمن أنّ جزءاً كبيراً من هذه المملكة كان يضمّ عدّة نواح شمالية من موريتانيا الحاضرة . أدّى البيضان أي الموريتانيّون بالاسلام إلى أهل السودان وكانوا يغزون شاطئ نهر « السنغال » ويذهبون إلى بلادهم بسبايا يبيعونهم أو يجعلونهم رعاة ابل وغنم . فاعلم أيّها القارئ الكريم أنّ محمد الحبيب ، ملك قبيلة تَرَارْزَة كان يملك جُمْبُتْ أميرة لِوَالُو وبنت عمّ لملك « وَالُو » في مدينة « دَغَنَا » سنة ١٨٣١ م وانّ الملكة ولدت ولداً اسمه إيلِ الذي لمّا ترعرع واكتهل رجع إلى « وَالُو » وسعى وراء عرش هذه البلاد .

فلنصغين إلى ما قاله برجو : « فان بعض الموريتانيين من القبائل الواقعة على الشاطئ الأيمن للنهر قد ذهبوا إلى « كَجُورْ » وأسّسوا فيها قرى منتثرة بين قرى للولفيّين وهذه القرى كانت تحت حكم دَمِيلْ إلا أن هؤلاء الموريتانيين كانـوا ينتخبون اخوانهم رؤساء متلقبين بـ « سَرِنْجَ » ولم يكن يتلقب بـ « بُورْ غَدّْ » أي بملك الحيّ الا رئيس « غَدّ أَنْجَنْدُلْ » لأن تلك القرية هي أوّل قرية أسّسها

المورِيتانيّون في كَجُورْ في أيام دَمِيلْ « أَمَرِ أَنْكُونِ سُبِيلْ » في القرن السادس عشر م وانّ كثيراً من الولفيين السود جاءوا من جوال موريتانيّة نزلت بكجور منذ عهد عهيد وزمان بعيد . فإن أول موريتانيّ نزل في كجور بحسب التأريخ الشفهي هو « مُخْتَارْ اَمّبَيْ » الذي أسّس في أيّام دَمِيلْ أَمَرِ أَنكُونِ سُبِيلْ قرية « غَدَّ انْجَنْدُلْ » انتهى قول يُرْجَوْ . وذكر يُرْجَوْ قبائل أخرى من تَرَارْزَةَ مثل « دَرَمَنْكُورْ » أو « إدوْ اَلْحَاج » التي أسّست جواليا في كجور يعني « غَدَّيَلْ » ولقب عائلتها هــو « أَمَرْ » ثم « أَنْغُمْبَلاَ » ورؤساؤها هم « غُمْبَلاَ » ثم « جَخُمْبَا » ورؤساؤهـا هـم « جَخُمْبَا » في أيام « لاَتْ سُكَابِيّ » ملك كجور في القرن السابع عشر م وصارت ذريّتهم تندمج في السودانيين الآخرين وسارت سيرة الولفيين وتكلّمت بلغتهم .

وهكذا تثبّتت العوائد الموريتانية برمّتها في السنغال وظهرت في كل الميادين من جهة الدين والحقوق والفلسفة والأخلاق والملبس .

ويحتفل السنغالي بأعياد الإسلام كعيد الأضحى الذي اسمه هو « تَبَسْكِي » وكمولد النبي الذي اسمه هو « غَمُو » وكعيد الفطر الذي اسمه هو « كُورِ » ويوم عاشوراء الذي اسمه هو « تَمْخَرِتْ » أَغَنِيٌّ عن البيان أنّ أهل السنة والجماعة هم على المذاهب الأربعة وأنّ منها مذهب مالك بن أنس ؟ كلاّ : وكان من أصحاب مالك هذا عالم الا وهو عبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ٨٠٦ م وأخذ عنــه عبد السلام سحنون (٧٧٦ – ٨٥٦ م) صاحب كتاب « المدوّنة » في مذهب الإمام مالك قد ولي القضاء بالقيروان وعنه انتشر علم مالك بالمغرب ثم جاء ابن أبي زيد القيرواني (٩٢٢ – ٩٩٦ م) فقيه مالكيّ ربما كان أول من بسط أصول الفقه في جلاء ووضوح ولم يبق من مصنّفاته الثلاثين إلا « الرسالة » البعيدة الصّيت في المغرب وفي افريقيا الغربية ثم أناب عنه في تعليم المذهب المالكيّ أبا عمران الفاسيّ المتوفى سنة ١٠٣٩ م في أيام بني زبري[1] وأخذ عنه بربر لمتونة

---

(١) اسم سلالتين في القرون الوسطى : بنو زبر البربر تولّوا الملك في المغرب الأوسط من أواخر القرن ١٠ إلى أواسط القرن ١٢ . كانوا من الحضر فرع من صنهاجة . وبنو زبري الأندلس أسسوا امارة عاصمتها غرناطة وذلك بعد سقوط الدولة الأموية في قرطبة .

من سمّيناهم المرابطين فيما بعد . ثم أدرك المذهب المالكيّ بلاد السنغال حينما مرّ رئيس من رؤساء البربر بالقيروان عاصمة المذهب المالكيّ في افريقية وطلب من أبي عمران الفاسي أن يُوصله بواحد من أصحابه في المغرب الأقصى لتلقينه بربر ناحيته أصول الدين الإسلامي فأوصى أبو عمران بعبدالله بن ياسين تلميذه المحرك الأول لحركة المرابطين الشهيد في ساحة الوغى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) بعد أن عين أبا بكر أميراً للمؤمنين وسمّى أصحابه مرابطين .

فدونكم جدولاً وجيزاً يدلّ على ما كان يقرأ عادة من علوم الدين والدنيا على شيوخ في الكتاتيب وفي المدارس من زمن بعيد إلى يومنا هذا :

١) **القرآن** – فينبغي للاطفال أن يقرؤوه ويحفظوه عن ظهر قلب ثم يتعلموا الأصول الخمسة لدين الإسلام نعني الشهادتين والصلاة والصوم والزكاة والحج إلى بيت الله الحرام .

٢) **تفسير القرآن** – « تفسير الجلالين » للسيوطي [1] (١٤٤٥ – ١٥٠٥ م) وهو شرح لجلال الدين ثم تفسير لجلال الدين المحلي (١٣٨٨ – ١٤٥٩ م) ثم التفسير لعبدالله بن عمر البيضاوي [2] ثم تفسير مدارك التنزيل للنسفي .

٣) **الحديث** – « الالفية » لجلال الدين السيوطي وصحيحي البخاري (٨١٠ – ٨٧٠ م) ومسلم بن الحجّاج (٨١٧ – ٨٦٥ م) .

٤) **الأصول الفقهية** – « الورقات » لأبي المعالي الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) .

٥) **الفقه** – وهاكم المؤلفات التي يستعملونها . الأخضري في العبادات ثم متن العشماوية ثم المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر الفاسي الاندلسي المتوفى سنة ١٦٣٠ م وهذا الكتاب منظومة على مذهب مالك ثم

---

(١) وهو صاحب « طبقات المفسرين » ومكمل « تفسير جلالين » للمحلى .

(٢) هو احد مفسري القرآن ولي القضاء بشيراز ، توفي في تبريز نحو ١٢٨٢ م واهم مؤلفاته « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » و « منهاج الوصول إلى علم الأصول » وغيرها .

« المقدمة العزّية » لأبي الحسن عبدالله بن ناصر الدين المصري الشاذلي [1] المتوفى عام ٩٣٩ هـ (١٥٣٢ م) . ثم منظومة ابن رشد ثم الرسالة لابن أبي زيد القيرواني . ثم أقرب المسالك ثم المختصر للشيخ خليل [2] بن اسحاق المتوفى سنة ١٣٧٤ م . ثم تحفة الحكام لابن عاصم .

٦) **التصوّف** – يستعمل شيوخنا مؤلّفات الغزالي (١٠٥٩ – ١١١١ م) والحكم لابن عطاء الله . ولكن كثيراً من الكتب الصوفية التي يستعملونها قد صنفها أصحاب الطريقة القادرية الموريتانية .

٧) **النحو** – كتاب « الآجرومية » لابن آجروم الصنهاجي (١٢٧٣ – ١٣٢٣ م) ثم « ملحة الاعراب » للحريري (١٠٥٤ – ١١٢٢) ثم « لامية الأفعال لبدر الدين ابن مالك المتوفى سنة ١٢٨٧ م ثم « المقدمة الكوكبية » لمورخج كمبه الكوكي السنغالي . ثم « الالفية » لابن مالك الاندلسي (١٢٠٣ – ١٢٧٣ م) ثم كتاب « الاحمرار » للمختار بن بون .

٨) **الأدب والبيان** – « الجوهر المكنون » لعبد الرحمن الأخضري الجزائري (القرن ١٦ م) ومقصورة ابن دريد والدالية لليوسي والمعلقات السبع وقصائد لمحمد البوصيري مثل « البردة » و « الهمزية » في مدح النبي (ص) « والجوهر المكنون » وعقود الجمان .

٩) **العروض** – « الدائرة الشفية في العروض والقافية » على بحر الطويل . لعلي الخزرجي (١١٩٤ – ١٢٥٢ م) ثم « سراج طالب العلوم العربي » لابن عبدالله المساري ثم « ميزان الذهب » لأحمد الهاشمي المصري وأضف إلى ذلك كلاً من الكتاب السنغاليين الفحول قد ألّف كتاباً في العروض أو كاد مثل « مُبَيِّن الإِشْكَالِ » للقاضي مَجَخَتِ كَلَ .

١٠) **المنطق** – « مَتْنُ السُّلَّمِ » لعبد الرحمن الأخضري .

---

(١) انظر « بُرُكِلْمَانْ » الملحق الثاني صفحة ٤٣٤ .

(٢) يعرف في الجزائر باسم سيدي خليل ، فقيه مالكي من فقهاء مصر من مؤلّفاته « المختصر » وهو من أكثر الكتب الفقهية تداولاً في السنغال .

وهناك فنون علمية يتعلمها الطلاّب مثل الجغرافة على طريقة بطليموس [1] ومثل علم الحساب وعلم النجوم وعلم الإفلاك وقد ألّف الشيخ الهادي توري السنغالي كتباً في تلك الفنون ومنها كتابه في الحساب عنوانه « تبشير الطلاب بمبادئ الحساب » .

وان كل هذه الفنون قد صارت برنامجاً يدرسه الطلاّب ومنهم من تعلمه بحذافيره ومنهم من حفظ القرآن فقط أو جزءاً منه ومنهم من تخصص بالفقه أو بتفسير القرآن أو بقصائد دينية يحفظها ويتغنّى بها أثناء الحفلات المسائية . وان الذين تلقّنوا جميع هذه العلوم لقليلٌ عددهم ، وان وجدوا فهم قادرون على الكتابة والتأليف بالعربية الفصحى .

وكيفما كان الأمر فانّ القوم الذين يتكلّمون بالعربية الفصحى وينطقون بها بوجه أفصح وأوضح فما أبعد بلادهم وأنآها وأنزح أوطانهم وأقصاها . ولأجل ذلك يلفظ السنغالي بلغة الضاد على وجه معيب وناقص حتى ولو حضر العربي لكان عزيزاً عليه أن يفهم السنغالي الذي يخاطبه في اللسان القرآني إذ ينطق بحرف الضاد كما ينطق بحرف اللام . وحروف السين والشين والصاد والزاي والذال يلفظ بها سيناً على اختلافها وأمّا حرف الخاء والقاف والغين فينطق بها خاء على تباينها ولكن الذين تخرّجوا في موريتانيا أو في البلاد العربية فلهم نطق خال من كلّ عيب وصارت سلامة نطقهم وصحّته أشدّ جودة وأقوى وضوحاً إذا طالت اقامتهم في تلك البلاد . وكل ذلك يدلّ على أن للموريتانيّين دوراً ذا بال فيما يتعلّق بالتعريب في السنغال منذ عهد بعيد . فان كانت عائلة سنغالية مرزوقة مغبوطة بعثت إلى موريتانيا أو إلى جامعة للبلاد العربية بأولادها يطلبون علماً عند مشاهير علمائها وربما جاء هؤلاء العلماء الأجانب إلى السنغال ليدرسوا أطفال عائلات واسعة الثروة وجزيلة الفضائل مثل ما جرى في مدينة « تِوَاوُونْ » أو في مدينة « طُوبَى »

(١) ولد في صعيد مصر ونوفي في الإسكندريّة (١٦٧ ق م) وهو من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافية واشهر مؤلّفاته « المِجَسطي » و « آثار البلاد » وله النظرية البطليموسيّة في هيئة الأفلاك القائلة ان الأرض لا تتحرك ! .

أو في مدينة « أَنْدَرْ » والا يعلم المعلمون تلاميذهم في « دَارَ » [1] أي في الكتاتيب والمدارس التعليمية والأدبية .

باب المدارس الأدبية

قد دللنا منذ لحظة على عيوب النطق بالكلام العربي في السنغال إلا أن هناك أمراً أكثر من ذلك خطراً وهو رفض المعلمين عن قصد ترجمة القرآن إلى لغة تلاميذهم إذ لمّا كان القرآن كلام الله عز وجل كان على رأيهم أقدس من أن يسلّموا معناه إلى أطفال فهبهم بالحق نطقوا إن كان ذلك السبب الحقيقي بل صدر رفضهم الترجمة في الغالب عن جهلهم وتجليلهم كلّ ما هو مكتوب بالحروف العربية بل عن عبادتهم كلّ ورق يرون فيه حروف الهجاء العربي ودلّت همتهم غير المحدودة في عبادة الكتابة العربية على انّهم ليسوا يحاولون فهم أي شيء في كتاب الله جلّ وعلا إذ جذبت الغوامض في كلّ حين الأسود جذب اللهب الفراشة .

ومن شيوخنا من اختصر على احسان ذكر بعض أسماء الله الحسنى قد ورثوها عن شيوخهم ودخلوا في الخلوة ومارسوا الرياضة مدة أيّام بل أشهراً لكنه فاعلم أيها القارئ الكريم أنّ من ناقلي اللغة العربية مثل المجاهدين والتجار والعلماء من هم الأدباء الذين يحسنون معرفة لسان محمد (صلعم) حقّ المعرفة [2] ومن حيث أنّ العربية جزء من التراث الثقافي السنغالي وهي لغة رسمية لعدد من البلاد الافريقية وهي لغة دين للسواد الأعظم من السنغاليّين أدخلت الجمهورية الناشئة من يوم تحقيقها استقلالها اللغة العربية في الفنون المدروسة في المدارس العامة وبعثت بطلاب

---

(١) دَارَ مواسم مشتقّ مِنْ دَائِرَة بمعنى حلقة ومجلس .

(٢) انظر إلى « مجلة جنيو – افريقة » المجلد الثاني العدد الأول سنة ١٩٦٣ تجد فيها مقالة كتب السيد فينسا منتيي ما يلي : « دلّ مفّتشو تصميم الإنماء لسنغال سنة ١٩٦٠ على أن في كل قرية من قرى البلاد أربعة اشخاص او خمسة (او خمسة وعشرين شخصاً عند التكلورين) يستطيعون قراءة العربية وكتابتها وكذلك على الأقل سكّان البلاد الذين يسعهم كتابة لغاتهم (ولا سيما عند الولفيين) بالحروف العربية .

يقرؤون العربية إلى القاهرة وبيروت وتونس والرباط فلنذكرن أن بعض شيوخنا يبعثون بأولادهم إلى موريتانيا [1] إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ومن الضروريّ أن نقرّ بأن وجود الطرائق الصوفية قد أخّر بلا ريب هذا التعريب وليس الأمر غير نافع أن نضبط أن الطرقية القادرية هي أول الطرائق الصوفية وقد أسسها محمد عبد القادر الجيلاني الذي ولد سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٩ م) في جيل وتوفي سنة ٥٦١ هـ (١١١٦ م) في بغداد . فاليكم تعاليمه كما لخصها باتقان واحسان « دِبُونْ » و « كُبُّلاَنِ » في كتابهما الموسوم بـ « الطرائق الدينية الإسلامية » وقالا : « قامت طريقته على انكار المرء لذاته لوجه الله الكريم الرحيم وعلى تصوف اختطافي يفضي إلى صرع عصبيّ بواسطة الرياضات يتمرّن عليها المريد في الزوايا وتماثل ما هو موجود في الأديرة النصرانية وقامت طريقته أيضاً على الاعتناء بخير البشر اعتناء مطلقاً على اختلاف جنس الناس ودينهم وعلى توزيع الحسنات بنشاط وعلى التقى بوجه ركين مكين وعلى الخشوع في كل حين ومن ثمّ على أخلاق دمثة في كلّ أوان وبذلك صار عبد القادر الجيلاني أوسع سمعة من جميع الأولياء أجلّه الإسلام إجلالاً لا شبيه به » .

وقرأ المريد أسرار تلك الطريقة على الشيخ أي المرشد وهو مدار الطريقة إذ هو الذي يعطي المريد ورداً وسبحة واعلم أيها الأخ الكريم أنّ سيد أحمد البكّاي الكنتي هو الذي أدخل القادرية في السنغال في أواخر القرن الخامس عشر م وأن عمر ابنه هو الذي نشرها ولكن الذي أنارها هو الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير والشيخ سيديه بابه المتوفى سنة ١٩٢٤ م .

قال كَبِتِينْ أَنْدَرِي ما يلي [2] : « في الحقيقة انّ وفاة الشيخ سيديه ستنقل على الأرجح مركز التأثير القادريّ من موريتانيا إلى السنغال . وفي سنة ١٩٢٣ م مدح

---

(١) أرسل المرحوم الحاج الفاضل البكيّ الخليفة الثاني للمريدية من اولاده المرتضى وعبد الأحد ومعهما الخادم والشيخ ابني عمّهما إلى المدينة المنورة .

(٢) انظر إلى كتابه « الإسلام السودانيّ » المطبوع في باريس سنة ١٩٢٤ .

الشيخ سيديه الطاعن في السّنّ أحمد بمبه ذلك الأسود التقيّ ورئيس المريدين بـ « جُرْبِلْ » بقرب من مدينة « جيِشْ » انتهى .

وقد شهدت الأزمنة أن المخبر بهذا المستقبل حدساً أبر في قوله وأحسن وقال بعضهم : انّ عدد أتباع الطريقة المريدية التي أسسها الشيخ أحمد بمبه نفعنا الله ببركاته بلغ اليوم ألف ألف وأنتم تعلمون أنّ عدد سكّان السنغال لمّا يتجاوز أربعمة ملايين نسمة .

فاعلم أيها القارئ الكريم أن هذا التأثير وهذه الأرقام ودور المريدية المهمّ هـذا في السياسة والدين ولا سيما في الاقتصاد قـد استرعت انتباه البّحاثين والاختصاصيين منذ بدء هذه الحركة الصوفية .

وفصل بُولْ مَرْتِ في مؤلفه « الإسلام في السنغال » سنة ١٩١٧ م لمؤسس المريديّة ، في قيد حياته ، أبواباً ذات أهمية وقيمة لأنّها وثائق خطيرة . ثم بعد ذلك كلّ من كتب في الإسلام الافريقي الغربي من كَبِتِينْ أَنْدَرِي سنة ١٩٢٤ م إلى فِرْنَاذْ دُومُو [١] سنة ١٩٦٨ م . تهمّه الطريقة المريدية ومؤسّسها وقد نسبت الطريقة البمبية أصولها القادرية أي البكائية نعني أهل السيديه غير أن القادرية قد بلغت السنغال بسبيل آخر أيضاً أي بالفاضلية في موريتانيا وبالشيخ سَعْدَ أَبِيهِ [٢] وبالشيخ سِيدِي بُويَهْ ولكن القادرية الكنتية بـ « انجاسان » وهي قرية على أميال من « تِواوُونْ » والقادرية بـ « أَنْغُرَانْ » بقرب من « اَنْغُمْبَهْ غِيُولْ » سلكتا سلوكاً مختلفاً وان أتباع هاتين الطريقتين ينفردون بأنفسهم ويحجون في كل سنة إلى موريتانيا « نِمْزَاتْ » وان خليفة القادرية اليوم هو الشيخ سِدَّاتِي ولد الشيخ طَالِبُويَهْ وان البَكَّائِيَّة والفَاضِليّة والكُنْتِيَة قد تولدت من طريقة سيدي المختار الكُنْتِيّ الكبير .

---

(١) هو صاحب كتاب عنوانه « البحث عن الفكرية الدينية لأحمد بَمْبَهْ » (١٨٥٠ ١٩٢٧) . في جامعة دَكَارْ وفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ١٩٦٨ .

(٢) هو ولد من أولاد محمد الفاضل المتوفى سنة ١٨٧٠ ومن أولاده أيضاً سيد مَاء العَيْنَيْنِ اخو سَعْد أَبِيهِ الذي مات سنة ١٣٧٠ هـ – ١٩١٧ م .

وفي السنغال ازدهرت طريقة صوفية مهمة وهي تتصل بالتجانية التي أسّسها الشيخ أحمد بن محمد بن المختار التجانيّ الذي ولد سنة ١٧٣٧ م في « عين ماضي » بالجزائر وتوفي ١٨١٥ م في فاس بالمغرب الأقصى وكان قبل تأسيس طريقته تابعاً للقادرية والخلواتيّة [١] والطيبيّة [٢] . وقال كَبِتِينْ أَنْدَرِي ما يلي « وبكونه جنديّاً لا بكونه معلماً جال في « تُوَاتْ » والصحراء والمغرب ولمّا لاقى صعابات في الجزائر غادر الشيخ أحمد التجاني نفعنا الله ببركاته عين ماضي مسقط رأسه والتجأ إلى فاس وذهب إلى رضوان الله ثم دفن في زاويته الجديدة في شهر أيلول عام ١٨١٥ م .

وبعد وفاة مؤسس الطريقة فتارة صار سيد الحاج علي حرازم مدبر شؤون التجانية وتارة قادت سلالة الشيخ أحمد التجاني أمور الطريقة في عين ماضي إلى سنة ١٨٥٣ م فكان الحاج علي حزارم أصله من ينبع وكان أعلى مرتبة من مقدمي الشيخ التجاني . وكان للشيخ في الحرمين بجزيرة العرب مقّدم يسمى السيد محمد الغاليّ الذي أبلغ السبحة التجانية إلى الحاج عمر تال سنة ١٨٢٠ م في مكة المكرمة وعينه خليفة للتجانّيين في إفريقيا الغربية . فرجع الشيخ عمر تال أعطانا الله ببركاته المغفرة والكمال ـ إلى السنغال وطنه الذي لم يزل يتأثر بطريقة القادرية . فعلم المجاهد الأكبر التُكُلُورِي أهل السودان الفرنسي الطريقة التجانية وأبلغ الورد إلى مواطنه محمد يورو المشهور بأَلْفَا [٣] مَايُورُو . فأبلغ أَلْفَا مَايُورُو ورده إلى الحـاج مَالِكْ سِهْ أنار الله لنا ديننا بنور شمسه ـ ابن أخته الذي نشر التجانية في السنغال

---

(١) أسّسها محمد الخلواتي الفارسي المتوفى سنة ١٣٩٧ م وكان زاهداً حقيقياً بطلب في الخلوة والوحدة والحرمان والشظف كي يفضي بنفسه المطهرة إلى عالم الغيب وصارت هذه الطريقة في طريقة الرحمانية .

(٢) أسّسها مولاي عبد الله ابراهيم المتوفي سنة ١٦٧٨ وهي قائمة على الزهد وتطهير النفس والأعمال الصالحات .

(٣) ان لفظ (أَلْفَا) هو ترخيم الفاهم كما كان (مَمَدُ) و (مَدُ) و (دُودُ) او (مُودُو) ترخيم محمد صلعم .

وبنى زاويته في « تواوون » . وبعد وفاته سنة ١٩٢٢ م بويع السيد أبو بكر سِهْ ابنه بالخلافة على التيجانيين السنغاليين . وبعد وفاته سنة ١٩٥٧ م بويع الحاج عبد العزيز سِهْ أخوه بالخلافة وهو يعيش الآن في « تِوَاوُونْ » .

قد ذكرنا المريدية والقادرية والتجانية ولكن ان في السنغال لطرائق أخرى مثل اللاَّيِينِيَّة التي أسَّسها بـ « يُوفْ » بالقرب من « دَكَارْ » لِمَامُ لاَيْ [1] (١٨٤٣ – ١٩٠٩) ومثل طريقة التربية التي بناها شيخ الإسلام الحاج ابراهيم نِيَاسْ وقانا الله به كل اليأس في مدينة « كَوْلَخْ » ومثل التجانية التي زاويتها في قرية « جنيبة » وانتسب أتباعها إلى أَحْمَدُ الشَّيْخ المعروف بالتجاني القتيل في جهاد دَمِيلْ لَتْجُورْ والفرنسيين بـ « سَمْبَهْ سَاجُهْ » [2] سنة ١٨٧٥ م .

وكذلك صار مركز كل طريقة دينية زاوية ومزاراً ومنبع دراسات ومدرسة أدبية . فان مدينة « طُوبَى » هي مكة المريدية وان مدينة « كَوْلَخْ » هي قبلة النِيسِينِيَّة وان قرية « كَمْبِرِينْ » هي قطب اللاَّيِينِيَّةِ وان مدينة « أنْجَاسَانْ » هي كعبة القادرية الكُنْتِيَّة وان مدينة « جِنِيبَهْ » هي مكة التجانيين لأحمد شَيْخُو وان مدينة « تِوَاوُونْ » هي الزاوية الكبرى لمن تبع طريقة الحاج مالك سِهْ من التجانيين وغيرها .

فانها مراكز الدين ومدارس برزت منها أشعة ثقافة مهمة في آن واحد . فلنتمن قائمة المدارس الأدبية بهذه المدارس الكبرى وهي قرية « أَيْنُمَانْ » [3] التي هي مدرسة القاضي مجخت كل ، ومدينة « أَنْدَرْ » ورئيس مدرستها هو الحاج ماجور سيسه الكبير وابن المقداد المعروف بدود سك ثم مدينة « جِيسْ » ورئيس مدرستها هو ذُو النُون له ثم مدينة « سُوكُونْ » ورئيس مدرستها هو الحاج أحمد دِمْ ثم

---

(١) ان في هذه العبرة لفظين مختلفين وهما : إِمَامُ ثُمَّ الله . أَما الاسم الحقيقي لِلِمَامُ لاَيْ فهو (لِبَاسْ جَوْ) وَلِبَاسْ هو عَبَّاسْ .
(٢) اسم موضع في شرقي جُلُوفْ .
(٣) اسم مشتق من عَيْنَ ماضي مسقط الرأس للشيخ أَحمد التجاني .

قرية « غَنْغِيلْ » ورئيس مدرستها هو العالم العلامة وحامل لـواء أهل القلـم الشيخ موسى كمر ــ وقانا الله ببركاته كل ما من البلايا بنا مرّ ــ ثم مدينة «كُلْدَا » ورئيس مدرستها هو الشيخ محمد الأمين بن الزبير ثم قرية « غِيدِي » ورئيس مدرستها هو المجاهد الأكبر وقطب زمانه الشيخ الحاج عمر تال ثم « مَرْسَا سُمْ » ورئيس مدرستها هو الحاج بَلّ فُودِي و « دَكَارْ » ورئيس مدرستها الحاج الشيخ غَسَمَ ثم « اِنْغِجِلْنْ » ورئيس مدرستها هو جِيرْنُ يُرْبَالْ ثم أدبية ذات أهمية بين بين .

وهذه هي المراكز العظمى الأدبية ونصنفها تصنيفاً جغرافياً وبحسب الأغراض الغالبة . وكذلك عالجت المدرسة التواوونية نوع الأدب التعليمي الديني والأخلاقي أكثر مما تعالج الأغراض الأخرى وطرق أدباء « أَنْدَرْ » باب الأدب الغنائي والديني وفي « طُوبَى » نجد مؤلفات في التصوف الباطني انتفع به المريدية عقيدة والقوم ديناً بإشراف منشئ كثير الإمداح للنبي (صلعم) إلا وهو خادم الرسول الشيخ أحمد بَمْبَهْ المنّي الشهير في « غَنْبَغ » ويجود علينا ذو النون له في « جِيسْ » بقريحة تطرق كل فن من الشعر إذ يتغنى بحبيباته ويثني على أولياء نعمته وهلمّ جرّاً . ويجذبنا القاضي مَجَخَتِ كَلَ في « أَيْنُمَانْ » إلى منظر ألعاب ناريّة من علم اللغة العربية أو إلى ساحات الوغى التي شاهدت عَلْبُرِ أَنْجَايْ وهو يضرب ضربات ملحمية ونسايره فنسمع رمال « بَلْغِ » و « يَنْغ يَنْغ » تخبرنا عن مفاخر ليث السباسب وعن مآثر علبر لا يزال القوّالون يشيدون بذكرها باضين أوتار النـاي بأناملهم ويدعونا الشيخ الهَادِي تُورِي بـ « فَاسْ » إلى مشاهدة أشعاره يبارز بها خاله مُورْ صَاصُمْ جَخَتِ وإلى أن نسمعه يطير فرحاً ويتهلل في المعترك تهلل مُحَمَّد عَلِي المشهور بكَاسِيُوسْ كَلاِي . ويغادر جبرن حامدآن التلري مسقط رأسه ويعبر نهر « السنغال » ويذهب إلى موريتانيا ويتحدى جميع شعراء البيد الفحول ويقول : « أنا أشعر الشعراء » .

أما الحاج ابراهيم نياس وأخوه الكبير محمد الخليفة نِيَاسْ فيطبعان امّا في « كَانُو » بـ « نِيجِيرِيَا » وامّا في القاهرة دواوينهما تجلـة لمقـام النبي (صلعم) . وابراهيم نياس هو ذو حظوة وافرة عند مُوَاطنيه في « كَوْلَخْ » وعند الناس في العالم الإسلامي ويشابه ابن تيمية في الدفاع عن دين الله وعن حرمة نبيه الكريم .

وان « غَنْغِيلْ » وهي وطن الشيخ موسى كَمَرَ تظهر كعبة للتفنّن في العلوم شعراً كان أو تاريخاً أو أدباً وفي سنة ١٩٣٨ م يكتب كتاباً موسوماً بـ « كاد الاتّفاق والالتئام أن يكون بين دين النصارى ودين الإسلام » ثم يؤلف بوجه أفصح وأدقّ وأبلغ وأرقّ كتاباً يتبع به خطوة بعد خطوة بالحسّ النقديّ قلّما بلغه الناقد الشيخ عمر في مغازيه وجهاده .

وفي « أَنْدَرْ » يحكم الحاج ماجور سيسه الكبير بين القاضي مَجَخَتِ كَلَ والشيخ أحمد بَمْبَهْ البَكِيِّ في مبارزتهما الشعرية ريثما يظهر ابن المِقْدَادِ ميولاً شعرية غير مشكوك فيها وتخفي عاصمة السنغال السابقة أدباء ذوي قريحة لم يعرفهم الناس بعد . وفي « دَكَارْ » نجد أحداثاً مطبوعين على التأليف باللغة العربية .

اليكم تلك المدارس الأدبية التي تدل على ان ألف عام من حضور الإسلام في السنغال لا يخلو من أن يترك آثاراً لا تمحى ورسوماً لا تدرس في ميدان الأدب السنغالي باللغة العربية .

باب
فيما غلب على الأدب السنغالي العربي من أوصاف

اعلم أيها القارئ الكريم أننا آثرنا على تصنيف تأريخي أو موضوعيّ طريقة كأنّها جغرافية حسبما نجد المدارس الأدبية المنتثرة في السنغال . أليس هذا المنهج الجغرافيّ يلحق ضرراً بالتحام مجموع الأجزاء واتفاقها وبوحدة هذه المدارس ؟ كلا بل ! ...

لأنّ كثيراً من المدارس قد أسّسها أتباع شيوخ المراكز فلنضربن لكم مثل الشيخ الهادي توري الذي بنى مدرسة في قريته « فَاسْ » وقد أخذ عن خاله ممر صاصم جخت بن القاضي مجخت كل وعلمنا أن القاضي هذا هو مؤسس مدرسة تعتني بعلم اللغة وبالمذكرات التأريخية ونستطيع أن نضرب لكم أمثالاً كثيرة دونكم القاضي مَجَخَتِ كَلَّ نفسه قد كان معلماً للشيخ أحمد بمبه مؤسّس الطريقة المريدية وزاويتها في « طوبى » .

ولمّا كان جلّ أهل القلم معاصرين بعضهم لبعض وثّق ذلك الأواصر المتوانية التي قد تتوعد بتصنيفنا وصلّب ذلك الأجزاء الضعيفة التي قد يتداعى بها بنياننا فان الحاج مالك سِهْ (١٨٥٣ – ١٩٢٢ م) هو راسل أحمد بمبه البكيّ (١٨٥٠ – ١٩٢٧ م) ومات القاضي مَجَخَتِ كَلْ في عام ١٩٠٢ م ورجع الشيخ أحمد بَمْبَهْ من منفاه بـ « غَبُنْغْ » في سنة ١٩٠٢ م أيضاً وتلقّى أمداحاً عديدة من ذي النون له حامل لواء الشعر في « جِيسْ » وهو توفي سنة ١٩٢٧ م أيضاً : وقيل انّ الحاج عَمَر تَالْ كان قد لقِي مَابَهْ جَخُو المجاهد الأكبر بالقرب من قريته « النُّورُ » بمنطقة « رِبْ » وان هذا لممكن جدّاً لأنّ مابه قد ولد سنة ١٨٠٩ م ولأنّ المجاهد التكلوريّ اختفى في غار « دِيغِمْبِيرِي » بـ « مَالِه » سنة ١٨٦٤ م . فانّ مؤلفات الشيخ الحاج عمر هي أغرق في القدم من كل ما هو مكتوب في السنغال بالعربية وهي يرجع عهدها إلى أوائل القرن التاسع عشر م ولكنّ كلّ ما هو مكتوب قبل هذا الزمان لم نعثر على أيّ شيء منه .

فانّ لهذه الخلّة أسباباً كثيرة ؛ منها لم يعتن أجدادنا بحفظ المحفوظات التي أفسدتها الآفات الجويّة وعضّها الزمان والحرب ، ومنها عدم مبالاة المستعمرين الأولين بها ؛ إذ كانوا أكثر التفاتاً إلى التجارة أو الفتوح منهم إلى الاعتناء بجمع المخطوطات العربية وحفظها .

ومن المعلوم انه قد اكترث الرحالون العرب بأن يؤدّوا شهادات علميّة بدول السودان مبكّرين شأن أبي عبيد البكري القرطبي الذي ألّف كتابه « المسالك والممالك » حوالي سنة ١٠٦٨ م وشأن أبي عبدالله الأدريسيّ (١٠٩٩ – ١١٥٣ م) ومثل ابن بطوطة (١٣٠٤ – ١٣٧٨ م) صاحب « تحفة النظّار في غرائب

الأمصار وعجائب الأسفار » والذي استغرق سبعة أسابيع في « وَلاَتَةَ » ومثل ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) صاحب كتاب العبر والمقدمة الشهيرة ومثل الحسن الغرناطي المشهور بِلِيُونْ الافريقي (١٤٨٣ - ١٥٥٤ م) الذي وصف رحلته كما قد فعل ابن بطوطة وجاء أخيراً عبد الرحمن السعدي (١٦٥٦ - ١٦٩٦ م) من علماء السودان وتعلم على أحمد بابا ومن مؤلفات امام جامع « سَنْكُورْ » هذا « تاريخ السودان » اتخذ منه مختارات الدكتور برت الذي راد السودان من سنة ١٨٤٩ م إلى سنة ١٨٥٥ م وعني هوداس بترجمته ونشره إلى الفرنسية سنة ١٩٠٠ م وغنيّ عن البيان أنّه لمّا لاحظ المؤرخون قيمة هذه المؤلفات بكونها وثائق ومستندات استفادوا منها بمنتهى جهودهم . وحذاء تلك الوثائق المثمرة أيّ شيء وجدنا اذن عند السودانيين المسلمين منذ أوائل القرن الثامن للميلاد ؟ وكيف صارت المؤلفات التي تركوها لذريّتهم ؟ وأين هي ؟ ولا يقبل عقل الإنسان أن هؤلاء لم يموتوا عن أقلّ وثيق مكتوب من زمان اعتناقهم الإسلام إلى القرن التاسع عشرم ،وكيفما كان الشأن فقد بحثنا عن الأمر وفتّشنا غير أننا لم نعثر على أيّ شيء من مخطوطات من عهد ملك « وَارْجَابِي » إلى زمان حجّ الشيخ عمر تَالْ إلى بيت الله الحرام في سنة ١٨٢٠ م . وقد يمكن أن تخفي عائلات إلى الآن تتعهد مخطوطات عديدة تساعدنا يوماً من الأيام على حلّ مشكلنا وعلى سدّ خلّتنا العميقة .

ألا ينبغي لنا أن نعترف رغماً على ذلك بأن ما عثرنا عليه من الوثائق لا يدل إلا على جزء أيسر وعلى قسم أزهد من المكتوبات الضخمة التي تركها أدباؤنا الأقدمون ؟ وما أكثر ما فقدناه من كتب ومخطوطات غير ان ما بقي منها له فائدة مهمة في الميدان التأريخي والاجتماعيّ ولا سيما في الميدان الأدبيّ .

وقد طرق أدباؤنا في ميدان الأدب كلّ باب من أبواب الفنون مثل المراسلة والتأريخ والخطبة على منابر الجوامع والترجمة أي السيرة والأدعية ، إذن طرقوا هذه الأبواب بالنثر ريثما عالج الشعراء ألواناً من الأغراض مثل الوصف والغرض التعليميّ والهجاء والفخر والحكم والسياسة والمدح ، ثم أنواعاً من الشعر الغنائي مثل الغزل والرثاء وحبّ الوطن وحكايات المنفى والمبارزة الشعرية والإنطلاقات الصوفية والتبادلات في الآداب .

وكل ذلك يدل على أن الثقافة العربية والإسلامية قد وجدت في الأرض السنغالية وطناً ثانياً في ميدان الأدب . وان أقررنا بأنه ذهب كتّابنا وشعراؤنا مذهب أدباء الشرق والمغرب وموريتانيا فلا يستطيع أحد إنكاره فلا شك فيه غير أنّه إنْ لم يعترف أحد بوجه من الوجوه بأصالة ما فيما كتبه أصحاب القلم السنغاليون ـ وقد فعله بعض الناس ـ فهذا هو الذي حملنا على أن نحتّج وأما احتجاجاتنا فبالواجب ! ولم قال لي يوماً أديب من الأدباء الغرب باحتقار ما نصه : « ان شعر السودانيين قد زال عهده ؟ وكأنه ليس لهم أذن عروضية وكل أحد من أهل المغرب يستطيع ـ وانْ لم يكن شاعراً ـ أن يكشف ما في أشعار السودانيين من التنافر وعدم الموافقة في الأبيات وحتى شعراء شنقيط الذين زال عهدهم . وصدر ذلك عمّا في أساليبهم من الخشونة وقلّة الرقة والتهذيب » تكلم هكذا لأنّه جهل أشعارهم كَلَّ الجَهْلِ أو حثه ازدراؤه بهم على أن يحكم عليهم حكماً لا يحتاج تحقيقه إلى الاختبار .

وبينما أتمّ حكمه المائل إذ أنشدت له هذين البيتين (من بحر البسيط) :

يــا غادياً تركب الأهوال والخطرا	وتــدخل البيد كيما تــدرك الوطرا
فبلغن كــل قــحّ مــن بني زمني	أنّــي تــوجّهت أنّي أشعــر الشعرا

فطرب مخاطبنا واهتزّ اهتزازاً كاد أن يطير به في الفضاء فرحاً فصّاح : « لله درّ المتنبئ قال فأحسن وفاه فأتقن ! » فلما أبلغت اليه اسم قائل البيتين صار كأن صاعقة من العجب وقعت عليه . بل انّ قائلهما هو في الحقيقة مواطننا السنغالي جيرْنُ حَامِدُ آن التِيلري حين كان أَبُو مَدْيَن شاعر شنقيط الشهير يبارز ولد أحمد يُورُو وصديقه جِيرْنُ حَامِدُ آنْ .

أتعرف أيها القارئ الكريم من هو المتنبي هذا الذي اليه نسب جليسنا هذين البيتين ؟ فهو أبو الطيب (٩١٥ – ٩٦٥ م) واعتبرته الأعصار أكبر شعراء العرب ! فنعلمنّ أنه من حيثيّة المعنى لم يدلّ هذان البيتان إلاّ على تحدّ ولكنّ سرّهما الحقيقيّ كامن في لفظهما لا في معناهما .

ويسعنا أن نعمّم حكمنا هذا بما يتعلق بالشعر العربي كله حيث غلب اللفظ على المعنى وحيث الصوت الجهوري والإيقاع والكلمة الرنّانة والمطربة لها أعلى قيمة

مما أراد الكاتب أن يقوله بكثير فانّ اعجاز القرآن لناتج من ذاك لأن اختيار الحروف واختيار الألفاظ ووزن الجمل وأناقة الأسلوب ربما قد حضت على اعتناق كثير من العرب للإسلام إذ هؤلاء يتعبدون كلّ تعبد للفظ وبلغ هذا التعبد إلى أنّ كلّ فكرة وان كانت ساذجة كل السّذاجة إذا أحكم قائلها وجهها . وإذا كانت هذه الفكرة من الأسلوب في نهاية حسنه ورونقه صارت مثل خشبة تنقذ صاحبها من الغرق وكأين من شاعر فدى نفسه بإنشاد بيت واحد محكم مُتقن لخليفة من الأمويّين أو العباسيين قد صبّ غضباً عليه من قبل ؟ وكم أديباً أمن من الخطر بل من الحكم بالاعدام بواسطة فكرة جدل حبلها حين كان قبل ايرادها على شفا جرف هار أو على قاب قوسين من كسر لا يتجبّر أبداً .

وقال أبو هلال العسكري اللغوي النحرير المتوفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) في كتاب (الصناعتين في الكتابة والشعر) ما يلي : « وليس الشأن في إيراد المعاني لانّ المعاني ، يعرفها العربي والعجمّي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه »[1] إذا صح ذلك عند العرب صحّ أيضاً عند السنغاليين فان بيت القصيد في اللفظ . غير أن أدباءنا قد جدّوا جدّهم في الشعر بكثير .

وإذا كان الأمر كذلك عزفنا حق المعزفة قول صديق لي وهو (مام بار البكي) رحمة الله عليه يوماً من الأيام في المعهد الأساسي لافريقيا السوداء (افان) فهذا قوله : « انّ براعة أدباء السنغال هي في القريض وأورث ذلك النثر عوزاً فمن ثم أقام ذلك العقبات في طريق التعليم لأن تعليل الشعراء لأشد صعوبة من تبيين النثر » .

ولما أعلن العرب أن ليس قوام لغتهم الفكرة وانما هو الأسلوب يعبرون عن فكرتهم غض الناقد المدقّق طرفه عن كبوة جياد السنغال التي رامت مصلية أن تقع حوا..ها على آثار حوافر الظروف المجلية للعرب في ميدان الأدب ألم يقل

(١) انظر إلى المختار من كتاب الصناعتين صفحة ٣٣ من اختيار محمود ابو رية ، القاهرة مطابع دار الكتاب العربي بمصر .

موليير الفرنسي صاحب الروايات التمثيلية الهزلية في روايته (النساء المتعلمات) هذين البيتين بتصرف :

مَنْ رَامَ أَنْ يَتْبَـــعَ ٱمْرُؤٌ طَرِيقَتَـــهُ   لاَ عِزَّةٌ مِنــه بَـــلْ أخــذ غرته ؟ [1]

فاعترفنا اذن بأن اللفظ انما هو جعل للبلاغة رونقها عند العرب ، وعند أهل القلم في السنغال . وكلّ ذلك نظرية أدبية يمكننا أن نتجادل فيها أو أن نتنازع حقها معتمدين على مقاييس أخرى ومعايير أخرى للجودة في الأدب أو على النظرية في الجمال لـ « تينْ » [2] أو لـ « رُولَنْدَ بِرْتَهْ » [3] أو على أفكار « سَانْتَ بُوفَهْ » [4] أو على النظرية العصريّة لأهل التركيبيّة « اِسْتِرِكْتُرَ اِلسْت » .

وقد يستطيع الناس أن يتناظروا في الجمال بلا نهاية لأنّ ذلك يتعلق بالذوق وفي الطبيعة كلّ الأذواق كما قيل ، فان انماء العلم والفنّ والتغير قد عمل في عقلية الناس . فلأجل ذلك صار كل أمر ولو كان قيمة عليا ـ مسألة جديدة في زمننا العصريّ . وكيفما كان الشأن فاعلم أيها القارئ الكريم أن الجمال والخير والعدل ستبقى قيّمة ما دام إنسان واحد على أديم الأرض . فان أمام تمثال لِ « فِجَاسْ » أو رسم لـ « رَفَائِيلْ » أو أمام « غرنكا » لـ « بَابْلُو بِكَاسُو » يعجب الناس بها وان اختلف هذا الاعجاب على اختلاف الأذواق لاننا نشعر بتأثير الجمال في أنفسنا .

ولكن ينبغي لنا أن ندلّ على وجه آخر : المقصود هو أصالة نتجت عن أفكار ومشاعر ومعان وتجارب وأحوال وأمور قام بها أدباؤنا أو كانوا بها شهوداً .

---

(١) وهما في الفرنسية كما يلي : « Quand sur une personne on veut se régler ».

C'est par les beaux côté qu'il lui faut se ressembler ». Molière

(٢) تِينْ (١٨٢٨ – ١٨٩٣) فيلسوف ومؤرخ فرنسي وله نظرية في الفنون ذات تأثير عميق .

(٣) رُولَنْدَ بِرْتَهْ : هو من معاصرينا وهو ناقد فرنسي شهير في الأدب .

(٤) سانت بوفه هو أديب فرنسي مشهور برقّة نقده في أدب شعراء القرن التاسع عشر (م) .

وقد تغنّى ذو النون بمحاسن فتيات (سِنْدُونِي) [1] وبالتهادي والالتواء في مشيتهنّ وأعلن القاضي مَجَخَتِ أن وطنه « كجور » كان جنّة في الأرض بالنسبة إلى موريتانيا وأشاد بذكر المآثر الحربية لـ (عَلْبُرِ أَنْجَايْ) . أمّا الشيخ أحمد بمبه فكان واقفاً على ساحل البحر محتذياً نعلين بسيطين ومصغياً إلى دويّ الاوقيانوس بـ (مَايُمْبِيَ) في (غَابُونْ) وكان قد نفاه الفرنسيون فيها كما أخذ الشاعر اللتينيّ (أُوِدْ) يتشفّع إلى الأمواج بـ (كُنْسْتَنْزَا) أو كما شرع الشاعر الفرنسيّ (فِكْتُورْ هِيغُو) ينادي البحر في (غِرْنِسِي) فكان الشيخ أحمد بمبه يصيح بكل قوى غلب عليها اليأس حتى كأنه يصخّ أصوات الأمواج الملتطمة وعبّر الشعراء الآخرون عن أحزان أنفسهم وعن أفراح قلوبهم بأسلوب لو نظر اليه عنترة أو المتنبي أو ابن خفّاجة أو ابن زيدون لم يلوموا أصحابه قطّ . وها هنا ينبغي لنا أن نجد مساهمة السنغال في الأدب العربي في حقيقتها فان جلّ انتاج هذا الأدب هو الشعر ويعجب ما فيه من الإحساس والتخيّل واناقة الكلام واختيار الألفاظ وفي بعض الأحيان من التكلف .

وفضلاً عن تلك الصفات الأدبية قد كانت هذه المؤلفات تنعكس فيها الحياة والأحوال لأدباء السنغال وأضف إلى ذلك ما عند السودانيّين من قيم خاصة ومشاعر باطنية وحدس إذ هم مطبوعون على الايقاع وهم يحسنون الجمع بين قبول للمشاهدة والتأمّل وهم مجبولون على الحركات الموزونة والرمزية وهم أوفياء لجماعة كان فيها كل واحد مسؤولاً عن الآخر والعكس بالعكس ومتأصلاً في أعماق التراث السوداني والافريقي .

وهناك سؤال آخر : ولأي جمهور كان هذا الانتاج الأدبي أم بعبارة أخرى إلى من وجّه الأدباء مؤلفاتهم ؟ فأولاً جعلوها عرضة لأتباعهم وتلاميذهم وطلابهم قبل كل شيء وان لم يكن جلّ هؤلاء الأتباع يفهمون اللغة العربية غير أن أهل القلم هم مطمئنون إلى من حولهم من الأدباء ، أو إلى بعض أتباعهم الذين يسعهم أن يفسّروا مؤلفاتهم للجهال أثناء حفلات مسائية أو في المدارس .

---

(١) سِنْدُونِي هي حيّ واقع في جنوب جزيرة (أَندر) .

وبعد تفسير هذا الانتاج في اللغة الولفيّة أو في اللغة الفلانيّة يقضي أهل القلم أوطارهم على كل حال .

وأخيراً ان هذا الأدب لمعدّ للعلماء ولكل من هو راسخ في اللغة العربية وكثيراً ما يكتب أصحاب القلم بعضهم إلى بعض ويرسل بعضهم إلى بعض رقاعاً لطيفة ظريفة أو أمداحاً وثناء أو يبارزون في الشعر .

قد تحدثنا في الإطار الجغرافي والتأريخي والثقافي فينبغي لنا الآن أن ندرس أهم المدارس الأدبية بتفصيل وأن ننبه تنبيهاً مهمّاً فنقول : إذا اعتبرنا مدرسة أشد أصالة من مدرسة أخرى وإذا ظهرت لهجة أديب ما خارقة للعادة وإذا كانت ركائب أديب ما بعيدة الشأو فلا نتردّد في الإشارة اليه والتحدث عنه والتصريح به . وبعد هذا التنبيه علينا أن نتصدّى لدراسة أقدم مدارس الأدب .

مدرسة (كدي) أو في ذكرى الشيخ الحاج عمر تال

إذا كان رجل من الرجالات يهيج ساكن الحمية بهذا المقدار ويحض على الرغبة الحارة في نظر أموره ومعرفتها بهذا المقدار لأجل قوته المغناطيسيّة التي صدرت عن دوره التاريخي العظيم ولأجل وعيه مهمّته بكونه قائداً لشعوب جمّة وأمم عديدة ولأجل مآثر عجيبة قام بها في مدّة غير طويلة ولأجل أفعال جبّارة ترنّ بها القرون اللاحقة فان هذا الرجل هو الشيخ الحاج عمر تال . جعله جذّاباً اكليل الأسطورة الذي أحدق بغيابه الغامض في غار (دِغِمْبِيرِي) في سنة ١٨٦٤ م وجعله أيضاً مستولياً على الرأي العام استيلاء مطلقاً ولقّبه بلقب « نبي أسود » وقد كان من معدن (الاسكندر) و (نابليون) .

وكان ولا شك فيه ، شخصية أسطورة : زعم القوّالون أنه أفحم أوّل معلّميه في الكتاب بأسئلة تجعله يرتبك وهو ابن سنتين ! ان في هذا الصدد لحكايات كثيرة . قيل انه ولد في ليلة الثلاثاء وكان اليوم التالي أوّلِ يوم من شهر رمضان فأمسك الرضيع عن ثدي قدّمته أمه له ! ولم يكن يرضع طول شهر الصوم إلاّ في الليالي وصار يمتنع عن لبن أمه من حين « يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ! وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلبه في سنّ ليس الأطفال الآخرون فيها غير آخذين في تعلّم الهجاء . وكان راسخاً في علوم الدين مبكّراً .

ليس لهذه الحكايات إلاّ معنى أرادوه غير أنّها دلّت على أنّ عمر تال كان ولداً بكيراً يدرك العقل قبل ابانه فصار نادرة في زمانه .

أ ـ **حياته** : وان كانت إحدى حكايات تتعلّق بعُمَرَ تَالْ[1] صحيحة فانه ولد في غرة شهر رمضان سنة ١٢١١ للهجرة (الموافق ٢٨ شباط سنة ١٧٩٧ م) في قرية (هَلْوَارْ) ببلاد (فوتا طور) بالقرب من (كدى) وفي شرق مدينة (بُدُورْ) واسم ابيه هو (سَعِيدْ تَالْ) واسم امه هو (آدَمَ سُخَنَهْ)[2] . وأما أبوه سعيد من شعب (تُكُلُورْ) ومن طبقة (تُورُوبّي) أي الأشراف فكان مشهوراً بسعة معارفه وتقاه وقد كانت آدم أمّ عشرة أولاد وهم (فاطمة) وأُمّ كَلَ[3] وزينب وسيري والمختار وأَنْتَمَانْ[4] وألفا أحمد وجِيرْنُ حَبِي المشهور بـ (جِيرْنُ بُوكَرْ)[5] وعمر أصغرهم . وكان لأبيه سعيد أيضاً ولدان وهما علي الذي اعتبروه وليّاً ثمّ عثمان .

وكان يأخذ عن أبيه وعن شيوخ جامعة (بِرْ) وعن علماء ولاته في موريتانيا ويقرأ عليهم التوحيد . وعلّمه الطريقة التجانية الشيخ (عبد الكريم الفُوتَا جَلّنِيّ) من أصحاب السيد (مَوْلُودْ فَالْ) الذي كان من أتباع محمد الحافظ المتوفى سنة ١٨٣٠ م الذي جعله الشيخ أحمد التجانيّ صاحب الطريقة خليفة له في موريتانيا والسنغال وكان الشيخ محمد الغالي خليفة الطريقة في الشرق يتمّ معرفة الشيخ عمر أثناء حجه إلى بيت الله الحرام وقيل انّه قد تعلّم الطريقة الخلوتية

---

(١) انظر إلى دراسة السيد الأستاذ (مُرِيس بُيشْ) في كتاب الرماح للشيخ الحاج عمر ، سنة ١٩٦٧ بدَكَارْ – وانظر إلى « حياة الحاج عمر » للشيخ مُوسَى كَمَرَ ، قد ترجمت هذا الكتاب إلى الفرنسية في منشورات المعهد الأساسي لافريقيا السوداء سنة ١٩٧٠. وانظر ايضاً إلى كتاب محمد الحافظ التجاني الموسوم بالحاج عمر الفوتي سلطان الدولة التجانية بغرب افريقيا شيء من جهاده وتاريخ حياته ، وهو كتاب مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ٩٧ ص وقد نقله من العربية إلى الفرنسوية السيد فرناد دومو F.DUMONT

(٢) أي شيخة آدَمَ . ومن السودانيات من كان اسمهنّ آدَمَ او الحُسَيْنَ .

(٣) أي أمّ كلثوم .

(٤) معناه عثمان .

(٥) معناه ابو بكر .

على الشيخ السنوسي [1] وفي تاريخ سنة حجّه اختلاف فمن الناس من قال انه حجّ سنة ١٨١٦ م ومنهم من قال سنة ١٨٢٠ م ومنهم من قال سنة ١٨٢٧ م . ومن الأرجح أنه حجّ في عام ١٨٢٠ م وفضلاً عن ذلك وعلى قول (كَبِتِينْ أَنْدَرِي) فانّ الشيخ عمر لقِي في مدينة (سُكُوتُو) في سنة ١٨١٦ م المجاهد الأكبر عُثْمَانْ دَانْ فُودِي [2] والحق أنّ الشيخ عمر وصل إلى (سُكُوتُو) سنة ١٨٢٦ م فاذن لم يمكنه أن يلقى الشيخ عثمان بل ابنه أحمد بلّ المتوفى عام ١٨٥٥ م الذي زوجه ببنته (مريم) وهي جدّة الحاج (سَعِيد النُّورْ) الشيخ الصالح المقيم بـ (دَكَارْ) .

وكانت مريم هذه والدة الحبيب ومحمد النُورُ وكان الحبيب سلطاناً على دولة (دِنْغِرَايْ) وكان للشيخ عمر امرأة اسمها عائشة وهي بنت لأحمد (نِيمَا) وهي والدة أحمد الذي تملّك على (نِيُورُ) و (سِيكُو) و (بَنْجَكَرَ) في (مَالِي) . وللشيخ عمر امرأة ثالثة اسمها (بَتَلْ هَوْصَا) وهي والدة (الهَادي) و (مُنْتَقَى) و (حَامِدُ) وكانت امرأته الرابعة (مَرِيَّةُ) وهي والدة (المَكِيّ) و (سَعِيد) و (أَكِيبُ) و (القريشي) وفضلاً عن ذلك كتب (ابراهيم مُحَمَّدُونْ) من أحفاد الشيخ عمر كتاباً عنوانه « جولات سودانية » ودلّ في صفحة ١٨٠ على ذريّة جدّه العديدة : ٢٥ ذكراً و ٢٥ أنثى ! .

ثم غادر الشيخ عمر (سُكُوتُو) ووافى مكة المكرمة سنة ١٨٢٨ م وفي السنة التالية عنّه محمد الغالي خليفة لنشر الطريقة التجانية في بلاد السودان . وزار دمشق وبيت المقدس وهناك شفى ابناً لبعض الأشراف كان مجنوناً . وعاد من حجه وأقام أياماً في القاهرة وفيها بارز علماء الأزهر في التوحيد وعلوم الدين ونصره

---

(١) هو سيدي محمد السنوسيّ الجزائريّ : (١٧٩١ – ١٨٥٩) ولد في جغبوب وأسّس الطريقة السنوسية الصوفية السياسية وغايتها تكوين الوحدة الإسلامية من مؤلفاته « السلسبيل المعين في طريقة الأربعين » وفيه خلاصة تعاليمه .

(٢) هو عثمان بن فودي وقد فصل له الأستاذ (تابيرو) مقالاً ذا بال جداً عنوانه : « عثمان دان فودي (١٧٥٢ – ١٨١٦) وشخصيته الدينية » وانظر إلى « إِنْفَاقِ المَيْسُورِ » لأَحْمَدُ بِلْ بن عثمان دان فودي ومخطوطته في (ايفان) .

الله عليهم ورجع إلى (سُكُوتُو) في عام ١٨٣٢ م وهناك ولد ابنه أحمد سنة ١٨٣٣ م ثم ذهب من (سُكُوتُو) في سنة ١٨٣٨ م إلى (فوتا طور) .

ومن ١٨٣٥ م إلى ١٨٤٩ م تَهَيَّأَ للحروب بمؤلفاته ومواعظه وتحصيله على البارود وعلى الأسلحة وعلى الذهب ومن ١٨٤٩ م إلى ١٨٦٤ م قام بالجهاد وبالكفاح بلا تنكر لدعوته افريقيا الغربية برمتها إلى الإسلام .

وفي عودته إلى بلاد السنغال مرّ الشيخ بـ (مَاسِنَا) وكان (شَيْخُو أَحْمَدُ) ١٧٧٥–١٨٤٥ م ملكها وولد (الحَبِيبُ) ابن الشيخ الحاج عمر في (حَمْدَ الله) عاصمة (مَاسِنَا) ثم عدل الحاج عمر إلى (سِيكُو) حيث سجنه (جِيفُلُو) ملك هذه البلاد وقيل انه أخلى الملك سبيل الشيخ عمر على وجه عجيب ثم جاء إلى بلاد (فُوتَا جَلُّنْ) حيث أكرم مثواه (أَلْمَام عَمَرُو) وأعطاه ضياعاً واسعة في (جَغَنْكُو) فهناك بنى الحاج عمر زاوية وانضمّ اليه أتباع كثيرون . فألف كثيراً من مؤلفاته واستخرج ذهباً من معادن (بُورْ) لاشتراء أسلحة وأعتدة حربية في (غامبيا) .

ورجع ثانية إلى مسقط رأسه في سنة ١٨٤٦ م [illegible] عقيد (كَايْ) مدير الشؤون السياسية في أيّام الحاكم [illegible] (كرامو) واعلن الشيخ عمر أنه يريد فتح بلاده السنغال واعادة [illegible]من إلى حاله واصلاح الشراء والبيع .

وزار قريته نغني مولده (هَلْوَارْ) بعد أن أكرم وفادته في (جُمْ) (أَلْمَام أَحْمَدْ) الذي تملّك حينذاك على (فُوتَا طُورْ) وفي سنة ١٨٤٧ م عاد إلى (جُغَنْكُو) بعد أَنْ مَرَّ بـ (مَاتَمْ) حيث احتفى به رئيس الثغر (هِكَّارْ) . ولما فزع (أَلْفَا يَحْيَى) ملك (فُوتَا جَلُّنْ) من عرمرم الشيخ الحاج عمر أبى على الشيخ عمر الدّخول في دولته ولأجل الاضطهاد الذي عاناه في هذه البلاد غادر الشيخ عمر (جغنكو) بعد اقامة عشرة أشهر وهجر إلى (دِنْكِرَايْ) في سنة ١٨٤٨ م . وقد شبّه الناس هجرته إلى (دِنْكِرَايْ) بهجرة النبي (صلعم) من مكة إلى المدينة المنورة . وعنت هجرته ابان كفاحه وأظهرت علامة جهاده . فبنى حصناً حصيناً وأنشأ جيشاً محتوياً على سبعمائة رجل ولكل منهم بندقيّة .

وفي سنة ١٨٤٩ م هزم الشيخ عمر (يَمْبَا) ملك (تَمْبَا) وهو من قبيلـــة

(مَنْدِنْغَ) وكان يأتي فيحاصر (دِنْكِرَايْ) حصن الشيخ ثم فتح الشيخ عمر (لَبْتَ) قضاء من أقضية (تَمْبَا) وفتح مدينة (تَمْبَا) بعد حصار استغرق ستة أشهر وفتح (كَفُودِي) عاصمة سلطان (بَنْجُغُوكَيْنَا) من سلالة ملوك (مَالِي) الأقدمين وضرب عنق (بَنْجُغُو) ثم ترك ابنه (أَكِيبُ) (عَاقِبُ) (١٨٣٨ – ١٩٠٨ م) يقوم مقامه في (دِنْكِرَايْ) وسار نحو مملكتي (بَمْبُكْ) و (بَلْدَغْ) وفي سنة ١٨٥٢ م غزا (المَسَاسِيِّين) أهل دولة (كَهَرْتَا) ثم فتح (نِيُورُ) في عام ١٨٥٤ م وأكره أهل هذه المدينة على اعتناق الإسلام .

وبعد غزوات دامت خمس سنوات استولى على مملكة (كَهَرْتَا) وضرب عنق ملكها (كَنْجَا) . ومن سنة ١٨٥٧ م سار محاصراً مدّة ثلاثة أشهر (مَدِيَنهْ) وهو حصن كان (بُولْ هُولْ) الخلاسيّ الاندريّ يدافع عنه وفي نفس هذه السنة جاء (جِنِرَالْ فِيدِرْبَهْ) ينصره على الشيخ وبعـد هزيمة الشيخ عمر عاد في سنة ١٨٥٨ م إلى (فُوتَا طُورْ) ليضمّ اليه جنوداً مدّة أعوام . قيل انه لما أراد أن يتبعه مواطنوه في جهاده أحرق أهراء الدخن والقرى وفي سنة ١٨٥٩ م قاد جيشاً محتوياً على أربعين ألفاً من الرجال وسار في نهر (السنغال) وهجم على مدينة (ماتم) من جديد وكان يذبّ عنها (بُولْ هُولْ) بنفسه . فرّ الشيخ بها وبـ (بَكِيلْ) وسار على ١٤ كيلومتراً منها وبنى حصناً في (غِمُو) ولكن فتحه الجيش الفرنسي وفي أثناء هذه الغزوة استشهد (سِيرِي آدَمَ) الأخ الكبير للشيخ عمر .

ثم توجّه الشيخ عمر نحو (كَهَرْتَا) مريداً تعميرها بأهالي تكلورية جاء بها من (فُوتَا تُورُ) فلما ترك (كَرْنَ) مقدم مدينة (بَكِيلْ) مدفعين لاطلاق القنابل في قرية (جُمُّ) أخذهما الشيخ عمر واستولى بهما على (أَيتَالاَ) وكان يدافع عنها (تَاتَا) ابن (عَلِيّ دَامُنْزُو) ملك (سِيكُو) وأهل (بَنْمَنَا) . فقتل الشيخ عمـر (تَاتَا) في سنة ١٨٥٩ ثم سار يحتل مدينة (سَنْسَنْدِنْغَ) وسلّط (كَرْمَانَا) رئيس تلك المدينة الشيخ الحاج عمر عليها قاصداً تخليصه من (الفلانيين) و (بَنْمَانَا) وحينذاك أخذ (أَحْمَدُ احَمَدُ) ملك (مَاسِنَا) [1] و (عَلِي دَامُنْزُو) ملك (سِيكُو)

---

(١) (مَاسِنَا) دولةٌ أَسَّسَهَا الفلانيون ودونكم ملوكَهَا من ١٨١٥ إلى ١٨٦١ : (سَيْكُو =

يتآمران على الحاج عمر وفي كانون الثاني من سنة ١٨٦١ م هزم الشيخ عمر في قرية (تيو) جيش الفلانيين وقائده (بَالُّبُ) وجيش (بَمْبَرَ) لعلي ملك (سِيكُو) وافتتح في شهر آذار في سنة ١٨٦١ مدينة (سِيكُو) التي تولى منها مدبراً (عَلِي دَامُنْزِو) وأكره الشيخ عمر رؤساء الأقضية والموظفين والجنود على اعتناق دين الإسلام وأمر (صَمْبَهْ أَنْجَايْ) وهو من مقدميه أن يحصن مدينة (سِيكُو) فهزم ثانية الشيخ عمر جنود (عَلِي دَامُنْزِو) وجنود (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) في قرية (كُوغُو) فأخذ (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) في مصالحة الشيخ الحاج عمر . فأبى الشيخ عمر ذلك عليه لأن (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) قد أبى ذلك على الشيخ عمر حين صالحه من قبل .

ولما هزم ثالثة الشيخ عمر (بَالُّبُ) في (كُونْغُو) سلط أحمد ابنه على (سِيكُو) ثم افتتح الشيخ عمر (حَمْدَ الله) عاصمة دولة (مَاسِنَا) في اليوم ١٦ من شهر أيار فتولى (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) ملكها هارباً على نهر (النيجر) وكان جريحاً ولذلك لحق به (أَلْفَا عُمَرْ بَيْلاَ) من قوّاد الشيخ عمر تال ورجع به إلى مدينة (مُبْتِي) وهناك أمره الشيخ عمر أن يضرب عنق (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) بينما حبس (عَلِي دَامُنْزِو) ملك (سِيكُو) وقد دلّ هذا النصر على أوج مجد المجاهد الأكبر الشيخ الحاج عمر تال وكانت مملكته بعيدة الأطراف إذ امتدت من (فُوتَا تُورُه) إلى (تُمْبُكْتُو) .

وفي سنة ١٨٦٣ م صمم الشيخ عمر على قهر قبيلة (مَبَس) ولكن (بَالُّبُ) و (عَبْدَ السَّلاَمْ) خالي (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) المرحوم وسيدي (أَحْمَد البَكَّايْ) حامي (تُمْبُكْتُو) تآمروا على الحاج عمر فكشف الشيخ عمر مقاصدهم وألقى القبض على (بَالُّبُ) و (عَبْدَ السَّلاَمْ) وأهليهما ثم خرج إلى (تُمْبُكْتُو) غير انه هزم في (غُنْدَمْ) فرجع إلى (حَمْدَالله) حيث كان ابنه أحمد يقوم مقامه فأمر بقتل

= أَحْمَدُ) مؤسسها ثم (أَحْمَدُ سِيكُو) ابنه ثم (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) ابن (أَحْمَدُ سِيكُو) وبعد قتل (أَحْمَدُ أَحْمَدُ) جاء الحاج عمر ثم (تِجَانِي أَحْمَدُ) ثم (حَبِي مُنِيرُ) ثم احمد بن الحاج عمر ثم (أَكِيبُ) بن الحاج عمر . ثم صارت مَاسِنَا مستعمرة لفرنسا سنة ١٨٩٣ .

أهلي السجينين اللذين قد نقلا من السجن قبل إتيان الشيخ الحاج عمر فقتل الملك (عَلِي دَامُنْزُو) فاعلن هذا القتل علامة الخروج العام على الشيخ عمر في (مَاسِنَا) ولما أراد الفلانيّون قطع الطريق بين (حَمْدَ الله) و (سِيكُو) حاصروا (عَلِي أَرْدَ) وكان قائداً من قواد الشيخ عمر في (نَمَنْدِ) فجاء (أَلْفَا عُمَرْ) يخرجه من الورطة وسار إلى (تُمْبُكْتُو) ونهبها غير انه طلبه (بَالُّبُ) و (سِيدِيَا) ابن (أَحْمَدْ البَكَّايْ) في عودته إلى (حَمْدَ الله) فلحقا به وضرباه وقتلاه في سهل (مَنَمَنَ) ريثما انهزم (أَلْفَا عُثْمَانْ) قائد من قواد الشيخ عمر .

فجاء (بَالُّبُ) و (سِيدِيَا) يحاصران (حَمْدَ الله) مدة ثمانية أشهر . ولمّا لم يصل (تِجَانِي) ابن أخ للشيخ عمر بمدد ، أحرق الحاج عمر (حَمْدَ الله) في اليوم ٦ من شهر شباط في سنة ١٨٦٤ م وخرج من المدينة هارباً فطلبه أعداؤه وحاصروه في كهف من كهوف (دِغِمْبِيرِي) من صخور (بَنْجَغَرَي) العالية وفي اليوم ١٢ من شهر شباط سمع الأعداء انفجاراً فقد القى الحاج عمر ناراً في بارود حمله في وعاء له وكان جسده وأجساد ابنيه (المَكي) و (الهَادِي) ومن تبعهم متمزقة وكان الشيخ الحاج عمر ، عمره سبعون سنة على حدّ قول بعضهم وهناك روايتان أخريان زعم أهل (مَاسِنَا) أنهم اختنقوه في الغار وزعم أتباع الشيخ عمر أنه قد أدرك وفاته قبل وقوعها فرفعه الملائكة كما رفعوا النبي عيسى عليه السلام في السماء وأنه سينزل على الأرض مهدياً يقيم الحق والعدل ويستمر مجاهداً الكفار .

وان القى ناراً في البارود فانه انتحر وحرم القرآن على المؤمن قتل نفسه واعتبروا الحاج عمر ولياً كاملاً بل قطباً لزمانه وكيف لم يعجبني كل العجب قطب يقتل مهما كانت شدة الورطة ؟ وكيفما كان الأمر جاء (تجاني) متأخراً تأخر (غرشي) في وقعة (ونرلو) ولكنه هزم الله به (سِيدِيَا) و (بَالُّبُ) . وللانتقام للشيخ عمر حشد (تجاني) ثلاثمائة عالم فلاني من (مَاسِنَا) وقيدهم وأحرقهم ثم جمع الأجساد الممزقة للحاج عمر ولاصحابه القتلى ودفنها .

وكانت حياة الشيخ الحاج عمر تال كثيرة الحركة ومآثره خارقة للعادة ومملكته شاسعة الأطراف وإذا كان الأمر كذلك فيمكننا أن نشبهه بـ (الاسكندر)

وبـ (نابليون) قد كان ذهب بلا شيء سوى ايمانه بالله ودهائه وشجاعته وعلومه وبلاغته فتمكن من انشاء سلطنة تسع أكثر من ثلاثين مملكة في مدّة أقل من عشرين سنة . وكما كتب الشيخ (مُوسَى كَمَرَّ) على حدّ قول (مُوسَى سَالِفْ) « بدأ الجهاد وهو ابن ٥٨ سنة ١٢ سنة ثم مات في جبل (دِغِمْبِرِي) وهو ابن ٧٠ سنة وشهد ٧٤ وقعة » لقد أفرط (مُوسَى سَالِفْ) في أرقامه وكل ذلك دلّ على ان الحاج عمر كان رجل عمل وعالماً بفن الحركات الحربية في جميع غزواته .

وهاكم الوصف الذي جاء به (سُلِيَهْ)[1] في خلقه وخلقه وقال : « كان مشاراً اليه بالبنان وكانت عيناه قويتي الدلالة وبشرته مذهبة وملامح وجهه متناسقة ولحيته سوداء طويلة حريرية مفرقة في ذقنه ولم يكن له عنفقة ولا شوارب وكان في يديه ورجليه كمال وكأنه لم يرب على ثلاثين سنة ولم يره أحد قطّ يتمخّط أو يبصق أو يجري عرقه أو يضره الحر أو يصيبه البرد ويمكنه أن يبقى بلا نهاية بدون مأكل وشرب . وكان لا يبدو عليه علامة التعب في السير أو في الركوب أو إذا كان متكئاً على حصير » .

ب ـ مؤلفاته : لا شك في أن الحاج عمر لم يكن أمامه متّسع من الوقت للتأليف إلا قبل أن يشرع في الجهاد والغزوات والفتوحات غير ان ما بقي لنا من مؤلفات له دلّ على وفرة ثقافته وعلى سعة معارفه في أمور الدين . أما مواعظه التي أوردها الشيخ موسى كمر فدلت على ان الشيخ عمر كان خطيب حرب وانه بلغ بها شأن خطباء الحروب في القرون البائدة فعل طارق بن زياد أو نابليون بونابرت فقد كتب كتباً جمّة في شتى الموضوعات ؛ ففي التوحيد مثلاً ألف عدة من العقائد ومنها :

١) سيوف السعيد .

٢) وسفينة السعادة .

---

(١) انظر إلى كتاب « سفر إلى سيكُو لِبُولْ سُلِيَهْ ١٨٧٨ – ١٨٧٩ م » ألّفه كَبرِيَلْ كَرَاوِيَهْ طبعة شلّميل الأكبر باريس ١٨٧٨ م .

٣) وتذكرة المسترشدين .
٤) وأرجوزة في العقائد .
وغيرها .

وألف أيضاً في الفقه « كتاب أجوبة المسائل » و « كتاب الفتاوى المطوعة » و « كتاب التقيد في خواص الحزب الشافعي » وعالج في الدعاية الدينية كتاب « عاديات المذنبين » وكتاب « المقاصد السنية » . وفي التصوف له كتاب « رماح حزب الرحيم على نُحور حزب الرجيم » قد ألفه في عام ١٢٦٥ للهجرة ثم كتاب « الفلاح المبين » وكتاب « النصح المبين » ورسالة « الأجوبة في الطريقة التجانية » ومع ذلك نظم الشيخ الحاج عمر قصيدة مسماة بـ « تذكرة المسترشدين » وقصيدة مشهورة بـ « تذكرة الغافلين في قبح اختلاف المؤمنين » وأنشأ قصيدة أخرى وعظ بها أهل « فوت » ورواها الشيخ موسى كمر . وللشيخ الحاج عمر بعض رسائل بعث بها إلى أحمد بن أحمد ملك « ماسن » .

ومن جميع هذا الانتاج لن يستوقف نظرنا إلاّ ما يتعلق بموضوعنا نعني الرسائل والمواعظ وبعض القصائد .

ج ـ مراسلته : وفي أول رسالة بعث بها الحاج عمر إلى أحمد بن أحمد ملك « ماسنا » لهجة حادّة حاسمة حازمة وأسلوب غير حلي . والمرسل اليه الذي حاول مفاوضة في عقد معاهدة في حال الغلبة قد شرع في اكثار الغزوات والهجمات على معسكر الشيخ عمر . وكأن الحاج عمر راعى جانب خصيمه الذي كان مع ذلك مسلماً وكتب اليه كتاباً توعده فيه ما يلي : « فليس بيننا وبينكم سوى ما أمر صلى الله عليه وسلم . وان أمرت بقتالنا أو بسفك دم واحد منّا فلا يكون بيننا أيّ معاهدة » .

ووجه الشيخ عمر « سِرْنُ خَالِدُ » بهذه الرسالة إلى أحمد بن أحمد فتلقاها برفض حاسم وقد قضي هذا الأمر في شهر رمضان عام ١٢٧٧ للهجرة وبعد عهد غير طويل بعث أحمد بن أحمد برسالة إلى الشيخ عمر فقال الحاج عمر : « فما راعنا إلا وثيقة أحمد بن أحمد بأيدي رسله فنظرناها فإذا هي كالوثيقة الأولى في منوالها مع كثرة ما فيها من السبّ واللعن والشتم والاذاية والتهديد والوعيد

فاعرضنا عنها وكتبنا اليه جواباً يليق أن يصدر منا ولفظه « باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل لنا سعة في قتال أعدائه الكافرين عن قتال أوليائه المؤمنين وعلّمنا انا ما كملنا ولا نكمل قتال الكافرين المجرمين فأغنانا بذلك عن قتال عباده المؤمنين اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم إلى كافتكم الرعاة والرعية تحية منا وسلام وإكرام يشيعهما دعاء ورضى واحترام أما بعد فمن باعث الرسم اليكم اعلامكم بأن رسلكم جاءونا ونحن في القتال مشتغلون بذلك ورمنا منهم الصبر والتصبر حتى نجد وقتاً ومكاناً يتسع لنا فيهما الكلام ونتفرغ لارسال رسل معهم اليكم فلم يساعدونا في ذلك لضيق صدورهم عن ذلك ولما كان الأمر هكذا أردنا أن نقتصر بالايجاز عن الأطناب ونقول اعلموا يا اخواننا انا إن شاء الله لمهتدون لما أمر الله به ورسوله في قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وبقوله تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » وكائنون كما قال مولانا « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » وكما قال تعالى : « محمّد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم » ولا نتولى إن شاء الله بفضله كافراً ولا يجوز أن نقاتل مسلماً فأحرى أن نطلب أن نكون مع المشركين جيشاً واحداً ونجاورهم ونقاتل المسلمين نعوذ بالله من أن نعين راية الملك على راية الشريعة والسنة فأحرى أن نعين راية الشرك على راية الإسلام لأنّا لا ولي لنا إلاّ الذين عدّهم مولانا وعينهم لنا فقال : « إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » ولا نكون إن شاء الله إلا كما كان وقال العبد الصالح نبي الله ورسوله شعيب عليه السلام كما أخبر الله عنه بقوله : « ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب » فإذا فهمتم هذا فاعلموا اننا لم يكن بيننا وبينكم وبين كل مؤمن إلا الخير والعافية وليس في قلوبنا شر لكل مسلم ولا إرادته « ان وليّي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » والسلام معاد عليكم كما بدأنا به أول مرة انتهى المراد » .

وقد روى الشيخ موسى كمر رسائل أخرى بيد أن الوثيقة التي سبقت معبر عنها ببلاغة في اللفظ والمعنى . فهذا ما نصه : « فاننا لا نقاتل المسلمين ولا المؤمنين بل المشركين وعُبّاد الأصنام » واتصل كل الوصف في جميع وجهه بذلك المعنى وليقوي الشيخ عمر فكرته كل تقوية أيدها بآيات قرآنية عديدة فان أولياءه هم أولياء الله ورسوله والمؤمنين العاملين بأمر ربهم وان أعداءه هم أعداء الله ونبيه والمؤمنين .

وصدرت مهارة الشيخ عمر عمّا انه اتّهم المرسل اليه تعريضاً : « ان أوليائي هم أولياء الله ورسوله والمؤمنين الصالحين فلا أقاتلهم أبداً وانتم وإن كنتم مسلمين توليتم الوثنيين والكفار فتتعرضون من قبلي لما يتعرض المشركون وعُبّاد الأصنام » .

وكأن الشيخ عمر قال ما يلي : « أستأجل رسلكم قليلاً فليصبروا وليتصبروا . وسيجيء دوركم بعد انتصار أعداء الله » قال (بُفُونْ) [1] العالم الفرنسيّ الشهير : « ان الأسلوب هو الإنسان بنفسه » فيمكننا أن نقول ان تلك الرسالة ليست موضوعة بل هي من الحاج عمر : فهي معنى صريح عبّر عنه لفظ صحيح بسيط توسع فيه الكتاب وفق تقسيم بيّن منسجم وبألفاظ متخيرة عادية بغير سجع وكل ذلك يورث أصالة بدون تقليد ولو في الصناعة الفنية .

وكان الشيخ عمر ملّكته مهارته الفنية عنانها وأعطته طريقته الفنية قيادتها في عام ١٨٦١ م . ولو كان يراسل مراسلة الخوارزميّ أو كاتب من الكتاب الذين كانوا يعيشون في القرن الرابع للهجرة لكان يورد كثرة من صفات ثنائية وألقاب تقريظية نحو المرسل اليه بل فصل خطابه موجز غير طويل ويعالج موضوعه بدون استطراد في الكلام وبعد أن تحدث عما أراد أي فكرة شخصية ومعانيه الخاصة وضع ختاماً موجزاً كما بدأ رسالته .

وانّ بساطته في المعنى واتزانه في التصميم وسهولته الخالية من تكلف ومن محسنات بديعية في الأسلوب وخبرته للغة العربية كلّ هذه الصفيات قد جعلت

---

(١) Buffon

الحاج عمر كاتباً مفرداً وخصيماً قاهراً في المناظرات ومجادلاً فخماً لأعدائه وكان الشيخ أيضاً متبحّراً في علوم الدين وحافظاً القرآن أتم حفظ ومتوصلاً إلى معرفة أسراره والدليل على ذلك أن تصغي سمعاً إلى قوّالينا الذين لا يزالون معظمين انتصاره المبين على أشياخ الأزهر وعلمائه عندما كانوا يجادلونه في علم الكلام بالقاهرة . ولو علم هؤلاء العلماء بأن الشيخ السنغالي كان يفحم معلّميه الأولين في المناظرات وهو في ريعان عمره لم يدعوه إلى المبارزة التوحيدية . وكيف لا وقد صار مشهوراً في حداثته بما في أسلوبه من سحر وفي معارفه الدينية والتصوفية من رسوخ قدم إذ كان ولداً بكوراً وفتى عجيباً وكهلاً مدهشاً وشيخاً خارق العادة .

وكان الحاج عمر يتوصل ، شأن عبقريات الحرب ، إلى معرفة سائر أسرار فن الخطاب وهذا الفن متألف من حميّة ومهارة وشدة وعزم .

انظروا كيف استهلّ رسالته لأهل مدينة (سِينْ لَوِ) لجعلهم عازمين على العصيان على ذوي العقد والحل أو مدافعين عنه إذ قال : « قد نهاكم الله عن موالاتهم (أي اليهود والنصارى) وبيّن أن من تولاهم فانه كافر ومنهم بقوله « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم »[1] .

وهذا ليس عبارة عن حقد الشيخ الحاج عمر على اليهود والنصارى بوجه خاص بل ينبغي لنا أن ننظر وقته وزمانه . وكان الشيخ في سنة ١٨٤٧ م مسلماً مؤمناً تبعه شعبه كلّه تقريباً عقد عزمه لفرض إرادته باسم الإسلام وهذا المسلم المؤمن صار يحازم على السيادة أجانب يريدون جعل وطنه مستعمرة . ان في ذلك لصدمة بين ارادتين متضادتين . وان الذين كان الشيخ يكافحهم فا هم أهل الكتاب بل المستعمرون والدليل على ذلك هو أن نذكّر بما قاله في حصن « بكل » في شهر آب سنة ١٨٤٧ لأمير سنغال « كَرَامُو » والمشرف على الشؤون الخارجية « كَايَ » وكان « بُولْ هُولْ » حاضراً ، قال الشيخ : « أنّني صديق للاروبيين ومريد للسلام وكاره للمسبّة فإذا أقام نصرانيّ الجزية أمكنه أن يقوم بالتجارة فيأمن من

(١) سورة المائدة الآية ٥١ .

كل أذى فإذا توليت أمور هذه البلاد كامام (فوت تور) فعليكم أن تبنوا لي حصناً . فسأدرب أهل البلاد وتجري بيني وبينكم علاقات وديّة حسناء [1] . » فتلك إرادة بينة للسلام خالية من كل حقد على اليهود والنصارى بالخصوص .

وفي سنة ١٨٦١ م أرسل أحمد أحمد إلى الشيخ عمر كتاباً قال فيه : « أما بعد فالسلام والإكرام من تلميذ الشيخ سليمان أحمد بن أمير المؤمنين أحمد بن الشيخ أحمد بن محمد إلى الشيخ عمر بن سعيد قائلاً لك اعلم ان براوة شيخي هذه هي براوتي والسلام » . فقال الشيخ عمر في جوابه ما يلي : « اعلم أيها الناظر المنصف أن أحمد هذا خالف فينا ما أمر الله به أولياءه المؤمنين وجانب في جميع أحواله معنا السلف الصالحين المتقين من المسلمين لمؤاخاته المشركين في محاربتنا وقد علم عند العقلاء أن الأصدقاء ثلاثة : الصديق وصديق الصديق وعدو العدو ، كما ان الأعداء ثلاثة ، العدو وصديق العدو وعدو الصديق » .

ان هذه الرسائل ذات أهميّتين ؛ إذ هي عبارة عن معان شخصية وفكر الشيخ عمر والعلاقات بينه وبين معاصريه وما كان لتصرفه من رد فعل ومطامح وحاجات دنيوية ودينية هذا من جهة واهتمامه باستعمال أسلوب بسيط سليم خال من كل تصنع ملائم لقواعد مختصة بانشاء الرسائل . فان مطلع رسائله مجرد من سلسلة صفات الإكرام للمرسل اليه بل ابتدأ الشيخ بالتعبير عما يريده من معان وانفعالات وتأثرات شخصية بحسب تقسيم ذي اتزان وصورة قريبة المأخذ مقتبسة من ثقافة إسلامية واسعة وفي الأخير جاء الختام غير طويل وبدون تكلف .

ان هذه الصفات الحسنة في اللفظ وفي المعنى نجدها في خطابه الشعريّ .

وفي هذا الصدد قال الشيخ مُوسَى كَمَرّ : وقد رأيت قصيدة منسوبة إلى الشيخ عمر يخاطب بها أهل (فوت تور) ويحثهم على الجهاد معه وقد نقلت منها هذه وهي :

---

(١) Voyage dans le Soudan Occidental (Sénégambie), Paris Hachette 1868.

بني طـور جيئوا مسرعين لسعدكم ... تنالوا الذي قد نـال قتل مـن الخل
بني طـور كونوا مثل آبائنا الاول ... ذوي الجدّ والتقوى والإحسان والعدل
بني طـور توبوا وارجعوا لتراثكم ... جهاد عـدو الله دومـاً بـلا بتل
بني طور سينا فيه كـان اصولكم ... لأجـل جهاد جئتموا فـوت بالذّأل
بني طور تـوبوا مـن جميع عوائد ... تخالف شرعاً واقصدوا زينة الفضل

إلى أن قال :

بني طور انّـي لست أترك صاحبي ... هنا وغـداً والفضل لله وذي الطول
بني طـور أصحابي خيـار وسادة ... وهجرتهم لله خـالقنا العـدل
وهم جنـد مـولانـا وحزب نبينا ... فأسعد بهم والكهل في ذاك كالسّخل

إلى أن قال :

اجيبوا تنالـوا فوق ما نال أهلكم ... وآباؤكم لما أجـابـوا بـلا عـول
أجيبوا تنالوا فوق ما نال كـل من ... أجـاب سليمان [1] الـذي قام بالنبل
أجيبوا باخلاص وحسن طويـة ... ولا يصرفنكم شدّة الأمـر والشكل

وقد حذفت كثيراً منها للاختصار [2]

ومعنى هذه القصيدةُ هو ما يلي : « يا أهل فوت تور هاجروا معي للقتال في سبيل الله وهذا لسببين أحدهما فان الجهاد من عوائدكم القديمة وقد قادكم قبلي الشيخ سليمان بال إلى الغلبة على الكافرين الفلانيين من جهة ومن جهة أخرى فانكم

---

١) وكان سليمان بال بن راسن قائد طبقة الأشراف أي تُورُوبِّي من اهل تكلور ، ولما أَراد هؤلاء الأشراف نقض دولة دِينِيَنْكُوبِي الفلانية في فُوتَ تُورُ ، خرج سُلَيْمَانُ بَالْ مع حزب تُورُوبِّى على الفلانيين الوثنيين فنصر الله سليمان على عبادة الأصنام ، ولكن قتله الموريتانيون سنة ١٧٧٦ م فجاءت دولة الأئمة في فُوتَ .

(٢) اقتبست هذه القصيدة من صفحة ١٥ لكتاب الشيخ موسى كَمَرَّ الموسوم « بأشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر » .

جئتم من طور سينا وطن إبراهيم عليه السلام أبي اسماعيل ينبغي لكم إذن أن تجاهدوا معي وأن تكونوا أتباعي وجند الله فتصيروا سعداء إن شاء الله » .

ومن الأسف ألا يورد الشيخ موسى كمر جميع القصيدة . ولكن ان لنا قصيدة أخرى منه ومن الأفضل أن نفسح للشيخ عمر بالكلام يبين لنا في مقدمة ذات بال ما أداه إلى تأليف قصيدته : « باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم الحمد لله الذي أرسل رسوله بشيراً للعالمين وأوجب عليه أن يذكّر الثقلين فقال « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ، وما خلقت الجن والأنس إلاّ ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » والصلاة والسلام على من بعث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيدنا ومولانا محمد الذي يذعن له كل مخلوق في الحشر ، وبعد فاعلم يا أخي رحمك الله انّي تصفحت آية من كتاب الله وأمعنت فيها النظر فوجدتها ناهية عن جميع المعاصي القلبية والجوارحية وآمرة بجميع الطاعات الظاهرة والباطنة وهي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون » . فقد عنتني نفسي أن أنظمها نظماً منتقلاً ويكون كل حرف منها ولو غير ثابت في الرسم كالألف المحذوفة بيتاً كاملاً وتكون تلك الحروف أول البيت وأشير إلى كل حرف من حروفها الهجائية لجعلها محمرة في أول البيت وبتمام حروف الآية الشريفة تتم القصيدة إن شاء الله تعالى وقد كنت نظمتها أوّلاً في السفر ونحن قاصدون بيت الله الحرام فلما وصلنا مكة المشرفة وقضينا مناسكنا وتم حجنا بحمد الله قصدنا المدينة المنورة لزيارة أفضل البرية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فلما وصلنا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرناه كما ينبغي وتم مطلبنا والحمد لله على ذلك اشتاقت نفسي إلى أن أنظمها مرة ثانية في مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلم تبركاً به وبتلك الأماكن الشريفة بتغيير كثير مما كان في المنظومة الأولى وترك بعض الأبيات كما كانت أوّلاً وزيادة على المنظومة الأولى إذ منتهى تلك قوله جل وعز « وأكن من الصالحين » ثم اعلم أني ما قصدت بهذه القصيدة

اظهار منصبي في علم العروض والنحو والتصرف والمعاني والبيان والبديع وغير ذلك بل قصدي بها نفع المؤمنين الذين لهم اعتناء باصلاح نفوسهم لا غير ومع ذلك انها قصيدة نافعة إن شاء الله عون لمن عمل عليها وعمل بمقتضاها بما في ضمنها . وسميتها « تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين » وتم نظمها وتسويدها وتبييضها في المدينة المنورة في مسجده صلى الله عليه وسلم في الروضة المشرفة بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ووجهي إلى وجهه صلى الله عليه وسلم يوم الخميس وقت الضحى بعد أربع مضين من شهر الله شوال سنة أربع وأربعين ومائتين والف من الهجرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فقلت :

يقول فوتي وذاك الأفقر	الكدوي ابن سعيد عمر
الحمد لله الذي توحدا	في ملكه كفّر من قد جحّدا
الهنا صل دواماً سلم	على الرسول المصطفى المكرم
يا أيها الأخوان لا تشتغلوا	بالمال والبنين خيراً اعملوا
هم وغم دائم للمشتغل	بالمال والأولاد دون الله جل
إذ هذه الدنيا غرور باطل	واعمل لدار دائم يا غافل
إذ كل شيء كان لكن زائل	فهو غرور فاعتبر يا غافل
لا تطلبوا فيها سوى ما ينفع	في الحال والمآل لا ما يردع
ذروا عباد الله ما يشغلكم	عن ذكر ربي واعملوا لربكم
يا أيها المغرور بالآمال	ويحك تب واقصد إلى الأعمال
نكال رب الخلق والنيران	لم ينج منها المال والولدان
أجل ولا جاه ولا قرابه	ولا شجاعة ولا حرابه
إذا رأيت الناس في القيامه	يحاسبون هم ذووا الندامه
مزوح كل امرئ بمثله	ندمت ما فعلت من عصيانه
ندامة عظيمة لا تنفع	تب قبل تطلب ما لا يسمع
ولا يغرك الذي علمته	من رحمة الرحمن وسمعته
إذ ربنا لو كان ذا الغفران	فهو ذو النقمة والنيران
لا تقبلوا قول عدو الله	بالزور والباطل أهل الله
ان الاله الخلق قد أخبرنا	عداوة اللعين حين غرنا

ترى عدو الله ماكراً بنا … مكر عدو حاذق وما ونى
لقوله اعمل فإن ربكا … يغفر يرحم وغير ذاك
هو الذي أخرج آدم النبي … من جنة الاله أمره ابي
كلوا أموركم إلى بارئكم … لانه خالقكم منشئكم
متى اشتغلتم بذكر ربكم … يغنيكم الله على عدوكم
إلهنا ضمن أن ينصر من … ينصر دينه بلا خلف زكن
من يشتغل بالذكر والعباده … يعن بلا شك لخرق العاده
وللذي يذكر خمسة عشر … فضيلة وكلها الله ذكر
أعني به المستغرقين في الذكر … بشرطه المعلوم دون من ذكر
لأنها مقرونة بالتقوى … والذكر قوت المتقي والمأوى
كذا لأن الذكر جنس العمل … خذها بترتيب بديع وجلي
معرفة هدى وعون وفلاح … محبة تقبل لذي الصلاح
ولاية بشرى نجاة النار … دخول جنة مع الأبرار
له من الهموم مخرج حسن … والرزق والتيسير حيث لا يظن
ادامة الغفران ثم بعده … اعظام أجر لينال قصده
اشتغلوا بالله يا اخواني … عن كل غيرة بلا نقصان
واشتغلوا بالعلم ثم العمل … لا نفع في علم بغير عمل.
لأن خير الناس عالم عمل … بعلمه وغير هذا عنه مل
ان الذي علم دون العمل … شر العباد اعمل ولا تعتزل
دم مستقيماً يا أخي لتسلما … إياك والعصيان كيلا تندما
كن عالماً أو متعلماً أوى … مستمعاً أو كن محباً لذوى
معرفة ولا تكن خامسهم … تربح أخانا وتكن رفيقهم
عالم سر وجهركم أمر … أن تفعلوا الخير لتدركوا الوطر
نسأله بالفضل أن يرزقنا … لأنه المبدأ والنهايه
كونوا إلى الرحمن مقبلينا … عن كل ما سواه مدبرينا
رؤوف رحمن رحيم غافر … نقّ قلوبنا فأنت ناصر
أنت الذي تعز من تشاء … أنت الذي تذلّ من تشاء

لو كنت تعلم الذي في النار   من حية وعقرب وغار
لكنت هارباً من الذنوب   لفعل طاعة بلا عيوب
هداية الرحمن والرضوان   أفضل ما يطلبه الإنسان
واجتهدوا لا تلهكم أموالكم   عن العبادة وذكر (بكم
من الالاله نعمة الأولاد   لا تلهكم أولادكم عن هاد
نواله اقتضى دوام ذكره   لأنه الوهاب دون غيره
يدوم ذو العقل من العباد   على العبادة بلا عناد
فكل من شغل بالأولاد   وكثرة المال على التماد
عن ذكر ربه فذو خسران   لانه خالف ذا النيران
لا خير في مال ولا ولدان   إن كان مشغلاً عن الديان
ذوو العقول ما أرادوا غير ما   يعينهم خلاف من تقدما
إن الذي أمرنا بالذكر   أمر بالاكثار دون الجهر
لقوله جل وعز اذكروا   والذاكرين الذين يذكروا
كذلك الرسول قد رغبنا   اليه فاذكروا خليلي ربنا
فالعز والإكرام والرضوان   والربح في الطاعة يا نومان
إن الخسارة مع النقصان   والفقر والهوان في العصيان
وربنا ما حصل اليقين   لذي التكاثر كما يبين
لا يجمع الحلال والحراما   إلا غبي حوز نار راما
إن الذي نهى عن التكاثر   له عذاب دائم للخاسر
أما حساب صاحب الحلال   فخطر يعظم للرجال
كان الذي يكون لا تعلم هل   كنت سعيداً أو شقياً في الأزل
هذا الذي يخوف الرجالا   لو بلغوا الغاية والكمالا
ما تعلم الجواب في القبر هل   يكون ثابتاً بلا خوف جل
ان نشرت صحائف الأعمال   هل باليمين الأخذ أو شمال
لم تدر فعل الله في الحساب   هل بالمناقشة والعتاب
خذلان من فلّس مروى وهل   رددت ما عليك من قبل الخجل
ان وزن الأعمال لا تدر هل   يثقل فعل الخير أم لا فاعقل

سعيك في الصراط لا تدر هل   يكون ذا سرعة أو بطء يلي
رأية ربنا هو المنان   لم تدر هل يكثرها الرحمن
وأين أمنكم من الخسران   قبل دخول جنة المنان
نسأله التوفيق والهداية   والستر في الدارين والولاية
وأنفقوا أموالكم لله   قبل ندامة عدو الله
إن غنياً ممسكاً قاسى العنا   يحوز غير ماله بعد الفنا
ندامة الممسك لا يسدها   شيء نعم إذ فاته محلها
فليس للإنسان شيء غير ما   قدمه من ماله كن فهما
قال رسول الله أوما اكلا   أو الذي لبسه فأبلى
وكل ما قدمتم من مالكم   فهو الذي ينفع عند ربكم
إذ كلها اخره الإنسان   فذاك للورّاث يا نومان
من ترك الأموال للولدان   ومات لا زاد فذو خسران
متى يكون عاقلاً من أغنى   غيراً وأردى نفسه من أفنى
أدوا حقوق الله من أموالكم   من قبل أن يأتيكم حمامكم
رزقنا الديان هذا المالا   وقال أنفقوا اسمعوا ما قالا
زينة هذا المال لا تزيد   إلا سواد القلب يا مريد
قلة مال المرء لا تمنع أن   ينفق قدر وسعه يا من فطن
تذكر قول الله مادحاً لهم   في سورة الحشر بما الهمهم
إذ قال ربنا ويؤثرون   اقرأ إلى تمام مفلحون
كفاك قول الله لن تنالوا   ردعاً وان تبخل فبيس المال
ما لبخيل نعمة الرحمن   سوى عذاب الله والنيران
من كان موقناً بأن الله   يرزق لا يبخل خافوا الله
نهى العظيم خالق النيران   عن التكاثر لذي الطغيان
قال الهنا وما لكم إلى   تمامه كن عالماً وعاملا
بادر إلى الخيرات قبل الفوت   لكي يطيب العيش بعد الموت
لا تطع النفس ولا الشيطانا   تفلح وترض ربنا الرحمانا
ارفض أخي دنياك للنقصان   خالف هواك تنج من خسران

نجاة إنسان بلا انفصام ... في قتل نفسه على الدوام

يا أيها النوام قد أمرتكم ... بتوبة نصيحة لربكم

انتبهوا قبل حلول الأجل ... لكي تنالوا الأمن قبل الأجل

تداركوا ما فات من تقصيركم ... قبل الممات ولقاء ربكم

يحاسب المرء على النقير ... يا صاح فاعلم وعلى القطمير

إياك والشح وطول الأمل ... من كان زاهداً فذو تأمل

حان الممات وعلام تغفل ... عن العبادة وما ذا الكسل

دوام ذكر الله خير ما اشتغل ... به عباد الله قولوا لي أجل

كم ذاكر صار به وليا ... كم غافل لاه بقي غبيا

من ترك الدنيا لأجل الله ... ينال ما يشاء عند الله

الا اتركوا يا قوم سمّاً قاتلا ... يغرّ من ليس لبيباً عاقلا

لا تطلبوا أن تكرموا بالنسب ... لانه بالدين لا بالحسب

من طهر القلب من العيوب ... يعيش صالحاً بلا ذنوب

وحاسبوا أنفسكم من قبل أن ... تحاسبوا يوم العقاب والفتن

تراكم الذنوب في القلوب ... يمنع أن يتوب ذو الذنوب

فكن رحيماً لعباد الله ... تكن عظيم الشأن عند الله

يحرم احتقار أهل الأرب ... للنهي عن ذاك وسوء الأدب

قوا يا عباد الله أنفسكم ... ناراً وأهليكم ومملوككم

وأمر الله كذا الرسول ... تعليمهم اسمع كما أقول

لا تتركوهم بلا علم ولا ... عبادة المنان جل وعلا

رم التواضع ذر التصنعا ... واطلب الشهرة يا مستمعا

برّ لوالديك في كل هدى ... واعصهما إن أمراك الاعتداء

لا تهمل النظر إلى الحرام ... وأمسك لسانك عن الكلام

واجتنب الرياء والتكبرا ... والحسد والحقد تكن مكبرا

لا تدم الشبع في الحلال ... إياك والحرام ذا النكال

إساءة الظن بعبد الله ... تبطل ما تعمله يا لاهي

اجتنبوا الغيبة يا اخواني ... كذا النميمة مع البهتان

خير عباد الله عند الله   أشفقهم على ضعيف واه

رم اصطحاب كل شخص مهتدي   ان القرين بالقرين يقتدي

تمر الأيام كذا الشهور   وأنت في الغفلة يا مغرور

نهاكم الله عن التدبير   والاختيار فهو ذو التقدير

يا فوز قائم بأمر الله   ونهيه مستسلم لله

أكرم بعبد مخلص أوّاب   من غير اعراض عن التواب

ليس له تعلق بالغير   لا طمع في السر أو في الجهر

إذا رأى معصية يجتنب   موضعها جداً ولا يقترب

أكرم به يوم لقاء الله   أكرم بعبد عابد أواه

جزاءه الجنة والريحان   والحور والقصور والرضوان

ليس له هم ولا أحزان   فيها ولا غط ولا نقصان

قد نال كل الخير في الجنان   من دون ما شك ولا بهتان

رؤية رب الخلق في دار البقا   ادركها أنعم بعبد ارتقا

يا فوز عبد نال كلّ ما اشتهى   دون تخلّف ونال المنتهى

بل نال كل القصد والمراد   ما ناله جمع من العباد

فاز بما لم تسمع الآذان   ولم تر العيون والجنان

أفّ لعبد الثوب والدينار   والدار والدرهم والأغيار

صار أسيراً لحطام الدنيا   والنفس والشيطان بئس البغيا

ديدنه تمتع البهائم   أكلاً وشرباً زد نكاح الهائم

قرينه المحبوب في الأنام   اخو الثواب لو مع الآثام

وظن ان العز عند الله   تحصيل أموال بلا تناهي

ألجأه الجهل إلى احتقار   سادات أهل الله والكبار

كي لا ينال فضلهم للشقوه   أقصده دنياه دون أخره

نفّره الخذلان عن اكرام   أهل الهداية بلا انفصام

ما خاب من أحب أهل الله   ومعها خدمهم لله

نسأله بالفضل أن يرزقنا   محبة القوم كما أمرنا

اعلم أخي أن ليس للإنسان   إلاّ الذي سعى من الإحسان

لا يحمـــل الإنسان مـــن أوزار . قـــريبـــه شيئـــاً ولا اصهـــار
صـــل الفـــرائض مـــع الخشوع رتـــل سجـــودك مـــع الركـــوع
أوجب ربنـــا اقـــامـــة الصـــلا ة لا وجـــودهـــا كمـــا قـــد انجـــلا
لـــذاك كملهـــا بـــلا نقصـــان بـــالشرط والآداب والأركـــان
حـــان ممـــاتـــك وأنت تلعـــب مثـــل منـــافـــق يصـــلي يلعـــب
ينقـــر في الصـــلاة نقـــر الـــديك مـــا نـــال غير لعنـــة المليـــك
نصـــوا بـــأنـــه كـــإنسان ملـــك جـــاريـــة مـــاتت وأهـــداها الملـــك
وكـــن إذا دخلـــت في الصـــلاة كمثـــل شخص كـــان في الوفـــاة
لم يـــك للفقـــد سوى الـــذي عقل مـــن الصـــلاة دون مـــا كـــان عقل
نفـــل الصنـــلاة فضلـــه مأثـــور وذنب مـــن لازمـــه مغفـــور
يـــا أيهـــا العاقـــل صم شهر الصيام مـــن غير تفـــريط وثـــن بالقيـــام
وزك أمـــوالـــك دون نقـــص ان وجـــد النصـــاب دون وقص
خسران شخص مـــانـــع الـــزكاة معـــايـــن دنيـــا بـــلا ممـــات
رسول رب العـــالمـــين حـــذّرا عـــن كنـــز مـــال فـــاز مـــن تشمرا
إلى امتثـــال أمـــر ذي الجـــلال سبحان ذي الجمـــال والكمـــال
لمـــانـــع الـــزكـــاة ذي الخسران نـــار مـــع الجحيم والثعبـــان
لم يـــك في الكنـــز سوى الخسران والطـــرد واللعنـــة والنقصـــان
هـــذا الـــذي هـــوّل كـــل عاقل عـــن منع حقّ اللـــه دون غافـــل
نفـــل زكـــاة المـــال قد قدمت فيـــه كفـــايـــة ومـــا نـــوبت
فضـــل تطـــوع الصيـــام قـــد ورد في الـــذكـــر والسنّة للـــذي قصـــد
سعـــى بـــأقـــدام أو الـــرحـــال لقصـــد حـــجّ بيت ذي الجـــلال
أوجبـــه اللـــه عـــلى الـــذي قدر دون تخلّـــف وفي الـــذكر ذكر
أمـــا جهـــاد الحرب فاعلـــم انـــه فرض كفـــايـــة وعظـــم شأنـــه
ذر التكـــاسل عـــن الجهـــاد جـــاهـــد بجـــدّ كـــل ذي عنـــاد
اعلـــم أخـــي ان الـــرحيم بـــشّرا أهـــل جهاد الحـــرب ثـــم أعذرا
جميـــع مـــن يقـــول لـــو علمت فضائـــل الجهـــاد مـــا ضعفت
إذ نبـــأ الله بـــأنـــه اشترى نفـــوسنا ومـــالنـــا وأخبرا .

ان الجنان رأس ماله لمن ... يقاتل الكفار حبذا الثمن

المشترى الله وسيد الوجود ... واسطة بين الأنام والودود

جهز بأموالك جيش المؤمنين ... ان كنت ذا عذر تكن من محسنين

للشهدا يغفر أول الملا ... قة إلهنا تعالى ذو العلى

هو الذي يمنع كل الأرض ... عن أكل لحم الشهدا والفرض

أي والذي جعلهم أحياء ... مع التمتع كما أشاء

وهو الذي أمنّهم من الفزع ... تاج الكرامة لهم بلا جزع

ان قلت هل لهم شفاعة أقل ... نعم بلا شك وريب يا رجل

لواحد اثنان مع سبعينا ... حوراء قبل بعث عالمينا

هنّاهم الله بنيل الأمل ... بلا حساب وبدون الوجل

خاف المنافق من الممات ... قبل تمام أجل الوفات

بل جعل النجاة في التخلف ... عن المعارك بلا توقف

يظن ان أجل الإنسان ... يزداد أو يكون بالنقصان

رضي بالسخط وبالعتاب ... هارب يوم الزحف والعذاب

بشر من أخلص في الجهاد ... بنيل مال أو ثواب الهاد

ما صدق الجالس في الجهاد ... لله دون عذر ذي الرشاد

اعلم بأن الأمر والنهي على ... ذي قدرة أوجبه رب العلى

تبّاً لمن مكّن في البلاد ... ولم يغير منكر العباد

عليك بالسنة والكتاب ... جانب ذوي الزيغ عن الصواب

ما أفسد الدين سوى الملوك ... والعلماء السوء بالأفوك

لم يربحوا في بيعهم نفوسهم ... وما غلت في بيعهم أثمانهم

ورتعوا في جيفة يبين ... انتانها لعاقل يدبن

نختم بالصلاة والسلام ... على الذي بشر بالختام

تحليل القصيدة :

قلّ أن نجد مقدمة أكثر بياناً وأوضح تفصيلاً وابلغ رواية مع ظروفها . فما هو المرمى الذي أراد الشيخ عمر أن يصيبه ؟ فنيته أن يذكر المسلمين شأن رسول

الهدى سيدنا محمد صلوات الربّ عليه وسلامه حسبما فعل لمّا قال له عز وجل في ذكره الحكيم : « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » فعالج الشيخ موضوعاً حول معنى بعض آيات من القرآن الكريم وقصده أن يرجع بالمسلمين إلى توحيد لا شوب فيه وإلى أعمال صالحة وامتثال أمور الله واجتناب نواهيه وإلى الزهد في اكتساب كل ما هو باطل زائل . فذاك هو المعنى المهم لتلك القصيدة ، فهو موضوع تعليميّ طرق بابه متكلم واعظ وداع مبشر .

فلأجل هذا آثر بحر الرجز لخفّته ورشاقته ورجّته وكثرة ايقاعه وسهولة حفظه . غير أنه لم ينحرف عن الصعوبات إذ ابتدأ كل بيت بحرف من حروف بعض آي القرآن فهذه صعوبة من جهة ومن جهة أخرى أعاد الشيخ الكتابة وغيّر كثيراً ممّا كان في المنظومة الأولى وصحّح ونقّح فهذه أيضاً صعوبة أخرى .

وكان الشيخ عمر كاتباً محبّاً التدقيق والإيضاح إذ دلّ على الزمان الذي قال فيه القصيدة وهو في وقت الضحى وفي يوم الخميس وفي المدينة المنورة وفي الروضة المشرفة بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ووجهه إلى وجه النبي المصطفى بعد أربع مضين من شهر الله شوّال سنة أربع وأربعين ومائتين وألف من الهجرة الموافقة لسنة ١٨٢٨ في ٩ من شهر ابريل . ولهذا التدقيق أهمية كبيرة للمؤرخ فيعلم ان الشيخ عمر قد قام بحجه في عام ١٨٢٨ للميلاد .

وعلمنا نتائج حجه بعد . فلننظر إلى كتاب M. Puech إذ قال : ان حج الشيخ عمر فلا بدّ أن يعد أمراً مهمّاً في تاريخ حياته وفي تأريخ افريقيا الغربية . ذلك أن الشيخ محمد الغالي الخليفة التجاني لبلاد الشرق المقيم بمكة المكرمة قد جعل الحاج عمر خليفة لأتباع الطريقة التجانية في افريقيا السوداء وان محمد الغالي أخد بتخرجه في هذه الطريقة فكمل تخريجه الأول فيها عندما كان الشيخ عمر تلميذاً للشيخ محمد الحافظ الشنقيطي والشيخ عبد الكريم الفوتجلوني . وقد اطلع أيضاً على بعض أسرار الطريقة الخلوية ولا ريب في انه جالس كبار العلماء في علوم الإسلام . فمكنته هذه المجالسة من تحسين اللغة العربية وزيادة معارفه فأثرت فيه اقامته في الحرمين تأثيراً لا يمحى ولا شك في انه اشتدّ نشاطه أيضاً لدينه وانقذ غيرته عليه وعزّز ايمانه به فوجدت هذه التأثيرات برمتّها في مؤلفاته . فصارت فكرة

مهمّته من حيث هو خليفة لطريقة تصوفية وداع إلى الإسلام رافعة حياته وجعلته الفاتح الذي ينكس امبراطوريات لنشر الإسلام وجعلته الكاتب الكثير الإنتاج الفاتن الذي قد أثر ولا زال يؤثر في أجيال كثيرة من المسلمين الافريقيين [1]. كان استقامة عماد الدين وإحياء سنة الرسول الشغل الشاغل للشيخ عمر وكان يعتبر الدين مريضاً بل ميتاً فينبغي له أن يشفيه بل أن يبعثه فقال متحزناً :

لئن كـان مـا في الكون دين فكاسد ... وان زيـد راء بعـد مـد فرابح

عـلى كـل ميت نائحـات ينحنه ... وليس عـلى ديـن المهيمـن نائح

ومن المعروف أن اقامته قد استغرقت أربعة أعوام ، وفي أثناء هذه السنوات زار الشيخ الحاج عمر بيت المقدس ودمشق . فالدليل على ذلك قصيدة أخرى منه لما فيها من تغيير في حياته بعد الحج . فقد قال الشيخ الحاج عمر :

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .
الحمد لله الذي حرّم الاختلاف والاقتتال بين ذوي الإيمان وأوعد من أصرّ على ذلك وامتنع عن الرجوع دخول النيران وأوجب اصلاح ذات بينهم على ذوي الفضل من اخوانهم والاحسان ووعد من يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله نيل الأجر العظيم والرضوان فسبحان الله الذي نصح عباده شفقة عليهم من أعلى مراتب ذوي العرفان . والصلاة والسلام على رسول الله الآمر بالتودّد والتحابب والتوالف بلا عدوان الحريص على اجتماع المؤمنين لذلك شبّههم بالجسد الواحد والبنيان الناهي عن التحاسد والتقاطع والتدابر والهجران . وبعد فيقول الفقير إلى الله عمر بن سعيد الفوطي الطوروي عامله الله بلطفه في الدارين ، ان السبب في نظمنا هذه المنظومة المباركة إن شاء الله تعالى اننا خرجنا من أوطاننا قاصدين حجّ بيت الله الحرام عازمين على سلوك طريق فاس لأنه طريقنا وأقرب لنا إلى بلوغ مرادنا من غير ما يسر الله لنا ذلك الطريق لموانع حصلت لنا فيه وإذ دخلنا طريق السودان مع شدة كراهتنا ذلك لكون أكثر أهل ذلك الطريق كفاراً وصرنا بفضله نمشي فيه بعز وكرامة

---

(1) « Les Rimâh » présentation et traduction de quelques passages par Maurice puech, P. 6 et 7, Mai 1967 à Dakar.

لكـن بتمهل واستخبار وحيث ما وصلنا بفضله بلاد « حوش » واجتمعنا بأميرها وبعض علمائها وكبرائها وجدنا بينهم وبين أمير « برنوا » في ذلك العام اختلافاً شنيعاً بالغاً غاية الشناعة وأحزننا والله ذلك الاختلاف حزناً شديداً وما قدرنا على أن نكلم أمير بلاد « حوش » في ذلك الاختلاف ولا في السعي في الاصلاح بينهم شيئاً مع حسن ظنّنا به ورجائنا على اننا لو كلمناه في ذلك لساعدنا لأنه لنعم الرجل من رجال الله وأيضاً لمحبته فينا وإكرامه إيانا ولكـن خفنا من طلب ذلك لئلا يعوقنا الدخول فيه عن بلوغ مقصودنا . والمشتاق إلى بيت الله الحرام وإلى سيد الكونين وأصحابه الكرام وإلى اخوانه من الأنبياء والمرسلين العظام معذور ولأجل ما ذكر خرجنا من عنده مسافرين باكين لأجل ما وقع بين اخواننا من الفتن عازمين على السعي بينهم بالاصلاح ان يسر الله لنا بلوغ مرادنا والرجوع اليهم فلما منّ الله علينا ببلوغ مرادنا ورجعنا حتى وصلنا أرض « فزار » سمعنا تلك الفتنة باقية على حالها فلما سمعنا ذلك عزمنا على اتمام ما نوينا من السعي في الاصلاح بينهم مع أني لا أرى نفسي أهلاً لذلك السعي بين المذكورين بالاصلاح لعجز من هو أفضل مني عن الاصلاح بينهم حتى الصلح بينهم صار عند الجهال كالشيء المستحيل عقلاً وما رأينا من طمع في ذلك ولكـن أدخلني فيه قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » وقوله تعالى « واعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها » وقوله صلى الله عليه وسلم « ان قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء » ورغبني إلى دخول فيه قوله تعالى « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضـاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » وقوله تعالى « من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها » وقوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما .. الآيتين » وحديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة قلنا بلى يا رسول الله قال إصلاح ذات البين . » الحديث .

واطمعني نيل مرادي وان لم أكن من يرى له هذا الشرف قوله تعالى « ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » ولما عزمنا على الاغتنام هذا الخير الجسيم والربح العظيم وعلمنا ان المخاطبة باللسان لا يشفي غليلنا أردنا أن نجعل منظوماً على ترتيب

حروف آيتين من كتاب الله تعالى ويكون كل من حروفها الهجائية ولو كان غير ثابت في الرسم كالالف المحذوفة بيتاً تماماً ويكون ذلك الحرف أول البيت ونميز الحروف بكتابتها بمداد يخالف المداد الذي كتبنا به المنظومة وهكذا فليفعل غيرنا وبتمام الآيتين تتم المنظومة إن شاء الله تعالى والآيتان قوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » ثم اعلم بأني نظمتها بين بلاد من بلاد « فزار » تسمى تجره وبين بلاد تب وأنا مشغول البال لمرض شديد نزل على أخي علي وعلى أم ولدي وكل واحد منهما بين الأحياء والأموات وكوني في شدة السفر في مفازة لا يرى فيها إلا الرمال وأنا في تعب عظيم وما كتبت منها بيتاً واحداً وأنا في الجلوس بل أكتبها وأنا ماش على رجلي ولا طالعت كتاباً وقت نظمها والله لا أزل متعجباً بها وما هو إلا فضل الكريم ومن وجد خللاً فليلتمس لصاحبه هذه الأعذار وقد رأينا أن نجعل قبل المنظومة مقدمة نذكر فيها بعض ما ورد في كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً ليعلم الناظر أن المتكلم هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي لأجله بعث الله النبيين صلوات الله عليهم أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه لعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفتنة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة وخربت البلاد وهلكت العباد وقد كان الذي يخاف إنا لله وإنا اليه راجعون . إذاً ندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحت بالكلية هذا في الزمان حقيقته ورسمه وكاد أن ينسى اسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الشهوات والهوى واسترسل البهائم وعز في بساط الأرض مؤمن صادق لا يأخذه في الله لومة لائم فمن سعى في سد هذه الثلمة كان مستأثراً بإحياء سنة سعد أهل الزمان إلى اماتتها ومستبداً بقربة مقصد صدق عند صاحبها واعلم « ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب من واجبات الإسلام واهمالهما مذموم ويدل على انه واجب بعد الاجماع والحديث » أما الآيات فقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » فهذه دليل الوجوب فانّ قوله ولتكن منكم آمرة وظاهرة الإيجاب ففيها بيان انه فرض كفاية لا فرض

ين غالباً إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال ولتكن منكم . وقوله تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر يقيمون الصلاة » وقد نعت المؤمنون بهذه الصفات فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين . وقوله تعالى « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم اللعنة بترك النهي عن المنكر . وقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وهذا يدلّ على فضليتها . وقوله تعالى « فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس ما كانوا يفسقون » والتصريح بنجاة الناهين دل على فضليتها وقوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان » وهذا أمر جزم معنى التعاون الحث عليه وتسهيل الطريق إلى الخير وسد طريق الشر والعدوان . فأما الأحاديث فقوله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم وغيره . وقوله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » وفي رواية أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده رواه أبو داوود وغيره . وقوله صلى الله عليه وسلم ان أول ما دخل النقص على بني اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم إلى قوله « فاسقون » ثم قال كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنه عن الحق طراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم رواه أبو داوود وغيره . وقوله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجاب لكم وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدفع رزقاً ولا يقرب أجلاً . والاحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء رواه الاصبهانيّ . وقوله صلى الله عليه وسلم لا تزال لا اله الا الله تنفع من قالها وترد عنهم العذاب والنقمة ما لم يستخفوا بحقها قالوا يا رسول الله وما الاستخفاف قال يظهر العمل بالمعاصي فــلا ينكــر ولا يغير رواه الأصبهاني وقولــه صلى الله عليه وسلم إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم أي ترك الظالم باقياً عليهم رواه الحاكم وصحّح إسناده . وقول أبي هريرة رضي الله عنه كنا نسمع أن الرجل – يوم القيامة – ليتعلق بالرجل وهو لا يعرفه فيقول مالك إليّ وما بيني وبينك معرفة فيقول كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني ذكره رزين وقوله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لامرئ شهد مقامه فيه حق الا تكلم به فانه لم يقدّمه أجله ولم يحرمه رزقاً هو له ، وقوله صلى الله عليه وسلم عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر الفاً عملهم عمل الأنبياء عليهم السلام قال يا رسول الله كيف قال لم يكونوا يغضبون لله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، وحديث أبي عبيدة بن الجراح قال قلت يا رسول الله أي الشهداء على الله أكرم قال رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فان لم يقتله فان القلم لا يجري عليه عاش ما عاش وقوله صلى الله عليه وسلم أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى امام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر فقد ظهر بهذه الأدلّة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وان فرضه لا يسقط إلا بقيام قائم وإذا وجد فمن يقبل نصحه قال الفشني في شرحه على الأربعين النووية عند قوله الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله قال لله وكتبه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، قال الأسنوي رحمه الله في بعض مؤلفاته في الحديث إذا أراد الله في العبد خيراً ساق اليه من يذكّره إذا غفل وإذا أراد الله به شراً ساق اليه جليس سوء ينهــاه عن الأخذ بالموعظة ولما تولى هارون الرشيد جلس للناس مجلساً عاماً فدخل عليه بهلول المجنون فقال يا أمير المؤمنين احذر جلساء السوء واعتمد جليساً صالحاً يذكرك بمصالح خلقه إذا غفلت والنظر فيهم إذا لهوت فان هذا أنفع لك وللناس وأكثر في الأجر مماتأتي به من صوم وصلاة وقراءة وحجّ ان الرجل يلقي الكلمة عند ذي السلطان فيعمل به فيملأ الأرض فساداً وقال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً فيهوي بها في النار سبعين خريفاً ولا تكن يا أمير

المؤمنين كمن قال تعالى في حقه « واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم وبئس المهاد » انتهى المراد من كلامه وقد آن لنا الشروع في المنظومة التي وضعناها للفتنة المذكورة وسميناها تذكرة الغافلين . على قبح اختلاف المؤمنين . سمّاه محمد بل ، النصح المبين : فنقول وبالله تعالى التوفيق :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وقال باسم ربه الفوتي عمر ... الكدويّ ابن سعيد ما افتخر
الحمد لله الذي قد أوجبا ... اصلاح ذات البين ثم هذبا
نفس الذي يصلح بين الناس ... فصار طاهراً من الأدناس
طهارة تهديه للإنصاف ... في ذلك الاصلاح لا الارجاف
الهنا صل وسلم سرمدا ... على النبي الهاشمي أحمدا
آمر كل مقتد بنصح ... أمته وأمرها بالصلح
فائق من أرسل بالنصائح ... وزجر ذي الخلاف عن قبائح
تارك ذي الحقد والاختلاف ... قابل ذا الصلح والائتلاف
الراحم الآمر بالتودد ... للخلق والإحسان بالتردد
نافع كل الخلق ذي التحذير ... عن التدابر بلا تنفير
مرشد من آمن للتعاون ... على التقى والبر لا التفاتن
ناهي ذوي الفضل عن استماع ... أخبار ذي الفسق والاختراع
القائل اشفعوا فكان قابلا ... شفاعة حسنة لا خاذلا
لين جانب لمن جا يشفع ... لا بمعسّر وفاقا يمنع
ماحي اختلاف الأوس والخزرج من ... قلوبهم من بعد ضغن قد زكن
وبعد فاعلم يا أخي ان السبب ... في نظمها منظومة بلا طلب
مصيبة بلى بها الحميد ... رعاتنا يفعل ما يريد
ندعو رعاتنا للانتباه ... لنقمة عظمى بلا اشتباه
يا فوز من رفعها الحكيم ... على يديه وهو الكريم
نرجو بفضل ربنا القدير ... زوالها على يدي فقير
ان قلت أين تلتقي هذا الشرف ... هل يطمع المسكين في سكنى الغرف
قلت نعم يعطي الذي يشاء ... من شاء لا يلحقه العناء

تالله لا أيئس من وصولي ... مقام الأقطاب ونيل سؤلي

تالله لا أظن إلا الخير ... كما أمرت لا أظن الشر

لأنصح الناس كما أمرت ... ان قبلوا اغتنمت ما أردت

وان ابوا فلاجر بالنيات ... ولا على الناصح لوم يأتي

آن لنا الشروع في المقصود ... بحول خالق الورى المعبود

فاعلم هداك الله ان الخير في ... تعظيم خلق الله والتلطف

إذ كل هذا الخلق أفعال الصمد ... في الفعل آيات لاسماء الاحد

صفاته تعرف بالاسماء ... من غير عدّها ولا استقصاء

لا شك للعارف بالصفات ... في كونها قائمة بالذات

حق على العارف هذا الأمر ... محبة الخلق لهذا القدر

وحب خلقه بهذا المعنى ... لذاته والضد أيضاً يعني

ان كان ذا في حق كل العالم ... فانظر هداك الله حقّ الآدم

بقلب من يعلم ان الآدم ... أفضل من جميع هذا العالم

يكفيك جعل الله كل الانبيا ... منهم والاقطاب وجل الاوليا

نهى الحكيم عن قتال الكافر ... من قبل أن يُدعى كفى للناظر

هل ذاك الا الحب حتى حرما ... بعد بلوغ دعوة وعظما

مثلته لسر الاعتناء ... بخلقه وهم في الاعتداء

ان كان ذا في حقّ شخص كافر ... فانظر حقوق مؤمن بالقادر

فحرمة المؤمن أعلى وأجل ... من حرمة الكعبة عند الله جل

إذ هدم ذي الدنيا وكعبة أخف ... من قتل مؤمن بباطل فخف

نفس قتيل العمد يوم العرض ... تقول يا رب السما والأرض

بغى عليّ عبدك المسيء ... خذ لي قصاصي منه لا يفيء

غاظت ملائكة ذي الجلال ... على الذي يدعوا إلى قتال

تدعوا على القاتل بالمهالك ... اذ كان للصلاح غير سالك

اقوالها يا رب قد تشبه ... بك الضعيف قال ذا من نبه

حارت عقول ذي النهى والعلم ... في كشف آية النسا والفهم

دخول نار والخلود سرمدا ... قول ابن عباس ومن قد شدّدا

تالله لا أيئس من وصولي   مقام الأقطاب ونيل سؤلي
تالله لا أظن إلا الخير   كما أمرت لا أظن الشر
لأنصح الناس كما أمرت   ان قبلوا اغتنمت ما أردت
وان ابوا فلاجر بالنيات   ولا على الناصح لوم يأتي
آن لنا الشروع في المقصود   بحول خالق الورى المعبود
فاعلم هداك الله ان الخير في   تعظيم خلق الله والتلطف
إذ كل هذا الخلق أفعال الصمد   في الفعل آيات لاسماء الاحد
صفاته تعرف بالاسماء   من غير عدّها ولا استقصاء
لا شك للعارف بالصفات   في كونها قائمة بالذات
حق على العارف هذا الأمر   محبة الخلق لهذا القدر
وحب خلقه بهذا المعنى   لذاته والضد أيضاً يعني
ان كان ذا في حق كل العالم   فانظر هداك الله حقّ الآدم
بقلب من يعلم ان الآدم   أفضل من جميع هذا العالم
يكفيك جعل الله كل الانبيا   منهم والاقطاب وجل الاوليا
نهى الحكيم عن قتال الكافر   من قبل أن يُدعى كفى للناظر
هل ذاك الا الحب حتى حرما   بعد بلوغ دعوة وعظما
مثلته لسر الاعتناء   بخلقه وهم في الاعتداء
ان كان ذا في حقّ شخص كافر   فانظر حقوق مؤمن بالقادر
فحرمة المؤمن أعلى وأجل   من حرمة الكعبة عند الله جل
إذ هدم ذي الدنيا وكعبة أخف   من قتل مؤمن بباطل فخف
نفس قتيل العمد يوم العرض   تقول يا رب السما والأرض
بغى عليّ عبدك المسيء   خذ لي قصاصي منه لا يفيء
غاظت ملائكة ذي الجلال   على الذي يدعوا إلى قتال
تدعوا على القاتل بالمهالك   اذ كان للصلاح غير سالك
اقوالها يا رب قد تشبه   بك الضعيف قال ذا من نبه
حارت عقول ذي النهى والعلم   في كشف آية النسا والفهم
دخول نار والخلود سرمدا   قول ابن عباس ومن قد شدّدا

أبو هريرة بمثل قوله أجاب بل زاد لأجل حلفه
هو الذي قد قال بالله الذي لا رب في الوجود غيره احتذي
ما يدخل الجنة حتى يلج الـ جميل في سم الخياط لم ينل
أولها قوم بالاستحلال لانه كفر بلا اشكال
عبرها البعض على التأبيد ان جوزي الجاهل بالتشديد
لبعضهم ان الخلود ان أتى فالقصد طول المكث اسمع يا فتى
الا إذا قارنه لفظ الأبد فذاك للتأبيد حيث ما ورد
أجاب من أجلد في الجواب بان ذا لشدة الحجاب
لا يهتدي الخير وقت النزع فصار للعذاب يوم الفزع
الا بسر عند أهل المولى اخفاؤه في ذا المقام أولى
خوّف ربنا بكل حال في هذه الأقوال من نكال
رب يميت الخلق بانفراد يقصم من شارك بالعناد
انظر بأيّ هذه الأقوال يغتر دون توبة في الحال
فأقبح العباد عند الله ذو الكفر ثم قاتل الاوّاه
قد جاء في المائدة التحذير عن قتل ذي الإيمان والتنفير
إذ شبه الجبار قتل الواحد بقتل كل الناس حتى الساجد
تغترف العقول من امداد بحار ذي الآية بالترداد
لبعض استحلال قتل الواحد كالكل إذ لا فرق أي والماجد
وقال ذو التحقيق معنى الآيه لقاتل العمد من النكايه
اشدّ شيء لو أمات الأوليآ والناس أجمعين حتى الأنبيآ
أو أفسد الدنيا لما يظن ان هناك زائداً يكن
لحبرنا ان انتهاك الحرمة يسبب القتل لكل الأمة
تكلم المتقن في هذا المحل وقال في الآية ان من قتل
يكون كل الناس حتى الأنبيآ له خصاماً وكل الاصفيآ
تعساً لمن خاصم كل من ذكر يوم الشفاعة فهل له من مفر
بئس الذي كان لنا المجددا سنة قابل لها مؤيدا
غفران ذنب مشرك ومن عمد للقتل فقده عن الهادي ورد

ياس الذي شارك في سفك الدمآ من رحمة المعبود أرضاً والسمآ
حتى بشرط كلمة جآ في الخبر عن خير خلق الله سيد البشر
تخرج أعناق من النيران تقول وكلت إلى الإنسان
اشرك أو قتل نفساً باطلا أو كان جباراً عنيداً غافلا
تسبب أو عزم أو تمنّي أو الرضي كالفعل خذه عنّي
في قول سيد الورى إذا التقى مخوف رقبي لحد الارتقى
يا من يعي ان كان قتل واحد بعدا فكيف قتل ألف ساجد
اعلم بأن كل فعل العسكر فعل أميرهم غدا في المحشر
ان كان ألف ألف ألف قد قتل فاثم قتلهم عليه قد حمل
لم يك ذا ينقص من اوزار مباشر شيئاً ولا اخطار
أظن راع انه لا يحمل عليه غير اثم شيء يعمل
ان كان بين المؤمنين قد حصل حرب فحق قاتل ومن قتل
من كل واحد من الجمعين على ابيّ الصلح دون مين
رب أمرئ عليه ألف ألف سيئة في لمحة وطرف
إذ كل ما كان من الرعيه إلى الأمير مرجع البليه
لا شك ان فاعلا لا يسأل عن غيره ممن سواه أفضل
لأن من يأمر بالقتال والقتل والأسر وأخذ المال
هو المحاسب عن الجميع فيا له من هائل فظيع
فهذه المصيبة العظيمة مصيبة أخرى هي العقيمة
أعني بها استحلال هذا الأمر فيوقع الناس بعين الشر
نقول أصل كل ما تقدما هو اختلاف المؤمنين فاعلما
فالاختلاف موجب التحاسد ومنه تأتي علة التحاقد
إذا تحاقدوا ودام الحقد تقاتلوا ودام فيهم وجد
ان حصل المذكور في المنظوم وكان في الصدور كالمرقوم
تعصبوا وصار كل واحد يكفر الآخر بالتعاقد
في سورة العمران آي نجمع أشياء في غير الوفاق تمنع
أولها تعليق الارتداد بطاعة الأشرار في الفساد

صد العباد عن فضيلة الوفاق   ذاك هو الثاني فخف من النفاق

لجعله كفراً للاستعظام   الثالث الرابع باستفهام

حض عباده على اعتصام   بحبله خامس ذي الاسقام

ونهى الافتراق بالتصريح   سادسها وقبل بالتلويح

السابع الأمر بالادكار   بنعمة الوفاق لا النفار

بفضله نهى عن التنازع   لسد الافتراق والتقاطع

يقول في الانفال للارشاد   ولا تنازعوا فجل الهادي

نذكر الولاة آية نعتت   على ولاة افسدت وخالفت

هي التي في سورة القتال   فهل عسيتم اسمعوا مقالي

من أجل قبح الاختلاف والفتن   من الولاة شددت بلا وهن

إذ جاء فيها اللعن من حليم   والختم ثم الطبع من رحيم

بقبح الاختلاف تكثر النقم   ويمنع الرحمة من يولي النعم

إذ في الحديث منع ذي الشحناء   من رحمة الرحمن ذي النعماء

لو لم يكن في منع الاقتتال   سوى حديث سيد الرجال

عليه أفضل صلاة الله   مع سلامة بلا تناه

دوام عزه لا تحاسدوا ولا   تقاطعوا ولا تدابروا ولا

لكان يكفي كيف والجبار قد   شدد من ذاك ويردي من جحد

وسد باب الاختلاف ان منع   نميمة لأجل افساد يقع

أجل لذا نهى عن استماع   اخبار ذي فسق بلا نزاع

قد أمر الاله بالتقاء   فتنة الا فتراق واعتداء

سبحان من أوقع الاختلاف   وجعل الصلح والائتلاف

طهارة منجية لمن رجع   للصلح صونا للدمآ ولا امتنع

وأوجب الله على العباد   اصلاح ذات البين نعم الهادي

آية لا خير تدلنا على   فضيلة الاصلاح عنده علا

آية من يشفع كفت للعاقل   في آية الانفال زجر العاقل

نعني بتلك فاتقوا الله واصـ   لحوا وهذا الأمر بالايجاب نص

انظر هداك الله كيف اكدا   وجوب الاصلاح وكيف هددا

لامره عباده بالتقوى ... وبعدها الاصلاح كي لا يهوى

لذاك أكد بأمر طاعته ... وطاعة الرسول في هدايته

هد كل غافل وقال ان ... كنتم كفى ذا زاجر لمن فطن

يا طالب النجاة والرضوان ... ورحمة المهيمن الرحمن

حقن دماء المسلمين أعظم ... وسيلة اليه وهو اعلم

بادر لانتهاز هذا الفرصة ... قبل الندامة غدا في الفرصة

آن لذي عقل قبول النصح ... ممن اتاه داعياً للصلح

لعمر قدر ساعة بالائتلاف ... خير من الني الف عام بالاختلاف

من فضله ان ليس بالكذاب ... كاذب الأصلاح لدى الوهاب

قول الهنا وان طائفتان ... كفى دليلاً منتهاه الآيتين

سبحان من أكد هذا المحل ... وجوبه وحضنا على العمل

طهرهم من علة الكفران ... حضا على الاصلاح لا العدوان

يكفي ذوي الفهم ورود افتعل ... اذ فعل مؤمن خلاف ذا العمل

نعني بهذا ان ذا الايمان ... جمع احاديث بلا بهتان

من جملة التأكد أمر العدل ... بالعدل في الاصلاح دون الميل

أكد أمر العدل بالتكرر ... قال واقسطوا تعالى البار

أخبرنا اعتناؤه بالقسط ... فيه مؤكدا بدون المخلط

لشدة التوكيد قال انما ... المؤمنون اخوة لتعلما

مزيد قبح الاختلاف والفتن ... بين ذوي الايمان من اجل الضغن

وحصر هذي الاخوة بمن ... آمن مانع من ايقاع الفتن

من ادرك الايمان أي اعلاه ... وذاق في شرابه احلاه

نهضة اجلال ذي الجلال ... لحب مؤمن بذي الكمال

وكيف لا يحب من سمّاه ... اخاه خالق الورى مولاه

نعم لان الدين مثل الوالد ... لكل شخص مؤمن بالواحد

اخوة الايمان بالوهاب ... أشرف من اخوّة الانساب

خلة الايمان للاتصال ... وخلة الانساب للانفصال

والمؤمنون مثل جسم الواحد ... ومثل بنيان لاجل الماجد

هذا هو المذكور في القرآن ... يدركه من كان ذا عرفان
في سورة البقرة تقتلون ... انفسكم قبل وتخرجون
انفسكم عند ذو التحقيق ... اخوانكم في الدين والتصديق
صيّر قَاتِلاً أخ الايمان ... قاتل نفسه بلا نقصان
لا تلمزوا انفسكم قد فسّروا ... فلا تعيبوا بعضكم وقرروا
حتى غدت صحّة ما هنا ذكر ... كالشمس في ظهيرة لذي نظر
وفي الحديث المؤمن كالجسد ... وجاء كالبنيان هكذا ورد
انظر أخي هل يقطع اليقظان ... اعضاءه كلا ولا السكران
بل لا ترى من كان ذا عرفان ... يوجع نفسه على العدوان
يا عاذلي حق لكل من علم ... كل الذي علمته بكاء دم
نبكي لان زلة للعالم ... كما علمت زلة للعالم
انظر أخي ان اشتكى بعض الجسد ... فالبعض هل يبقى بلا نيل الكمد
خلو من يقطع عضواً من الم ... دل على فقد الحياة والعدم
وكل ما قدمت حامل على ... صلح واصلاح لمن تأملا
يأمن ابي عن فعل صلح وامتنع ... والصلح خير قاله من يتبع
كم نعمة في الصلح والتوافق ... وكم فضيلة لذي التسابق
من فضيلة قطع كلام الناس ... عنكم وتقليد اخ الخناس
وغمنا والله شيء نسمع ... في سائر الاقطار أين المفزع
أقوالهم تنافس الحجران ... في الملك والدنيا على البهتان
تقاتلا وسفكا الدماء ... وأسروا الاحرار اعتداء
قد حلل الجهال والظلام ... بيع أناسكم كذا الحكام
وقولهم انهما حجران ... وحللا ذلك بالعرفان
أقول صون الدين والمروءة ... في الصلح ثم غاية الفتوه
اصطلحا قبل ذهاب العمر ... وسابقا لقطع هذا الوزر
أو لم يكن في الصلح غير الأمن ... وراحة الناس وفقد البين
لاختاره العاقل كيف والصلاح ... في الاتفاق وهو غاية الفلاح
هذا الذي دعى كبار الناس ... إلى قبول الصلح دون البأس

لقـد كفـى صلـح أبي محمـد	سبـط الـرسول أسوة لمقتـد
عـلى م لا تفعـل شيئاً يرضـى	عنـك بـه الرحمـن حتـى ترضى
لا تغتـرر بقـولـة الجهـال	ووزراء السوء والعمـال
كفـاك مـا علمت ان قصـدهم	تحصيـل لـذات وذاك سعيهـم
متـى تعـد عاقـلاً شخصاً فـرح	لقطـع عضـو منكمـا أو انشرح
تاللـه لا يحبكـم مـن ينشرح	لقطـع عضـو منكمـا ويتضـح
رب امـرئ منتسب للعلـم	دعـاه حب مـالكـم للكتـم
حتـى غـدا لحب جمـع المـال	يثنـي عليكمـا بكـل حـال
مـا راقب الجليـل حتـى ضرّا	أخـاه خيـن غشه وغـرّا
والحمـد للـه الـذي ألهمنـي	نصـح عبـاده كمـا علّمنـي
نختـم بـالصـلاة والسـلام	عـلى الـذي كمّـل بالختـام

خاتمة :

ومن علو همة الأكابر ومروءتهم ان من سعى بينهم بالاصلاح ولو كان كذباً مزوراً على أحدهم في دعوى الارسال إلى الآخر انهم لا يخيبون رجاءه ولو علموا منه ذلك ولو خاطر معهم لثقته بهم وبفضلهم بل يبلغونه مناه ويسارعون إلى قضاء وطره انتهى بحمد الله وحسن عونه اللهم صلّ على سيدنا محمد الفاتح لما اغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تحليل القصيدة :

لقد حكى الشيخ الحاج عمر بالنثر الظروف التي ألّف فيها هذه القصيدة . فلننظر إلى ما قاله Capitaine André ما في كتابه Islam noir في

حوالي سنة ١٨٠٠ للميلاد كانت حروب تجري بين المسلمين تكلور في سُكُتْ[1] وبين البرابر المتعربين في كانم (شرقي تَشَادْ) أي بين امبراطوريتين . فلنذكرن أن عثمانَ دَنْ فُودِي زعيم أهل حَوْصَا أخذ من ١٨٠٤ م إلى ١٨١٧ م في فتح شمالي كمرون كان يزاحم على أهل هذه البلاد أهل كُنُرِ (السودان والعرب) في بِرْنُو .

وكانت هذه الحروب موصل التيارين اللذين بلغا بالإسلام افريقيا السوداء أولهما هو تيّار السودان والبرابر مع تُكُلُورْ والفُلاَّنِيِّينَ الذين جاؤا من جهة الغرب والآخر تيار السودان والعرب مع قبائل شَوْهَا وأهل كُنُرِ الذين جاؤا من جهة الشرق بوادي النيل ، وفي طريقه إلى الحج وصل الشيخ عمر إلى سُكُتْ حين كانت هذه الحروب حامية الوطيس . قال بعضهم انه وجد عثمان دن فودي متقادماً في السنّ في حوالي ١٨١٦ م وقال الآخرون انّه لم يعرف الاّ مُحَمَّداً بِلُو بْنَ عُثْمَانَ دَنْ فُودِي .

وكان أهل حوصا والبرنو قد أكرموا مثوى الشيخ عمر فتزوج امرأة من هذين البلدين فاملك محمد بلو بنتاً له الشيخ عمر فكان له من زوجته الأولى ولده حبيب الذي يكون والياً على دِنْغِرَاوِ ومن مرية البُرنُويَّة ولده (عَاقِب ١٨٣٨ - ١٩٠٨ م) فاذا وجد الشيخ عمر في طريقه إلى بيت الله الحرام أهل حوصا يكافحون أهل البُرْنُو وكان كِلاَ الحِزْبَيْنِ مَسْلِمَيْنِ . ولما خاب سعيه في الاصلاح بينهما واصل السير قاصداً الحجّ . فقال ما يلي : « ثم اعلم بأني نظمت هذه القصيدة بين بلاد من بلاد فزار تسمى نجره وبين بلاد تُبٍّ وأنا مشغول البال لمرض شديد نزل على أخي علي وعلى أم ولدي وكوني في شدة السّفر في مفازة لا يرى فيها إلاّ الرمال وأنا في تعب عظيم وما كتبت منها بيتاً واحداً وأنا في الجلوس بل أكتبها وأنا ماش على رجلي ولا طالعت كتاباً وقت نظمها » .

(١) كانت بلاد سكت امبراطورية مسلمة في غربيّ بحيرة تَشَادْ وفي شرقي النِيجِيرْ قد احتوت ستّ ممالك لحوسه فهي كانو وزَارِيَهْ وغُوبِرْ ورَانُو وكَتْشِينَهْ وبَرَانْ ففتحها عثمان دَنْ فُودِي منذ ١٨٠٤ م .

وصار عدد الأبيات عدد الحروف التي وجدت في الآيتين[1] السابق ذكرهما في توطئة الشيخ عمر والقصيدة أرجوزة وعدد أبياتها ١٩٧ بيتاً .

وبناء على تلك التوطئة ، فكأننا أمام رجل غير الشيخ عمر الفاتح التُّكُلُورِيّ الذي كان قد دعا إلى الجهاد . فظهر في هيئة أخرى وصار إنساناً رقيق القلب محبّ السلم ملّ النزاع بين المؤمنين سديد النصح كارهاً لكل ما أصاب حياة أو نفساً أو عرضاً للمؤمنين فشغله الشاغل هو أن يصلح بين أعضاء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهو ضمير شفوق على المؤمنين الذين كافح بعضهم بعضاً ولسان يبشر معاصريه بإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحتجّ على شرعة الغابة وقانون القصاص وعلى من هو عبد لأهوائه وغافل عن أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين .

والحق ان لقصيدته قيمة معنوية أعلى إذ دعت إلى حب كل إنسان واحترامه وسدادة النصح والاصلاح بين الناس ، والاخاء بين المؤمنين وهلمّ جرّاً .

وما أعجب أمر الشيخ عمر قبل حجّه وأمره بعد رجوعه من الحرمين ! فنحن على اليقين ان حجّ الشيخ عمر أزال ترتيب أشياء حياته إزالة تامة ولما كان قاصداً الحج ظهرت شرعة الغاب تحثه على الثورة ويفور فائره على نزاع مسلّح جرى بين حزبين مسلمين وبعد ايابه من الحج أخذ في كفاح أحمد بن أحمد حتى قتله وكان أحمد بن أحمد ملك ماسنه مسلماً مؤمناً تابعاً للطريقة القادرية يا للعجب !

ولكن لقد دافع الحاج عمر في كتاب مسمى[2] بالحاج عمر الفوتي سلطان الدولة التجانية ما وقع بينه وبين أمير ماسنا بغرب افريقية عن تصرفه وأقر شرعاً بمحاربة أحمد بن أحمد وتزكّى باسم الكتاب والسنة إذ اعتبر خصمه مارقاً من الدين وقال في أحمد بن أحمد : « لو كان يحب نصرة الإسلام فقط دون

---

(١) هاتان الآيتان هما من سورة الحجرات ٩ و ١٠ .

(٢) وفي خزانة عَامّرْ صَمْبَ في « إِفَانْ » توجد نسخة هذا الكتاب .

نواه كيف وهو لا يريد ولا يحب إلا إماتة السنة القائمة وإيقاظ الفتنة النائمة ... نوله من حفر بئراً لأخيه وقع فيها ومن سلّ سيف البغي قتل به فهو حجّة عليه ... فانا ان قاتلناك فلم نقاتلك عن هوى منا وانما نقاتلك إتباعاً لأمر نبينا . » وحتى الآن بقي الأمر على ما هو عليه أي غير مقطوع به .

وقال سُلِييَهْ Soleillet ساخراً متهزّئاً : « حارب بعض المسلمين بعضاً ولم يلتبس الأمور على الله الذي نصر من هو أكثر مهارة فانهزم أهل ماسن » ثم قال أيضاً دالاً على أنّ الشيخ عمر لم يحارب أحمد بن أحمد عـن حبّ الدنيا . « لو لم يرد إلاّ الثروة والإقتداء بأهوائه لم يبق له مراد رغب في بلوغه بل كان يصوب مرمى أبعد وما هو أبعد همّة من ذلك ويستطيع أن يجعل الذهب الناجم من معادن تمبا وغفندي وبوري سلّماً للصعود إلى التاج ... وكان سيفاً سلّه الله ليذل به الكافر » [1]

وبعد تقادم عهد هذه الأمور يمكننا أن نؤكد ان الشيخ عمر كان من رجال الله يحس بأن ربه اتخذه وفوض اليه مهمة لا بد من أن يقوم بها . ومؤرخ الأفكار له أن يتصدى لأمر الشيخ الحاج عمر بوجه جديد وأن لا يغفل عما قد حضّ المستعمرين على الحكم على المجاهد الأكبر فيعلم ان رأي جنرال فيدربه في الشيخ عمر رأي أجنبي حاربه في وطنه ومن المنطق السليم أن لا ينسى هذا المعطى الواقعيّ وبناء على ذلك فيدرك مرماه حين وصفه بصفات تيمورلنك ، وأوتيلا وبصفات ظالم لا يبقي حياً ولا يذر ويحرق كل ما يقع في طريقه كي يقيم دولة عمّت كل بلاد من الاطلنطكي إلى تمبكتو هذا من جهة ومن جهة أخرى يفهم المؤرخ انه لا يحب أن يضطّره تعطّفه على الشيخ عمر إلى تبرئته من كلّ خطأ وإعذاره من الهفوات التي لا مردّ لها في أمور عظام . فكان الشيخ عمر من أتباع الطريقة التجانية بل خليفتهم ورأي أصحاب هذه الطائفة الصوفية ان الجهاد واجب لنشر الإسلام وان تسامح القادرية في جهاد الوثنيين أو المارقين من الدين لم يثمر في بعض الجهات السودانية .

---

(١) في كتاب سلييه ص ٣٢٩ .

وفي الخلاصة اتصفت رسائل الشيخ عمر باخلاص وتعمّق في الأفكار وبفهم عريق للناس والأشياء وببساطة وايجاز وتدقيق وعدم تصنّع في الأسلوب . وأحسن الشيخ عمر فن المواعظ الحربية واتقن بحوثه المسهبة في آية من آيات الذكر الحكيم . ولأجل هذا كلّه ظهر مراسلاً ماهراً وخطيباً بليغاً وكاتباً جيّداً حاذقاً . وزد إلى كونه أديباً مفلقاً شهرته كوليّ كامل وقطب شامل وعالم عامل ومتقرب إلى الله بالنوافل وعارف بالله ومجاهد فاتح ومؤسس دولة واسعة الأطراف لنشر الإسلام وتدعيم أعمدة الطريقة التجانية وما كان في ولادته من عجب عجيب وفي انتقاله إلى جوار ربّه الأعلى من سر غامض وفي سيرته من شتى كرامات قد جعل أسطورته أشدّ حياة في أذهان الناس رضي الله عنه ونفعنا ببركاته آمين بجاه سيدنا محمد رسول رب العالمين .

الحاج مَامْدبهْ :

انّ الشعراء أو الكتّاب الذين قالوا أمداحاً للشيخ الحاج عمر نفعنا الله ببركاته أو الّفوا كتاباً في سيرته أو في مناقبه أو في مغازيه أو في تصوفه بالعربية أو بلغة زنجية لعدد لا يحصى كثرة . لقد كتب الشيخ موسى كمرا ترجمته الموسومة « بأشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر » نقلتها من العربية إلى الفرنسية في بعض منشورات المعهد التأسيسي لافريقيا السوداء . ومن الشعراء السنغاليين القائلين قصائد المادحين له نجد القاضي مَجَخَتِ كَلَ حامل لواء شعراء دهره والحاج مالك سِهْ مؤسس الزاوية التجانية في تواون وغيرهما . فلنتخذن منهم الحاج ما مد به الذي ولد سنة ١٩١٩ م في السنغال وبنى كثيراً من المدارس العربية في مالي والسنغال وموريتانيا قد أقام زمناً طويلاً في الحرمين والآن هو مراقب التعليم العربي في الجمهورية الإسلامية الموريتانية . وهو الذي قال القصيدة التالية في مدح الشيخ عمر :

سلام للديار الخاليات	وأيام مضين مسوّمات
وقفت بها أسائلها لماذا	عشيّة جئتها متشتّرات
نكصن رؤوسهن وكن قبلاً	منيرات الوجوه مبشّرات
لقد كنتن معدن كل فضل	وكنتن العرائس نيرات

أم الـــدهر الخؤون وساكنيه   أم الملـــويـــن كـــن مؤلمـــات
أم الوهاج في الافـلاك تجري   أم البـدر المنير المظلمـــات
لمـاذا أم من الثقليـن طـراً   نوازلهـــا فكـــن معجّبـــات
أم الخضرانـات عنكـن بعدا   وأنجمهـــا الشـــواقب زاهرات
أم الغبرا ومـا نزلت عليهـــا   مـن الخطبات تأتي العاكسات
فلأيـاً صرت حيرانـاً حزينـاً   بهـن أكـن صمّـاً خالـدات
عهـدت بها رجـالاً مؤمنيـــن   جمـاعـات نساء مـؤمنـات
وكانـــوا للالـه عبيـد صدق   وهـن بهـم حقيقـاً طائعات
وكانـــوا لـلأوامر والمناهـــي   بمـا يرضي الـــه الكـائنـات
إذا ماالليـل أسجى جـانبـاه   تراهـم راكعيـن وراكعـات
يجافـــون الجنـوب على رجاء   وجـوهـاً للمهيمـــن ساجـدات
لقـد جهروا عن الأوطان طراً   مـع الفـاروق ماحـي السيئات
فتـى في المجـد طلاع الثنايا   وفي يوم الوغي ذو المنقابـات
فتـى في الفضل مـورد كـل فضل   وفي البأسآ يقيـم المعوجـــات
فتـى خـاض المهامـه شاسعات   فـآب وقـد اتى بالمكـرمـات
فتـى أخـذ المطالب مصعبـات   وهـز بهـا فعـادت طائعـات
فتـى أخـذ الثـرايـا باليميـن   عـلى النجب العتـاق الناجيات
فتـى قـد كـان درّاك المعـــالي   وقبـلاً ذا الهبـات الـوافـرات
فتـى نـادى إلى العليـا جهـاراً   عـلى غـرر الخيـول الصافنـات
فتـى قـاد الجيوش المجـر حتى   تحـرك لـلجبـــال الـراسيات
فتـى نـادى إلى الحسنـى فلمّـا   رأى منهـم قبـاحـــاً فـاجرات
فجـاء وبـاليميـــن السمهريّ الـ   ـلدني فـوق أعنـاق العـدات
وسل السيف وانقطـع الكـــلام   فـلا تسمع عـدا قيل الكمـات
أجبنـاكـم اينا فـاروق عمـر   بـدعـوات لكـم متتاليـات
لقـد اسمعت لو ناديت حيـاً   لقـد سمعوا عـدا المتغافلات
لقـد اسمعت لـو ناديت انسـاً   فكيـف وهـم سوام مـرتعـات
ايـا فـاروق عمـر الفـوت جئنا   بنيـات ثقـات صـادقـات

دعـوت لفـوت جفـلى في أمان   ومـن يأبـى نصائـح خـالصات
سوى غمـر دنـيّ الطبـع نـاد   عـن الحـور الحسان القـاصرات
عـرائس عنـد جنّـات لـلالـه   مضيئـات خرائـد خـالـدات
ولم يطمثـن قبـل وهـن دومـاً   عـلى خلـل السّتور ساتـرات
بعـدن أو بجنـات النعيـم   خلقـن لمـن لهـم المتحببـات
خلقـن لكـل خوّاص المنايـا   وبيـاع النفـوس الغـاليـات
ألا للـه في أرض السمـاء   قصـور عـاليـات مـائسات
ولكنّهـا حقّـت ونيطـت   مكـاره مـؤلمـات مثقـلات
وقـد بـدت النجـوم ضحـى نهار   ولمـع البيـض يعشي النـاظـرات
وقـد جـاروا وجعلـوا حـاكمينا   بـلا كتـب رمـاحـاً عاليـات
وقـد قضـت الرمـاح الحكم فوراً   فـواعجبـا بتلـك القاضيـات
ومـن قـاضي القضـاة لهم جميعـاً   لمـا امتـلأ الـوغـى بالمشكـلات
كتاب اللـه فاصل كـل حكـم   فـلا يـدع الظـلام لمشكـلات
فتم الحكـم فانقطـع اللجـاج   وقـد أتت البـواتـر شاهـدات
إذا مـا الشرّ جـوزي كـل شر   فنعـم جـزاء أهـل السيئـات
وبعض في الأسارى مصفـدينـا   وأخـرى في السّبايـا خـادمـات
وبعض في البـراري مـدبرينـا   وبعض كـالسوام الحـائـرات
نعـم حـزب الالـه لقي أمـان   ونصر ثم ظفر دائمـات
بهـم يـا دار جئنـا سائلينـا   وكـم جبنـا أبـاطـح هائـلات
بهـم يـا دار جئنـا زائـرينـا   زيـارتهـم تـريـد الصّالحـات
فكلب فـاز في القـدمـاء قـدمـاً   بجنـات ورضـوان هبـات
بـاتبـاع الكـرام الهـاربينـا   بدقيـانوس قصـداً للنجـاة
هم الفتيان قالوا ربنا اللـه   خالـق العـوالم ثابتـات
وهـل ندعـو إلهـاً قـطّ الاّ   لمـن ثـجّ الحيـا مـن معصرات
فـلا ندعـو الهـاً قـطّ الاّ   لمـن نصب الجبـال الشامخـات
وهـل ندعـو إلهـاً يـا بليـد   سوى مـن قـد أتـى بالمحكمـات
مـن الآيـات قـد بصرت عقـولاً   فـأبت خـاسئات حـاسرات

أو ان تنظر إلى الوهّاج تنظر — كليل العين مملوء العنات
أو أن تنظر إلى السبع الطباق — تراها عاليات متّقنات
تئين بها الملائك ساجدات — مرور الدهر دوماً عابدات
وقد ملئت من المزن الزلال — ثقالاً من سحاب هاطلات
بها الأملاك تغدو كل يوم — حساباً حقبات مدبّرات
بأعمال وأنفاس أمور — إلى المولى دواماً صاعدات
هم الفتيان صاروا نحو كهف — فراراً من عظيم السيئات
هم الفتيان ظنوا كل خير — بربهم كثير الطيبات
فجازهم بنوم في أمان — ... من سنين تاليات
هم الفتيان اصحاب الرقيم — فذالكم العجائب بينات
هم الفتيان قد نظروا حقيقاً — وقد رزقوا بصائر مبصرات
ألا يا دار فالحاجات حمّت — بليلات أزاهر مقمرات
ألا يا دار نبئني حديثاً — من الأنباء عن قوم سرات
وللطيبات سدّت للمطايا — ونيات بهم متناويات
لقد كانوا هنا هم في أمان — وهل ظعنوا مع المتظاعنات
لقد حنت قلوب اشتياقاً — اليهم شاغفات تائهات
لقد حنت قلوب اشتياقاً — وما وجدت لها من مرتعات
فأبدت لي جواباً بعد لأي — وقالت لي لقد غبروا ثبات
لقد غبروا كراماً ذو المزايا — بأعمال عظام صالحات
لقد غبروا وقد ملأوا طروساً — بعليين كانت ثابتات
أو أن تسل الكرام الكاتبين — بما كتبوا لهم من محسنات
أو أن تسل المواضع للسجود — مواضع للكفاح الداميات
أو أن تسل السيوف الساقطات — على قني الرؤوس الهادمات
شهدن بأنهم باعوا نفوسنا — على حدّ الظبات الباترات
فباعوها من المولى الكريم — بجنات له متنعّمات
لقد غبروا سراعاً مهطعينا — كذلك الدهر يفعل كل آت
لقد غبروا وقد بكت السماء — عليهم بالدموع السائلات

بكى كل عليهم بالدموع | مزجن من الدّماء الهامرات
نعم بكت السماء والأرض فيهم | كثكلى فوق عليا نائحات
سلام ما شدى الورقاء ليلاً | على خلل الغصون مائدات
سلام مالرعد سحّ وبلا | على جرعاء هامدة النبات
سلام ما حدى حادي المطايا | إلى حرمين منبوع النجات
وما من كل فجّ مهمهيّ | عميق للجوانب خاويات
حمى للبوم مشتبه العوالم | تساق العيس فيها محرمات
تؤم البيت تغدو . كل يوم | قلائد للهدايا مشعرات
وما للبيت طاق المذعنون | لأسعد من أيادي اللامسات
وما خرت ذقون تحت باب | وما ذرفت عيون باكيات
وما بحطيم قد وقفت رجال | بنو عدنان نحوا للنجات
وما الكاسات ملئت ماء زمزم | دهاقات خطايا غاسلات
وما سجدت بمكّة من وجوه | سجوداً للاله مسبحات
وما لصفا ومروة يوم نحر | تلاطمت الوفود ملبيات
وما لمنى قد اجتمعت جموع | أتت جمرا ألالا فائضات
وما جمعت بمزدلف صلاة | وما نادوا بمختلف اللغات
عشية يوم وقفت للغروب | من العرفات مغنى للعفات
وما طلعت مطايا من كداء | بباب سلام تأتي الواجبات
وما انحدرت ايابا من كديّ | خروجاً للعتيق مودعات
لجيران بذي سلم تعادي | إلى زرفاء طيبة واردات
إلى خير البرايا الهاشمي | بروضته الشريفة مدلجات
وآل ثم اصحاب كريم | بدور بل شموس نيرات
متى ما قال مشتاق هياما | سلام للديار خاليات

انتهى

الْحاجُّ ابْنُ المقْدَاد أوْ مَدْرَسَةُ أَنْدَرْ

كان الشيخ عمر عارفاً بالله ذا همم مربياً داعياً إلى الإسلام متكلماً مقتدياً بالكتاب والسنة وصوفياً تجانياً وكاتباً كبيراً ومن أول السودانيين الغربيين الذين حجّوا إلى بيت الله الحرام وكان يعاصره ابن المقداد الذي حجّ سنة ١٨٦٠ م وقال في الشيخ عمر : « .. وكان الحاجّ (عمر) أسوة فيما نحن بصدده . وكان مجهولاً من أهل هَلْوَارْ . ولما طرده أهله انتفع بقليل ما كان يعرفه من اللغة العربية ليقصد الحجّ إلى مكة المكرمة فاجازه هذا السفر ان كان ما كان له من دور كبير . وفي أثناء سفره أحسن تعلم العربية أتم الإحسان وقرأ القرآن واكتسب عدداً لا يحصى من كتب عربية جيدة ... فاعتبره الجمّ الغفير من الجهال نصف إله . ولما عظم شأنه زاد عدد أتباعه يوماً فيوماً حتى صاروا جيشاً يجديه نفعاً إذ أخذ في تأويل القرآن عن هواه فحارب الشعوب الوثنية أو المسلمين المعتدلين ولم يقف إلا إذا حاول الغارة على الفرنسيين الذين ما زالوا يهزمونه من كل أوب وصوب »[1] ومن الذي كتب هذه الحملات العنيفة على شخصية لم تزل مخصوصة بكل فضيلة نوّه به كل من كان له يد في مدح شفاهياً كان أو كتابياً ؟ فصاحب هذه الانتقادات هو الحاج ابن المقداد (١٨٢٦ – ١٨٨٠ م) الذي قد حجّ سنة ١٨٦٠ م ومر في طريقه إلى مكة المكرمة بالمغرب الأقصى والجزائر وليبيا وهو الذي قال فيه بِرِهيْرِدَدْ لِسْلَ Brière de L'Isle في رسالة كتبها في ٢٣ سبتمبر ١٨٧٨ م ما يلي : « ان الحاج ابن المقداد قد كان في خدمة عدد عديد من الأمراء[2] مدّة عشرة أعوام وقام ببعثات كثيرة وهو وحده أو مع ضابطي جيوش فأتى بالمأمول منه عند الإدارة الفرنسية وقد شهد منذ أيام بروته Prôtet أمير أندر اثنين وعشرين قتالاً أو غارة وله في الوظيفة الرسمية ثلاث وعشرون سنة . وله وسام الشرف الفرنسي وسام

---

(١) من مخطوط بنفسجيّ مداد مؤرخ في شهر سبتمبر ١٨٦٠ م فانظر الوثائق الوطنية I.G. ٢٧ في سان لوي .

(٢) كان هؤلاء الأمراء ولاة فرنسيين في أَندر وهم –

التعليم العام الفرنسي وقد وسّمت الدولة العثمانية بالنيشان الخامس الدرجة المجيدية للحاج ابن المقداد .

وكان المترجم الأعظم في سِينْ لُوِي وقاضي القضاة المسلمين والفرنسيين فيها . فلما توفي في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٠ م ما أشجى موته السلطات المستعمرة إذ نعاه إلى وزارة المستعمرات برهيرد لسل قائلاً في رسالة مؤرخة سنة ١٨٨٠ م في ٢٥ أكتوبر : يمكن لصاحبي الأدب السودانيين أن يقوما مقام القاضي المفسّرا في وظيفة ولكن الذي لن يقوم أحد مقامه هو الحاج ذو النفوذ الخادم المخلص للدولة أوحد أهل زمنه ذكاء من أعاننا بصورة أجبر على تأسيس علاقات بيننا وبين دَمِيلْ كَجُورْ [١] وسلطان سِيغُ [٢] والآن نحن في نشأة تجارة في أمان في ناحة نهر السنغال ونحن في أوائل حملات عظام نحو نهر النِجِيْر فَإِذَنْ وفاة الحاج ابن المقداد هي الطامة الكبرى لإدارة المستعمرات .

ومن حسن حظّ هذا الأمير الشديد البكاء ان شاطر الحاجّ ابن المقداد أولاده تفانيه في خدمة الدولة الفرنسية قبل وفاته ــ فكان له ثلاث بنات وهن عائشة وأم كلثوم ومريم وله أيضاً أربعة أبناء وهم عبد الله الذي قتل في جانب الملازم الأول مِينِتْ Minet في بول سنة ١٨٨٧ م وعينيه المتوفى سنة ١٩٤١ م وسليمان المتوفى عام ١٩١٣ م ومحمد الشهير بدود سيك أو ابن المقداد الأصغر . فان هذا الأخير كان هو الذي قام مقام أبيه في وظيفته مترجماً وسفيراً وأديباً . وهو الذي يهمنا هنا والذي كثيراً ما لم يميز بعضهم بينه وبين أبيه .

أ ــ **حياته** : وكما عرفنا حق المعرفة تاريخ وفاة ابن المقداد [٣] كذا وسعنا أن نعرف تاريخ ولادته بواسطة الوثائق الوطنية وبفضل السيد عمر به وهو نائب مدير الوثائق الوطنية بدكار . ولنا أيضاً مقال كتبه الشاعر المفلق السيد المصطفى آن

---

(١) دميل كجور هو ملك مملكة كجور Prôtet, Robu, Morel, Faidherbe

(٢) وسيغ : مدينة في مَالي قد كانت عاصمة لدولة كبيرة .

(٣) هو Bou-el Moghdad

السنغالي في مجلة « صوت الإسلام » في عدده المنشور في ١٢ من شهر حزيران سنة ١٩٦٥ م . وفي هذا المقال قدّم المصطفى آن حياة ابن المقداد على وجه حكايات قصيرة وأما الوثائق فانما احتوت على مختلف بعثات قام بها دود سيك[١] في داخل السنغال وخارجها .

فاسم ابن المقداد هو محمد واسم عائلته سيك فإن تربيته ليس بينها وبين تربية الأولاد المسلمين الآخرين فروق بينة . ولد في سنة ١٨٦٧ م بسان لوي العاصمة الأولى للسنغال وترعرع وقرأ القرآن على أبيه الذي كان شهيراً بسعة علومه . فتعلم لغة الضاد مبكّراً ومن المعروف أنّ ذوي الثروة أرسلوا ولا يزالون يرسلون في العادة أولادهم إلى الجمهورية الإسلامية الموريتانية لتكميل تهذيبهم في كل فنّ من فنون الدين والدنيا عند العلماء البيضان ، أما الحاج ابن المقداد الأكبر فقد وكل تكميل تربية ولده إلى علماء أولاد ديمان من الحسّانيين في ترارزة فصار ابنه دود سيك يطلع على أسرار جميع الفنون التي تدرس بالعربية وقال مُصْطَفَى آنْ « وفي مدة وجيزة حفظ القرآن واتقنه » ربما فرض على نفسه شأن أبيه أن يتعلم كثيراً من الأدب العربي ومن العلوم الدينية ومن فقه اللغة ومن القضاء الإسلامي وقد أحسن تعلم اللغة الحسانية على أيدي معلميه الموريتانيين فعل ذلك ليقوم بوظيفتي القضاء والترجمة .

ب ـ سفارته : رجع دُودُ سيكْ من ترارزة بعد اقامة أربع عشرة سنة عند البيضان فوقع عند المستعمرين في أندر موقعاً حسناً شأن أبيه بقدمه الراسخة في الفقه ولغة الضاد واللغة الحسانية .

ربما قدّمه أبوه إلى أصحاب السلطات فتعلم الابن لغتهم بسرعة . ولو طالع وُلْتِيرْ Voltaire ما في مراسلة ابن المقداد من أسلوب جيد لم يلمه . فهذه المراسلة متعلقة بالوثائق التي كتبها دود سيك باسم أمير أندر جواباً على رؤساء السياسة أو الدين شأن أهل موريتانيا وأئمة تكلور وملوك كجور متعلقة أيضاً بالرسائل التي ترجمها من العربية إلى الفرنسية .

---

(١) هو ابن المقداد .

هو وأخوه عبد الله قد صحبا أباهما إلى فرنسا لمشاهدة المعرض الدولي سنة ١٨٧٨ م . وقد سافر غير مرّة وحده أو صحبة لضباط الجيوش إلى موريتانيا والمغرب الأقصى والجزائر وفرنسا وآسيا وغينيا .

ودلت الوثائق في أندر على ما قام به ابن المقداد من بعثات عديدة ومنها :

١) في سنة ١٨٩٢ م وضع تقريراً عن سفره في ادرار وقال في مستهله : « من سانْ لُوي في ٢٩ من شهر سبتمبر عام ١٨٩٢ م وفقاً لقرار السيد الأمير في أول حزيران ١٨٩٢ م غادرت سان لُوِي في ٦ من الشهر الجاري قاصداً أدرار لتقديم معاهدة تحالف إلى ملك هذه البلاد أحمد ولد سيدي أحمد ولد عيد وصلت إلى أتار بعد عشرين يوماً ... »

٢) وفي سنة ١٨٩٤ م ذهب ابن المقداد إلى تكنت .

٣) وفي سنة ١٩٠٠ م وضع دود سيك تقريراً عن سفره إلى أدرار .

٤) وفي سنة ١٩٠٢ م صحب ابن المقداد المترجم كُبُلاَنِي Coppolani إلى بلاد ترارزة كان أحمد سالم حليف الفرنسيين يقع في ورطة بعد ان أخذ في محاربة سيدي . فكان في هذه البعثة فهيبي Fauller الملازم الأول ومشلنجل Michelangéli المندوب للشؤون الأهلية .

٥) وفي سنة ١٩٠٤ م غادر كبلاني سان لوي مع ابن المقداد وشُوُو Chauveau النقيب في الجيش في بعثة إلى أهل بَرَكَنَةَ ليكون ما بين سان لُوِي وكَهَيْدِ تحت حماية الدولة الفرنسية .

٦) وفي سنة ١٩٠٥ م صحب ابن المقداد فَرِجَنْ Fréjean لتحقيق جثة كُبُلاَنِي الذي قتله أتباع سِيدِيَ الصَّغِير ولد زين في تِجكْجَةْ .

٧) وفي سنة ١٩٠٨ م حَرَّرَ ابن المقداد والشيخ سيديه قائمة القوى الخصمة وهي سبع قبائل ذات موقف عدواني وثلاث قبائل مشكوك فيها وقبيلتان مؤاتيتان .

٨) وفي سنة ١٩٢٨ م وكل الأمير إلى بِيرِيِسْ Beyriès المدير بعثة في وِلاَّصِسْنِرُوسْ Villa cisneros . أما ابن المقداد مع تقادمه في السن فلم يتأخر طرفة عن السفر إلى المخالفين وهم أولاد الشيخ طائفة من

ركَيبات ، وهذه القائمة وان كانت غير كاملة فانها دلت على سعة خدمات مختلفة قد قام بها ابن المقداد للفرنسيين .

ومن العجب العجيب أن ينجح في ابقاء علاقات ودية بينه وبين الموريتانيين والسلطات المستعمرة ورؤساء السودانيين شأن دَمِيلْ لَتْجُورْ وأَلْمَامِ عَبْدُ بُوكَرْ وأَحْمَدُ الشَّيْخُ سلطان سِيغُ .

انتقل ابن المقداد إلى جوار ربه في يوم الخميس ٢٧ من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ م بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة .

ج ـ **الشاعر** : ان من كان يمثل سفيراً حقيقياً جدّ التمثيل بأحدّ شعور بمراعاة الأخلاق وبأفعال تنم عن الذكاء وبسهولة في الخوض لغمار صعوبات خفية وأخطار سرية وأحزاب متضادة هو الذي كان أديباً ظريفاً ونصيراً للآداب ومُجيراً ماهراً . قال المصطفى آن ما يلي : « ويقال ان أحد الأسارى من الثوار قد اغتنم فرصة للفرار من معتقل المستعمرين الفرنسيين واستجار بدُودُ سِيكْ ابن المقداد وحاول الفرنسيون أخذ مستجيره وأنشد لهم قول البدوي الشنقيطي ناظم الغزوات :

لا يسلم ابـن حرة زميلـــــه   حتى يمـوت أو يرى سبيله

ومن ثم سامح الفرنسيون المستجير واجتنبوا الإساءة اليه من أجل ابن المقداد ... وصار ابن المقداد في أندر كشمس الشتاء وهي بغية كل ذي دم ، وقد كان فيها ملتقى الوفود فكيف لا وهو الشاعر الأديب يشبع فيه الضيف الشاعر أو الأديب الضيف نهمته في الأنس والمذاكرة » .

وكان دُودُ سِيكْ كثير الرماد مطير الكفّ ودونكم مثلاً لذلك فان لأهل سَانْ لُوِي في الأعياد عادة هم يعظمونها وهي أنهم يهيئون هيكلاً جميلاً مصنوعاً من الخشب أو الكاغد في صورة سيّارة أو طيّارة أو دار أو حيوان ما ويسمون هذا الهيكل (فَنَالْ) ثم يقدمونها إلى أحد السادات كهدية تهنئة بالعيد وكان المهدى اليه يعطي لذلك أموالاً طائلة ووافق ان أهدوا به مرة إلى السيد الحاج بِكَايْ سِيكْ ابن عمه وكان بِكَايْ من الزهاد الذين لا يعجبهم مثل هذه العوائد فردّ المهدين بخفي حنين ولم يعطهم فتيلاً فبلغ ذلك ابن المقداد فقال :

ردّ هـذا الفتى «فَنَالاً» فنالا   كل عار إذ ردّ ذاك «الفَنَالاَ»
ترك العرض نهب كـل لسان   وانثنـى نحـو ماله ثم مـالا
فالفتى من يصون عرضاً بمال   ما الفتى من يصون بالعرض مـالا

ويقال ان السيد الحاج بِكَايْ سِيكْ لمّا اطّلع على الأبيات قد وهب القوم وأجذل عطاءهم .

ولم ير قطّ من يماثله في حبّ الصالحين من زعماء الإسلام الذين عاصروه فلا يوجد من بينه وبين ابن المقداد كما يقوى دُودُ سِيكْ هذه العلاقة دائماً . فالشيخ سَعْدْ أَبِيهِ المصلح الأكبر في الطريقة القادرية والشيخ سِيدِيَهْ وأحمد وُلْدُ عِيدْ في موريتانيا من جهة والشيخ أحمد بَمْبَهْ البَكِيِّ المؤسس للطريقة المريدية والقاضي مَجَخَتِ كَلَ والحاج أَنْجَايْ آنْ وغيرهم في السنغال كانوا من أصدقائه الكبار .

وقد بلغت شهرته من الموريتانيين كلّ المبلغ حتى صارت بلاد «البيضان» وطناً ثانياً له وما هي أسباب شهرته هذه ؟ أولاً تعلم ابن المقداد في موريتانيا مدّة خمسة عشر عاماً ، وثانياً كان يتكلم باللغة الحسانية بصورة أتم من الصورة التي يتكلم بها الحسانيون . وقد حدثني بعض أصدقائي الموريتانيين ان لابن المقداد ديواناً بالحسانية ، وثالثاً قد حافظ «البيضان» على انتاجه الشعري برمّته أشدّ المحافظة ، ورابعاً كان يغمر بالجميل من شدوا إلى داره رحالهم وكانت داره واقعة في شارع نَهْوِيلْ Neuville الرقم ٣٣ ولها طابق واحد والآن تؤول إلى الخراب وزرتها قبل خمسة أعوام وقد غطى الدهر فناءها بكسر قدور وقيل ان هذه القدور كانت تسع بقرة كاملة .

وقال بعض شعراء شِنْقِيطَ [١] هذه الأبيات في أبهة دار ابن المقداد :

كنا إذا ضربت وقت زوال (مِدِ) [٢]   لم يلتفت أحد منا عـلى أحـد
ترى السلالم والاقـدام ساطعـة   مـا بين منـدرج منهـا ومعتمـد

(١) قال لي من روى لي هذين البيتين ان صاحبهما هو آبْنُ بُتَهْ والله اعلم .
(٢) مِدِ هو اسم فرنسويّ معناه نصف النهار وهو وقت الغداء .

وقال أيضاً صاحب هذين البيتين في مدحه دار ابن المقداد :

فلمـا ترى أنـدر صاحت وأسرعت كبأز عـلى سرب مـن الطّير سائل
نزلنا بـدار كـل دار يرى بهـا عـلى فضلها مروز أقـوى الدلائل
فـدار ابن المقداد دار بيـوتها وما ملكت وقف عـلى كل عائل
دعـائمهـا عقـل وديـن ورفعـة وعلم عزيز واجتنـاب الرذائـل
بنتهـا بنـاة المجـد أصلاً وأسست بناهـا عـلى التقـى وجمع الفضائل

قالوا ان السيد الشيخ سِيدَّاتِ أحد أحفاد الشيخ محمد فَاضِل بن مَأْمَيْنِ المصلح الموريتاني الكبير قد حلّ يوماً بمدينة سَانْ لُوِي ووصل خبر مجيئه إلى ابن المقداد وقال مرتجلاً تلك التائية المشهورة التي نحفظ منها هذا البيت اليتيم :

قـول المبشر جـاء الشيخ سِيدَّات قـول تضمن أنـواع المسرات

وقد سبق القول انه قام ببعثة إلى أدرار في سنة ١٨٩٢ م بمحادثة أحمد ولد عيد قال لي بعض المخبرين الموريتانيين ان ابن المقداد مدح أحمد ولد عيد بقصيدة ذات نفحة ملحمية لحثه على الفرار وقال مخبري هذا ان القصيدة مليئة من تلميحات وشواهد وديّة ونصائح حتى إذا لم يفّر الممدوح قتل . وزاد « ما حفظت من القصيدة الاّ الشطر الأوّل لمستهلها وهو :

والعرب إذا ارتفعت لم تَعُـدِ ... ... »

وعلى حدّ قول رَاوٍ مُورِيتَانِيٍّ لَقِيتُهُ في أَنْدَرْ في يوم السبت ١٤ من شهر آذار سنة ١٩٦٩ م واسمه أحمد بَابَهْ اليَدَالِيّ لمّا هم دُودُ سِيكْ بمغادرة شيخ له سمع شيخه يذكره بيتاً لمحمد البوصيري وهو :

فارقتـه كرهـاً وكـان لديها ثـاويـاً لا يمـل منـه الثواء

وكان ابن المقداد يعزم على الرجوع إلى مدينة سَانْ لُوِي بعد اتمام تعلمه في موريتانيا فقال للشيخ مرتجلاً في جوابه مودعاً :

لا عيب للقوم إذا كان برهم يُنْسِي الغريبَ أهاليـهِ وأوطانا

وله أيضاً في بعض أصدقائه الموريتانيين يقال له عالم :

الا ليت لي خلّ متى شئت علّني ثلاثاً[1] ومثلي بالثلاث يهيم
فتى ما جد مهما أديرت كؤوسه سواء لديه واقد ونديم
حوى ما حوى مجداً قديماً وحادثاً وما المجد الا حادث وقديم

وكان ابن المقداد صديقاً للشيخ أحمد بَمْبَهْ نفعنا الله ببركاته آمين . حكى بعض المريدين انه قال مؤسس الطريقة المريدية لدُودُ سيكْ : دونك تميمة وكلّني الله إلى ان أعطيكها وان أبشرك بدخولك الجنة بعد موتك » فصاح بعض المريدين الحسودين على ما أنعم الله على ابن المقداد : أحسنت هكذا إلى دود سيك وأنا كنت معك تلميذاً لشيخ واحد ! » وفي الغد ذهب الشيخ أحمد بمبه إلى الحسود بكثير من الورقات البنكية وقال له : « هذا ما كلفني الله أن أعطيكه ! » قد علم الشيخ أحمد البكي ان الحسود لا يحب إلا المال وان ابن المقداد يحب ما هو خير وابقى .

ودلّت هذه الحكاية بمعناه الرمزي على ان لدود سيك منزلة مرموقة عند رؤساء الدين فقد قيل مثلاً انه مكث برهة لم يجتمع بالشيخ أحمد بمبه بعد عودته من المنفى واشتاق إلى رؤيته مع ما كان من اشتغاله بمنصبه في الترجمة فصادف ان جاءه أحد علماء موريتانيا يودعه ويريد الشيخ أحمد بمبه فقال له ابن المقداد مرتجلاً :

ألا ذكّر الشيخ العهود ولا تنسى لدى الشيخ ذكرى أصبح الشيخ أو أمسا
فبلغه عني كل ما لاح وجهه سلام محب لا يريد به فلسا

ويقال أيضاً انه جلس يوماً وقد اشتاق إلى رؤية الشيخ أحمد البكي واشتدّ شوقه وطلب رسولاً ولم يجد فأنشد يقول :

من يبلغ الشيخ من خل به وثقا قدماً سلاماً جديداً يانعاً ورقا
سلام حب صديق الود خالصه لا يبتغي ورقاً كلا ولا ورقا

---

(١) أي ثلاث كؤوس من الشّاي لا من ام الخبائث إذ كان بين ابن المقداد وأبي نواس بون شاسع ! .

ومن دلائل صداقة ابن المقداد لمؤسس المريدية ما يقال انه أهدى دُودُ سِيكْ اليه تمراً في وعاء مكتوب عليه باللغة الفرنسية فكان الشيخ بمبة يبغض كل ما يمت بصلة المستعمرين الفرنسيين حتى لغتهم وفي ذلك ردّ الهدية إلى مهديها السيد ابن المقداد فقال دود في ذلك :

هـذا وعـاء حـوى تمراً لحضرتكم	عن ردّه حين يهـدى قد نهـى الناهي
هـدية أبتغـي وجــه الإلــه بهــا	والفعـل أحسنه مـا كـان للــه

فردّ الهدية إلى الشيخ أحمد بَمْبَهْ مع البيتين فقبلها .

فلما توفي الشيخ الخديم [1] رثاه بهذه الأبيات :

لا أرى العيش للنفـوس يطيــب	بعـد مـن هو للنفس منـي حبيب
أيطيب الـزمـــان بعـــد ولي	هـو آسي القلوب وهو الطبيب
نبأ منــه شاب كـل وليــد	جلّ خطب لـه الوليــد يشيب
رزئ المسلمون بــراً وبحــراً	والنصـارى بعيـدهـم وقريب
بالـوليّ التقـي مـن هـو الملاذ	عندمـا يهضم الملـم الخطيب
ومـن آن شئت مجتنيـاً جنـاه	يتــدلّى اليك الغصن الرطيب
بعلـوم تعـي القلوب وديــن	ونــوال بـه يضن الخصيب [2]
بــارك اللـــه في بنيه جميعــاً	وبنيهم وهـو السميع المجيب
وعـلى الشافـع المشفع فينــا	صلـوات بهـا يسر الكئيب

دلت هذه الأشعار على ما في نفسية ابن المقداد من رقة ورهافة الشعور وطرب الفن وكثير ما يحب الموسيقى والأغاني وربما نشأت رقة عواطفه هذه تحت الخيمات في موريتانيا عندما يسر الشاعر الجائل سيد قوم والليل مقمر والرمال مبتهجة والبيداء فرحة والألحان ساطعة وكلمات « إسْكَيْ ! » فائرة كضربات وقف في رداء الدجى.

---

(١) ان أحمد بمبه لشهير بلقبه الخديم أي هو كان دائماً في خدمة الرسول .

(٢) لعل الخصيب هو وزير من وزراء الخليفة المقتدر او وال من ولاة مصر فقد مدحه وهجاه ابو نواس .

وكان لملوك تررزة جمّ غفير من الشعراء والمغنين منهم شاعر شهير اسمه الأعور وليم زيد الشهير بالأصلع ففيه قال ابن المقداد :

لعمري لقد خصت القرى من كناكر ... وجاوزت أرض الصين بعد الجزائر
إلى المغرب الأقصى دياري ومنشئي ... وسامرت أربـاب الغنا والمزامر
ولا سمعت أذني ولا نـاظـري رأت ... كذا الأصلع المشهور من كل شاعر

وله أيضاً في الأصلع :

من كان أصلع إذ يشدو ليطربنـا ... أو كـان أعور فليحكم بما شاء
يا ليت كـلّ مغـنّ كـان ذا صلع ... وكـانت العين عينـاً منـه عـوراء

فقد أخبرني صديق لي من الجمهورية الإسلامية الموريتانية أنّ ابن المقداد أنشأ نوعاً من الموحشات في موريتانيا وهذا النوع منهاج شعري يقوم على ان كانت قافية القصيدة كلمة من اللغة الحسانية أو من لغة « وُلُوفْ » [1] . فهذا ليس بجديد في الأدب العربي وقد استعمله شعراء الأندلس وكان ابن المقداد من أول من اتخذ هذه الصورة العروضية فصارت مشهورة في السنغال إذ يستخدمها الشيخ أحمد بمبه والقاضي مَجَخَتِ كَلَ ومَاجُورْ سِيس وغيرهم .

كان عالم ورع يقطن في جنوبي جزيرة أندر اسمه الحاج أحمد انجاي مابيي وكان إماماً ذا تقى وكان يبكيه ورعه وتقواه إذا صلى بالناس .

قال ابن المقداد يمدح هذا الفقيه الناسك ومعارضاً على نائبه :

سلام كعرق الرّوض بـل انه يحكي ... شذاه الكافـور ان فـاح والمسك
إلى الحاج مفتي قصر سِنْدُونِ [2] كلهم ... مجدّد هـذا الديـن أحمد ذي النسك
فأكرم به وَاسْكِ [3] إذا مـا لقيتـه ... وان قـلّ في قول فأكرم به وَاسْكِ [3]

وله أيضاً في قرض قليل من المال :

---

(١) ان وُلُوفَ هم شعب من شعوب السنغال ولغتهم اكثر استعمالاً من لغات السنغال .
(٢) هي كلمة فرنسية غيّرها اهل اندر معناها الجنوب وهي حارة الجزيرة الجنوبية .
(٣) هو اسم حسّاني معناه هتاف صاح به من اهتزّ طرباً او عجباً أي يا للعجب .

مني سلام اليـك كــان موجبــه ان كنت ذا فضة منها لِبَلْمَ دَرَمْ[1]
ولا تـردّ سؤالي دائمــاً أبـــدا دنال في[2] عاجلا تِنَكْ دَنَالَ كَرَمْ[3]

وكان ابن المقداد عاشقاً يعرف غناء عشقه حق المعرفة وقال عند موادعته امرأة يقال لها (آن) هذين البيتين :

البين مــن آن يـا خلّـي قــد آنـا وراعـك البين لمّـا آن مــن آن
ان راعـك البين منهـا قبـل موقفـه ما الرأي ان ركبت « كَمْرَكَ » أو آنا

كانت تلك السيدة أتت إلى أندر وأتت من تلك القرى التي على شواطئ نهر السنغال وعادت في سفينة كانت بريداً آنذاك يعرفها ولا يزال الكثير من سكّان هذه الشواطئ ويقال لها « كمرك » والآن سمّيت سفينة البريد ببوالمقداد اجلالاً لابن المقداد . والسيد دود سيك كان يتأسف عند وداعه آن . وله أيضاً بيتان في امرأة اسمها زَيْنَبْ كَنْ :

إذا رأيت اخاً سبعين أدمعــه تبدي على الخدّ ما جنّ الفؤاد وَكَنْ
لا تعذلـوه ولكن فاعــذروه فهـو شيخ رمته فتاة المصر زَيْنَبْ كَنْ

وقال ابن المقداد أبياتاً في ملاطفة بنت لم يسمها :

يا خود ان غراب البين منك سَوَخْ[4] فزرت أطلب من وصل لديك سَرَخْ[5]
ضننت بالوصل حتى بالحديث ولا أرى ضنيناً سواك ضنّ بـوَخْ[6]
لا تمنعي الوصل ممّن يستهام بـه أتمنعين وصال المستهام لَتَـخْ[7]
لم تعلمي ان خير الناس أكرمهــم والخير ابقى وان طال الزمان إلَخْ[8]

---

(١) لبلم فعل أمر أي أعرني ودرهم جاء في لغة وُلُفْ على صورة درم .
(٢) دَنَالَ في : أي سأفي دبني لك .
(٣) ودَنَالَ كَرَمْ : أي سأشكرك .
(٤) سَوَخْ : أي كلامك وحديثك .
(٥) سَرَخْ : أغيثيني او نعمة .
(٦) وَخْ : كلمة واحدة دالّة على رضى .
(٧) لَتَخْ : لماذا وما سبب منعك ؟
(٨) إلَخْ : هو اختصار إلى آخره .

وقال أيضاً في الغزل :

أيا نزهة النفس التي ضيعت نسكي ... على أيّ حال أنت لا بـد لي منك
فـان كنت في برّ أتتـك ركابنـــا ... وان كنت في بحر أتيناك في الفلك

وقد روى لي هذين البيتين الحاج مامد به ولم يبين أيّة ظروف وفي أية امرأة قالهما ابن المقداد .

وهذا العاشق الظريف والأديب اللطيف والسفير الأريب ونصير الآداب اللبيب والمنشئ للمنهاج الشعري العجيب قد مرّ ذات يوم بدار صارت حانوتاً لبعض أهل الصناعة وقد كانت هذه الدار في ميعة صباه ، كتّاباً له فقال مرتجلاً :

أشكو إلى اللـــه دهراً مـا به البيت ... وليس ينفع ذا صيت بـه صيت
أمست مـــدارسنا فيهـــا مغلقـــة ... وفتحت بعـدهـا فيهـا حـوانيت

ولما أراد أن يهجو بعض أقاربه على بخله قال لمن همّ بطلب نوال من البخيل الذي لم يسمّه أيضاً :

إذا كنت ترجـو من فـلان نوالــه ... رجـوت نـوالاً ما رجـاه نبيـل
فليت بـه الطيار أصبـــح طـائـراً ... وليت بـه في الأرض ضـل مبيل
وليت بـه الغـوّاص أصبـح غائصاً ... إلى قعر بحر مـا اليــه سبيـــل

وكانت حياة ابن المقداد كرواية حقيقية وكان هو كنار على علم في القضاء وفي السفارة وفي الترجمة وفي نصرة الآداب أما المقطوعات الشعرية التي أوردناها فمن البراهين الصحيحة انّ ابن المقداد كان من كبار الشعراء السنغاليين ومن الأسف أن لا نعثر على ديوانه الكامل ولعله بين أيدي أصدقائنا الموريتانيين .

وان أهمل بعض أدباء السنغال ما كتبه شعراءهم أو كتابهم من الشعر أو النثر باللغة العربية فعند اخواننا الموريتانيين نفقت سوق الأدب العربي ولهم عناية بكل ما يتعلق بشعر جيد فكيف لا وبلادهم عكّاظ افريقيا وقال بعضهم فأحسن :

نحن بنـو حسن ضلّت فصاحتنـا ... انـا إلى العرب العربـاء نَنْتَسِبُ
ان لم تقـم بينـات انّنـا عـــرب ... في اللسان بيـــان اننـــا عـرب

الشيخ أَحْمَدُ عَيَانْ سِهْ

كانت سان لوي ولا تزال محطّ الرجال لأصحاب الأدب العربي ومنبتاً طيباً لكبار أدباء السنغال وشهدت العصور لأهلها المسلمين بالنبوغ الفطري والتفوق الفكري . وحتى يومنا هذا وجدنا من يحافظ على تلك العادة النبيلة ومن الأسف أن ذهب كأمس الدابر ما حوت عليه من الكتب مكتبات خاصّة مثل مكتبة الحاج أحمد المختار آنْكَارِ ومكتبة الحاج أَحْمَد أَنْجَايْ جَاكْ ومكتبة أَحْمَدَ سَارْ انْجَايْ سَارْ ومكتبة غيرهم ومن حسن الحظ أن يكون من معاصرينا فحل من فحول الأدب ألاّ وهو السيد أحمد عيان سه فداره في حارة انجلفين في مدخل أَنْدَرْ فهو من مشاهير أعلام سَانْ لُوِي فلا يزال الأدب العربي يفتخر به وهو الآن ابن ستين سنة ونيّفاً وقد تعرف إلى ابن المقداد وهو ممن طرق باب المدح طرقاً شديداً فنوّه بمناقب معلميه مثل هذه القصيدة بحرها المضارع :

إلى متـى يـا غرامـي	تسبي عقـول الكرام
أتمنـع النـوم منـي	من بعـد طيب المقـام
انّ الحشا في هيـامـي	ومقتـلي في انسجـام
من حبّ شيـخ أديب	تـاج الملـوك الكـرام
عـالي العـلى والمزايـا	ومنـه نيـل المـرام
فرد المكانـة نـور الـز	مـان فخـر الانـام
ما حي دجا كل دجـن	مصباح كـل ظـلام
شيخ المشايـخ فـاضت	بـه فيـوض الانـام
تقـري لـديـه فنـون	من جنس حـام وسام
نالـوا بـه كـل مجـد	وهم أعـالي الغمـام
عثمان في الناس نـور	وغيـره كالظـلام
فيومـه يـوم عيـد	وليلـه كالعيـام
يـا حسنه كجمـان	أو مثـل درّ نظـام
ووجهـه مثـل شمس	يـداه فيض الغمـام
وجـه تـلألأ نـوراً	كمثـل بـدر التمـام
رضـوان ربي دوامـاً	عليـك يـا بحر طـام

ان ابـن أحمـد شيخي	وسيدي وهمـــام
وقبلتـي في صـــلاتي	وكعبتـي وامـــام
ومطلبـــي ومـــرادي	ومنيتـــي وأمـــام
ومعقـــلي وغيـــاثي	وهيبتـــي في الانـام
عثمان قطـب البرايـــا	فمـا لـه مـن مسام
يـا سيدي يـا مـلاذي	يـا موئـــلي والعيـــام
وصـل ربي صـــلاة	تحكـي شموس الظلام
على رسولك هادي الــ	أنـام مـردي اللئـــام
والآل والصحب طـراً	وأحمـد ذي الختـــام

ما وجدنا جديداً من هذه القصيدة إذ كلّ ما عبر عنه الشاعر من عواطف وشعور قد عالجه الشعراء العرب . وبالغ شاعرنا شأنهم في المعنى وفي اللفظ وهو على منوالهم كثير الاستعارات والتشبيهات في وصف خلق الممدوح وخلقه فالمحسن اليه بحر طام ووجهه في الحسن بدر في التمام وتجسّم من المجد والفضل وعثمان هو شيخ المشائخ .

وفي تقسيم أجزاء القصيدة نهج أحمد عيان سه الطريقة التي أوضحوها فابتدأ بنسيب ثم وصف من نسب اليه المدح وأخيراً ختم بصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسول الله (صلعم) .

ولكن القصيدة لممتعة من قبل الإيقاع وصوتها الرّنان ووزنها التام واتساقها المقطع وشكلها المعرقص . فاذن بيت قصيدها مكنون في لفظ القصيدة . وما قلناه سابقاً صحّ أيضاً في القصيدة التالية التي مدح بها سيدنا محمد (صلعم) :

مـا لي غزالـي	لحـظ الغـزال	أخـــو الـدلال	بـــرح الخيـال
ردّ الســلامـا	لنـا وقـامـا	يبـــدي إبتساما	مثـل الهـلال
لكـن جفـانـي	لمّـــا رآنـــي	في الحـب عاني	يـادي اهتـلال
صبري تهـــاوى	عـن وصل آوى	فلـــن أساوى	منهـــا بحـال
مثـــل الكثيـب	مثـــل الخطيـب	ولــــلحبيــــب	بـــلا نـــوال
لكـــن فـــؤادي	أصفـــى ودادي	بـــين العبـــاد	خـــير الرجال
مهـدي الأيادي	دأبـــا بـدادي	مغني الأعـادي	يـــوم النـــزال

عالي المنار   باد الفخار   مثل النهار   وقت الزوال
من يدن منه   لم يسل عنه   إذ فيه كنه   أسنى الخلال
بدر البدور   فخر الدهور   مجري الأمور   على اعتدال
ذاك الأمين   الكنز الثمين   ذاك المكين   بلا جدال
ذاك الرسول   البرّ الوصول   الهادي الجليل   عين الكمال
هو الرؤف الـ   ـبّر العطوف   له زخوف   على التوال
اصحاب طه   بهم يباهى   لهم تنهى   كل الكمال
اسرى الاله   به اصطفاه   على سواه   مدى الليال
يا مصطفى يا   خير البرايا   كن ناصري يا   بدر المعال
إلى الطباق   على البراق   بلا. شقاق   ولا جدال
اسرى فحلا   قرب المحلا   جبريل ولّى   دون المنال
فالأنبياء   منه استضاوا   اليه جاوا   في كل حال
صلّى أماما   بهم اماماً   ثم استقاما   لذي الجلال
فنال فيه   من مصطفيه   ما يشتهيه   من الكمال
أتى بخمس   لكل نفس   تضحى وتمس   مثل الزلال
فالله الأعلى   للذكرا على   بالليل يتلى   وبالزوال
له الكتاب   المستطاب   فيه الصواب   لكل تال
هو المراد   لمن أرادوا   هدى وحادوا   عن الضلال
هو السلام   هو الامام   فيه الحرام   مع الحلال
فيه الحقائق   فيه الدقائق   فيه الرقائق   لذي المعال
فيه العجائب   فيه الغرائب   فيه الرغائب   لذي السؤال
هو المبين   حبل المتين   به الأمين   اخو المحال
هو المنير   عذب نمير   به أسير   بلا كال
به عنيت   به رويت   به أنيت   اخا التصال
به سقيت   من اعنميت   به جنيت   أهل الدوال
به اكتفيت   به احتميت   مما خشيت   من الرجال
به أفوق   قومي اروف   به الوثوق   عند النضال
بسر فزت   لمّا عجزت   لذاك حزت   اعلى الكمال
بمدح هادي   كل العباد   ارجوا الأيادي   مع النوال
إنّي فقير   ذنبي كثير   انت القدير   على امتثال

يـــا ذا الجلال يـــا ذا الجمال يـــا ذا المعال زيـــن فعـــال
ربّـــي تعـــالى ارجـــو إتصـــالا منـــه بمـــا لا يـــفي بحـــال
فاكشف حجابي ولتشف دائـــي مـــع ستر عـــابي يـــا ذا الجمال
حقـــق مـــرادي وامـــلا فـــؤادي بسر صـــادي خـــير الـــرجال
افـــض علينـــا ممـــا اشتهينـــا فيضـــاً يرينـــا اعـــلى امتثـــال
وصـــل ربـــي عـــلى المربـــى وذاك حـــبي طـــه والآل

نظم الشاعر هذه القصيدة على بحر الرجز المقطع فهي معروفة مشهورة جدّ الشهرة في السنغال وكثيراً ما يتغنى بها أصحاب أحمد عيان سه عند الاحتفالات بما نسميه (أغاني الدين) فنحن لا نبالغ إذا قلنا ان فيها شيئاً من أصالة إذ لا يستطيع كلّ أحد أن يكثر القوافي في داخل كل بيت على طول قصيدة مثل هذه فذلك فعل اللابق ؟ ومن الشعراء السابقين كان الشيخ أحمد بمبه يستعمل هذا المنهاج العروضي في كثير من الأحيان وثروة الإيقاع صدرت عن كثرة القوافي فأسفر عن ذلك وقع رنّان ووزن طنّان مثل طبلة مضروبة في جوف النيل ودلّ استعمال ذلك المنهاج الشعري على جمّ غفير من المفردات غير ان هذه المفردات بسيطة قريبة الأخذ حلوة في السمع من الهيئة الموسيقية للأبيات وقدرتها الإيحائية وكثرة المعنى لبعض الكلمات وكل ما استدعاه النظم من تلويحات قرآنية وسنيّة .

وفي المعنى عالج الشاعر أربعة أغراض وهي مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتمويه بالقرآن ثمّ افتخر بنفسه ثم تضرّع وتواضع وقبل كل ذلك استهل بنسيب كما فعله القدماء مثل كعب بن زهير في بانت سعاد ومحمد البوصيري في البردة وصف الشاعر الممدوح وصف حبيبة حوراء أو وصف الدنيا بزخرفها أو وصف امرأة كلف بها كلفاً شديداً حقيقيّاً . هذا هو ما ليس مقدّساً من ذلك الشعر الجليل المقدّس وهو موروث من المنهاج الشعري للجاهليين أمّا الذين طرقوا هذا الباب من شعراء الدين فهم قليلون إذ جرى مجرى الجاهليين في ذلك شعراء المشرق وشعراء الأندلس وشعراء شنقيط وشعراء السنغال .

والخروج من موضوع إلى آخر لم يتغير فالمحبوب مهما تظاهر بمحاسنه فانما الممدوح هو الذي قدر على اخماد نار هوى الشاعر اللفوح وهنا وصف المادح فضائل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان في نهاية الكمال إذ هو المصطفى

وخير المرسلين والهادي . فرفع الشاعر صوته فأجزل وحكى ليلة المعراج العجيب الذي قام به صلى الله عليه وسلم فوق البراق تحت قيادة سيدنا جبريل عليه السلام . فلا عزّ على صاحبُ الاسراء الكريم أن يقطع السماوات السبع فسلّم عليه سائر الأنبياء السابقين وجميع الملائكة الكرام . فلما كان بالقرب من جل ثناؤه وقف جبريل فواصل رسول الله سيره حتى كان على قاب قوسين من العرش فأعطاه الله جلّ جلاله الصلوات الخمس ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفجر . فمن الهدايا التي أتى بها الذكر الحكيم . فأخذ الشاعر في التمويه بالقرآن الذي احتوى على جميع الأوامر والنواهي في المعنى وله اعجاز وكلّ عجائب في اللفظ وهو هدى للشاعر فشرع في الإعجاب بنفسه فافتخر افتخاراً قلما رأينا نظيره كأنما سمعنا بفخر أبي الطيب المتنبي ثم تواضع وقال :

انــي فقــير ذنــبي كبير انــت القديـر عــلى امتثال

فختم قصيدته بدعاء حار وصلى على سيد الأنام وعلى أصحابه الكرام .

يمكننا أن نقول ان الشاعر ناجح في قصيدته أسلوباً قرض فأحسن وأتى بكثير من الإيقاع فأحكم ورصع بدرّ نسجه فأتقن .

قد وصف الشاعر رسول الله كصاحب معجزات فها هو ذا الآن يصفه صلى الله عليه وسلم كصاحب المغازي في قصيدة أخرى مستهلها تشبيه بحبيبة اسمها ليلى فشكى أرقه ثم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يقهر ولا يغلب فقال :

قلبي دوامــاً بحب ذاكــي	لـولا دمـوعي بحراً تحاكــي
ولـي حنيـن إلى حبيبــــي	قلبي رهيـن بـذي الاراكــي
أرقت ليلا مـن حبّ ليــلى	وحبّ ليلى فيــه هلاكي
خود عروب تريك ثغــراً	حبّ الغمام له يحاكي
سلوت عنهــا وعـن هواها	بحبّ طه مأوى الضراك
بــدر منــير بحــر خضمّ	ليث جسور يـوم العراك
فهو أمــان لكـل جــان	وهو ملاذ لكل شـاكي
سـل عنــه بـدراً وقينقاعاً	وما دهاهـم يوم الدراك

فقـد أتتهـم منـا ليـوث تعدوا إليهم فوق المذاك
فغـادروهـم وكـل رأس منهم يحاكي رأس السواك
كم من جيوش ولت فراراً لما رأوه عنـد اشتباك
لم يبـق منهـم إلا أسير وغير تاق يبكيـه باك
وغير غيـد مقسّمـات في الجيش تخشى حسّ المداك
أصحاب طـه مـع البرايـا مثـل الثريـا مـع السماك
كـم معجزات مصـدقـات كانت لطـه دون اشتراك
وربّ فخـر لـه ونصر وعلو قـدر لـدى اللكـاك
وكـم خصـال وكـم عطايـا في العد تحكي حصـا النباك
يا بـدر الدنيا يا مصطفـاهـا يا بـدر الدنيا فكن معاكـي
كـن لي معينـاً وكـن نصيراً وكـن مغيثـاً لـدى الشتاك
كن لي وكن لي سواك ما لي كـن لي وكـن لي في كـل زاكـي
ولا تكلنـي يومـاً لنفسـي فـان فيها أقصى هـلاكـي
فـلا تشكي يـا نفس انـي مـن قبـل موتي أرى مناكـي
وان قـدري بيـن البرايـا لسوف يعلـو فـوق السماك
بفضـل ربي ثقـي يقينـاً فالله معطي أقصى رجاك
يـا ربّ اني أرجـو بسطـه خيراً يـدوم دون انفكـاك

وله أيضاً في مدح الشيخ أحمد التجاني المؤسس للطريقة التجانية :

حـيّ دار كـل حين حول فاس هي دينـي
دار شيخـي ومـلاذي وكبـائي زار جونـي
مـن هواها قـد عراني واشتياقي وحنينـي
لست أسلـو فسلـوى ذكرها محض جنونـي
منزل الشيخ أبي العبـ ـاس والـدرّ الثميـن
مـن لـه الختم مقامـاً عنـد ذي العرش المكين
كـل قطب مستمـدّ منـه بالفيض المعين
ولـه عـن طـه ورد فيـه فـوز المستعين
لاح كالبـدر ضيـاء فعسى أن يهـدينـي

فيضه في كل قطر	فائق فيض العيون
يا حبيبي رد ذراه	وخذنه باليمين
لا تخفّن ان تجئه	جور السلطان اللعين
قسوة الدهر لديه	تنزو عنك بلين
غيره لم يك يغني	عنه ربي يغنيني
هو درعي وقناتي	ومجني إذ يقيني
هو داني ودواني	وشماري ياسمين
يعتميني أعتميه	واليه ويلين
يا منى روحي ودنيا	ي وسؤلي كل حين
والتداني في حياتي	والتداني في منوني
فيك يا راحة روحي	طال بالباب انيني
ليتني نلت وصولاً	لذراكم الميمون
ليس لي من مستراد	في سوى ختم الشؤني
وهو كفّي وذراعي	وهو كهفي وحصوني
يا إلهي لا تهني	بعذاب يبتليني
يا مجيداً يا ودوداً	غافراً للمذنبين
واجعلني شاكراً أنـ	ـعمك الأني ترني
يا حميماً يا مجيباً	نجّني كيد اللعين
وأغثني يا غياثي	وأعنّي يا معين
يا حكيماً يا عظيماً	عظّمنّي في العيون
يا حناناً يا مناناً	يا ديّاناً يوم الدين
قوّني بالقوّي الـ	ـواحد البر المتين
يا رؤوفاً يا لطيفاً	هب لنا علم اليقين
وابن لي رشد بالـ	ـظاهر الحق المبين
يا حفيظاً نجني من	كل ما شر مهين
يا كبيراً يا بصيراً	يا اله العالمين
واهد للحق بحق	قلب عبد مستكين

يـا رحيماً يـا كريمـاً خـذ اليـه بيميـن
وأمتنـا في الطريـق الـ مستقيم المستبيـن
واخصصنـي بمقـام بـاهر القـدر مكيـن
وصـلاة وسـلام للنبـي المستعيـن
وصحـاب ثـم آل لا تناهـي في السنيـن
مـا تغنت ذات طـوق فـوق غصن مستليـن
كـل مـا اشتاق عيـان للقا قطب الأميـن

تمت وله أيضاً :

دعـاني من أحب لـه دعاني بشوق كـان يسكن في الجنان
فرمت اجابة الداعـي المنـادي بشعر مثل منظوم الجمـان
بشعر تنجـلي الكربـات عنـه وتغتفر الذنـوب لكـل جـان
بشعر تتعب الأذهـان فيـه فيكسبها النشاط بكـل آن
بشعر مثـل نظم الـدر يعلـو عـلى نظم الجـواهر الحسان
لخـدمـة أحمـد الشيخ المربي ممـد العارفين بـلا تـوان
ممـد الأوليـاء بغير علـم لهـم الآنـدى دار التهـاني
وقـل للطاعنين اليـوم اني دعـاني مـن أحب له دعـاني
إلى نجـل الرسول ابي المعـلى إذا استبقت فـواريس الرهان
إلى سر الوجـود وكـل سر سرى للناس فهـو مـن التجان
إلى بحـر المعـارف منتهـاه ويقـذف بالجـواهر من معاني
إلى شيـخ التجـاني المـربي أخير الـدهر أبنـاء الزمـان
شيـخ المشائـخ من هـداه دعـا أهـل السعادة والأمـان
إلى من صحبه صحب لـطه تواصـوا بالتواصـل والتـداني
وان ضاقت بـك الأحـوال فانزل بسيدنـا ابـن سيدنـا التجـاني
وربّ كرامـة ظهرت عليـه وفي اصحابـه أهـل الأمـان
روى عـن جـدّه علمـاً كثيراً وفيضـاً ليس يكتـب بالبنـان
واخبره بـأن لـه صحـابـا لهـم شأن يروق وأي شأن
ألا يـا أيها الشيـخ التجـاني مر بينـا حنانـك ذا الحنـان

حنانك ذا حنـان لـذي ذنوب	كثيرات تضيق بهـا يـدان
ألا يـا شيخنـا هـذا مريـد	يريـد القرب منكـم بالأمـان
عـلى ان الفؤاد بكـم معنى	مشوق لا يـزال بكـل آن
وحبّ زيـارتي لكـم بـراني	مهمّـي قد زرت ذاكم كفاني
ألا يا سيدي يا حبل وصـلي	إلى مـن مالـه في الفضل ثان
رفعت إلى جنابك بنت فكـر	تحـلى لفظهـا درّ المعـاني
وقائلهـا مريـدكـم بحـق	إلى عثمان أحمـد ذو اقتران
صـلاة اللـه يتبعهـا سـلام	عـلى المبعـوث بالسبع المثاني
وآل الغرّ ثـم عـلى صحاب	هـم الفضلاء مالهـم مـداني

قبل تركنا الأمداح للشاعر فلنقف على مقطوعة مدح بها الشيخ أحمد عيان سيد الأولين والآخرين فهذه نبذة منها :

أنت للكـون ابتـداء	واليـك الانتهـاء
واليـك الأنبيـاء	تتباهـى مـا تشـاء
أنت للنـاس حجـاب	علمتـه العلمـاء
ليس فيـك ارتيـاب	عنـد مـن فيه ذكـاء
لـك فينـا معجزات	نظمتهـا البلغـاء
وحـلال صالحـات	ليس فيهـنّ خفـاء
أنت أنت المستغـاث	ان ينب داء عيـاء
ومـن الفخر يـلاث	لـك ثـوب ورداء
أنت مـأوى كـل راج	لم يخب فيـك رجـاء
أنت منجى كـلّ نـاج	عنـد مـن عزّ نجـاء

وبعد مدحه الصلاة والسلام رجع الشاعر بنا إلى وطنه الخاصّ أعني السنغال لمدح الشيخ رَوْحَانْ أَنْكُمْ المتوفى في بَالْ سنة ١٩٥٥ م فمن هو هذا الشيخ ؟ كان هو من كبار مقدّمي الحاج مَالِك سِهْ مؤسّس الزاوية التجانية في تِوَاوُونْ بالسنغال . وكان يحيا في بَالْ وهي قرية على ثلاثين كيلومتراً من أَنْدَرْ فقد اشتهر بتقواه وعلومه وتفانيه في خدمة الإسلام . بنى جامعاً شامخاً في فَاسْ بالقرب من بَالْ ويمكن

للمسافرين أن يعجبوا من نوافذ القطار برقة سطوره وعلوّ مناوره . وقد بنى أيضاً جامِعَيْن أحدهما في أندر والآخر في بَالْ . هاكم قصيدة مدح بها الشاعر الحاج رَوْحَانْ أَنْكُمْ :

يا جامع الشيخ محيي الدين والسنن   فديت من جامع عالي البنا حسن

اني لأهـدي إلى بانيـك تهنئـة   شكراً عـلى ما له في الناس من منن

اليمـن أولـه والسعد آخـره   وبين ذلك صفو العيش في الوطن

الأرض في مـرح والـدهر في فرح   والـديـن في صحـة والناس في يمن

أب رحيم بكـل المـؤمنين سقـى   عافيـه من مشرب للواردين هني

هـو الإمـام الـذي عمّت منافعـه   وعلمـه ونـداه كـل ما زمـن

عناية اللـه في الروحان قـد سبقت   مقرونـة بالتقى في السر والعلـن

فاعجب لهمـة شيخ وهي عاليـة   بالليـل تمنعـه من لـذة الوسن

لم تلهـه بهجـة الدنيـا وزخرفهـا   ولا التفاخر بالأتبـاع والبـدن

فـلا يغيره مـر الدهـور ولا   كرّ العصور ولا الأحداث في الشجن

لا والـذي بـرأ الروحـان نزّهـه   عن النقائص والأغراض والأحـن

فـذاك خلـق من الفردوس طينتـه   اللـه أودع فيها سرّ مؤتمـن

لا الكبر يسكنها لا الظلم يصحبهـا   لا الحقد يعرفها لا الحرص في الحصن

في الديـن والمجـد والعليـاء همّتـه   ولم يهم قـط في لهـو وفي درن

مـواهب لـك أرضيت الإلـه بها   فـدام برضيك بالاحسان والمنـن

تلك الجوامع في الأمصار شاهـدة   ضاءت بأنوارها الدنيـا من الدجـن

انّي أرى وفـؤادي ليس يكـذبني   جماعـة من رجـال الغيب والكين

أرى رسولاً وعثماناً أرى عمـرا   أرى عتيقـاً أرى أيضاً أبـا حسن

أرى رسولاً أرى نـوراً أرى عمـرا   أرى إماماً يحييني ويخطبني

فاللـه أكبر هذا جامع رفعت   أركانه بالتقى والفرض والسنن

صلّ ادعون وابتهل قدست من زلل   تبارك اللـه مجري الرّوح في البدن

وهكذا جامـع فليهن بانيـه   وهكذا الشعر فلتنشده من زمني

روحـان دمت ودام الديـن منتصراً   ودام قومك محفوظاً مـن المحن

جزاك ربك بالإسلام مغفـرة   ومن يليك من الاخوان والخدن

لا يخفى على أحد ان هذه القطعة خالية من كل نسيب وهذا دليل على الشعور بأشياء عاشها الشاعر واهتزّ قلمه بهبّ انفعالات حملت قربتها من حقيقة الأمور إذ من أمر ملموس أي جامع بناه الشيخ رَوْحَانْ أَنْكُمْ في بَالْ أملى الشاعر هذه الألحان المملوءة من الشكر فخاطب الجامع مخاطبة إنسان . فباسم الايمان والإسلام وباسم قومه كلّهم أهدى أحمد عيان سه بغيرة شاكرة إلى الذي رفع دار الله هذه شامخة عالية تتحدى شعراء أغمي عليها من الحرّ وسماء ذات جلاء بلوريّ فهي أغنية مطربة رنّمها تلميذ لشيخه الباني الجوامع .

ان أحمد عيان سه شاعر مخصب كثير الإنتاج وما أكثر أمداحه لأصدقائه ! ودونكم مقطوعة أهداها إلى الحاج إبراهيم انِيَاسْ شيخ الإسلام الأعظم في مدينة كَوْلَخْ المؤسس لطريقة تجانية مسمّاة بالتربية في السنغال سيمرّ ذكره إن شاء الله :

برهام شيخ أجل ... له المفاخر كل
حوى مقاماً سنياً ... عنه المشائخ كلوا
شيخ تقيّ نقيّ ... حديثه لا يملّ
من التقى لاح وسم ... في وجهه مستقلّ
له المواهب فيها ... فيض الغمامة قلّ
مني عليه سلام ... عن التحايا يجلّ

وقال أيضاً عند باب منزل الشيخ الشاعر المدرس الحاج محمد أَنْيَاسْ الكَوْلَخِيّ :

قل للخليفة أبقى الله حرمته ... بأن شاعره بالباب قد وقفا
يبغي زيارته ثم الدعاء له ... وأن يجدد عهداً بينهم سلفا

قد كان الحاج محمد أنياس خليفة لأبيه الشيخ عبد الله أنياس وهو شاعر مفلق سيأتي ذكره إن شاء الله . وقال أيضاً فيه أحمد عَيَانْ سِهْ للاستعطاف :

النّاس تحسدني فيكم لمنزلتي ... وكل ذي نعمة في النّاس محسود
لا تشمتن بي الحساد فيك أما ... محمد اسمكم والفعل محمود

وقال أحمد عيان سِهْ لِمَرِشَالْ بِتِينْ Pétain عند الحرب العالمية الثانية :

نور السيادة يبدي نور علياك ... ولا يزال مقيماً حول مغناكا

هاذي فرنسا وذي أولادها زمرا حفّوا بمغناك لا يبغون الآكـا
هم الأحبـة ان سادوا وان غلبـوا تفـدي نفـوسهم في الروع اياكـا
جاهدت في المجـد والعليآ لتجمعنـا فقد حمدنـا بنيل الجمع مسعاكـا
أبطال « وردان »[1] ما زلنـا نمجدهم مهما لنفسك كان اليـوم أهداكـا
وقد دعـوت برفع الرأس جملتنـا كـل لمـا قلتـه اصغـى ولباكـا
لبيـك يـا مرشال الحرب فزت بما ترجـوه فينا وقد فزنـا بمحياكـا
منعت من جريان البحر من دم مـن لولاك قطّع منه الـدهر اسلاكـا
يا أيها الناس أدّوا حـقّ طاعتـه ولا تعـدّوا لوحش الحرب أشراكـا
امامكم يـا فرنسا سوف ينعشكـم مرشال يومـاً وتلقـون الـذي حاكـا
مستعمـرات فرنسا أبشروا سيـرى ما كان يأملـه هـذاك أو ذاكـا
لا زال رايـات مرشال مرفرفـة فـوق الفرنسا بعزّ للـورى لاكـا

وبعد تلاوة المقطوعة سرعان ما صاح القارئ العادم التحذّر على شاعر رجعيّ قائل :

« مستعمرات فرنسا أبشروا ... الخ » ولكن زجر الشاعر خطأ إذ قال لي صاحب المنظومة انه كان يرجو من مَرِشَالْ هذا استقلال مستعمرات فرنسا وان خاب سعيه ورجاؤه ولمّا جاء جنِرَالْ دَغُوْلْ De Gaulle في زيارة السنغال احتفل الشاعر بهذا الأمر ناظماً القصيدة التالية :

لقد أتى عبقريّ الدهر سنغالا يا نهر فاجر إلى الصحراء أميـالا
ولتسقها من معين المـاء صافية عذباً زلالاً ولا تسمح به آلا
هذا أندر الخير مفتـرّ أزاهره زقاقـه ازدهرت بالبشر اقبالا
والبحر يقذف بالأمـواج طافحة كأنها لبست بالروض سربـالا
ثغور زهر من الأكمام باسمة تضاحك السحب تحت الشمس غربالا
تخـال فيـه ثنايـا الغيـد مـن حببٍ ولـؤلـؤ صبّه الوسمـيّ هطّـالا

(١) ورْدَانْ : هو اسم موضع جرى فيها قتال ضروس بين الجيوش الفرنسية والجيوش الألمانية .

كأنما السور والأزهـــار ضاحكة ... مـن فوقـه وعليها المـــاء قد سالا
سماء صحو نجوم الجوّ تكلؤها ... قـد أشعلت لرجـوم الجـنّ اشعالا
في جنـة باسق الأشجـار يعمرهـا ... قطوفهـا ذلّلت بالحمـل اذلالا
فيها البنفسج والقحـوان مبتسم ... والـورد من خجـل من خدها نـالا
والياسمين مـع التفّـاح معتنــق ... إلى شقائق نعمان بهـا مالا
والطير تشدو عـلى الأغصان مطربة ... والسّفن تحمـل في البلـدان أثقالا
والريـح في صفحـات النهر جارية ... تجـرّ من فـرح في القصر أذيـالا
وكـل من سنغال كـان موطنـــه ... تراه من فـرح بالأمـر مختـالا
هذا دغـول أتاكـم فاضربوا فرحاً ... له الدفـوف وخلـوا القيـل والقالا
يعـدّ في كـل حـال ما يناسبـــه ... فافـرح بمقدمـه واشرح له الحالا
يعين كـل امرئ فيمـا يحاولـــه ... يعطيه من أمـر الاستقلال ما قالا
قـل مرحباً قد أتى أم القرى أصـلا ... وقم لـه حين زار القصر اجـلالا
أهـلا بطائرة في الجـوّ تحمل مـــن ... قد فكّ عن شعبنا قيـداً وأغـلالا
أهـلاً به وبمـن وافى يرافقـه ... وبالبلاد التي في جالها جـالا
واستقبلتـه رجـال لا كفاء لهم ... فنعمت أعمـالهم في الشعب اعمالا
في سنغال رجـال يعملـون بهـا ... ما يصلـح الشعب تفصيـلاً واجمالا
رئيسهـم لكثير القــول مجتنـب ... تراه يومـاً لمـا قـد قـال فعّـالا
حبّ المـواطن من ايمـان صاحبها ... لـذاك أحببت أوطـاني هنا حـالا
لي مـوطن في مغـاني مـال أعبـده ... عبـادة اللـــه أبكـاراً وآصـالا
ولتعمـروا بلـداً تستوطنـون بــه ... ولتمـــلأوه بساتينـــاً وأمـوالا
بذاك فابغـوا رضى الرحمن واتبعـوا ... مراده في بقـاء الناس أجيـــالا
لا تفشلـوا بنزاع سوف يهلككـم ... مستمسكين بمـا المـولى لكم قـالا
ان دام هـذا سعدتـم في تواصلكم ... أولاً شقيتم وكنتم بعـد ضــلالا
نرجو من اللـــه أن يرعى حكومتنا ... كالمستقلـة أقـوالاً وأفعـــالا
ويحفظ الوزراء القائمين بهـــا ... ويحفظ الشعب والأهلين والآلا

وله أيضاً في مدح الحاج سَعِيدِ النُّورْ تال سبط الولي الكبير والإمام الشهير بالفضل والاجتهاد والجهاد شيخنا عمر الفوتي قدّس الله سره آمين :

أمـن تذكر مـن في البـان والبـان … أمـن تغـزّل غـزلان بغـزلان
تأتي إلى طلل تبكي لساكنه … وحيّ عنّي تحايا الخير أوطاني
أرقت ليـلى وليـلي لا يـزال إذا … غنـى الحمام على غصن فأشجاني
دع عنك سلمى وسلمى لا تجود لنا … بالوصل الاّ بطيف عنـد وسنان
ما هبّ في سانلو المحروس ريح صبا … الاّ على الخـدّ أبكـاني فأبكـاني
حتى إذا ما علينا الشمس قد طلعت … ولاح برق بذات البـان والبـاني
يلـوح قومي ومثلي لا ينـوح عـلى … تلك التصاوير الا بعـد أزمـان
قلبي أسير بربـع الراحلين فلم … يجد سوى الجأث أو آثـار حدثان
يا حسرتي من خطوب لا تزال عـلى … دهري وتسهرني بالدمـع عينـاني
لا والذي قـد أنار الكـون طلعتـه … فرد الجـلالة سيف اللـه ألهـاني
أعني الامام سعيد النور من كشفت … به الجهالة عن أهـلي واخـواني
من قـام فينـا مقـام جـدّه عمـراً … مجـدداً بعلـوم كـل أديـان
له تآليف غرّ ليس يشبهها … شيء ويزدان منها كل مزدان
نـور أنار به الرحمـن جملتنا … في سينغال بتعليم واتقـان
قد كان والدنا حقاً وقائدنـا … إلى عبادة رحمـن بغفـران
جـزاه ربّي عـلى ما كـان خلّفني … عن والـدي لمحبيـه بإحسان
للـه مـا كتبتـه لي أناملـه … يفـوق عن عقـد ياقـوت ومرجان
قد غاب مـذ غاب عنا العلم أجمعه … وليس يرجـع إلاّ عنـد اتيـان
لـولا الجزالـة ما قد كـان أتحفني … ما كنت فائـق أترابي وأقـراني
وقـد تقدمت عنهـم حين قـدّمني … تقـدّماً غير محتـاج لبرهـان
هـو الملاذ هـو الصنديـد سيدنـا … عـلامة الـدهر في بـذل واحسان
وهـو الذي ان أتانا الخوف يكشفه … عنّا ويرشدنـا لخير أديـان
يا سيّدي يا جمال الديـن يا سندي … يا ملجئي يا رجـائي يـوم تلقـاني
هـذي نتيجـة فكر مـن خويدكم … من اسمه أحمد بـن الشيخ عثمان
مستكشفاً بـك يا فـرد الزمـان لكي … أرى جـلالـك في سر واعـلان
يا ليتني متّ في ذكـراك متّ عـلى … شهادة الحـق حيث الحـق يلقان
ما ان أتيتك قطّ أشتكي كربـاً … إلاّ وفرّجت عنّي كـلّ أشجاني

واملأ فـؤادي بأسرار ومعرفـة من فيض بحرك يـروي كل ظمـآن
واعطف عـليَّ بهمات وصـل نسبي بفيضـة وكشوفـات وعرفـان
ثم الصلاة عـلى المختـار مـن مضر وآلـه بين أصحـاب وفـرسان

قال أحمد جيي لمّا زاره أحمد عَيَانْ سِهْ في مدينة كَوْلَخْ :

زار خدن في ليلـة أضحيان خدنـه بين الشوق والهيمـان
فدموعي من فرط شوق اليكم بين وكف والسّكب والهيمـان
رونـق الشعر والعلـوم اخـاء ربطتنـا بالحبـل غير هـوان
طال مـا طال حـول أذني استماعـاً ذكريـات من عنـدكم لجنـابي
لكـم السّبق في انصيـاغ قـريض يشغل الأذن عـن رنين كـران
ولي الشوق في تشوّف شعـر صـادر عنكم برسم بنـان
صيتكـم طـار بين شرق وغـرب بالتحاكـي مـن كـل قاص ودان
هاكـم الشعر يـزدري بجمـان من مصـاغ تهـواه كـل غـوان
فقال المرشد أحمد عيان سِهْ مُجيباً للكَوْلَخِيّ أَحْمَدَ جِيي :
ربـع ليلي بقنّـة الريحـان عـم صباحـا سقاك كل يماني
مـا سلونا ربوع ليلى ولكـن طال عهدي بأهل تلك المغاني
لست أنسى ظباء كولخ فيهـا وظبـاء القنـا وعين عمـان
وشهـوراً بهـا كشهر ربيـع وسنينـاً كقـرة النيسـان
وبـدوراً بهـا فتنّ عقـولا ولحاظـا بهـا رمين جنـاني
وظبيّـا بهـا أغـنّ كحيـلا فاتنـاً فاتر الجفـون سبـاني
فتـن القلـب دلّـه فشجـاه يا لقلبي مـن ذلـك الفتـان
لا تسلني عـن غيرهـا فهواهـا بلغ الحـدّ في الهـوى والهـوان
وقـريض مـن الحبيب أتـاني كعقـود الجمـان والعقيـان
خلتـه للسّيوط قدمـاً جليسـا رونـق الشعر من بديع المعـاني
طالمـا قـد شغفت مني قريضا جرّ ذيلاً عـلى قريض الزمان
انّ نسج القريض طـوع جنانيَ ولساني وكاغـدي وبنـاني
وخفيف القريض عندي خفيف وطويـل القريض طـوع لساني

آخـذ الشعر من طريق جرير[1] وجميـل[2] وعـروة وأبّـان
وسهيـل ومعمـر ويـزيـد وأبي طيّب وشعر الأغـاني
هاكهـا بنت يومهـا قد تبدّت ربعـة القـدّ من رياض البيـانْ

فانّ لهذا الجواب أهمية كبيرة فانه دلّ على معان مقتبسة من مشاعر حقيقية شخصية وعلى أفكار مستوردة من انتاج فحول الشعراء العرب مثل جرير وجزالته وجميل وشعره العذري وأبان أبن عبد الحميد المتوفي سنة ٨١٦ م صديق البرامكة والعبّاسيين ناظم كتاب (كليلة ودمنة) ومثل عبد الرحمان السّهيليّ (١١١٤ – ١١٨٥ م) الشاعر الكفيف الأندلسي ويزيد بن ضبّة شاعر الوليد الخليفة الأموي (٧٠٥ – ٨١٥ م) ومثل أبي الطيب المتنبي (٩١٥ – ٩٦٥ م) فهو كان أكبر الشعراء العرب أو كاد .

فمثّل أحمد عيان سه الشاعر المطبوع والرجل المثقّف فلم يمدح النبي صلى الله عليه وسلم والشيخ أحمد التجاني وشيوخه وأصدقائه فحسب بل نوّه بوطنه السنغال بل بملوك بلاد السُودَان . فهاكم قصيدة وهي « دمعة الباكي » ذكر فيها مَالِيَا وفُوتَ وكَجَوْر وسِيغُ وجُلُفْ وكَمْبِرِ وبُنْدْ وأَنْجُورُ وطُورُ (وهي ناحية في فوت) وتُمْبُكْتُو وجِرْمَا وهَوْصَ ومَاسِنَ وكَانُو وذكر مجد ملوك زنوج مثل لَنْجُورْ وأولياء مجاهدين مثل الحاج عمر تَالْ . وهذا يدلّنا على أن الشاعر عرف تأريخ بلاده وقال :

« دمعة الباكي »

يا جامـع الناس في عزّ وفي شرف ومـوقظ الناس من هـون ومن تلف
فقف بسنغال والسودان مشتكيـاً ما دار بينهما مـن خالص الصلف

---

(١) جرير (٦٥٣ – ٧٣٣ م) ولد في بادية اليمامة كنيته ابو حزرة شاعر من كليب اتصل بالامويين فمدحهم . امتاز بالهجاء لا سيما هجو خصميه الأخطل والفرزدق وقد كوّن معهم ما سمّي بالمثلث الأموي . له ديوان يتضمن الفنون التقليدية من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء جمعه ابو جعفر محمد بن حبيب وطبع في مصر ١٩٣٥ م .

(٢) أما جميل بثينة وعروة بن الورد العبسي فهما شاعران مشهوران .

جيـلان جمّعت الأشياخ بينهمـا   في شرق والغرب جمع اللاّم والألف
اليـوم فرّقت الأعـداء بينهمـا   وليس جمعهما يومـاً بمـؤتلف
أين الشيوخ الالى حـازوا لدينهـم   دنيا ومـا شرفا أبقـوا لـذي شرف
أين الملـوك التي كـانت تهابهـم   أسد الشّرى وأولوا الاحسان والظّرف
أين العطايـا التي كـانت تجود بهـا   وفـاة عهد علوا من فوق كـلّ وفي
أين الفحول الالى مـا زال عندهـم   وان تمنّع خافي العلـم غير خفي
أما تراهـا خلت من كـلّ ذي ثقـة   وكـلّ حبر بمـدّ البحر متّصف
من آل فـاروق أمست فـوت مقفرة   ومن بنيـه بنـاة المجـد والشرف
وتلك كجـور من لتجـور خاليـة   جرّت عليها السّوافي ذيـل ملتحف
فسيغ فيها لنـا من قبـل ذا وطـن   ولي مواطـن في الأرجـاء من جُلُفِ
وكَمْبِرِ أسلافنـا حلّـوا بها وكـذا   في بنـدلي سلف ناهيـك من سلف
لي أخـوة في قصور أنجور منزلهـم   ولي بمديـن أخـوان ذوو ظـرف
ولي بطـور جـدود طالمـا رفعـت   راياتهـم وأضـاءت ظلمـة السّدف
يا أهـل مَاسِنَ كونـوا وفق اخوتكم   ولا تميلـوا إلى بغض ولا جنف
قولـوا لتمبكت أو لجرم ليس لكم   الا تجنب أهـل الزيـغ والسّخف
يا أهـل هَوْصَ وأهـل الغَانَ فاتفقوا   ولا يكن عنكم أمر الوفـاق خفي
وان تفرّقكـم بالقـول السنـة   فالدين يجمعكم في البيت ذي الغرف
أو فرّقتكـم طريق وهي واحدة   في الأصل مرجعها للبيت ذي الشرف
فالكـلّ صار لدين اللـه متبعاً   ولم يمل أبداً عـن دينـه الحنفي
مواطن كلها في الأصل متّحد   وأهلها طالما مالـوا إلى الترف
قد زين اللـه بالإسلام بهجتها   والدين قـوّي بها ما كان من ضعف
وكـلّ من كان في البلدان ذا شغف   بموطـن فانا بطور ذو شغف
فكم ظللت بها الهو بغانيـة   ما شئت من حور فيها ومـن هيف
تمشي الهوينـا فترتاح القلـوب لهـا   مشى النزيف بكـأس الخمرة الانف
آوي إلى فتية شمّ قياسهـم   بالناس مثـل قيـاس التبر بالخزف
وكلهم بالحيـآ والجـود متّصف   باللـوم ما أحد منهم بمتّصف
وكلهم من ثمار المجد مقتطف   ولم يكن للخنا يوماً بمقتطف

يا سنغال علوت الأرض منزلة ... بالحاجّ فالحاجّ للعليـاء كالشنف
فـن مواهب مثـل السحب واكفة ... ومن قريض كمثل الدر في الصدف
من في البرية كالفاروق مجتهداً ... ضاعت بأسيافـه الدنيا مـن السدف
لـه المحاسن في الدنيـا غـدت مثلا ... فيها الشفاء لـداء الجهـل والسّنف
أمن يبـار الفتى البَكِيّ في حكـم ... أمـن يشابهـه في الزهـد والتحـف
ومـن علـوم خفيّات يحرّرهـا ... ما بين متّفق فيـه ومختلـف
ثلاثـة ضنّت الدنيـا برابعهـم ... طابوا كما طاب، طعم الماء بالرضف
يشفي بريقهم مـن كـان ذا وصب ... فكونهم مرهم العاهات غير خفي
يا ليت قومهم ينضمّ جمعهـم ... حتى يروا نهضة السودان في الشرف
يـا رب أحسن ختام المسلمين كما ... أحسنت بدءتهم في سابـق السّلف
وبالتمدّن مع تمكين نهضتهـم ... والامن مـن كـل عاد مائل الطرف
أدم تراقيهم وارجع حقوقهـم ... وانصرهم زلفاً تأتي إلى زلف
ولتمض حرّية منهم لتطفئ مـا ... في القلب من لافحات الهم والأسف
الطف بجاه رسول العالمين بنـا ... ونجنا رب من هون ومن تلف

وقال أيضاً يفتخر بوطنه أَنْدَرْ مسقط رأسه وطُورْ منزل أجداده الكرام :

بِسِنْلُو أم بقصر الطُورِ أفتخـر ... هنا العلى وهناك المجد والظفر
إذا افتخرت بِطُورْ فهي مفتخر ... لكل ندب فروع العلم يهتصر
وسنلو فيه مهما زرته كتـب ... وفيه أيضاً رجال كلهم قمر
كمالك وأبي عثمان من سلكا ... سبيل حقّ لنيل العلم فانتصروا

وقال في سِنْلُو أيضاً :

بِسَانْلُو لا يزال لكـل نـاد ... سرور ظاهر بالسُورْ[1] بـاد
منازه جانب الـوادي ومـا ان ... رأينـا مثلهـا في جنب واد
يحالفنـا السرور بهـا وتمشـي ... بها عينان آمنـة السّهـاد
وتنشرح الصدور بهـا وتلقـي ... اليهـا السلم شاسعـة البـلاد

---

(١) سُورْ : هي الحارة الكبيرة التي يعيش فيها الشاعر في داخل سان لوي .

علــى الأفنــان منهـا عندليــب يسلي الصبّ عـن نغمائت شاد
تــرى الأشجـار مائسة عليهـــا مشوّقـــة الحواضر والبـــوادي
يفوز بفضلـه المصطاف فيهـــا بما قد شاء من نعم بـداد
هنيئاً للّـذي قد عاش عصراً رخيّ البال في تلك البـلاد

كانت سان لوي عاصمة السنغال في أيام المستعمرين وحينئذ كانت كجنّة في الأرض يجري بها النهر ويهد هدها البحر وتزينها مبان شامخة وتظلّلها الأشجار وكانت مدينة جامعة من كل طوائف البشر من السودان والبيضان .

وقال أيضاً « إلى نهضة سنغال » :

يا أهـل سنغال لا عاداكم الزمـــن لم لا تسير بكـم نحو العـلى سفن
فلتشرعوا ساحـة الأعـدار ماحكم فلتختـلي منهم الأذقـان والوتن
بمرهفات كلون الملح ساعدهـا في طعنها ساعد ما مسه وهن
جيـوشكم يكشف الألباس طالعها وكلّ قلب عـراه خوفهـا حزن
يكفي مقدمة الحسّاد طالبهـــا ان لاح سيف صفت مرآته حسن
خـلاصة سرّها الوّهـاج زورقهـــا فيها النجاح وفيها الأمـــن واليمـن
مسالـك أنبتت ورداً ولاح بهـــا وشي ألحّ عليـه العارض الهتـــن
ينبوع نيلكم تشتي مواهبـــه وعقد جوهركم ما شأنه درن
وانما الأحمر الكبريت وصلكم فعنه ما أن تصان الروح والبدن
وما مسامركم يبغي بـه بـدلا وليس في أمره بخس ولا غبن
فلتبتغوا درر العليـا لنخبتكـــم نصيحة كـلّ عن أمثالها لسن
فعلمكم فيه ما يكفيكم ولكم في أرضكم مستقرّ واسع حسن
فلتقرؤا علمكم ولتعمروا بلـــداً قد طاب فيه على سكّانه العدن
وفيكم كل ندب طبعه سلس تجـلى بطلعته الضراء والشجن
وفيكم خرّد بيض عوارضهـــا سود الغدائر في أصواتها الغنن
والناس في كـل فجّ لا تزال لكـــم تحدى بهم راقصات العيس والسّفن
وعندكم كـلّ شيء في حضارتكم وفي بداوتكـم ما مسّكـم أفـن
فلتجمعـوا شملكـم للـــه درّكم للمجـد حتى تقرّ العين والأذن
ولا تكونـوا عبـاد اللـــه أزلفـــة شتى فتنحطّ جبراً منكـم الفنـن

مـاذا التدبر والإسلام يجمعكـــم ... والطبع واللـون والانساب والوطـن
فلا يطب في سوى العليآ مقامكـــم ... ولا يطب في سوى العليآ لكم ظعن
صلوا عقـود حبال الوصل بينكـــم ... ولا تكن بينكم يا قومنـــا الأحن

لاحظنا من القصائد السّابق ذكرها بعض شعور بالطبيعة فان الأشجار تميس والعندليب يترنم والبحر يتدثّر برداء الفرح والزهور تبتسم . فدونكم مقطوعة موسومة برجوع إلى الأرض :

إلى الأرض أوبوا بالهنآ وتقدموا ... لاصلاحها فهو المهمّ المقـدم
الا فابذروا الأرض الكريمة واعمروا ... منازلهـا ما شئتم وتنعّمـــوا
فبالبذر تحيى شيبكـم وصغاركم ... وينضمّ فيه شملكم وينظّـم
ومهما تركتم بذركم تتبـــدّدوا ... وتضعف قواكم هـا هناكم وتندموا
ولا تجعلوا سقيا مذانبها دمـــا ... فمن حقّها أن لا يراق بها دم
أرى الأرض لم تخلق لسفك دمائكم ... فان الهي بالبريـة أرحـــم
ولا تتركوهـا للاجانب فرصـة ... فللحرّ رأي في المواطن أحزم
فحقّ لأوطان الفتى أن يصونها ... ويبني فيها ما غـدا يتهـــدم
ويصلح فيها مـا يخاف فساده ... ويلقي فيهـا بـــذره ويصمـم
فأوطانكـم فيها دوامـاً تنافسوا ... ولا تزهدوا فيها ولا تتلعثموا
أليست مـن الأشياء طـرّا بلادكم ... أهمّ اليكـم والمهـمّ مقـــدم
فقيمة كـل الناس مـا كان عامـلاً ... فيصغر فيها تارة أو يعظـم

وله أيضاً أبيات تغنى بها حبّه الوَطَنَ :

ان أغمدت حادثات الدهر بتّـاري ... فسوف أعمل أقـــلامي وأسطاري
فسوف تسمع أو فسوف تبصر مـــا ... يلقيـه مجـدي لاسماع وأبصـار
ان ألبس الشعر أقـــوامي بمحمـدة ... فسوف تلبسني بالحمـــد أشعاري
انّـي أحبّ بلاداً كـنّ لي وطنـــاً ... عصر الصبـا وأفدّيهـــا بأخطـاري
ان لان مسّي فما ان لنت عن خور ... كـلاً ولكـن سمّي في العـدا جار
والشعر ما بعتـه بالبخس معتمــداً ... لكـن قصدّت بـه ايقـاظ أنظار
فـا أخـــذت به فلساً أريـــد بــه ... نفعـاً فيزداد بالاشعار اضراري
فاربـأ بنفسك عـن جهل وعن سفه ... وعن عـداوة ذي جهـل وذي عار

يـا موطناً عاش فيه الحرّ ذا نسب   قد هـاج ذكرك لي الأشواق كالنار
قل للعـدوّ مللنـا مـن ولايتكـم   لا نرتضيك وصيّـاً بين اعصـار

وفي هذه المقطوعة أتى الشاعر بحدّ وظيفة الشاعر أي يجب عليه أن يوقظ الضمائر . فان هذه النظرية ليست بعيدة من نظرية الشعراء الرُمَنْطِكِيِّينَ الفرنسيين إذ على حدّ قولهم للشاعر أن يعبر عن عالمه الباطن وأن يجعل نفسه في آن واحد « صَدًى رَنَّاناً » لأحاسيس البشرية كلها فهي إذن وظيفة اجتماعية وتحرير فقال شاعرنا :

« والشعر ما بعته بالبخس معتمـداً   لكـن قصدّت بـه ايقـاظ أنظار »

وان كان شعره في خدمة مهمة والحالة هذه في خدمة تحرير وطنه وشعبه رغب عن أهداف نفعية لما في ثمن هذا الانتاج من اكراه وتمرين مدرسيّ وتقليد محض . وأحمد عيان سه الشاعر هو رقيق العواطف وفضلاً عن ذلك إذا خلت العواطف عدم الشعر فقد رأيناه باكياً عند وفاة أصدقاء له وانه أحسن الرثاء لهم قال يرثي الشيخ أحمد المختار والد الشيخ حَامِدُنْ كَنْ :

بكتا عـلى قطب الـورى فُوتَـانِ[1]   وبقت طـلاب العلـم في الحيران
أولاه ربّ العـرش من اكـرامـه   حتّى تأهب للرحيـل فـاني
لمّا سمعت بموتـه لم أغتمض   حتّى الصّباح وبتّ كالهيمـان
ولّت مفاخر بعـده ولأجلـه   الناس في ضرم من النيران
عظمت مصيبتنا بـه فكأنـه   ركن وهي من أعظم الأركان
فتكدّرت منـا المعيشة بعـده   ونقصت للأخذ في النقصـان
فكأنما يغشى القلـوب لموتـه   شرر من النيران ليس بـوان
يا من لبرق دائـم الخفقـان   ولمقلـة تنفكّ في التهتـان
ولخاطر بالحبّ محترق الحشا   وجوائـح موصولـة الهيمـان
من فقد شيخ كامل متبتـل   فكأنـه زهر عـلى بستـاني

(١) هما فُوتَ طُورُ في السنغال وفُوتَ جَنْلُو في غِينِيَا .

وقال أيضاً لما سمع وفاة صِنْوَانْ قال رحمة الله عليه :

قالوا لنا مَاتَ صِنْوَانْ وقلتَ لهـــم — ما مات من مات عن علم وعن كُتُبِ
فتى عــلا في سماء الشعر منفـــرداً — ونجمه كــادان يعلــو عــلى الشهب

ولما جاءه خبر وفاة شيخه عثمان قال :

يا اللـــه يا جاعل الأكوان أكواناً — اني دعوتك مضطـراً وحيرانـا
يا أولاً آخراً يا ظاهراً فأجب — يا باطناً عجّلن بالسّول أحيانـا
مولاي أنت الـه واحد صمـد — برّ رؤوف وأنت اللـــه مولانـا
يا ربّ يا ربّ يا ربّاه رازقنا — ارحم برحمك يا رحمن عثمانـا
يا ربّ عفواً لعثمان ومغفـــرة — ولتعطه ربّ في الجنات رضوانـا
واهاً له من لبيب حاذق فطن — قد فاق أقرانه شيباً وشبّانـا
سقاه ربي رحيقاً سلسلاً سلساً — من ذاقـة لا يرى من بعد ظمآنـا
قد فاض دمعي على الخدين منسكباً — في القــوم لمّا نعى الناعـون عثمانـا
فــلا تلم لائمي فيما بكيت لـــه — فقــد تجـرّعت مــن عثمان أحزانـا
حيران حيران لا أنفــك ذا كمـــد — حيران حيران لا أنفـكّ حيرانـا
محزان محزان لا أنفـكّ ذا حـزن — محزان محزان لا أنفـكّ محزانـا
أيــا سليمان مهــلاً ما أصبت بــه — قـد هـدّ يزبـل أو قـد هـدّ ثهلانـا
فلتعبـد اللـــه ربي لا شريك لـــه — ولترح منـــه بيـــوم الحشر احسانـا
لا تبك خالي وهذي الدار دار النوى — لا بدّ من بين من لمّا يكــن بـانـا
فلا تكــن جزعــاً ممّا دهيت بــه — فالحـرّ يصبر أزمانـــاً فأزمانـا
أجب لــديك الهي ربّ دعوتنـــا — ولتعطنـا كلمـا نرجـوه مولانـا
انّي توسّلت بالذكـر الحكيم ومـن — تــلاه مبتهــلاً للـــه سبحـانـا
بالبيت بالحجر بالأستار مبتهـــلاً — أدعو ومن حـجّ ذاك البيت وجلانـا
بجـــاه الشيخ أبي العبـاس سيّدنـا — وجــاه والدنـــا الميمـــون عثمانـا

وله أيضاً يرثي والده وشيخه عثمان بن أبي بكر :

ما بال عينك تشكو شدة الكمـــد — كأنّ جفنك مكحـولاً من الرّمـد
والقلب محترق والدمـــع منبسل — لما يقطّـع في الأحشاء وكبـدي

فكم أرنّ رنين الثاكلات على ... فقد وتحرقني النيران من كمد
فلا تلم لائمي الباكي للوعته ... لعلّ مثل الذي لاقاه لم تجد
خلّ سبيلي فانّ القلب محترق ... يا من لقلب بنار الوجد متّقد
أصبحت أبكي بنار الشوق محترقاً ... عار فؤادي من صبر ومن جلد
وباعث الشوق مني فقد والدنا ... عثمان يا ربّ فارحم والد الولد
هو الامام غياث المستغيث به ... عماد من كان محتاجاً بلا عمد
معطي الجزيل مصيب الرّأي ذو ثقة ... هادي العباد بارشاد إلى الرشد
لم يبق من مثله عجم ولا عرب ... كالبحر جوداً وفي الهيجاء كالاسد
شيخ لبيب أديب ماجد ورع ... يعلّم العلم في الآفاق كلّ ند
كطلعة الشمس لا تخفى على أحد ... سوى الذي طرفه في غاية الرّمد
ان ابن فاطمة الزّهراء بحر غنى ... سرّ السّرائر أم المجد والنّجد
ذو القدر ذو الحلم ذو العلم المنير سنى ... والكاشف الكمد ابن الكاشف الكمد
شيخ المشائخ في رأي الملوك حوى ... علم المذاهب هذا سيّدي سندى
من الذي جاءنا الدين الحنيف به ... وراثه للنبي من غير ما فند
قالوا الذي جاءنا بحر يفيض هدى ... يا حبّذا فيض هذا البحر جد وجد
فقلت من حبس الله السّفين له ... من يمن دعوته والأمر في رغد
قالوا بلى جاءنا الغوث ابن فاطمة ... به انجلى الجور في الدنيا وكل دد
هو الذي عمّ أيتاماً بنائله ... كالبدر في الليل لا يخفى على أحد
واذكر سعيداً وما لاقى فتوّته ... كالفجر ضوء ومثل البحر جوديد

فأنت يا سيّد السّادات ملجأنا ... عما نحاذر في الدارين من كمد
مني سلام على أنوار قبرك ما ... قال امرؤ في ثناء المصطفى السّعد
صلى الإله على نجل العواتك ما ... غنّت حمائم في الأغصان بالابد
وآله وعلى أشباله وعلى ... أنجاله وعلى أجثالته البند

وله أيضاً يرثي الشيخين الطّالعين في الأفق طلوع النيرين ابراهيم جُوبْ وأحمد كَيْ رحمة الله عليهما :

أإن عرفت بسلع دارس الطّلـــل   أجريت ما كـان في عينيك من بلل

وقفت في الـدار محزونـاً تسائلها   عن ساكنيها فلم تسمع ولم تقـل

وأجهل الناس من يبغي الجواب لدى   ربع محيـل بعيـد العهـد بالحلـل

يظلّ فيه سوام الرّيح منجفـلاً   بعد الأوانس والأنماط والكلـل

كـأنني لم أبت فيهـا بمنتـزه   مسامراً فتية شمّاً ذوي جـدل

كالشيخ أحمـد مـن بفضله شهدت   معاصروه من الأصحـاب والخـول

وذي المدارس ابراهيم مـن صدرت   منـه بحـور علوم لسن كالوشل

هـو الإمام الـذي عمّت دراسته   كلّ البـلاد بعلـم غير مبتـذل

قـد كـان بدراً منيراً نستضيء بـه   وسط الدجنات من حـاف ومنتعـل

فليبكـه كـلّ نـدب كـان علّمـه   بالنعت والعطف والتوكيد والبـدل

تبكي العلوم التي قد كـان يـدرسها   للـوارديـن مـن الاشراق للطفـل

الفقـه يبكـي ويبكـي النّحو مجتهـداً   يبكـي الحديث مع التفسير بالمقـل

جـازاه ربّـي عـن الإسلام قاطبـة   خيراً وحيّاه في الفردوس بالحلـل

قد كان للدّين ابراهيم منتصراً   والشيخ أحمـد معـوان لذي أمـل

وقد قضى اللـه في وقت حمامهما   واللّـه يغفر منهم جملـة الزلـل

قد شطّ قرن لـموت السّيّديـن كما   يأتي الكسوف ببرج الجدي والحمـل

السّيّدان الكريمـان اللـذان همـا   في الصالحين كخير الخلق في الرّسل

هما إمامـان كانـا في الظـلام سنا   وفي الهواجر بين الناس كالظلـل

هما اللـذان أعـاد اللـه نفعهمـا   لساكني سانلـوي في العلم والعمـل

لولاهما لغـدت أبنـاؤه همجـاً   لا يهتـدون نهـاراً واضح السّبـل

لولاهما كـانت الجهّـال غالبـة   أهل العلوم مـع العادات والحيـل

يـا أهلهم أبشروا مـن بعـد صبركم   برحمة اللـه تغشاكم على مهـل

ومـن عـلى الأرض فان لا بقاء لـه   ولـو تمطّى إلى الجـوزاء أو زحـل

أين الملوك الـذي من قبلنا سلفـت   وأين أصحاب ذاك الملـك والدّول

أبادهـم صرف دهر سوف يلحقنـا   بهم غـداً فلنكـن منـه عـلى وجل

ثم الصلاة عـلى المختـار مـن مضر   والآل والصحب أهل العلم والعمـل

وكان الشيخ إبراهيم جُوبْ من صدور كتّاب مدينة سان لوي وأدبائها المشاهير كان له معرفة بالنحو والأدب والتاريخ وغيرها وقد ألّف كتاباً في حياة الشيخ الحاج مالك سِهْ مسمّى بـ « تُحْفَةِ الإِخْوَانِ » . أما الشيخ أحمد كَيْ فكان كاتباً مجوّداً بارعاً في سان لوي .

وقال أحمد عيان سِهْ يرثي الحاجّ مصطفى جُوبْ الإمام الرّاتب لأهل دكار (عاصمة السنغال) :

إمـام في الصلاة وفي الصلات ... حميد في الحياة وفي الممـات

معين في الأمور إذا ادلهمّـت ... خطـوب النائبـات النـازلات

طليـق الوجـه عابسه إذا مـا ... أحسّ الضيم من بعض البغات

عن العوز أصمّ فليس يصغـي ... إذا ما قال بالعـوراء عـات

بنت يـده من العليـاء قصراً ... تقاصر دونـه أيـدي البنـات

تشير إلى المكارم منه كـف ... تعوّد بسطها عنـد العفـات

أتى الناعي هناك فقلت هـذا ... إلى الألباب بالحيّات يـأتي

تولّى المصطفى ولقد صفى لي ... زمان المصطفى طـول الحيـاة

كأن الناس حين نعـوه أسرى ... حيارى يلجأون إلى هنـات

مضى الشيخ الذي ما زال يملي ... على المـلا العلوم النافعـات

ترى الحجاج تسعى جانبيـه ... كما قد كان يسعى للصـلاة

ولم تترك أوان مضيت دمعـاً ... يصان عـلى خـدود صيّنـات

ولا كبداً سوى كبد تلظّـى ... ولا قلباً سوى قلب فتـات

فما قلب الفتـى يسلو أنيّـاً ... زمانك لا ولا قلب الفتـات

فنعشك إذ تسير عليـه نعش ... تحلّـى بالمزايـا الفاخـرات

بمـوتك قد تعطلت المعـالي ... وطلاّب العلوم وكـلّ آت

فأنت أبو الأرامـل واليتامـى ... فأنت العـون عنـد المعضلات

فلا زالت بـه الأنـوار تسمو ... سموّ السّائـرات النيّـرات

وفي أولاده عنـه عـزاء ... واخـوته الميـامين الهـداة

سقى قبراً تضمّنـه مليئـاً ... مـن الرّحمات فيـه النـازلات

وقال أيضاً يرثي الشيخ زَيْنَ الحَامِدَيْنِ المعروف بحَامِدُ كَنْ :

أيا مدير كؤوس الشاي لا تدر ... فقد سقيت بكأس جالب الكدر
لمّا نعى حامداً الناعي سهرت له ... ولوم من لام لا يشفي من السّهر
فليبك حامد منّا كلّ ذي رحم ... فانني عن بكاه عز مصطبر
وليبكه العلم والتعليم مجتهداً ... ولتبكه كتب التفسير والأثر
وليبكه النحو والفقه الصحيح كما ... يبكي عليه بيان جاء في الزبر
يا أهل فوت نعى الناعون سيدنا ... فلتصبروا فعظيم الأجر للصبر
ليس البكاء بمجد فيه خردلة ... والصبر أجمل للمقدور والقدر
لو كان يفدى فديناه بأنفسنا ... والموت لم تنج منه شدّة الحذر
قد كان في خدمة الأشياخ مجتهداً ... بنفسه وبمال غير مدخّر
فاذهب عليك من الرحمن رحمته ... مشيعاً بين جنّات على سرر
ان كنت سافرت محموداً إلى أجل ... فنحن بعدك في الدّنيا على سفر
لبّيك نحن على ما كنت تعهده ... من المودّة يا مستحسن السّير
يكفيك من ولد ما كنت تعمله ... من صالح العمل الباقي على الأثر
سقى ضريحك غيث بارد شبم ... من رحمة الله يهمي مدّة العصر

وقال أيضاً يرثي حبيبه وصديقه الشيخ الأمجد السيدِ الخَلِيفَة رضي الله عنه آمين :

مات الإمام وكلّ الناس في حزن ... فلتبكه مقلة الإسلام والوطن
ما زال مذ هو في فجر الشباب فتى ... يبني المكارم في سرّ وفي علن
حتى بنى لبني دنياه مكرمة ... لا تنقضي بانقضاء الجيل والزمن
له عوارف أسرار لو اجتمعت ... في قنّة الطّود خرّ الطّود ذاقن
ان جئته جئت شيخاً عالماً فطناً ... يغنيك عن كلّ شيخ عالم فطن
فلتبكه كتب التّاريخ يكتبها ... وليبكه مجمل القرآن والسّنن
وليبكه النحو والتوحيد معتقداً ... وليبكه الفقه من فرض ومن سنن
لا لوعة تترك الأكباد سالمة ... وفيضة الدّمع فوق الخدّ في هتن
نار الأسى أحرقت قلبي فواشجني ... لو كان يطفئها في القلب واشجني
لو كان يقبل هذا الدهر فديته ... لكنت أوّل فاد منه بالبدن
ان المنازل في وحش لما ازدهرت ... بك البرازخ إذ لفّفت في الكفن

كأنّ نعشك شمس إذ تسير بـــه ضيفاً إلى الروضة الفيحاء ذي الحزن
يخال نعش حسين في بكـا وأســى بكربـلا بين مكبــود وممتهــن
أعواد نعشك مذ مسّتك لـو علمت لأورقت فـوق هـام الناس كالقنن
شمائل مثل ضوء البـدر لـو مزجت طبع الدّجى لم يبت يشكوه ذو فتن
دقائق لك في الأخرى زجرت بهـا قلوب من عظّموا الدنيا بـلا ثمـن
باتت تسائلنـا في كـلّ مشكلــة عنك المسائل إذ غادرت واحزني
لو يبتغي الكون شيخاً مفرداً علمـاً لكنت للكون شيخاً مفـرد الزمـن
أو يبتغي الميت في الأعضـاء مقبرة دفنت في القلب والعينين والأذن
أو لم يخل عدد الرّسل الكرام لنـــا لكنت ذا عـزم منهـم وذا رسن
رثيت في الذّكر والأسفار لو سبقت حياتك الخير أحيت نسمة الوسن
يـا راحـلاً تحت ظلّ اللــه مستتراً ومكرم الضيف أمسى ضيف مؤتمن
هذا مقامك عند اللــه معتليـــاً فارق إلى اللــه محتازاً بكلّ هني
تساءلوا عن جنان قد نزلت بهـــا مأوى نزلت أم الفردوس في القنـن
في عليين مكان الرسل منزلكـــم ترى هناك جمال اللــه أنت فني
قالوا رأوك طليـق الوجه مضطربـاً كالطير ينقـل من غصن إلى غصن
وان عـلا زاد في الأبرار عافيـــة وان هـوى فرّج الأشرار عن فتـن
فليعمل العامـل الرّاجـي لطائفـــه لمثل ذا كنت في الدنيا عـلى السّنـن
جاورت ربّـك في الفردوس مبتسماً وجئت قومـك في الفردوس بالقرن
أبكي عليك ولم أبرح ببرح أســى إلى اللقاء غـداً في جنّـة عــدن
وانّني لـك راث بالقريض فمـــا يقضي القريض لعمري حقّكم زمني
لولا مغالبة الأشجان في خلـــدي لقلت فيك رثاً في الدهر لم يكـن
روحي فداؤك يا من روحه طلعـت لحضرة اللــه حيث النور في علن
في روضــة ذات أنهـار وأبنيـــة من رحمة اللــه فاسكن غير ممتحن
يهاب سؤلك لـولا حكمة سبقـت ملائك اللــه كم قدّمت من حسن
في ذمّة اللــه نم للحشر مغتبطـــاً فرحمة اللــه تغشي الرّوح بالمنـن

الشاعر كلّ الشاعر هو الذي يهتزّ قلمه بهبّ كلّ الرّياح ويتصدّى لأصداء كلّ السّحاح فيطرق كلّ باب وراءه الله عزّ وجل أو الناس أو الطبيعة أو الحبّ

أو الوطن وغيرها قد فهم ذلك أحمد عيان جدّ الفهم لمّا رثى حتّى هرّة ابن خالته إبراهيم أَمْبَايْ قال لي بهذا الصّدد «كنت أزور ابن خالتي هذا وكان منتحباً فأخبرني أنّه قد فقد هرّة كان يحبها حباً جمّاً فنظمت هذه المقطوعة مشاطراً حزنه» :

الموت عضب حسام صارم ذكـــر لم ينج ذا حذر من وقعـــة الحذر
لم ينج كسرى أنو شروان منـــه ولا عمرو بن هند ولا النعمـــان أو زفر
لم ينج في غابـه من وقعـــة أســـد والابـل والشاء والانعـــام والبقر
والطير في الجـوّ والحيتان في لجج والصّقر والهـدهـد القمريّ والنغر
لم يبق فـوق أديم الأرض مـن أحد الوحش والجنّ والأمـــلاك والبشر
ففي فنـــاء جميـــع الخلـــق معتبر وفي الزمـان لأربـاب النهـى عبر
كانت لنا هرّة فاغتالهـــا القـــدر والموت في الخلق لا يبقي ولا يـــذر
كانت من الفار والحيّـــات تحرسنا والبيت تحفظ مهمـا نـوّم السّمر
لم تعـد قطّ على جـار فـــواأسفـاً منّا عـلى هرّة تاهت بــه الهـرر
أبقـت لنـا دردفـاً شالت نعامتـــه كانت لـه وزراً يا حبّـذا الـوزر
كأنهـا إذ غـدت عنّـا مودّعـــة أوصت كريمـة ابـراهيم تعتمـر
فقـد تركت عيـــالاً عنـد بابكـــم لا تهملـوه فحـقّ الجـار معتبر

ولقد أوردنا بعض قصائد يرثي بها أحمد عيان سه خلقاً جمّ الغفير بعد أن تركنا كثيراً منها لضيق المجال فهاكم ما قاله من سلاسل ورده فان جميع سلاسله تنسب إلى الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة المشهورة :

الحمد للـــه لا معبود إلاّ هو بالحقّ لا ربّ إلاّ ربنا اللــه
ثمّ الصلاة وتسليم على قمـــر بدر به قد أنار اللـــه ظلماه
وآله الغرّ والأصحاب قاطبـــة والمقتفين سبيل الحـقّ يا اللـــه
هم الوسائل للرحمن فاتخـذوا له الوسيلة مقرون بتقـــواه
وبعد فالقصد بالمنظوم أجمعهم في سلـك شعري نظماً راق معناه

سلاسل لأَبي عثمان[1] أسندهـا ... كالدر والجوهر المكنون مرآه
فقد نال والدنا الميمون طائـره ... اجازة من محمد فال[2] ترضاه
وذاك عن سيد الأعراب يرفعها ... إلى علي التّماسيني مرمـاه
وذاك عن شيخنا التجاني آخذهـا ... عن النبيّ كـذا جبريـل والاه
ثاني الاجـازة قـل عن سيد العربي ... محمد الهـاشمي الصرغني مثـواه
وعن محمد البنّان آخذهـا ... للشيخ أحمد نرجـو فـوز لقيـاه
وثالث حسن يتلـو محمـده ... عن شيخه أحمد بن بدّ منجاه
وذاك عن ابه بكر طريقتنـا ... عـن حافظ العصر أتقـاه وأخشاه
ورابع ابن محمد شيخنا العلوي ... عن شيخنا العبد لاوي زاده اللـه
عن الإمام التماسيني قدوتنـا ... عن شيخنا أحمد التجاني أعلاه
عـن أحمد عـن علي وهو خامسهم ... عـن سيدي عمر[3] يا حسن مـرآه
عـن شيخه سيد الغـالي اريـد بهم ... قضاء حاجي ونيـل الفوز يا اللـه
عـن شيخنا أحمد التجاني قدوتنـا ... ممـدّ كـلّ وليّ شاءه اللـه
ختم الولايـة سرّ السّرّ مـن رفعت ... لـه بـه درجـات الخير جـراه
وسادس أَحمـد المختـار ذو شرف ... عـن سيدي أَحمـد كنـون بشراه
عن سيدي العربي عمّن ذكرت لكم ... من الأسانيـد قبـل يرحم اللـه
عن الحبيب حفيظ الشيخ سابعهم ... عـن والـد بعليّ كـان سمّاه
عن البشير وعـن محمـد الصغر ... عـن الحبيب عـلي لست أنساه
ما بين شيخي وعثمان بـن فاطمـة ... إلى الإمـام ابـن عبد اللـه غوثاه
وذاك عن شيخنا البنّان أحمد مـن ... هـداه أَسنى سبيل الحـقّ اسماه
عن المحدّث عبد الواهب القمر الـ ... سامـي المفاخر بـل مصباح دنيـاه
ومنهم الشيخ مولى الطاهر العلـوي ... محمد وهـو بـاذن الشيخ واللـه

---

(١) كما قال له الشاعر فان عثمان أَباه ، هو الذي أعطاه الورد التجاني .

(٢) هو من كبار علماء البيضان في موريتانيا .

(٣) هو الشيخ الحاج عمر تَالْ قد سبق ذكره .

عن البشير ابن غوث الخلق آخذها عن طاهر العلوي المكنون مرآه
فلم يزل في ذرى العرفان مرتقياً إلى جناب العزيز عزّ مرقاه
له سلاسل أخرى غير ما ذكرت عن غير ذا من صحاب الشيخ ترضاه
نرجو بجاههم نيلاً لمطلبنا والعلم والفتح دنياه وأخراه
يا رحمة الله امّي قبر والدنا واسقه من ربّه الرّحمن رحماه
جزاه ربّي عن الاخوان قاطبة خيراً كما كان أخشاه وأتقاه
يعلم العلم يلقى الناس منبسطاً وينفق المال يمناه ويسراه
أعاننا الله في اقتفاء سيرته فانّ سيرته خير وعقباه
يا ربّ فلتجزه خيراً ومغفرة ورضي الله عن شيخي وأرضاه
واقبل له كلّ ما يأتيك من عمل وفي العيال جميعاً كلّ آخاه
واجعل بنيه جميعاً سادة كرماً وفي البنيّات بارك كلّ والاه
واجعله يا ربّ بالخيرات منقلباً يوم القيامة في الجنّات مأواه
وارحم لقائل هذا الشعر احمد من يرجو من الله فوزاً عند لقياه
وكلّ منتسب ينمى اليه ومن ينمى لوالده يرضيهم الله
وكلّ من كان للمختار مقتفياً فلا مشفّع في الداريـن إلا هو
ختم الرّسالة لبّ اللبّ غيث ندى بسيط علم يراه الله مولاه
رسول صدق حباه الله منزلة مكتومة لم ينلها الرّسل إلا هو
سرّ السّرائر يوم البعث شافعنا صلّى عليه اله العرش ربّاه
ثم الصلاة وتسليم كذاك على خير البرية عند الله جراه
وآله وعلى الأصحاب أجمعهم والشيخ احمدنا التجان يا الله

وقال أيضاً يودّع تلاميذه الدَّكَارِيِّينَ :

إذا ما الرّكب شمّر للذّهاب وآذن للمواطن بالايـاب
فودّع ما استطعت وحيّ ناساً نزلت لدى بيوتهم الرحاب
أناس في دَكَار لهم عطايا وأحلام من العجب العجاب
وكلّهم له كرم ومجد ومعرفة بعاقبة الصواب
إذا وضع النقاب رأيت حرّاً جميلاً وجهه تحت النقاب
فمن دار السّلام لهم نسيم يشاهد في ابتعاد واقتراب

فما منهم يرى الأرجال | يرى نور الجمال بلا سحاب
إذا نزل الغريب بهم تراه | وما أن يشتكي ألم اغتراب
لهم في ساعة العلم اقتراب | وليسوا للسّفاه ذو اقتراب
وشغلهم كتاب الله دأباً | وقد ألقوا سواه من كتاب
تراهم قارئين بكلّ آن | جميع العلم من بابٍ لباب
وقل للسّائلين هناك عنهم | وعن أخبارهم طرّاً كفى بي
ولم يك فيهم إلاّ ظريف | خبير باللغات وبالحساب
أديبٍ من أديبٍ من أديبٍ | عباب من عبابٍ من عباب
جواد من جوادٍ من جوادٍ | سحابٍ من سحاب من سحاب
أريب من أريبٍ من أريبٍ | لباب من لبابٍ من لباب
وقاهم ربّنا شر الأعادي | وكان جنابهم خير الجناب
ويجمع شملهم ويصون منهم | نفوساً لا تسير إلى المعاب
وبوّأنا الإله بلا حساب | غدا جنّاته وبلا عقاب
رعى الله دكار وساكنيها | من الاخوان فيها والصّحاب
وصلى الله لمحة كلّ برق | على المختار مفتاح كل باب
وما إن قال مشتاق غريب | إذا ما الرّكب شمّر للذهاب

وقد قال مرحّباً بهم عند مقدمهم إلى « سان لوي » بشارة الأنجم الزهر في الجناب الغر :

بشرى لنا فهلال السّعد قد لاحا | والبشر عنّا أزاح الغمّ وانزاحا
والجوّ طاب وريح النّصر جارية | والرّوض من عرفه الورديّ قد فاحا
وأصبح الماء عذباً سائغاً وبدا | للقلب ما يشتهي فازداد أفراحا
والدّهر أصبح يزهو في غلائله | يجرّ أردانه في الأرض مرتاحا
بشرى بمقدم سادات علواً هِمماً | فكلّهم لاكتساب المجد قد لاحا
بالبذل قد عرفوا قدماً ولو سئلوا | أرواحهم بذلوا في الحين أرواحا
قد رجعت سنلويسا روحه وزها | وسرّ سور كما شئناه وارتاحا
هذي شموس دكار حلّ طالعها | فينا فكلّ بما يخفيه قد باحا
أهلاً بها من شموس كلّما طلعت | طاب الهوى واستنار البدر وانصاحا

من مدّ راحاً إلى ادراك سعيهـم قد أتعب الرّوح في مسعاها والراحا
هذا ولا زال ربّ العرش يكلؤهـم ممّا يخافون أمساء وأصباحا

وقد قال في الغزل :

أرى شوقي عليّ بكلّ حـال أميراً أو بمنزلـة الأمير
كتمت هوى سعاد فنمّ دمعي بما قد كنت أكتم في ضميري

وقال أيضاً ما جاء بحدّ للحبّ :

الحبّ شيء عجيب لا حياء له يسعى بلا دعوة نحو الأحبّاء
يسقي القلوب كؤوساً من صبابته فيها الشّفاء وفيها لاعج الـدّاء

وفيما يتعلق بهذين البيتين أخبرني في يوم السّبت ١٥ من شهر آذار سنة ١٩٦٩ م في داره بحيّ جُلُفِينْ بِسَانْ لوي عن الظروف التي قالهما فيها : « كلف فتى ببنت لأحد أقاربه شديد الكلف فخطبها إلى أبيها فأبى الأب . ولمّا كنت على يقين أن المخطوبة كانت تحبّ الخاطب بمقدار حبّه لها أو أشد حبّاً أفرغت مجهوداتي حتىّ كان الزواج بعد اقناعي أبا البنت المناهض فنظمت هذين البيتين » .

وله أيضاً يعظ بعض الاخوان :

انظر لـوجهك في المـرآة معتبراً وان يكـن حسناً فافعـل مناسبه
وحيث كـان قبيحـاً افعلن حسناً إذ جمـع قبحين حـقّ أن تجانبه

وقال أيضاً يفسّر معنى عيّان :

أقول لمن يسائل عن عيـان وعن معنـاه من أيّ معـان
عيـان سماه أحمد هو جـديّ فدونك ما تشاء مـن البيان
يعـاين مـا نـواه لـه عـدوّ كما ينـوي المصادق بالعيـان

سوف تدلّ هذه اللمعة من الترجمة على سعة ثقافة الشيخ أحمد عيّان سهْ فهو ولد بأَنْدَرْ في ١٧ من شهر نيسان سنة ١٩١٣ م من عثمان سه والسيدة آمنة جَلُو وله معلّمان في علوم الدين وهما ابوه ومود آج الذي كان تلميذاً لجبرن حَامِدْ كَنْ وكان ابوه هو الذي اعطاه الورد التجاني وعلمه أيضاً كثيراً من أدب التصوّف واسراره . قال فيه :

شيخ لبيب أديب ما جد ورع يعلّم العلم في الآفاق كلّ نه

وكان يمدحه ويرثيه بكلّ الوجوه .

وكان شيخه في العروض والشعر السيد محمد عبد الله بن ففا الدؤلي الموريتاني ويتأثر جدّ التأثر بعبد الرحمن البرائي من الشعراء القدامى وبأحمد شوقي من الشعراء المحدّثين . إبتدأ النظم سنة ١٩٣١ م قد كتب كتاباً في الطريقة التجانية . وله تلاميذ في الشّعر مثل مصطفى سِهْ ومحمد سِهْ وصِنْوَان فال . وقد مات الأخير حديث السّنّ وقال لي ما يلي : « قد طالعت كتاب « البؤساء » لِفِكْتُورْ هِيغُو في العربية وطالعت ايضاً رواية لفولتير وروايات لِكُرْنِيـيَ ، وشيخي في التصوف هو الحاج محمد أَنِيَاسْ الشهير بالخليفة الكَوْلَخِي السّنغالي وأنا في العقد والتوحيد على مذهب أبي الحسن الأشعريّ وأنا واثق بالإنسان مؤمن ببشريّته » .

وشعره الغنائي المقوّي مقتبس حيويته من انتاج الشعراء العرب ومتوجه نحو مستقبل مفتّح على كلّ ريح فكرية . وقد طرق كثيراً من ابواب الشعر الخالدة نحو حبّ الوطن والصداقة والموت والهمم العالية وتمجيد كبار الرّجالات وأحمد عيان سه راسخ القدم في عادات أرض السنغال مستورد الهامه ومشاعره من كلّ ماء معين فيمدح نبينا محمد عليه السلام والشيخ أحمد التجاني ثم مَرِشَالْ بَتِينْ وجنرال دَغُولْ والحاج مالك سِهْ والشيخ سَعِيد النُّورْ تَالْ والحاج ابراهيم انِيَاسْ والشيخ محمد الخليفة انِيَاسْ ويموّه بسان لوي وزهورها والرجوع إلى الأرض .

كتب في كلّ ذلك وعبر عن كلّ ما اثر فيه بوجه بسيط تصويري وبلحن نانة جهوريّة ايقاعيّة مثل صائغ يتمكّن من فنّه تمكّناً يقيناً ونحن لا نغلو إذا قلنا ن أحمد عَيَانْ سِهْ هو من كبار الشعراء المعاصرين في السّنغال فلنعتبره من الشعراء شاهير المدّاحين لسيدنا محمد عليه السلام والشيخ أحمد التجاني قدّس الله سرّه قام في ذلك مقام الحاج مالك سه والشيخ أحمد بمبه . كأنه يودّع الشعر وينقطع التعليم والتصوف مصغياً سمعه حيناً بعد حين إلى انغامه الشعرية التي يغنيها مواطنوه بان بصوت جهوري في جوف الليل .

الشّيخ الحاج مَاجُورْ سِيسهْ

هو مالك الشهير بِمَاجُورْ سِيسِهْ وكان يعيش في أواخر القرن التاسع عشر لاد وتوفي سنة ١٩٠٧ م . وكان معاصراً للحاج مالك سِهْ واحمد بمبه وابن

المقداد والقاضي مَجَخْتِ كَلَ الرّواد للشعر في السنغال . وحفيده الذي سميّ جدّه يحيى في سان لوي يرأس جمعيّة دينية نظامها مشدّد بحيث ان وصفت الجمعيات الأخرى اعضاءها بـ « الجُنُودِ » وهذه الجمعية الإسلامية شديدة التّقوى والحميّة متماسكة الأعضاء جدّ التماسك عجيبة الدّقة في الوقت خيريّة مدهشة العصرية وروح التنظيم ذات تأثير بغير ضوضاء .

وقد إعطانا الحاج مَاجُورْ سِيسِهْ الحفيد كتاباً أَلّفه الجدّ في الفقه . وهذا الكتاب ضخم يحتوي على ثلاثمائة صفحة مخطوطة ونسخه موريتانيّ اسمه أحمد ابن المختار اليدالي فهذا ابتداؤه : « يقول عبد الفقير إلى ربه الغني الرّاجي غفران ذنوبه وستر عيوبه ابو محمد مالك بن عبد الله بن عمر المالكيّ القادريّ الشثيّ الأحمديّ السالميّ أصلاً الأَنْدَرِيّ مولداً الشهير بابن كمب سيس وقاهما الله شرّ إبليس الرّجيم الخسيس » وبعد صفحتين من نثر السّجع قال : « أما بعد فلما كان العلم أَفضل ما منّ به الرحمن على الإنسان بعد الإيمان وشرّفه على سائر الحيوان وقال عزّ من قائل لأكمل الأولين والآخرين : « إقرأ باسم ربّك الذّي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم » وقال « الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان » . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال « فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون » وقال « هل يستوي الذين يعلمون والّذين لا يعلمون » إلى غير ذلك من الآيات البينات وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كلّ مسلم » وروى عبد الله بن عمر انّ النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا بمجلسين أَحدهما يذكرون الله والآخر يتفقّهون فقال رسول الله كلاّ المجلسين على خير وأَحدهما أَحبّ إليّ من صاحبه أَما هؤلاء فيسألون الله تعالى ويذكرونه إن شاء أَعطاهم وإن شاء منعهم وأَما المجلس الآخر فيتعلّمون الفقه ويعلّمون الجاهل وإنما بعثت معلّماً وجلس إلى أَهل العلم « وقال صلى الله عليه وسلم الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وقال صلى الله عليه وسلم « خيار امتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها » فجمعت من فوائد فوائدها وفرائد فرائدها ما هو الأهمّ الأفضل الأولى وهو ما يتعلق بالطهارة والصّلاة وهو الأوكد من علم الدين لأنّ الناس به يرشدون ويجهله

يصلّون إذ لا تصحّ عبادة مع جهل شروطها وكيفيتها ... وسمّيته (أي كتابه هذا) « بهبة الكريم المالك في أحكام الطهارة والصلاة على مذهب مالك » .

ولما كان هذا الكتاب متعلّقاً بالفقه اكتفينا باشارة إلى كون الحاجّ مَاجُورْ سِيسِهْ فقيهاً شهيراً لكنّه كان من فحول الشعراء السنغاليين ومن انتاجه الشعري قصيدتان مشهورتان في مدح خير الأنبياء عليه الصلاة والسلام فان القصيدة الأولى تحتوي على ثلاثة وتسعين بيتاً . اعتنى بشرح كل بيت منها معنى واعراباً أديب موريتاني اعجب بالقصيدة فها هوذا مستهلها :

تبوّح معّاج الوميض قلوب   بذي الفرد يبدو تارة ويغيب
تبوّح عن سود تدبّ كأنها   زواحف من جون لهنّ دبيب
حدتها الصّبا جنح الظّلام فأيمنت   فقلت بلاط الجسر حيث تصوب
فلما سقت وادي النخيل إلى النقا   حدتها إلى مفضي الكثيب جنوب
تمّن على بعد المزار بوصلتي   وتبدي ازوراراً والمزار قريب
فيا عجباً اني على غربة النوى   قريب وان تدنو الديار غريب
لها نكهة مثل الأناب رضابها   وثغر كنور الأقحوان شنيب
فان امرأً داوى الغرام بمثله   فبلّ وعاشت نفسه لعجيب
وانّ آمراً قد عالج الحبّ بعدما   تمكّن من أحشائه لطبيب
وذات دلال تيمّ القلب حبّها   لذكرتها بين الضلوع وجيب
صرمت بلا ذنب وواصلت غيرها   وفي القلب من نار الفراق لهيب
وانّ آمراً قد ضيم من بني أهله   ولم ينتصر من ضيمه لغريب
وانّ آمراً نالته نعمة قومه   ولو كان عنهم نائياً لقريب
وانّ آمراً قد ردّه الجبن عن هوى   ولمّا يجرّب نفسه لهيوب
وانّ آمراً خاف الملامة فارعوى   عن القصر حام عرضه لأريب
وانّ آمراً دسّت اليه سريره   فأفشى ولم يلحد بها لكذوب
رأيت صروف الدّهر عرّقن أعظمي   وشيّبن رأسي والخطوب تشيب
إذا قلت آبت أو تغافل صرفها   تأوّب همّ لا يكاد يؤوب
وانّي إذا ما ضاق ذرعي لنكبة   وأزعجت النّفس الجموح ذنوب
ولم أر للخطب الملمّ مساعداً   يلوذ به في النائبات كريب

ألوذ بطـه فهو أكرم ملجـا وأوفى مجير يستجير طليـب
محمّد المختار أكرم من مشى وأفضل من شقّت عليه جيوب
كريم عزيز من كرام أعـزّة أغـرّ صبيح الـوجنتين نجيب
فكم أنجل الإنجيل نور ولادة لتوريـة موسى من سناه تقوب
وأخبر أحبار الكتابين آذنـت بأنّ أوان الهاشمـي قـريب
وقد أعلنت دعوى الهواتف اذ بـدا شعاب يردّ الطارقين ثقـوب
ونيران فرس حين يبدو وقودهـا كماء بحير قد علاه لهيب
فأضحت وأضحى عبرة وكلاهما لصاحبه ممّا دهـاه نسيب
ومن نوره لاحت لعائش ابـرة كقيصر لمّا ريء وهو عزيب
وأسرى به كيما يفوز بقربـه وذلك ممّا لم ينلـه عريب
مقام تخـرّ الشّامخات مهابـة له وقلوب السّالكين تـذوب
دنا فتدلى قاب قوسين مفـرداً دنوّ اصطفاء والقريب قريب
فآب وآب الفضل يقفو سبيله اياب حبيب قد دعاه حبيب
أراه من الآيات كلّ عجيبـة فنال بها ما لا ينال كسوب
وأمّ جميـع الأنبيـاء فيالهـا صفوفاً لها خير الأنـام نقيب
فللـه ركب فيه جبريل قائـد وطه إمـام والبراق نجيـب
وفي صدره إذ شقّ أكبر آيـة وفي البدر شقّ مثل ذاك نسيب
وفي جمل يشكو اليه من الجفا وفي الضب يصغي اليه ويجيب
وفي الجذع لمّا حنّ مـن ألم النـوى هـوى وحنين الصّامتين نحيـب
وفي دوحة تمشي اليه مطيعـة لأغصانها فوق الجبوب لحوب
وفي مسح ضرع الشّاة عن أمّ معبـد فأضحت بذاك المسح وهي حلوب
فنالت به ما لم تكن لتنالـه وودّت لـو أنّ الباقيـات هضوب
وفي ردّه عيناً وفي تفلة بهـا فأضحت نمير الماء وهو عريب
وفي سقيه بالصّاع جمّاً غفيرة وفي شعبة أخرىَ منه وهو حسيب
وفي رميه الجيش العرمـرم بالحصى فولّـوا وفيهم للسّيوف نـدوب
وفي الشمس لمّا قهقرت مـن ورائها وقد حان من شمس النهار وجوب
وفي عنكبوت قـد سدّت وحمامـة وسرح يسدّ الغار وهـو قضيب

وفي الطرف إذ ساخت بوعر بناتــه وفارسه ممّا اعتراه كئيب

فواللـــه لولا رحمة سبقت له لقام ذليلاً ما أقــام عسيب

وفي خمسة[1] ماتوا جميعاً بدعوة حتوفهــم ممّـا جنـوه ضروب

وفي مبرم دبّت اليــه دويبــة بليل وأمر المشركين حزيب[2]

وفي بيضة كان الوفـاء بوزنـه وفي نخل عام طلعهنّ خصوب

وفي الوفد إذ جاءوا وفيهم زمينة كبضعة لحم آب وهي عروب

وفي محكم التنزيل أكبر آيـة له في قلوب المؤمنين رتوب[3]

لقد أعجزت آياته كلّ ناطـق فسيّان فيها باقــل وخطيب

هم رضعوا ألبانه غير أنّـــه ترى النّجم فـوق الماء وهو عزيب

وقـد رام باغ باليمامــة شأوه فآب ظليعاً والظليـــع يؤوب

حميت ذمار العلم لمّا تذامروا عليه وديــن الحقّ ثمّ شصيب[4]

بكلّ ردينيّ كــأن سنانـــــه شهاب بـأيدي القابسين ثقوب

وكلّ رقيق الشفرتين يزينـــــه ضبيب يترّ العظم وهو رسيب

وملس تباري الرّيح أمّا نصالها فزرق وأمّـا عودهـــا فصليب

فأيـدي رجال لا يبيت عدوهم أميناً ويضحى الدّهر وهو كئيب

كهول وشبّان وشيب يؤمّهـــم إذا حاربـوا ماضي الجنان ضريب

ضريب بنصــل الهنـدواني نــازلاً إذا لم يجب داعــي نزال مجيـب

رجال يرون الموت زيناً عليهم إذا فرّ من وقـع السّيوف هيوب

نهارهم ضرب الرّقاب وليلهــم قيام ودمع ملخشوع يصـوب

---

(١) وهؤلاء الخمسة يعني بهم الأسود بن مطلب القرشي والأسود بن عبد يغوث والوليد ابن المغيرة المخزومي والعاصي بن وائل والحارث بن قيس السهمي اقتصر الناظم رحمه الله على هؤلاء الخمسة المذكورين لشهرتهم بالاذاية للنبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) حزيب معناه الشديد .

(٣) رتوب أي ثبوت وعدم تحرّك .

(٤) شصيب : غريب .

وكم من حنين في حنين وزفرة ... جليبهما ماضي الغـــرار قشيب

وكم من بدور يوم بدر تبادروا ... ورود حياض ماؤهـــن صبيب

غزاهـم بجيش لا يكـتّ عديـدهم ... خميس يغص البحر وهـــو رحيب

هم ادّرعوا رهج القتام إلى العـدى ... وكلّهم شاكي السّلاح قطـوب

يؤيدهم ضرب بفضّ جمـا جمـاً ... وأرصع ثجّـاج النّجيـع دبـوب

فولّـوا وحدّ المشرفيـة فيهـم ... شلالاً ومنهـم فائظ وخصيب

ولم ينـج إلاّ هارب بدمائـه ... يمجّ نجيع الجـوف وهو خبيب[1]

والاّ طريـد بالنّجـاة مكـذّب ... وعان مـداني السّاعدين حريب

وكم مـن قلوب في العواسن واسن ... عرى قلبه لما حـواه قليب

وكم من هيام مثل هيم من الصدى ... وهامهم قعر القليب رسوب

ومن أحد كان العدوب بساطه ... لدى أحد قد بـات وهـو عـذوب

وباكيـة تبكـي تبوك وأهلـه ... وباك ولا يشفي الذّخول نحيب

هم جالدوا أعدائهم بسيوفهـم ... عن الدّين حتى عاش وهـو مهوب

جزاهم إلـه العرش في كـلّ لحظة ... بأفضل مـا يجزي الحبيب حبيب

وأزواجه والآل والصحب كلهم ... وسيّان منهم نـازح وقـريب

فمن كان ذا قلب خـلا مـن ودادهم ... فليس له في المكرمات نصيب

فحبّهم سيفي ورمحي ومغفري ... مجنّي لما أخشاه حيث ينـوب

ولم يود جـار استجار بحبّهم ... كما قيل أودى في الغـوان عتيب

فهذا مديحي قاصر عن علاكم ... ومن مثل مـا يحوي المسيل يسيب

وطاب لما يحويـه من طيب مدحكم ... وفي مدحكم كـلّ المديح يطيب

ومدح رسول اللـه أفضل كلّمـا ... به يعتني دهر الدّهور أريب

به أرتجـي غفران ما اكتسبت يـدي ... وراجيه والرّحمن ليس يخيب

لنفسي وللأشياخ طرّاً ووالـدي ... وصحبي وجيراني وأنت وهوب

كذاك جميع المسلمين فكلّنـا ... لعفوك يا ربّ العبّاد رقيـب

---

(١) خبيب : مسرع .

وصـلّ على المختار والآل ما شدت   مطوّقة جنح العشيّ طـروب .

انتهت هنا هذه القصيدة البديعية البائية المباركة المديحية التي نظمها الشاعر المفلق اللوذعي الأديب السيد الحاج مَاجُورْ سِيسِهْ الأَنْدَرِيّ . وهي محفوظة في خزائن المعهد التأسيسي لإفريقيا السوداء بدَكَارْ .

وقد نظم ايضاً قصيدة بديعية ميميّة مديحية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا مطلعها :

بديع مطلعكم يَا جِيرةَ العَلَمِ   سنا براعته نار عـلى عَلَـمِ
ان جئت سلعاً فسل عن ريم ريمة هل   بالبان مذ بان عنّي أو بذي سلم
أَحبّة أَرْخوا يـوم الوداع عـلى   خدّي خطا بلا رقّ ولا قلم
صدّوا فلم يبق لي جلـد ولا جلـد   والغصن يـذوي لفقـد البارد الشّبم
قد هدّدوني الجـوى ركناً وثقت بـه   مذ هدّدوني بسيف من بعادهم
وجرّ دون النّوى ذيل الفراق ولم   أبال ان جرّدني مـن سلّوهم
جـدّوا الوسائل إذ جـدّ الرّحيل بهم   ولا رسائل نجدي بعد جدّهم
في القلب نار الهوى والشّوق يوقدها   لا غرو ان تلفت نفسي مـن الضّرم
من عدّ من صبره صون الدّموع فقد   انفدتَ دمعي ولا استطيع منع الندم
من جـاد بالعين لم يبخـل بأدمعها   ان ضنّت النفس نفس الواهل البرم
قالوا؟ جنيت على نفس سمحت بها   تبرّعـاً قلت لكن في سبيلهم
عفرت نفسي لهم لـو أَنهم علمـوا   وما سيجدي سوى حزّ على وضم
وسائل ما الهوى العذري قلت لـه   أولى به ساكنوا الجرعاء مـن أضم
انّ الهـوى لهـوان مـا يقيم بـه   نكس وترضاه نفس السّادة الخـدم
أَشكو الهـوى والهـوى داء بليت به   لمدنفي لست أرجـو البرء مـن سقم
فديته بحياتي من شغفت بـه   من متلفي وهو مشغوف بسفك دم
قد كنت أخشى ضنى والحبّ منكتم   فكيف والحبّ بـاد غير منكتم
قالوا تحنّ إلى وصل فقلت لهم   ان كان جودوا بـه فالوصل من كرم
ريـح الصّبا ريـح من شطّ المزار به   فقد يرود الكرى ذو الحلم للحلم

فمن أقرّ بهم عيني فانّ لــــه ... عيني وأبذل روحي في لقائهم
يا بارع الشكل هل في نصرة لفتـى ... ضلّ الطريق إلى عرب بـذي سلم
ما أورد القلب ناراً لا خمـود لهـا ... الا اتباع الهوى المفضي إلى النــدم
من عزّ مطلبه هانت مشقّتـه ... فالعزّ بعد اقتحام الهـول في الظلم
لقد عصيت قديم العـذل من صغر ... وما أطعتم جديد النصـح في هرم
ولو أطعت أبا نعمـان حين دعـا ... ما كنت أدعى أبا حسّان في الذمم
ان عدت أصغي لنصح من أخي ثقة ... فيهم فقولوا أطلب النفـخ في الفحم
جزيت يا عاذلي في كلمـة وصلت ... فصيحة ذكرهـا يحلو بكـلّ فـم
أطلت ليلي بنصح طاب طارقــه ... من طوله بتّ أرعى النّجم لم أنـم
بشرتني بسلوّ المستهام بهـــم ... فانعم فأنت المطاع النّافذ الكلـم
يا سادتي سوف أسلوكم إذا حشرت ... بالي العظام وعـاد الشّيب كالحمـم
رقّوا لحالي وقالـوا من تحنّنهم ... تسلّ قلت عــن الأوطان والحشم
دع ما يريب إلى ما لا يريب فــلا ... يسعى الأريب إلى الأهــواء والتّهم
قالوا اسلهم قلت قد ضنّ الفؤاد بهم ... قالوا اصطبر قلت صبر الهيم عن شيم
تستمطر السّحب جفني كلما خلبت ... بروقها فتجـود العين بالـديم
نثر الحديث ونشر الـدّمع في مـلا ... مما يـدلّ على الأواء والألم
ما سابق العذل جاري أدمعي وجرى ... إلاّ كبا مثل ما في العيش والنعـم
حكم الفراق بفتـوى البين فرّقنــا ... ما أنت يا حكم في الجيران بالحكم
رضيت بالصرم إذ عزّت نفوسهـم ... عـن وصل منصف بالـذل متّسم
يستوجب البين شكراً لا أقـوم بـه ... لأنّ آخـره بـدء لوصلهـم
يخاف من صولتي ليث العرين كما ... أخاف لحظ عيون العين في الخيم
يحمون في الحلّ جـاراً عن أخي تره ... ما بالهم يقتلون الجـار في الحـرم
تجلّـدي واشتياقي لـوعتي تعبــي ... للجهر والحسن والادلال والهمـم
عفت العيـون فـلا حـوراء تخلبني ... إلاّ عيـون ظباء البــان والعلـم
زاحمت من كان قبـلي في محبّتهم ... حتّى ظفرت بحقّ مـن وصالهـم
قالوا حديث هوى في الوصل زاحمنا ... والرّزق بالحظّ ليس الرّزق بالقـدم
من غاص بحر الهوى يبغي جواهره ... فـازت يـداه بمنثـور ومنتظـم

يا قلب مالك تبدي في الهوى جلـداً
ماذا التجلّـد ماذا الصبر فاستقـم

ويـا أَمين عـلى قلب فجعت بـــــه
انّي احتسبت فـؤاداً ضاع عند أَم

لو كنت أَبْدي الذي لاقيت مـن أَلم
إلى الأعـادي رثـوا لي ثمّ لم أُلم

قد دقّ حبّي عن شكوى يذيع نعـم
نعم وقد جلّ عـن اخفـاء مكتتم

يا ساكن القلب لا تعبـأ بلوعتــــه
أفديك مِنْ سَاكـن في القلب محتكم

صل زرأًقم واهجر اصرم جروته وأَقل
وصدّ واسل وحبّ اعتب وبـن ودم

إلى متى يا حمـام الأيك تنجـدني
على البكاء بدمع غير منسجم

كم بين نائحـة ثكـلى وساجعـة
قريرة العين لم تفقد ولم تئم

غادرت بيت اصطبـار لا مقـام بـه
أَنا الحطيم فركني غير ملتزم

فاتت هواد المعان والبيـــان إذا
كرّت جياد بديعي دون شأوهم

وكلّ بيت وإن حلّ البديع به
وجوده دون خير الخلق كالعدم

محمد المصطفى المختار طه بن عبـ
ـد اللـــه خير قريش نبَ نبّهـــم

عين النعيم نعيم العين رؤيتــــه
يوم التغابن تكفي زنـة القـدم

مــن الكريم أَتي الوصف الكريم إلى
عبد الكريم فكنّـا خالصي الكـرم

أَمنت من كـلّ مـا نخشى عواقبــه
بالكاشف الغمم ابن الكاشف الغمم

إذا تبسّم في الليـل البهيـم فمـــا
أَدري أَبرق بدا أَم حسن مبتسم

ما ورد جـور وما الدّر النّظيم ومـــا
افصاح قسّ لـدى نطف لـه بفم

هم بالجمال الـذي من بعض جملته
جمال كـلّ الورى إلاّ فلا تهـم

لو لم يكن سيد الكونين ما ظهــرت
له الفضيلة قبل اللــوح والقلـم

كانت نبوّتـه إذ لا نبوّتهــــم
وهو الختام فهذا غايـة العظم

نور تنقّل والرحمن حافظــــه
من صالب طاهر في طاهر الرّحـم

أَبوه آدم أَوصى شئت معتنيـــاً
ان لا يزال مصوناً في حصانهم

فلم يزل شرف يدنيه من شرف
منه لا شرف بيت من قريشهم

يا ليلة اسفرت عن يوم مولده
ماذا جلبت من الخيرات والنعم

فقم لمولــده السّامي الشريف وكـن
مستصحبـاً أَحسن الآداب واحترم

قد شرّف الحرم المكي مولـــده
وقبره طيبة الغراء مـن حرم

كم آية ظهرت من قبل مولده
وعند مولده تنبي عـن العظم

اخبار حسّاده اهل الكتاب به   مع الهواتف جهراً في شعابهم

والفيل أحجم والحبشان ترجمهم   طيراً أبابيل ترميهم لكيدهم

وقد حمى الجنّ شهب عن مقاعدهم   فلا رئيّ يناجي ذا رئيم

قصور قيصر قد لاحت وما قربت   من نوره فرآها ساكنو الحرم

غاضت سماوات إذ غارت بحيرتهم   والنار لم تتقد من بيت نارهم

وصرح فارس لمّا جاء خرّ له   مهابة وهو يومي لانقراضهم

فازت بإرضاعه سعديّة فغدت   روح السّعادة تحيى حيّ سعدهم

كم شاهدت فيه من يمن ومكرمة   وخارق وهو طفل غير منفطم

والصدر ان شق ردّته لآمنة   أن لا يصاب بصاب في بيوتهم

قالت خشيتم عليه ريب حادثة   والله يكلؤه من حادث اللمم

وقد أظلّته أملاك الإله كما   كان الغمام يقيه حرّ محتدم

وعفّت الأرضة الخرساء ما رسموا   من القطيعة بغياً في كتابهم

واستهزؤوا فأتى جبريل منتصراً   يرميهم بضروج من حتوفهم

وجوده فتق رتق الرّفق من عدم   وجوده رتق فتق الفقر من عدم

كم غلّة قد أزالتها انامله   دون الورود وأروت الف الف ظم

من راحة سبّحت فيها الحصى ورمت   جيشاً ودرّت لها عجفاء من غنم

فمن تمسّك بالمختار فاز بداً   بأوثق العروتين العلم والحكم

قالوا هو البدر قلت البدر شقّ له   قالوا هو الغيث قلت الغيث لم يرم

كأنه إذ أنار الكون شمس ضحى   في الصحو لكنّها من جملة الخدم

ان شبّهوا فلعجز عن حقيقته   أو فضّلوا فلضرب من قصورهم

وتحسب الرّمل لمّا أمّ جمعهم   كواكبَ خلف بدر في اصطفافهم

نفع بلا ضرر صفو بلا كدر   أمن لمنهزم حبل لمعتصم

فشمسه أبهى شموس الأفق في فلك   وسمه أجرى ليوث الغاب في أجم

لا غرو أنّ أمين الوحي قال له   هذا مقامي تقدّم غير مزدحم

رأى بعينيه مولاه ففاز بها   دون الكليم وبالاسرى ولم يرم

فآب والفجر لم تخفق قوادمه   يقبّل الفضل منه موطئ القدم

سل الكتابين عن طه فانهم   لو يصدقون لقالوا سيد الأمم

أخفوا نبوّة هادينا بزعمهم ... والله أظهر ما أخفوا برغمهم
ما خطّ قطّ ولم يحجم لنازلة ... يوماً ولو نفشت في الحرث من غنم
يكفيك عن صحف نور هديت بها ... وعن جميع الورى الهاد فلا تهم
فالكوثر الحوض يروينا وشانئه ... تتلى له سمة فيها بكلّ فم
انّ المزمل من ينكر نبوّته ... ففي المزمل نفل غير متّهم
وحي من الله قد جاء الأمين به ... إلى الأمين عن التبديل في عصم
هو الأمين ونحن الآمنون به ... يوم القيامة من روع ومن ندم
فاصدع بحبك للماحي الشفيع وقل ... للنار فاتقدي ان شيئت واضطّرم
فالحشر يحلو إذا ما مرّ في خلد ... ذكر الشفاعة عند الحادث العمم
والخلد حلّت لنا إذ كان قاسمها ... طه أبو القاسم المعروف بالكرم
ما ردّ حاجبه من أمّ ساحته ... ولا يعلّل من بخل ولا سأم
جبينه معدن الأنوار أجمعها ... وقلبه معدن الأسرار والحكم
يمينه البحر لا فقر يجاورها ... وفضلها شامل للناس والنعم
أهدى وأبهى وأهمى للنوال يدا ... من الدّراري من البدرين من ديم
رحب الفناء عظيم النار ساطعها ... يكفي الورى مؤنة الحيران والقرم
احسانه ومزاياه ونائله ... والحلم والعفو جمع غير منقسم
لا يمنع الخير راجيه وان كثروا ... ويمنع العرض من وصم ومن تهم
ما اختار موتاً على طيب البقا أحد ... واختاره فرط حرصاً على الأمم
من لاذ بالمصطفى دنيا وآخرة ... وبرزخاً لم يخف من سائر النّقم
ماذا حوى الغار من فضل ومن شرف ... إذ ضمّ من ضمّ من داع وملتزم
لن تدرك المقلة العمياء شمس ضحى ... لا غرو ان قيل ما بالغار من أرم
حيّاه صخر ولبّى الميت دعوته ... والسّرح جاءته تسعى سعي محترم
ما كلّم الظبي إنسانا ولاذ به ... بلى وكلّم طه أطيب الكلم
نرجو نداه وترجوه عداه فما ... ينفكّ يغشى ويخشى طول دهرهم
سهل خلائقه جمّ نوافله ... عذب موارده للخلق كلّهم
من السّفينة قد عامت بدعوته ... لو سال أن لا يسيل الماء لم يرم
وقد توصل أيوب النبي به ... فزال ما كان من ضرّ ومن سقم

برّ مّبير كلا الحالين شيمتــه يسدي اللهى حين يرمي هامة الخصم

قد فاق عزماً وجوداً فهو حيث يرى كالبحر في كرم والدّهر في همـم

قد جـاء والحـقّ مهجـور فأنّسه بالمعجزاتِ ووقـع الصّارم الخـذم

حتّى أَتـوا زمـراً مستأنسين بـــه بعد النفــور فأضحى ظاهر الحشم

لم يشق من دان للمولى بطاعته ولم يفز من تمادوا في عنادهم

ما شعب بوّانهم مـن دار هجرتـه مـن نور روضتـه ما نـور سغدهم

يعطي العفاة الغنى يوم النوال كمـا يعطي البغـاة القنا يـوم انتجاع دم

فالكفر مـن فرق قد أَصبحت فرقاً فالحيّ في مغرم والبيت في نقـم

أَموالهـم وذراريهـم وأَنفسهـم للقتل والسّبي والتّفريـق في قسم

قليب بدر كسوف طال مذ طلعت شهب الأسنّة في أَوج مـن القمـم

تحلّموا عند جهـل المشرفي عـلى هام الجهول برغم مـن سراتهم

كان القليب لهم دار البـوار وقـد حلّـوا ولكنّـه في جاحم حطـم

أَبدى لنا شرفاً فرّش أَنل أَدباً له الخـدود محطّ النعـل من القدم

لولا التجاوز يوم الفتح ما بـرحت بطحـاء مكّة تروي من غـدير دم

قد أَخرجوه فوافاهم بذي لجب تسيل منه الرّبى بالبيض والـدّهم

يجرّ كالليـل جرّاراً كواكبـه زرق النصال وبـدر مـن وجوههم

يحمي عنـان السما لا الطير يطرقـه إلاّ العقاب من الرّايات والعلم

والقـوم أَهل وان جـاروا وان غشموا وبـدّلوا الحـقّ بالطّاغـوت والصّنم

ولم يكن سالف الإيذاء يذهله عن ذي الجوار وذي القربى وذي الحرم

وأَصبح البيت بالاسلام مبتهجــاً يزهو بجمـع من الأصحاب مزدحم

والخرس يـوم حنين أَصبحت لسناً حتّى لقد أَسمعت من كان ذا صمم

لولا الشهادة أَفناهـم بــلا عـدد جيش من الحلم في داج من الظلم

كادت رؤوس العدى تنشقّ في أَحد من خوفه قبل وقع البيض في اللمم

سلّوا من الجفن سيف البغي وادّرعوا وليس يغمـد إلاّ في جفونهـم

لولا تتبّعهم بالسّيف ما علموا أنّ السّلامـة منهم في اتباعهـم

انّ الجلاء غـدت عين الحصون بـه حمراء مصروفـة عن ظاهر الأطم

صلّت قواضبه وللهام ساجـدة ولا امام سوى الرّايات في القـتم

بيض إذ وردوا حمر إذا صـــدروا   خرس يترجم عنها ساعـد البهـم
تريك في الجوّ واوات منكّسة   كأنّ آثارهـا لامـات مرتسم
والمصطفى إذ أتى بالصدق صدّقه   الصدّيـق وهو عزيز في ديارهـم
قلوب أصحابه حلّ اليقين بها   حلول رهبتهم في قلب ضدّهم
في المجد فاقوا وفي الفضل ارتقوا قنناً   لكنّـه حاز فضل السبق والقدم
لم يوهن الدّين لمّا جاءه عمر   والحقّ في وجهه يبـدو لمتّسم
فالعدل سيرته والحقّ في الكلم   والفضل شيمته والصدق في الحكم
عثمان ذو كرم في الخير ذو قـدم   باللــه معتصم من كلّ متّهم
جمّاع مفترق منّاع ذي فـرق   غوث لمهتضم ليث لمصطـدم
واذكر أبا حسن كم حاز من حسن   كم قـلّ من لسن كم شجّ رأس كم
كم هـدّ من أطم كم نال من حكم   كم كم وكم كم وكم كم كم وكم وكم
واذكر سعيداً وسعداً طلحـة وأبا   عبيـدة وزبيراً وابـن عـوفهـم
شهادة الصّادق البرّ الأمين لهـم   بالفـوز خصّتهم من صـادق الكلم
وعمّه الليث إذ ناووه جالدهـم   قوم لقام بأحد ثمّ لم يقـم
سل عنه بدراً وسل عينين عنه فقـد   قرّت بـه العين لـولا عاجل الحمم
ولا شماتـة في ليث قـد انكشفت   عنه الكماة صريعاً غير منهزم
والماجـد البطل العبّاس بأس أخـي   الهيجـاء بسّام يوم الرّوع والكـرم
أبو الخـلائف عمّ المصطفى وكفـى   بالسّؤدد المحض من عزّ ومن شمم
والسّيد الزّاهـد المعطي خـلافتـه   عام الجماعـة سعياً في صـلاحهم
فعوّض اللــه عنها من عنايته   خلافة شمخت عن كلّ مستنم
وصنوه السّيد المظلوم مـن تركـوا   بكربــلاء شهيداً عند طفّهم
لم يحفظوا حرمة الهادي ولا ازدجروا   ولا وفـوا لـولي اللــه بالـذّمم
ريحانتـاه وسبطـاه وأمهمـا   وأمّها مـن حـوت أسمى فخارهم
لي منهم أنجم بالعـدل سائرة   لا أشتكي الحيف من ظالم ومن ظلم
مديحهم جنّة لم يخش ناشده   للقبر ضيقاً ولا للنار من ألم
لا عيب فيهم سوى أنّ المحبّ لهـم   يلفى معاشرهم في يوم حشرهم
في فضلهم فضل اهل الفضل مندرج   في العلم والحلم والاقدام والكـرم

أسد العرين ثمال المرملين فهم ... بحر لمغتنم بحر لملتطم

المنعلو الجرد هامات الرّجال فلا ... تخشى الوجى فالشبا تغني عن الخدم

ينتزعن امّة أقوام لذي كرم ... أسخى وأجود من مّعن ومن هرم

فالموت عار عليهم وهو زينتهم ... ما لم تكن شقّة الأكفان نسج دم

ان جادلوا ادّرعوا صبراً يميّزهم ... عن كلّ مدّرع للحرب ملتثم

عزّوا نفوساً فأبدوا ذلّ مبغضهم ... والذّلّ ما زال سيما أهل بغضهم

من ذا ينازلهم من ذا يساجلهم ... من ذا يشاكلهم في الفضل والكرم

أثني عليهم وما يغني الثناء على ... من كان أثنى عليه بارئ النّسم

لهم خصائص فضل ليس يدركها ... خبر البليغ ورقم الرّق بالقلم

قد رام شاردها بالحصر طائفة ... حثوا اليها جيّاد الشعر والهمم

فما أصابوا ولا كادوا وفزت بها ... إذ كنت معترفاً بالعجز والسّأم

يا بطشهم للوغى بل يا سماحتهم ... بل يا حمايتهم للخائف الزّرم

ما الزهر ان دبّجّ الوسميّ روضته ... يوماً بأحسن من تطريز ذكرهم

ان حلاتني ذنوبي واستقيتهم ... جادوا وأرشدني ذودي إلى الدّيم

كأنني وذنوبي ان وثقت بهم ... يدا غريق بأعلى النّيق معتصم

ماذا يضير وان كان الأخير فتى ... في مدحهم وهواهم ظاهر القدم

قلّدت جيد قصيدي درّ مدحتهم ... يا حسن منتظم يا حسن منتظم

حيّرت ألباب أرباب البديع بما ... أودعت شارقة من أضْوُؤِ الكلم

حلّت مدائحهم من سامعين ومن ... روّاتها في محلّ الودّ والأضم

يجني بديع نظامي من شمائلهم ... شهداً ويعبق طيباً من مديحهم

لم لا يرى الحوض يجري من مفلّجها ... وهو الصّراط إلى الفردوس فازدحم

زارتكم من بنات الفكر غانية ... عن غيركم من جميع العرب والعجم

ما شانها أن دعاها الجود فالتحفت ... درع الحياء وأمّت لجّة الكرم

فابيضّ ما اسودّ من أيّام فاقتها ... واخضرّ ما اغبرّ من عيش ومن نعم

هذي بضاعتنا المزجاة أوف لنا ... كيل القبول وانصفنا من العدم

كم هائم فيكم لم يمش تسحبه ... سلاسل السحر للفردوس بالنّعم

حنّت إلى جودكم نفس أهاب بها ... خضر المرابع عن مستوبل الوخم

فإن المّت بأكناف العقيق فلا ... تخاف أخرى الليالي أزمـة الدّهم
لا ينطفي لهـبي يومـاً ولا لهجــي ... ان لم أجاورهم في ذلك الحــرم
طال اشتياقي فهـل من جذبة لكـم ... تدني المتيّم قبل المـوت والهـرم
حتّى أفـوز بوعـد قـد سمحت بـه ... قبل السّؤال فما رؤيـاك كالحلـم
بآية البشر إذ أقبلت مبتسمـاً ... أفديك من مقبل بالبشر مبتسم
وشاهداي ضجيعاك اللذان هما ... ضمّتهما القبّة الخضراء في الحرم
عدوت طوري أقلني عثرة صـدرت ... لـدى التّطفّل من ذي نهمة نهـم
فما التّعرّض في النظم البديـع لـه ... وقد مدحت كريم الأصل والشّيم
أليس أكرم من تحـدى العتاق بـه ... أليس أكرم من يمشي عـلى القدم
بلى ولم لا وفي الـدّارين يغمـرنـا ... من فضله فيض جود غير منحسم
قرنت ما اكتسبت نفسي بفضلكـم ... فكان في جنب ذاك الفضل كالعدم
شوقي اليهم وسوقي نحوهم ولهـم ... توقي وجوهر نظمي في مديحهـم
لا زال ان كان في مدحي لهم سرف ... لا زال ذو سرف في الخير ذا قدم
فالقوم مولاهـم منهم وانّ لكـم ... عليّ حبل ولاء غير منصرم
ما جور مالك رهن في جرائمه ... لا يرتجي الفكّ إلا من أكفهم
داركه لا آمن ما ان له أحد ... سواك يمنعه من زلّة القـدم
وأحسن العفو مـا جلّت جرائمـه ... عن قدرة عند أهل الحلم والكـرم
ووالـدي وأشياخـي يعمهـم ... عفو العفّو مـع الجيران والحشم
يابا شناتي سوى ضيمي فيعصمني ... منهم حماك ويابـا غير خـذلهم
حسن ابتدا مدحكم أرجو الخلاص به ... ممّا جنيت فحقّق حسن مختتم
واذ تنسّمت من روض البديع شذى ... زهر الختام فأرّخ طبّ نشرهـم
صلّى عليه الـذي أرجى شفاعتـه ... كي ما يشفّعه في كـلّ مجترم
وآله وعلى أصحابـه وعـلى ... أزواجـه وعـلى الأتباع كلّهـم

تمت بحمد الله

ومن الملاحظ أَن الحاج مَاجُورْ سِيسِهْ شدا في قصيدتيه الشهيرتين شدو السيد حمد البوصيري في بردته المشهورة ولأجل ذلك لم يستطع أَن يأتي من الأصالة في المعنى إلا بقليل إذ كل ما استشهد به من مكارم الأخلاق للنبي صلى الله عليه

وسلم ومن معجزاته ومغازيه قد جاء أو كاد في كتب السّير أو فيما نظمه الشعراء في مدح خير الأنام عليه السّلام .

غير انّه ظهر في اللفظ جانب من أصالة ودلّت على ذلك ثروة المفردات ووفرة الإيقاع وبراعة في العروض واحاطة خبرة بفنّ التنظيم والقوافي وعلم البديع والعربية الفصحى وفقه اللغة : ولجميع هذه الصفات اعتبر الناس الحاجّ مَاجُوْر سِيسِهْ من كبار الشعراء في السنغال سوف نرجع اليه عندما نتصدّى لذكر حامل لواء شعراء عصره السيد القاضي مَجَخَتِ كَلَ في مباراته الشيخ أَحْمَدَ بَمْبَهْ[1] .

ولقد اقتصرنا على ذكر ثلاثة فحول من شعراء سان لوي وان كنّا على اليقين بأنّ فيها شعراء وأدباء آخرين في الماضي وفي الحاضر وأنهم ليسوا خالين من الشهرة .

الشيخ موسى كَمَرَا أو مدرسة كَنْكيلْ

فلنتركن مدينة سان لوي ونتوجّهن نحو الشرق ونهر السنغال وبعد أن نجاوز مدينة مَاتَمْ على بضعة عشرين كيلومتراً منها نصل إلى قرية اسمها كَنْكِيلْ الشيخ موسى لانّ في هذه الناحية قرى أخرى تسمّى أيضاً كَنْكِيلْ ولكن كَنْكِيلْ الشيخ موسى هي أوسع صيتاً لما كان يؤسسها السيد العلامة الأديب المنفرد في وقته بالجمع بين علمي المعقول والمنقول والفروع والأصول الفهّامة الذي لا يجود الدهر به من أفذاذ العلماء إلا في الفينة النادرة والذي ممّن ازدانت بهم السنغال صاحب البراع المرهف والفكر المثقّف الكاتب الذي برز على أنداده وفاق أهل زمانه بكثرة اطلاعه وشدة اضطلاعه بالفنون الأدبية والعلمية ألا وهو الشيخ مُوسَى كَمَرَ مفخرة قطره وفيه قال السيد الحاجّ محمد بن المقداد الأندري المعروف بدُودُ سِكْ :

من كان جاراً لموسى أو غدا موسى ... جاراً له فهو في أمن من البوسى
من قاوم الشيخ بالأشياخ كان كمن ... يقاوم الصارم البتّار بالموسى

(١) راجع صفحة ٦٦ في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

فقال الشيخ محمد كاو :

نعم وصاحبه يلقى النجـاة غـــدا ويأمن اليـوم من أخـذ بجر سيسى
ومن يصاحب فليصحب بلا فنـــد نجلاً لأحميـد شيخاً اسمه مـوسى

أ ـ ما أدراك ما كانت حياة هذا الشيخ الذي لاح في كَنْكِيلْ لَوْحَ الشَّمْسِ في رائعة النهار ؟ فمن حسن الحظ لنا أننا عثرنا في (ماتم) من بين الاشهادات الرسمية على وثيقة مؤرخة بالسابع من شهر شباط سنة ١٩٣٠ م وجاء مكتوباً فيها ما يلي : « انّ الذي سمي بالشيخ مُوسَى كَمَرَ ابن لأحمد الحبيب المرحوم ومريم دَادُهْ المغفور لها قد ولد حوالي ١٨٦٤ م في كُرِيكِهْ صَنْبَهْ جُمْ في مقاطعة دَمْكَهْ بدائرة مَاتَمْ بالسنغال » وتحت هذا المستخرج من شهادة ميلاده امضاء المدير الفرنسي دُوبُنْ Du pont ومن حسن الحظ لنا أيضاً قد كتب بخطّ يده ترجمته الموسومة بـ « تبشير الخائف الحيران وتذكيره بسعة رحمة الله الكريم المنّان » ولقد حفظنا جميع ما ألّفه الشيخ من كتب تقريباً في خزائن المعهد التأسيسي لإفريقيا السوداء (إيفَانْ) بدَكَارْ .

قال الشيخ موسى في مطلع ترجمته : « وأقرب إلى الصدق ما قاله الإنسان عن نفسه وقيل العكس » فمن لا اخفاء عليه أنّ عند الأدباء العرب ما قالوه عن أنفسهم هو أكثر دليلاً على شخصيتهم الأصيلة فكفى بذلك شهيداً مطالعة ما كتبه ابن خلدون والإمام الغزاليّ عن نفسيهما مع ما أكّد الفيلسوف رَنَانْ Renan بأنّ ما قاله الإنسان عن نفسه ما هو إلاّ شعر أي أسطورة وأكذوبة .

اذن ولد موسى كمرا من الشيخ أحمد والسيدة مريم في كُرِيكِي صَمْبَهْ جُمْ حوالي ١٨٦٣ م فانه لم يعرف سنة ميلاده حقّ المعرفة إذ قال متردّداً فيما قال : « قد ولدتُ ... في عام شرف ١٢٨٠ وقيل عام ١٢٧٦ من الهجرة النبوية » في قرية صغيرة واقعة في جنوب الشرق لمدينة (ماتم) . وهو تحدّث في أبويه بوجه يشجي وقول يبرّ فمدح ما في أمه السيدة مَرْيَم دَادُهْ من تقوى وصبر وكثرة صدقة على الفقراء وأشاد بما في أبيه الشيخ أحمد المعروف بحمد دود من جلادة وحلم وذكاء عقل » وكثيراً ما يقول انّ الشيطان قد يركبني بلا سرج ولكنّه لا يقدر أن يجريني إلى حيث شاء » وقال أيضاً : « وأوّل من علّمني حروف الهجاء رجل كان

يسكن في كوريك اسمه سارن[1] مالك وكان يعلّمني القرآن » ولمّا كان بعض الأحيان مات عنه والده الذي كان على جانب عظيم من وفورة العقل حتّى كاد لذلك أن يعدّ من أهل الكشف ويقول ... انّ ابني هذا يعنيني سيّد سيأتي عليه زمان فمن قال انّه ابني يكذبه بعض الناس لخمولي ولفرط ظهوره وعظم نوره وشفوف رتبته وشمول بركته وارتفاع درجته ....

... ثم علّمني رجل آخر في (فولل جاوب) اسمه سارن محمود القرآن أيضاً ثمّ قرأت ايضاً في أرض البياضين[2] الصحراويّة في حيّ لمتون دكبامبر على حافظ مجاز اسمه عبد اولّ سفاف ثمّ ذهبت عنه إلى حافظ آخر مجاز ايضاً اسمه محمد فال ولّ طلب في حيّ ديلب الكحل » .

فانّه لم يبق في ضفّة اليمين لنهر السنغال إلاّ سنة واحدة ثمّ رجع إلى كوريك مسقط رأسه مع وفد ترأسهم الشيخ محمد المقاميّ كضيوف لحي ديلب هذا ثمّ ذهب عن كوريك إلى سانغالل حيث قرأ الرسالة لابن أبي زيد على سارن عبدل المان وقرأ هنا ايضاً مقصورة ابن دريد وقرّة الأبصار وفي أثناء ذلك توفّيت أمه وأنه بلغ مبلغ الرجال ثمّ ذهب إلى جلّ اسم قرية في دائرة ماتم وكان فيها فقيه يعرف بألفا صمب جام فتعلّم منه نصف تحفة الحكّام للفقيه المالكيّ ابن عاصم الأندلسيّ (١٣٥٩ – ١٤٢٥ م) قاضي القضاة بغرناطة ثم تعلّم نصفه الآخر على فقيه من أهل رنجو في ناحية بوسي اسمه سارن محمد صم بل ثم توجّه إلى واللد فتعلّم على ألفا محمد آو مسائل من باب ميراث الرسالة لابن أبي زيد بشرح ابراهيم فلكنك ثم قصد فقيهاً فوتجلياً كان يسكن في كُلِيرِ يسمّى مُودُ حَامِدْ يِمبَرِنْ فتعلّم منه شيئاً من الجزء الأول من مختصر خليل ثم جاء فقيهاً فُوتَجَلُونياً آخر كان يقطن بكَجُو اسمه مُودُ مَمَّدُ عَالِمُ فقرأ عليه شيئاً من الجزء الثاني من مختصر خليل وشيئاً من المقامات الحريرية وكان يأمره بإقراء تلاميذه الذين يقرؤون عليه التحفة الحكامية .

---

(١) سارن : او جرن : هو الشيخ المعلّم هو اسم تكلوريّ .

(٢) أي في موريتانيا .

ثم ذهب معه إلى تور لعزية أهل مود عبد الرحمن الفقيه الفُوتَّجَلُونِي الذي كان في دُطَل ثم رجع مع تلاميذه أمّا موسى كمرا فتجاوز إلى دمت فوجد فيها فقيهاً فُوتَجَلُونياً اسمه أَلْفَا إِبْرَاهِيم فتعلّم عليه القصائد العشرينيّات المعروفة بلبلدانا بابن المهيّب وكذلك الدّاليّة اليوسيّة[1] . فواصل وقال « ثمّ سمعت بشيخ حَامِدْ كَنْ وانّه يعرف المقامات الحريرية جدّاً فذهبت اليه في فدور فتعلّمت منه المقامات وشيئاً من النحو وهو آجروم وملحة الاعراب » فهناك انتهت قائمة أسماء معلّميه بهذه الدّقة : « ما قرأت على الغير ولكن قراءتي الجزء الأول من مختصر خليل لم أقرأ منه إلا ثلاثة أبواب وأما التحفة فقد أتممت قراءته إلا الميراث فقط والقرآن ايضاً لم أجمعه في الحفظ .

« وان قيل هذا جولان كثير أقل انهم أي أهل الله قد قالوا انّ السّالك قبل وصوله لا سكون له ولا قرار وكنت في زمن البلوغ إذا نظرت إلى اللوح المكتوب نظرة واحدة أحفظ ما كتب فيه وكان أقراني الذين هم فوقي في القراءة إذا سمعت المعلّم يعلّمهم احفظ ما علّمهم وإذا غبنا عن المعلّم يسألونني فأعلّمهم أجزابهم التي قرؤوها وأنا أسمع وهكذا وما استمعت على المعلّم لما قرأته بعد قط ومع هذا الذكاء كلّه قد غلب عليّ حبّ اللهو والغفلة والعياذ بالله تعالى فلذلك قلّ علمي الذي قرأته على معلّم فلم يزدد علمي إلاّ بالمطالعة فيفهمني العليم الحكيم غالب ما في الكتب التي طالعتها » فيمكننا أن نقول انّ الشيخ موسى قد تعلّم مدّة ثلاثين عاماً ما يجب أن يتعلّم من القرآن والفقه والأدب والنحو والعروض قبل لقائه الشيخ سعد أبيه في سان لوي ثمّ في موريتانيا .

فالشيخ سعد بوه هو الذي لقّبه بالشيخ موسى فأخذ عن هذا (الولي الكامل) الورد القادريّ فقال له شيخه في التصوف : « وسيفتح الله عليك بالخير الجزيل وان أتيتني عند بيتي أبذل لـك الجهد » ومن الأسف أن لا يروي الشيخ موسى القصيدة

---

(١) كان الحسن اليوسيّ (١٦٣٠ – ١٦٩١ م) من فقهاء مراكش وعلمائها وصاحباً لقانون شهير بالدّاليّة في فقه اللغة .

المديحية التي نظمها لهذا الشيخ الإسلامي الجليل الموريتانيّ فلم نعثر إلا على بعض رسائل لذلك الوليّ في تبشير الخائف . وأوّل سفر قام به الشيخ موسى كان حوالي ١٨٨٦ م وحينئذ كان ابن ثلاث أو اثنتين وعشرين سنة وقال في بعض مواضع من ترجمته انه قد همّ بالحجّ إلى مكة ولكنّه لم يتجاوز فوت جلو أي قرية دقل فيلا عاصمة دولة المام ابراهيم أمير فُوتَ جَلُو الذي كان يحارب أهل ونتفا الوثنيين والذي قال لجماعته : « هذا من الأولياء فقالوا أهو كذلك قال ولايته ظاهرة لكلّ ذي عينين » فأكرم الأمير مثواه فذهب عنه إلى عَاقِب ابن الشيخ عمر في دِنْكِرَاوِ فأكرمه جدّاً وقال لأهل حضرته : « انّ هذا الفتى لا يفضله الشيخ عمر إلا بحمل السّلاح وهذا ليس بحامل السّلاح وليس بينهما فرق إلا ذلك » ومهما يكن من أمر لم يعطنا الشيخ موسى السبب الذي شغله عن نيّته الحجّ ولكن رجع إلى فوت جلو عند الأميرين اللذين عرض كلاهما عليه التزوج ببنت له مع الكثير من العبيد فأبى العرض منهما وذهب فأعطى جلّ ما أوتي من المال للشيخ سعد بوه وبعد اقامة أربع سنوات في سكَّيت من قرى يرلاب أليط وبعد سفر إلى الأمير ألفا يَحْيَى اللَّبِيّ بكَادَىْ حيث نعرف على سَارْنَ مَمَّادُ العَالِمُ من اهل علم اسرار الحروف رجع إلى فُوتَ تُورُ وسكن كَنْكِيلْ في ذي الحجّة سنة ١٣١٠ هـ (حزيران ١٨٩٣ م) .

وقد أعطاني حفيد له أسماء ازواجه وأولاده فكان له من الأزواج كُمْبَ دِيَهْ بَهْ من قرية فَمْبُو وسْرِيلْ جَلُو من كِرَايْ وأمّ فاطمة مِنْ جَمْكِيلْ وحَفْصَةُ كَنْ مِنَ المَقَامَهْ وبنْدَهْ يُمَتِهْ وُتَ مِنْ سَكَّيتْ ومَلَادْ من مَالِيَا وجَنْكَ بَهْ من مَاتَمْ وجَنْدَهْ لُو من سَانْلُو وحَوَاء بَهْ من سِكَّيتْ وعاشرة لم يذكر اسمها . وكان له ايضاً ثمانية وعشرون ولداً .

ب ــ أصدقاؤه : ولقد كان له أخلاّء من كلّ قطر ومن كلّ جنس في بلاده وفي موريتانيا وفي فوت جلو وفي فرنسا وكان يجعل الصّداقة فوق كلّ شيء وكانت عنده الصداقة قطب الفضائل وإذا كان يتحدّث عن أصدقائه فكأنما شاطر أفلاطون نظريته في هذا الباب إذ قال في فصل محبّة رؤساء فرنسا له : « واعلم انّ كلّ من لاقيت من رؤسائهم وجدت كأنه مجبول على محبتي ما واجهني أحد منهم بما

أكره قطّ بل إذا علم احد منهم بمرادي يسرع في قضائه أو يبدؤني بما يظن بأني أحبّه » .

فان الصداقة لشدّة احترامها الفائق تستطيع ان تؤدّينا إلى جمع مجلّد ضخم من كثرة الرسائل التي كان الشيخ موسى يتلقاها من كلّ أوب وصوب . فمن اصدقائه أَلْمَام أَلْفَا ابراهيم وأَلْمَام أَلْفَا المكيّ الحفيد للشيخ عمر وأشياخه في فُوتَجَلُو بغِينيَا ومنهم ايضاً في موريتانيا الشيخ سَعدْ بُوهْ مرشده الصوفيّ والشيخ عبد الرحمن الحسن والعلاّمة الشيخ محمد بَابَهْ . ومنهم في السنغال محمد المقامي وكثير من الأدباء والشعراء والفقهاء مثل جيرْنُ بُرْبَالْ الكِجلُنِيّ وجرْنُ محمد عبَّاسَ آنْ الفقيه اللغوي النحويّ الأديب الأريب البِكَليّ والشيخ محمد كَاوْو والحاج ابن المقداد وعَيْنِينَهْ سكْ أخي دُودُ سكْ الأندريّين وجرْنُ الهادي ابن محمد وعبد القادر الدَّلَّسُوريّ والشيخ عبد الله الهُنَاريّ والحاج جرْنُ مُختَار سَاخُو الكَهَيْدِيّ وفُودِي سِمْبِلَ الكَجَكَهِيّ . ومنهم السيد محمد أَنْجَايْ كَلِدُوزْ عمدة سَانْلُو وأخوه موسى بَيْدِ كَيْ وبَلِيزْ جَاجْ وَانْكَلِنْدُ جُوفْ النائبان للسنغال في مجلس النّواب الفرنسي (سابقاً) وزَلْزَمَانْ . ومن الفرنسيين الولاة في أَنْدَرْ أو في دَكَارْ السيد كَدِيْن Gaden وَدَهْ لاَمُتْ De Lamoth وَبَلّيْ Ballay ومن أصدقائه الفرنسيين أيضاً من كانوا يحسنون العربية شأن بُولْ مَرْتِ Poul Marty ومُوريسْ دَلاَفُوسْ Maurice Delafosse ومَرِيَان Mariani وغيرهم .

ومن كلّ أخلاّئه تلقّى رسائل أو قصائد أوردها في مؤلفاته ها هوذا ما حثّنا على تجريد قائمة أحبّائه ولهذه القائمة أهميّة ذات بال وان املّت بعض القرّاء فيما نظنّ .

ج ـ **مؤلفاته** : فان الشيخ موسى كمرا شخصيّة تهمّنا لسببين أوّلاً ترك لنا نصوصاً أدبيّة نفيسة شأن ابن بَسَّام[1] وثانية ترك لنا ايضاً انتاجاً أدبياً شخصياً

(١) إبْنُ بَسَّام هو مؤلف « الذخيرة » وفيها تاريخ الشعر العربيّ في إسبانيا في القرن ١١ م توفي ١١٤٧ م .

متنوّعاً وافراً . وذوقه السّليم قد جعله ينتخب مقطوعات شعرية أو نبذاً طويلة من كتب مفقودة أو أخباراً من سير بعض كتّاب وشعراء مفلقين ومن حيث هو كاتب قد طرق كلّ باب بالتي هي أحسن . ونظم بعض أشعار لا يستهان بها . توفي الشيخ موسى كَمَرّ سنة ١٩٤٥ م . وهو صاحب شتّى مؤلفات وجمعنا منها ١٢ مجموعة من المخطوطات في ايفان [1] .

أ ـ هناك سبع مجموعات تأريخية :

١) تاريخ دَارَهْ في زَغَاوَة في أربع ورقات وهو المخطوطة ٨ .

٢) تبشير الخائف الحيران في ٦٤ ورقة وهو المخطوطة ١٠ .

٣) أكثر الرّاغبين في الجهاد بعد نبيّنا من يختار الظهور وملك البلاد ولا يبالي بمن هلك في جهاده من العباد ، وفي ٣٦ ورقة وهو المخطوطة ١٥ .

٤) أشهى الخبر في حياة الشيخ الحاج عمر في ٩٧ ورقة وهو المخطوطة ٩ .

٥) المجموع النفيس سرّاً وعلانية في ذكر بعض السادات البيضانية والفلانية في نسختين احداهما في ١٨٣ ورقة والأخرى في ١٣٤ ورقة وهما المخطوطتان ٥ و ٦ .

٦) تنقية الأفهام من شبهات الأوهام في ٥٠ ورقة وهو المخطوطة ٧ .

٧) زهور البساتين في تاريخ السوادين أو انتصار الموتور في ذكر قبائل فُوتَ تُور أو احياء ماعفا واندرس من علوم تاريخ السودان وطمس في مجلّدين ضخمين احدهما في ٤٥١ ورقة والآخر في ٤٥٠ ورقة وهما المخطوطتان ٢ و ٣ .

ب ـ وهناك تسع مجموعات دينية :

١) كاد أن يكون الاتفاق والالتئام بين دين النصارى ودين الإسلام في ٣٥ ورقة وهو المخطوطة ١٦ .

٢) العزّ الأسمى والحرز الأحمى في ذكر الأوراد .

٣) حصول القرب والوصول ونيل كل المنى والسّول في ذكر الله وبالتمسك بآثار الرسول .

---

(١) إيفَانْ : هو ضابط لِلْمَعْهَد التأسيسيّ لافريقيا السوداء ، هو مركز علميّ بدكار .

٤) منية السائل في الصلاة على أسنى الوسائل .
٥) الحقّ المبين في اخوة جميع المؤمنين واتحاد طرق سائر السائرين بطريق الذكر والمجاهدة إلى حضرة ربّ العالمين : في ١٤٨ ورقة .
٦) البساتين اليانعة المجتمعة في الكلام على صلاة الجمعة .
٧) حزب النصر في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء أهل بدر .
٨) مزج الكواكب الدّرية بالأسماء الادريسية في الصلاة على خير البرية .
٩) بلوغ القصد في ذكر الأسماء الحسنى .

ج ـ وهناك ثلاث مجموعات في الفقه :

١) رفع الحرج والاثم عمّن تعاطى ما لا يضره من الدّخان والشمّ .
٢) تقاييد مفيدة على مختصر خليل .
٣) علم المقيد .

د ـ وله كتاب في الطّب موسوم بحصول الأغراض في شفاء الأمراض : في ١٣٩ ورقة .

هـ ـ وهناك خمس مجموعات أدبية :

١) دليل السالك على معاني الفية ابن مالك هو شرح كبير لألفية ابن مالك . وقال فيه : وقد قرّظه العلامة سَارْنْ أَحمد مُخْتَارَ سَاخْ وكذا العلامة عَيْنِينَ سكْ وكذا العلامة محمد بن حمد الدَّيْمَانيَ .
٢) آلة العلوم على اليقين البت في شرح دواوين الشعراء السّتّ .
٣) الأستاذ الكافي في علمي العروض والقوافي .
٤) تفصيل عقود الجمان بالدر والمرجان .
٥) عون اللطيف في جواب احمد الشريف هو تأليف في أمر الشرف .

وكلّ ما اوردناه أخيراً من الآثار لقد شقّ علينا وجوده رغم اكثارنا من تفقّداتنا وتفتيشاتنا . غير ان مؤلفات التاريخ هي عندنا مختلطة بمقطوعات شعرية وهي بلغت من غزارتها أن تطلعنا على ما كان للشيخ موسى الكاتب ، من أصالة ، ووفرة انشاء ، وأمانة عقل ، وذكاء ، وحبّ استطلاع ، فضلاً عمّا نمّت عن تعاليقه من براعته في النحو وعلم اللغة ، وفضلاً ايضاً عمّا حاوله من نقد بنائي

مجد ليؤيد بالبرهان أنّ الزنوج ولا سيما السنغاليين مجبولون على كونهم أدباء حقيقيين بلغة الضاد وغيرها . ولقد دلّ على ذلك ما قاله فيه « الشيخ عبد القادر ابن الفاهم عيسى من أهل دولل سيور مشافهة : انك يا شيخ موسى لو كنت في زمن المتقدمين لكنت من الأئمة المجتهدين لفرط ذكائك وقوة فطنتك وصدق فهمك لمعنى كلام الله وكلام رسوله عليه السلام فقلت إن شاء الله تصديق قولك إن تكن صادقاً » . وقد قال له صديقه محمد المقاميّ الذي كان يحبه كثيراً ويفضله على علماء بلاد السنغال : « والله ما رأيت من اندر إلى سك عالماً ذا فهم ثاقب يحسن في العربية ما يحسنه الشيخ موسى ولا من يبلغ في الولاية الإلهية مبلغه ... كلّ يوم يأتيني علم جديد والهام مفيد وفهم مزيد ولا أرى أحداً على هذا المقام الآن غير الشيخ موسى » فقد برّرت قريحته العجيبة هذا الحكم الحصيف والشيخ موسى هو من الذين اعتقدوا ان اللغة آلة قبل كلّ شيء وان استعمالها عبارة عن الدقة والجمال والانسجام والفكرة والشعور ولذلك فلا بد من أن تكون اللغة من الكمال في غاية وأن تنطبق جدّ الانطباق على ما يريد المتكلم أو الكاتب أن يعبر به عمّا حاك في صدره وذهنه وقد وعى هذا المعنى أو بعبارة أدقّ هذه الوظيفة للغة مهما كانت .

وإذا وصف الشيخ موسى صديقاً حميماً في الخلق وفي الخلق وإذا عالج موضوعاً تاريخياً أو خلقياً أو لغوياً أو نحوياً أو طبياً أو دينياً لم يخيب الشيخ أمل القارئ قطّ .

فدونكم الصورة التي رسمها قلمه للشيخ الفقيه الفاهم المتقن المعروف بمود محمد عالم الفونجليّ : « فانه قرأ الرسالة [1] عن شيخه سَارْنُ سُلَيْمَان مَدَارٍ في بُنْدُ [2] مرّتين وفهمها جداً وعرف معناها حقّاً وأخذ الإجازة في تدريس الرسالة كما أخذها سَارْنُ سُلَيْمَان عن شيخه أَلْفَا مُود هَارَونُ الذي كان في كلّل المقتول شهيداً

(١) هي رسالة ابن أبي زيد في المذهب المالكيّ .

(٢) هي منطقة في شرقي السنغال كانت دولة مستقلة في بلاد السنغال .

مع أَلْمَامِ عَبْدُلْ يَوْمَ كُورِيكِ . وهو عن شيخه أَلفغ حمدسنّ في كِيدِرِ في بُنْدُ وهو عن شيخه أَلْفَغِ رَكِ السَّرَنْخُلِيِّ عن شيخه عبد الله وَكَّ السّرنخليّ ايضاً عن شيخه ابن محرز عن شيخه صاحب الرسالة أَبي محمد صالح عبد الله بن أَبي زيد القيرواني المغربيّ المالكي رحمهم الله تعالى جميعاً » .

« ثم ان مود محمد لمّا فهم الرسالة عن شيخه المذكور سارن سليمان مدار وكان لا يعلّم إلا الرسالة فقط كعادة كثير من علماء فوت تور الأقدمين قلّ أَن تجد منهم من جمع بين معرفة الرسالة ومختصر العلاّمة خليل وتحفة الحكّام للعلاّمة ابن عاصم فأحرى مع غيرها من كتب المذهب المالكي بل لا تجد إلاّ من يعرف القرآن العظيم فقط ويتقن حفظه غاية أَو من يفهم الرسالة فقط أَو الجزء الأول فقط من المختصر أَو الجزء الثاني منه فقط أَو تحفة الحكّام فقط وأَمّا من يحفظ الكتب المجلّدات الأربع كلّها فهو الغاية القصوى والآية الكبرى من علمائهم وهو المستحقّ بالإمامة العظمى بأن يلقّب بألمام المبايع ببيعة العامة » .

« وسَارْنُ عبد الله هذا من هؤلاء الذين هم الغاية الكبرى ثمّ أَنّ مُودُ محمد عَالِمُ لمّا أَتقن فهم الرسالة على شيخه سَارْنُ سُلَيْمَانْ مَدَارِ وهو لا يعلّم غير الرسالة استأذنه في السفر لطلب ما بقي عليه من كتب الفقه المالكي التي توجد في ارضنا فوت تور فأذن له في ذلك فسافر إلى هاير وكان فيها حينئذ سَارْنْ صالح المعروف بسَارْنْ سَالِفْ وكان فاهماً للجزء الأول من مختصر خليل فقرأَ عليه ذلك الجزء حتّى فهمه وأَتقن مسائله .

وكان في هَايْرِ ايضاً حينئذ سَارْنُ الحسن الذي صار بعد ذلك يقال له أَلْمَامِ الحَسَنْ وكان عارفاً خبيراً بالجزء الثاني من مختصر خليل وكان مشهوراً بذلك فتعلّم عليه ذلك الجزء الثاني من المختصر حتّى تمّم قراءة ذلك الجزء ... » .

« ثم سكن الشيخ مُودُ مُحَمْد عَالِمْ في بُكِجَوِ وكانت له فيها مدرسة كبيرة من الفقه المالكيّ وتارة دون ذلك وكان من تواضعه ومحبّته العلم يتعلّم على بعض تلاميذه ومما تعلّم من الكتب على تلاميذه تحفة الحكّام والمقامات الحريرية والقصائد العشرينيّات المشهورة في بلادنا بابن المهيّب وكذا قد تعلّم منهم القصيدة الدّالية اليوسية وغير ذلك وصار يعلّم ذلك مع جملة ما يعلّمه من الفقه . وكان

كثير الحياء والتواضع والأدب والصمت وكان لا يشتغل إلا بالله تعالى امّا في صلاة أو في ذكر أو في تعليم علم وتدريس أو تحدّث مع ضيف » .

« وإذا ورد عليه احد وهو في صلاة أوجز وسلّم وأقبل عليه وإذا ذهب رجع إلى الصلاة . وكان يجلس للدرس من وقت الضحى إلى آخر وقت العصر . وكان كلّما دخل وقت الصلاة قطع التدريس واشتغل بالصلاة ثم يرجع إلى التدريس . وكان حسن الصوت عند التدريس وصوته يرقّق القلب رحمه الله تعالى آمين . وهذا دأبه إلاّ في يومي التعطيل وهما يوم الأربعاء ويوم الخميس وكان يضحك من مضحكات التلاميذ . وجلّ ضحكه التبسمّ ، وكان يصلّي النافلة بعد صلاة المغرب من سورة « والسماء والطارق » إلى آخر القرآن كل سورة في ركعة ويسلم من كل ركعتين وكان يتنفّل بمثل ذلك بعد صلاة العشاء . وكان يتنفّل بمثل ذلك ايضاً بعد التهجّد في آخر الليل . شاهد ذلك منه المخبر الخبير تلميذه البرّ الصدوق صاحب تحرير المسائل الفقهية والتدقيق سَارْنُ عَبْدَ الله ابن سَارْنَ جِيقَ حَمْزَةَ في سبع عشرة ليلة بات معه فيهنّ بعضها عند العمل في تعمير الحرائث النيلية [1] وبعضها في السّفر » .

« وكان الشيخ مُودُ مُحَمَدْ عَالِمُ هذا قليل الأمراض وهو ممّن استجيبت فيهم دعوة صاحب الرسالة وقد صحّ انه دعا لقارئها بصحّة البدن وكثرة العلم والمال . وكان هذا الشيخ ربعة من الرجال مائلاً إلى القصر وكان أسود اللون حالكاً ذا نور زاهر ، وكان في عينيه شهلة وهي الحمرة في بياض العينين ، وكان يحب الأولياء من أهل عصره ويعتقد فيهم الخير ، وكان سليم الصدر ليس في قلبه غلّ لأحد فيما نعلم والله تعالى أعلم » .

وهل ينبغي لنا أن نعلّق على هذه الصورة النّبرة خلقاً وخلقاً للشيخ مُودُ مُحَمَدْ عَالِمُ ؟ لا ، إذ رسمها الشيخ موسى ببراعة في اللغة العربية فكان المرسوم رحمه الله تعالى طالباً ذا حبّ استطلاع مجتهداً ومعلّماً ذا علم واسع متواضعاً وإنساناً مجاملاً

---

(١) هي نسبة إلى نهر السنغال لا إلى نيل مصر .

محترماً مسامحاً لأهل عصره وصديقاً واثقاً أميناً مخلصاً جزيل الذكاء ذا صوت رخيم وذا مال جمّ وقليل سقم .

وقدرة الشيخ موسى الرسام بينة ايضاً في هذه النبذة التي عقدها لِجِزْنُ عبد الله الهُنَارِيّ وهو « ممن نال بركة الشيخ مود محمد عالم والحمد لله ربّ العالمين لأنّه كان له كالخادم المطيع الملازم له حينئذ في أكثر الأوقات ، وكان سارن عبد الله هذا عالماً باهراً وفقيهاً ماهراً وعابداً زاهراً متواضعاً صابراً صالحاً برّاً شكوراً سليم صدر سخيّ كفّ ، وكان ولله الحمد يحبّني كثيراً وقد قال لي مراراً مشافهة إنّي لألتذ بحياتك التذاذاً زائداً وأخاف ان متّ قبلي ان أموت كمداً وتأسفاً عليك ودعا الله تعالى مبتهلاً متضرعاً اليه ان يموت قبلي وان لا يبقى بعدي ولا يذوق فقدي وهو يبكي دموعاً وأنا أنظر اليه متعجباً من سلامة صدره وحسن طويته ووفور عقله وقوّة مداراته .

« وقد صحّحت عنه كثيراً من المسائل الفقهية وكان لي في تلك المسائل كالشيخ جزاه الله عنا خيراً وحباه برّاً ووقاه في الدارين ضيراً آمين . » .

فانّ الفضل الأهمّ للشيخ موسى كَمَرّ المصور هو قدرته على مكاشفته لنا بما ترك وقعاً في نفسه وبما تأثر بصدره بوجه حارّ وعطف صادق وبناء على ذلك هو واقعي لأنه أرانا واحسن الشخصية المرسومة في العمل ولأنه فكّك الأجزاء الخلقية من داخلها وسريرتها . واها يا لها من رقّة في التأثر ! واها يا لها من غضاضة وطراوة في التّعبير ! نعم ليس الشيخ من الذين هم سلكوا طرق الابتذال وصادوا قوالب بالية بل تجد عنده جملة ذاتية بسيطة مقتبسة من الملاحظة والتجربة والتفكير والإحساس المرهف . والشيخ موسى ألف كأنه ناجانا ولهجته المناجية بينة في الصورة التي رسمها لألمام عبدل قائلاً : « قال الشيخ محمد عبدل راب : وكانت ولادة الامام سنة اربعين ومائة بعد الف من الهجرة على موضع فاف في بلاد سالم وكانت وفاته يوم الخميس السابع من صفر الرابع من ابريل في كوريك سنة إحدى وعشرين ومائتين بعد الف من الهجرة وعمره إحدى وثمانون سنة ثلاثون منها على الإمارة وخصّ بجودة الفهم ووفور العلم والعقل والحلم والبذل ومن فضائله أنه بسّام من غير ضحك حليم من غير سفه جميل من غير زينة جواد من غير سرف

عليم من غير رياء شجاع من غير بغي ذو جمال من غير خيلاء وايّده الله بحسن الأصحاب والوزراء من مبدأ ولايته إلى آخرها »[1] .

وكان الشيخ موسى مؤرخاً جيّداً وقد أبرز صفات كونه مؤرخاً بارعاً في غاية ابراز في كتابه « أشهى الخبر في حياة الشيخ الحاج عمر »[2] واعتمد على شهادات مادية شفاهية كانت أو كتابية فألف الشيخ موسى هذا الكتاب مسلّحاً بحسّ النقد قلّ ما نجده عند أقرانه ليعرف الصحيح من الزائف أو العلة الطبيعية من الأسطورة أو الأمور الواقعية المقبولة عقلاً من المعجزات . قال : « ولم أر خبيراً بنسب تالب هَلْوَارْ لقلة لقائي لأهل تلك الجهة التّوريّة لا سيما الهَلْواريُّونَ منهم وقد أسرف بعض اهل فُوتْ التجانيين في نسب الشيخ الحاج عمر حتّى نسبوه إلى الشرف اتباعاً للهوى وإيثاراً للحياة الدنيا كما انتسب بعض العرب في الجاهلية إلى الملائكة وبعضهم إلى الجن لمّا أعلى الله شأنهم ورفع مكانهم كما قال بعضهم في جرهم[3] ... ولو علم بأنه شريف لذكره في كتبه تحدّثاً بالنعم[4] كما ذكر غيره من المنن الإلهية ... قلت : ولو علم بشرف نسبه لانتسابه اليه صلى الله عليه وسلم لذكر ذلك في هذا المقام الذي ذكر فيه لقومه مفاخره وعدّدها عليهم مفتخراً بها ولكن العلماء الحقيقيين أمثاله أمناء قلّما يكذبون عمداً من غير تأويل وان تأملت هذا منصفاً تجده دليلاً واضحاً صادقاً والله تعالى أعلم ولكن ادّعاؤهم له الشرف ليس بأعجب من قولهم بأنه لم يمت في قتاله مع اهل ماسن بل غاب عن الأبصار فقط وانه حيّ سالم يرزق الآن وانه ساكن بين مكّة المشرّفة والمدينة المنوّرة وانه سيرجع

---

(١) انظر صفحة ٢٩٦ من الجزء الأول لزهور البساتين بمخطوطة ايفان .

(٢) المخطوطة عندنا في إيفَانْ .

(٣) انظر صفحة ٢٤ لمخطوطة إيفَانْ .

(٤) كما امرنا الله تعالى به في هذه الآية : « وأمّا بنعمة ربّك فحدّث » في سورة الضحى .

إلى فُوتَ بعد اليأس منه فيا سبحان الله ما أَعظم جهلهم وأَغلظ حمقهم[1] ... قلت ومن هذه الجهة يلتمع لنا برق كون تالب من البيضان الصنهاجيين البربريين ومن ظهر له شيء أَوضح أَو علم من اين جاء أَصلهم فليثبته هنا مفيداً مأجوراً ان نظنّ إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين والله تعالى اعلم وأَنتم لا تعلمون »[2] أَليس ذلك دليلاً لا ريب فيه على امانة عقل الشيخ موسى كَمَرّ واخلاصه ؟ إذ ما أَراد تحقيق أَمر تاريخي فنزاهته أَفضت به إلى استقصاء نظرية المفترين الكذّابين وإلى مقارعة من يكفرون بغلوّهم في التعصب ، وفي اعتقاد اسطوري دون أَمر واقع أَبانت سببه الطبيعة وأَدّت به طهارة ذيله إلى من هو أَكثر منه علماً بهذا الأمر وإلى الإلتجاء إلى افتراضات إذا لم يسعه ان يعتمد على أَشياء حقيقية وهكذا يجب ان يكون المنهاج للمؤرخ الثقة لا شك في امانته وهو ان يستند على امور واقعة او على أَخبار لا ريب في حقيقتها وان لم يكن له هذان الأساسان عليه ان يجيء بافتراضات يقبلها تفسير صحيح أَو عقل صريح . وهذا اظهار أَمانة عقلية وذهن نقديّ وهذا انكار كل مخاطرة تعصبية .

وتلك مزايا للشيخ موسى المؤرخ . قال في توطئة كتابه « أَشهى الخبر » : « وقد اعانني على ذلك ظفري بتأليفين لتلميذيه (أَي تلميذي الحاج عمر) في أَمره وغزواته رضي الله عنه ولكن كلا التأليفين نسخته خاسرة وعبارته ركيكة بل فيها خطأ فاحش ولحن كثير وتحريف وتصحيف غزير ومع ذلك اكتفيت بنقل ما وجدته فيهما كما وجدت بشرط ظنّي صحّته أَو فهمته والاّ تخطيته وجاوزت عنه إلى ما بعده لأنّ إدراك البعض أَولى من فوات الكلّ وهكذا والله أَعلم وكذا ظفرت بتأليف للشيخ الحاج عمر فيما وقع بينه وبين احمد بن احمد ولكن قد ضيّعته أَيدي النساخ وأَفسدوا كثيراً منها ولكن نقلت منه ما ظننت صحّة عبارته ايضاً هنا ومالا فلا » .

---

(١) انظر صفحة ٢١ لمخطوطة ايفان .

(٢) انظر صفحة ١٥ لمخطوطة ايفان .

« ورتبته (يعني كتابه) على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة » . وهو ، كما رأيناه ، نهج فيه منهاجه الواحد وهو اعتماد على أشياء واقعة وأخبار يمكن أن تحقق وافتراضات محتملة أجل فان تفوّق الشيخ موسى منوط بذلك المنهاج وباعتنائه بتقسيم بين لأي كتاب له وبأسلوب دون أي تكلف أو تصنع وهاته مزايا أدبية سنغالية حسد عليها عدد كبير من الأدباء العرب وان لم يحدث الأديب بهذه المزايا عملاً رائعاً جعلت تلك المزايا لأديب ذا أصالة حقيقية اذا كانت الأصالة قدرة على خلق فكرة ذاتية وترتيبها وتنظيمها والتعبير عنها بأحسن خلق وتنظيم وتعبير .

وكان الشيخ موسى المؤرخ قادراً على رسم صورة ملحمية بأسلوب جزيل رفيع في بساطته . هذه نبذة أولى بأن تدلّ على ذلك : « ثم انّ احمد بن احمد قدم بنفسه مع جيش عرمرم من اهل مَاسِنْ وغيرهم من قبائل شتّى إلى جنّ ثم مرّ من هناك ذاهباً حتّى وصل موضعاً يسمّى سايول ثم قدم الشيخ عمر بنفسه مع جيش عظيم إلى اهل ماسن حتى وصل اليهم فتأهب الفريقان للقتال وتحاربوا واشتدّ بينهم القتال بين طعنات وضربات وصيحات حتّى كادت الجبال تزعزع وكان ذلك اليوم يوماً شديداً وارتفع الغبار إلى السماء وخاف اهل الدنيا كلهم من شدّة ذلك اليوم وابيضت النيران في كلّ جهة من البلدان سواء من القرب ام من البعد وانكشفت السماء وامتلا البحر [1] بشعور الخيل من أَرْضِ مَاسِنَ إلى فُوتَ طُورْ حتّى عجز الواردون عن ورود الماء من كثرة الشعور لبث ذلك الخال برهة ثم انهزم جيش اهل ماسن وولّوا أدبارهم هاربين فأمر الشيخ عمر باتباع المنهزمين وانجرح احمد بن احمد في ذلك القتال فلما انهزم جيشه وهربوا أبى هو من الهروب حتّى حمله عبيده إلى السفينة مع النوتيين فلما سكنت الفتنة وانقطع الصّياح قال الشيخ : أين احمد بن احمد ؟ قالوا ؟ ها هو في السفينة هارب إلى قريته ومن هناك دعا أَلْفَا عُمَرْ [2] ابن سَارْنْ بَيْلَى وأمره مع مائة فارس باتباع ساحل البحر حتّى يدركوا

(١) البحر هنا معناه نهر النِيجِيرْ .

(٢) كان من قادة جبوش الشيخ الحاج عمر ومن اشجعهم .

أحمد بن أَحمد حيث كان فاتبعوا أَثره حتّى ادركوه في موضع يسمّى مُوبْتِ وأَجهز عليه هنالك أَلْفَا عُمَرْ ففارق روحه الدنيا رحمة الله عليه » نجد في هذه النبذة الوجيزة جميع عناصر الملحمة من ناحية الموضوع والحوادث والعجيب والأشخاص والمبادئ الخلقية والأسلوب .

فأولاً ـ انّ لدينا وصف مأثرة جسيمة أَدخل القدر في الورطة مصير ملك مسلم فلانيّ وهو أَحمد بن أَحمد ـ دافع عن عرشه ضدّ غاز جليل وهو الشيخ الحاج عمر .

وثانياً ـ انّه وصف حوادث كثيرة وأُمور جسام ومآثر .

وثالثاً ـ هو وصف عجيب لطبيعة ضربت بسهم مصيب في القتال واضطربت اضطراب الإنسان .

ورابعاً ـ هو ذكر بطلين عظّم مصير احدهما انهزامه وذكر طلب أَلْفَا عُمَرْ بَيْلَى للهارب ثم انتهى هذا الطلب في حركة مجرّدة من الرحمة والإنسانية باجهاز الطالب على المطلوب .

وخامساً ـ هو تجليل شجاعة المنهزم السّامي وتمجيد حبّ وطنه ومملكته من جهة ومن جهة أُخرى هو فوز ارادة تجسّدت في الإسلام الفاتح .

واخيراً ـ هو أسلوب الملحمة في الحوادث والموضوع والتحوّلات والفريقين المتضادين الأهمّين والاطار وعبر هذا القتال انظروا إلى المفردات الفاخرة والمفخّمة وإلى الألوان وإلى تشخيص الجبال فانّ في ذكر الحوادث لمبالغة وتضخيماً إذ في الحقيقة لا يمكن أن اهل فوت طور قد أَعيتهم شعور الأفراس التي جرت بها مياه نهر النِيجِيرْ إلى نهر السنغال .

فنحن أَمام صورة جديدة بمرقم دَهْ لاَكْرُوَا De Lacroix الرسّام : مع ضربات السّيوف وطعنات الرّماح مقسّمة بين جلبات وصيحات وضجّات تزعزعت بها الجبال في غبار ثار إلى الغيوم . والأرض تزلزلت ذعراً واللهب التي استطارت وسطعت في كلّ البلاد والسماء التي تأججت وبساط الشعور الذي جرى مع كثرته من ماسن إلى فُوتَ طُورْ والملك الجريح الذي فرّ بسفينة والضربة القاضية التي تلقّاها من قبل طالبه . فكلّ ذلك رسم صورة متلوّنة مفتنة أَشجت القلب وأَثّرت في النفس .

ولا حاجة لنا في ايضاح مزايا الشيخ موسى كأديب وكان خبيراً بفنّ المناظرات للآراء ومقارنة النظريات ولا يزال مختاراً في آخر تفحّصاته الحلّ المعقول والمذهب الرّجيح . وقال الشيخ موسى في كتابه المسمّى « انتصار الموتور في ذكر قبائل فُوتَ طُورُ » الذي طلب إنشاءه « امير موريتانيا مُسِ كَدِنْ Gaden : ثم ذكر اختلاف العلماء الأوروبّاويين هل سكّان الأرض من مراتب الإنسان من أصل نسل واحد ونوع متّحد وهو آدم أم هم من عدّة أنسال وعدّة أوادم متعدّدين وذهب بعضهم إلى القول الثاني واحتجّوا له بحجج واهية ودلائل مضمحلّة فانية وذهب بعضهم إلى القول الأول وهو وحدة نوع الإنسان على جميع الكرة الأرضية من كلّ مكان سواء الأبيض منه والأصفر والأسود والأحمر . قالوا انّ اختلاف الصفات والألوان ناشئ عن اختلاف أحوال الأكوان المعبر عنه عندهم بالوسط الذي يكون عليه الإنسان أي اختلاف الأحوال الجوّية والوسائل المعاشية والعوائد التمدُّنيّة التي يكون عليها الشخص بحسب اختلاف الأوطان .

فهذا هو القول الصحيح والمذهب الرجيح الذي عليه جمهور العلماء من الافرنج وأهل الإسلام واستدلّ علماء الافرنج على وحدة النوع البشريّ بدليل آخر واقعيّ عقليّ وهو ما شوهد في جميع انواع الحيوان من أنه إذا حصل تزاوج نوعين مختلفين تولّد منهما نتاج يصير عقيماً كما للبغل المتولد عن مزاوجة نوع الفرس والحمار وبالعكس وما اشبه ذلك من انواع الحيوان بخلاف نوع الإنسان حيث يتولد عن مزاوجة انسانيين له كالأبيض مع الأسود مثلاً ذرية مولّدة فرعيّة لا يزال يوجد فيها الصفات النوعية من التناسل كما يحصل تعلية الفرس على البرذان إذاً يترتّب على ذلك تحسين مادّة النتاج لا عدم الانتاج ومن ثم استنبطوا انّ مراتب الإنسان ترجع كلها إلى نوع واحد وأصل متّحد بمعنى انها فروع عنه متفرّعة لا أنواع متنوّعة . أبانت هذه النبذة التنوع في الوحدة للجنس البشريّ لأسباب متعلّقة بالجغرافيا الطّبيعية ويتفق هذا المذهب مع قول العلماء-المحققين فانّ في ذلك لفرقاً واضحاً بين الشيخ موسى كَمَرّ والاعتقادات العنصرية التي بذلت مجهوداتها في الاثبات بأن ألوان بني آدم المتنوّعة دلّت على أصل غير واحد لنوع البشر . ولما كان الشيخ موسى محبّاً للاستطلاع وذا نهي نقديّ كان له عقل واسع

الفتح وله قلب متسامح وله صدر متساهل وليس سهلاً ان يوجد نظير من أمثال الشيوخ السنغاليين فحسب بل انه لعزيز ان يرى ندّه حتى من العرب المسلمين .

ومن مخطوطاته في « ايفَانْ » مخطوطة عددها ١٦ في ٣٥ صحفة وهو كتاب مسمى « كاد ان يكون الاتفاق والالتآم بين دين النصارى والإسلام »[1] فاليكم ما قال الشيخ موسى في مقدّمته « وبعد فيقول الشيخ موسى كَمَرَّ حفظه الله في الدارين من كلّ سُوءٍ وَضَرَرٍ انّي لمّا رأيت في كتاب فاكهة الألباب في تاريخ الأحقاب للمؤلف (بطرس) الشاعر الماروني الدلبتاويّ ما معناه ان سكّان الأرض على كثرتهم يعبدون آلهة شتّى ثم ذكرهم على اختلاف نحلهم وتنوع مذاهبهم ومللهم إلى أن قال وامّا الذين يعبدون إلهاً واحداً فهم المسيحيّون والمسلمون والموسويّون حملني ذلك على جمع هذه النبذة العزيزة بهذه الكلمات الوجيزة رغبة في الوفاق وكراهة للشقاق ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب وسميّتها بكاد الاتفاق والالتئام ان يكونا بين دين النصارى ودين الإسلام .

« ورتبّتها على مقدّمة وخمسة ابواب وخاتمة المقدمة في ذكر ما عثرت عليه من بعض أذكار الكاتوليكيّين والباب الأول في تفسير معنى بسملة الإنجيل والباب الثاني في غاية اجتهاد الرهبان في طاعة الله تعالى والباب الثالث في أصل دين النصارى وما آل اليه أمر هذا الدين والباب الرابع في كون النصارى يدّعون بأنهم موحّدون لله تعالى وانهم يعبدون إلهاً واحداً كنحن معشر المسلمين . والخاتمة في ذكر امهات الملل والنّحل كما في « الإنسان الكامل[2] في معرفة الأواخر والأوائل » للشيخ عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه وعنا به آمين ... ونقول واما المقدمة ففي بعض أذكار الكَاتُولِيكِيِّينَ ونصّ ما عثرت عليه من اذكارهم هكذا أَنْنْدِ فَارْ اسم الأب أَدِفِيسْ اي الولد الذكر أَدِسِهْ أي النبي اسفره أي الرّوح فَارْ أَتِرْنِلْ أي الأب الأبديّ بُنْجَهْ أي أَلْ مُجِ بالفلانيّة لأنّ جَهْ بمعنى الله تعالى وبُنْ بمعنى الكريم المنّان أو ذي

---

(١) لقد تَرْجَمْتُهُ إلى الفرنسية وهذه الترجمة تحت الطبع .

(٢) هو كتاب على اصطلاح الصوفية لعبد الكريم الجيلي المتوفى سنة ١٤٢٨ م .

الأوصاف الجميلة لَفَارْ تُفِسَهْ أَي الأب القادر على كلّ شيء كَرِيَا تِيرْ دِيسِيَلْ إِهْدِلاَ تِيَارْ أي خالق السماء والأرض زَكُوَهْ أَنْجِيهْ أي أثق بالله تعالى وأُومن به أو أَنا واثق به تعالى أي مؤمن به أي مَطَهُولِي أَلّ بالفلانية إِنْسِسُوَاتِلْ آمين وفي لَتِهْ آمَانْ أي لا تخيّب رجاءنا وثقتنا وايماننا بك قلت ولعل هذا الذكر بمنزلة باسم الله الرحمان الرحيم الباقي الأبديّ الكريم المنان الرحمان القادر على كلّ شيء خالق السماء والأرض وأنا مؤمن واثق به تعالى وهو ارسل روح القدس إلى النبي عيسى عليه الصلاة والسلام اللهم لا تخيّب رجاءنا وإيماننا وثقتنا بك آمين والله تعالى أعلم بالمراد . أخبرتني بهذا الذكر امرأة فرنسية كاثُوليكيّة بنت عشرين سنة ظنّاً بحضرة أمها وهي بنت الثلاثين ونيف سنة مع حضور أُمها أيضاً وهي جدّة المخبرة وهي بنت خمسين ونيف ظنّاً وتخميناً أخبرتني بهذا حين رأيت معها سبحة للذّكر فسألتها عمّا تذكرين من الأذكار فذكرت ما تقدّم وانا الذي فسّرت معنى الكلمات بالعربية لمّا ترجست لي والله تعالى أعلم قلت ولعل الكلمات من الاطينية قلت ايضاً وفي دليل الرّفاق للشيخ ماء العينين رضي الله عنه [1] وكل اهل فنّ لهم اصطلاحات بينهم يعرفونها ومن جهل شيئاً فعليه بسؤال اهله الذين يعرفونه وليحذر من سؤال غيرهم » .

وزيادة على ما في هذا النصّ من تلذّذ في طعمته وتأويله ومن صفاء وبساطة في المقدمة قد أبرز الشيخ موسى رسالته اوضح الابراز . ومن المناقب الأدبية للشيخ هذا فتح ذهن وحبّ استطلاع عجيب ووفور فهم ورغبة ملحّة في استخبار موضوعيّ .

وكما كان الشيخ موسى كمرا مؤرخاً ومدافعاً عن الديانات التوحيدية ومحامياً لوحدة الأصل البشريّ كذا كان منتخباً في الأدب .

يمكننا ان نجمع مجلّداً ضخماً من عدّة الرّسائل التي تلقّاها من اهل زمانه أو من كثرة رسائله التي كانت أجوبة لهم .

---

(١) هو مَاء العَيْنَيْنِ الشنقيطيّ من أولاد الشيخ محمد الفاضل ومن دعاة السياسة والدين في المغرب ، توفي في قصبة تيزنيت سنة ١٩١٠ م لـه مؤلفات في الفلسفة والتصـوّف والروحانيات .

نجد من مراسليه مُورِيْس دَهْ لاَفُوسْ وكَدِينْ وعَيْنِينَهْ سِكْ والحاج مالك سِهْ والشيخ سَعْدَ بُوهْ والشيخ سِيدِيَهْ وامثالهم ، ودونكم رسالة تلقّاها من صديق له :

« وهذا تقريظ الحاج عَيْنِينَ سِكْ الأندريّ الحائز قصبات السّبق إلى الخيرات من غير شك ونصّه « بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده وعلى آله وصحبه وبعد فقد اطلعت على تأليف العالم العامل والنرير الكامل الشيخ موسى المسمّى بدليل السالك على معاني الفية ابن مالك فوجدته شرحاً يشرح صدور المنتهين وتنشط له قلوب المبتدئين قد أبدى مخبّئات الفية ابن مالك واوضح سبل تلك المسالك جزى الله المؤلف خيراً ومتّعنا به دهراً . عبيد ربّه عَيْنِينَ سِكْ ابن المقداد » .

وله ايضاً رسالة من « العلامة المرحوم الشيخ ذِي النُّونِ [1] ابن الشيخ محمد الفوتيّ المعروفين بغزارة العلوم والفنون . ونصّ ما قاله : هذه لقطة عجلان احمد ربّانيّ الأقلام لأرباب العلوم وساق اليهم عساكر الالهام والفهوم وأبرز لهم دقائق الحكم من خلد الكلم وأصلي وأسلم على أفصح من نطق بالضاد وعلى آله الأجلة الأسياد واصحابه الأدلّة الآسياد وبعد فاني لمّا طالعت تأليف شيخنا الشيخ موسى صانه الله كل بوسى المسمّى بالعزّ الأسمى والحرز الأحمى الموشّح بالاوراد والأسماء علمت في أدنى ذوقي بأنه بحر عميق لا يعبر ومعنى غريب لا يعبّر إلاّ بعد تطهير النفس من الرعونات النفسانيّة وتزكيتها من ما لو فاتها الظلمانية بعد أدّائه حقوق البلاغة وحسن الصياغة وأخذه من الأحاديث اعذبها ومن الكرامات اعجبها ومن العربية أسلسها ومن كلام القوم انفسها فحقّ والله لفصاحته والبراعة التي فيه وجزالة ألفاظه ودقّة معانيه ان يسجد له جباه العقول ويقابل أو يتلقّى بالاقبال والقبول فيا له من كتاب جمع من بدائع الألفاظ ما يفحم خطباء عكّاظ فجاء ولله الحمد مفرداً لا نظير له في بابه يستخرج الدرر والمرجان من عبابه كتاب في سرائره سرور مناجيه

---

(١) انظر صفحة ٢٣٦ وما يليها .

من الأحزان ناجي أبقى الله مؤلفه دهراً للقلوب والأبصار بمنّه وجوده وكرمه قاله بفمه وكتبه بقلمه سميّ المنبوذ بالعراء وهو سقيم [1] والسلام » .

وله ايضاً من (موريس ده لافوس) : « ونصّ ما قال في بعض مكاتباته اليّ بعد البسملة من الوالي موريس دلفوس إلى المؤرخ الماهر والمؤدّب العالم الشيخ موسى بن احمد الفوتي السلام عليكم وعلى أولادكم وعائلتكم كلها مع بركة الله تعالى ورحمته في الدنيا والآخرة فوجبه ان اخبركم بالجزء الأول من كتابكم المسمى « بانتصار الموتور في ذكر قبائل فوت تور » انه قد افضى به اليّ الوالي « كدين » حفظه الله تعالى من كلّ شر آمين فتعجبت المهارة التي اظهرتموها في تأليف هذا الكتاب فهو مهمّ ومفيد جدّاً وما كتب مثله حتّى الآن في اهل التكرور وانا لا زلت اجتهد في ترجمته إلى الفرنسية وفي استعداد طباعته بالعربية وبالفرنسية ولكن هذا عمل عظيم يقتضي دواماً عديداً لأني اشتغل بشغول اخرى كثيرة ولكن اترجّى أن أكمله إن شاء الله تعالى ... فأبو زوجتي هوداس قد ترجم وطبع تاريخ السودان وتذكرة النسيان لعبد الرحمان السعدي وانا قد ترجمت وطبعت معه « تأريخ الفتّاش » لمحمود كعتيّ وظننت ان تكون مكانة تأليفكم بهذه التآليف القديمة فنصر الله علينا والسلام » .

ومن براوات له من الشيخ « وال به » هذا نصها « انه من عبد الله وال به إلى جلالة شيخنا ووالدنا وخاصة الخاصة من اهل ودّنا الشيخ موسى السلام على تلك السيادة المؤثلة بالمجادة ورحمة الله تعالى وبركاته على تلك الجلالة المعظمة امّا بعد فقد وصل كتابك فاستفدت منه كونك في خير وعافية لولا تلك المصائب المترادفة من اخراج الجنديين وغير ذلك عاقبة خير وانك كنت عازماً على زيارتنا هذا العام فمنعك [2] ما تقدّم ذكره فاعلم ايها الشيخ انّ العيون لم تزل طامحة اليك سنين عديدة فلو انتهزت فرصة ودخلت في بخارية بحريّة ووصلت الينا لقرّت بك العيون

(١) هذا ما سمّى به القرآن النبي يونس عليه السلام ، انظر سورة الصافات الآية ١٤٤ .

(٢) أظن أنّ هناك ما يخالف الأحكام النحوية ولو قال « ما منعك » ! على كل حال قد وجدته كما هو في نسختنا .

وامّا دليل الرفاق فلم تزل تلك النسخة عندي وارسلت في العام الماضي إلى المطبعة الجزائرية بعض دراهم لكتب اطلبها ومنها نسخة من « دليل الرفاق » فقيل انه انقرض ولم يطبع ثانياً فان كنت تحبه فارسل لي الرحلة العيّاشية [1] ارسله اليك بيد من يوصل الرحلة المذكورة إن شاء الله وهل عندك « نشر البنود على مراقي الصعود لسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم فتتحفني به واجرك على الله فان النّسخة التي كانت عندنا استعارتها اركان خاي ومن يسمّى برام انجاي شابّ صغير السّن ماهر في الفرنسية وحاصل الأمر انّ المشاهير من اهل خاي درجوا فلم يبق ممّن يشار اليهم إلاّ الصغار ورثوهم حالاً وعملاً كتبه اليك من لا يزحزح رواسي محبته وشوامخه زعارع الدّهر وعواصفه عبد الله وال به لخمس بقين من رمضان المعظّم كتبه مستعجلاً ولا تنسونا من صالح الدعاء » .

وله ايضاً من وال به هذه البراوة : « ... أمّا بعد فقد طال العهد عن قبض براوة وردت من جانبكم العالي فانتهزت فرصة لارسال هذه العاجلة اليك لأسلم عليك وعلى متعلّقاتك وكنت اظنك ترسل لي كتاب تعزية لموت محبّي سليمان سك ولعلك لم تسمع وفاته أو وجدك في شغل شاغل وامّا « نسيم الرياض على الشفاء » فأنّي قبلت الثمن الذي بذلت فيه وهو الريالات الخمس وأمّا « شرح الأحياء » فاني في مطالعته ولعله يكون الذي تريد إذا اوصلك الله الينا لتعزية الأخوان بموت السيدين عيسى كَيْ وابن اخته احمد دَرَامى واسلم عليك واتوقّع جوابك في البريد القابل كتبته مستعجلاً خوف فوات البريد ولوجع الأصبعين الوسطى من اليمنى والسبابة من اليسرى وسلّم لي على ذلك الكريم العديم النظير حسن بُويَ محبّك عبد الله وَال بَهْ لثلاث وعشرين من رجب عام ١٣٣١ من هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عشية الجمعة » .

---

(١) هو عبد الله العياشي المغربي (١٦٢٧ م إلى ١٦٧٩ م) قرأ بالمغرب ورحل إلى المشرق . وتعلم في مصر وجاور بالحرمين ، توفي في المغرب وله « الرحلة » من مراكش إلى مكة (١٦٦٢ م) طبع في فاس (١٨٩٨ م) .

ولو شئنا لواصلنا رواية شتّى البراوات التي جمعها الشيخ موسى في عدّة تآليفه لكن لقد دلت هذه النماذج على الثقافة العالية التي توجد في عدة مراسلات الشيخ موسى لعلماء عصره . فلنلاحظ امرين بارزين : وهما حبّ العلم وذوي العلم من جهة ، واحترام المحبة بالعلم من جهة اخرى ، واما الذي يحدد حقاً الشيخ موسى كَمَرّ فهو زواج متلائم بين العقل والقلب او بين الذهن والعاطفة .

كان صاحب النزعة الإنسانية هذا ايضاً ذا ذوق سليم وأخا حبّ للجمال إذ قد نظم بعض مقطوعات . وعنده الفتى كل الفتى هو مكارم الأخلاق والتقى وقال في مَالِكْ جِبِ مريده الجيد وصهره السيد : « وكان مالك جبِ مريدنا هذا كثير الوفاق قليل الخلاق والشقاق وكان مباركاً اينما كان ومنصوراً حيثما توجه في الأكوان ما شاء لا قوة إلا بالله وقد كنت قلت في حقّه اولاً :

شهدت بانّ اللـــه بلّغ مالكـاً	كرامات اهل اللـــه في السر والجهر
لقــد بارز القهار بالحرب كلّ مـن	سعى في أذاه فاجتنب غضب البر
شهدتّ بأنّ اللـــه سخّر خلقه	جميعاً له من كـل خبّ وذي بـر
وصرّفه في كونه بنفوذ مــــا	اراد من الحاجـات خيراً او الشر
ومن عجب انّ الازمة كلهـــا	بيمناه في طيّ الارادة والنشر
له همّة لها الجبال تضعضعـت	وان واجهت أمراً فأعزم على النصر
واعظم من الكرامات كلهـــا	موالاة ذكر اللـــه في السّرّ والجهر
وصلّ على المختار يا ربّ دائماً	وآل وأصحاب وسلّم مدى الدّهر

وقلّما نجد أعلام الإسلام معتنين بالتحدث في نسائهم غير أنّ الشيخ موسى نظم مقطوعة بمناسبة تزوجه بأمّ فاطمة . قال : « ولمّا كان سَارْنْ مَالِكَ رحمه الله تعالى هو السبب في تزوّجي ببنت بنت عمهم ابنة فاطمة عمر حَمَدْ دِمْبَ حَمَّاتْ سِيدِ واسم البنت أمّ فاطمة أبقى الله صحبتنا إلى منتهى الأبد ببركات السيد عمران ابن حصين رضي الله عنه فلذلك قلت :

يا ربّنا أدخلنا وأدخلن كجك	كذا من انتمي اليهـــم جنّتك
واعف عن الكلّ فانّ الحمد لــك	عفواً يخصّ مالكاً وما ملك
واغفر لهم جميع ما خطّ الملك	مــن ذنبهم واعف عمّن قـد هلك

وهب لنا من بنتهم نسلاً سلك	سبيل رشد فائزاً فـوز الملك
وملّكنـي أمّ غيـر مشتـرك	فيهـا فأنت اللـه لا شريك لك
واغفر ذنوبي ولسائر كجـك	يا ربّ وارحم مالكـاً ومـا ملك
بجاه من صلّيت أنت والملـك	عليه صلّ ربّ ما دار الفلك

في الحقيقة كانت هذه الأبيات دعاء سأل بها الشيخ موسى بركة من الله في تزويجه بأمّ فاطمة واحصاناً لزوجته التي ولدت له ولدين المختار والمنصور المتوفّيين في صغر سنّهما وبنتاً اسمها مريم .

قال الشيخ موسى : « ثم اعلم أنّ المختار بن وديعة الله المعروف بالشيخ بُورْ كَيْ تلف هذا كان من جملة موارد الشيخ الحاج عمر الفوتي وله تآليف عديدة مفيدة وله في شيخه هذا قصائد كثيرة واشعار شهيرة ومن بعضها قصيدته الكاملية البائيّة التي مطلعها :

أخيال سلمى أم أميمة جندب	منع الرقاد فبت مثـل معـذّب
لا ذا ولا ذا بل لذكر مقطّب	هاد دليل الحائـر المتـذبـذب
شيخ له همم سمت فسمت به	آراؤه عن كلّ أدنـى مطلب
فيمينـه فيها النـدى وشمالـه	فيها الـرّدى للقتـل والمتحبّب
ضدّان حازهمـا فحـاز لجمعـه	ايّاهمـا ما نال كـلّ مكوكب
بحر العلوم وان علا في مركب	فأعجب لبحر راكب في مـركب
شمس الضحى ضاءت ولا كضيائها	شمس النهار بأرض فـوت المغرب
هنّيتمـوا يا اهل فوت بكامل	طبّ خبير بالـدّواء مطبّب
شدّوا بأيديكـم عليـه فانـه	الكبريت الأحمر عند كلّ مهذب
لا شكّ في تخليفه عن شيخنا	ختم الختوم ممدّ كلّ مقطب
قل للمقصّر عن دخول طريقـه الـ	مثلى خسرت تجـارة في المكّسب
ولـن أبى لقيـاه في أيامـه	انّ المراتب قد شأونك فاطلب

وقال ايضاً : « وكان أخي وخليلي وَالِ بَهْ رحمه الله تعالى قد عارض تلميذنا الفائق الشيخ عمر الخازن الماتمي في غلونا في محبتي فقال يمدحني :

وللـه قـوم قد سقوا كأس بـره	وخاضوا بحار السّرّ والغير في البرّ

وأعطاهم سرّ الولاية قبل ذا   وعلّمهم ما كان في عالم الذّرّ
كذلك لوح اللـه والعرش والسما   ومكتوم علم اللـه حازوه في السّرّ
فانّ سطور العالمين لديهم   ضروريّ علم مثل خمس من العشر
وانّ جميع الطرق قد صار عندهم   كزيد وعمر وخالد النحو والبكر
يصرفهم اذن وحسن بصيرةوليسوا كمن هم تحت جنس ذوي الحصر
وليس لأحد أن يجمع شملهم   بشمل عوام الناس في شرط ذي السّرّ
وهم فهموا عن ربّهم ونبيهم   وعن بعضهم ما سدّ عن جاهل غمر
ومنعهم عمّا يليق لفضلهم   فظلم وكتم جاء في أصدق الخبر
صلاة وتسليم مع الآل دائماً   على خير خلق اللـه خير بني فهر

وله ايضاً أبيات مديحية من الشيخ عمر الخازن :

هذا سلام عدّ علم الخالق   كذا دعاء من عبيد عاشق
اليك يا كنز الفقير الصادق   ودرّة بيضآ سرت في غاسق
شمس الضحى تغمض عين الرامق   وبدر تمّ قصد كلّ مارق
قررت عينا مع بيت واثق   وسفر مبارك موافق
حتّى نراك قادماً عن عائق   وسابقاً لكلّ خير لائق
وسالماً من شر فسق الفاسق   وشر كفر الكافر المنافق
وسالماً من شر كلّ طارق   من أمّ ملدم[1] وشر الغاشق
مدثّراً ملابس الحقائق   مزمّلاً حقائق الخوارق
منتقباً رضى الإله الخالق   برقّة القلب على الخلائق
كذا الموارد مع المرافق   تعمّ جمعهم وجمع العاشق
كذلك الأهل بعيش باسق   والمورد العذب وخصب رائق
عافية دائمة الشوارق   تكشف عنا ضرر الطوارق
تزيل عنّا كلّ طعن خارق   وغمز شيطان وهمز مارق
بجاه مرسول إلى الخلائق   محمد امام كلّ صادق
أزكى صلاة وسلام لائق   عليه ما دام وجود الخالق

---

(١) ملدم : احمق . وأمّ ملدم : هي الحمّى .

وله ايضاً ما قال في صديق له : « وقد قرّظه العلامة يوسف المشتهر بِسِمْبَلّ دَرَام ِ ونصّ ما كتبه يقول الفقير المذنب وديعة الله يوسف بن فودي لحم ابن محمد الدراميّ في تأليف الشيخ موسى بن احمد ادامه الله راقياً إلى المقام الأرفع الأحمد المسمّى « بالعز الأسمى والحرز الأحمى » :

يا أيها الشيخ موسى نور ذا الحيـــن	أقــول في عزّك الأسمـى بتحسين
أحسنت جازاك خيراً ربّنا كرماً	في وضع عزّ وحرز للمساكين
لأنه العزّ والحرز الحصين لمن	اراد توفيقـه المـولى لتحصين
اللـــه ينفع كلّ المعتنين بـــه	ويجزل الأجر في الدنيـا وفي الدين
لا زال عزّك يسمو مـا سما فلـــك	بحفظ مولاك محفوظاً وتأمين

وقال الشيخ موسى ايضاً : « وقد قرّظه العالم العامل والوليّ الكامل الشيخ تِجّانَ الكَيْهَيْدِيَ التاجر الصدوق ذو التحرير للعلوم والتدقيق وهو قوله لما رآه رحمه الله تعالى :

وكم كتب حوت فضلاً وقالت	أقاويل الصلاة عــلى النبي
ولكن ما حوى ما قد حـــواه	تباشير الـذّكـيّ الكـوركـي
كتـاب واحـد ممـا أتانــــا	أحاطَ به التطلع يـا أخـيَ
صــلاة لا تعادلهـا صـــلاة	عـلى الهـادي التهامـي الأبطحيَ

وله ايضاً تقريظ لكتابه « بلوغ القصد » من مُحَمَدْ عَبْدُلْ رَابِ الكَبَلِيَ المعروف بأَلْمَام ِ مُحَمَدْ عَبْدُلْ رَابِ :

هل جنّة الخلد والفردوس قد فتحـا	أم ان أترابها لاحت مـع الحلل
أم هل بروق جبين المصطفى برقت	جهراً فظلت شموس الجوّ في خجل
أم هل الـه تعالى جلّ عـن مثـــل	بدا فأدهش عنـه ناظر المقـــل
لا بل كتاب بلوغ القصد حين بـدا	في سرّ موسى فأضحى البدر كالزّحل
الشيخ موسى فـلا زالت مناقبــه	تسدّ عن كل ما في الدين من خلل
فاضت زواخـر من أسراره حكمــا	فامتدّ منها أضى الأسرار كـالسّيل
وأبلجت مـــن سنى انـواره سرج	ضاءت بمحو غيـوم الهمّ والوجل
ذو حكمة لو تصدت للنوائب لــم	تنزل بناحيـة الدنيـا ولـم تحـل

مفراج كل حزين ضاق مختنقـــه	مفتاح مغلق باب الكرب والفشل
فاغضض نواجذ عزم في بلوغ منـى	تنل به كــلّ ما تهوى مــن الأمل
انّ المنـى لبلــوغ في بلــوغ منــى	والقصد يلجـح منه دم على العمل
لا زال منشؤه يمّــا تيمّمـــه	كل الأئمة من حــاف ومنتعــل
ولا عدته من المولى حمايتــــه	تحميه من داهمات الخطب والخطل
ولا عدته من المولى عنــايتــه	تقيه من موجبات الطرد والعزل

وفي كتب الشيخ موسى كَمَرَ قصائد أخرى لبعض أدباء عصره ولكن نكتفي بما قد أوردنا منها إلى حين ما نتصدّى لمدرسة كِجِلُنْ في الباب المقبل إن شاء الله المنان .

وأمّا أسلوبه فهو متّصف ببساطة ألفاظه وعدم استعماله السّجع لا لأنّه لم يقدر عليه بل كان من شأن الشيخ موسى أن يعتني باستخدام كلمات فطرية المأخذ قريبة المعنى غير متكلّفة وجمله قصيرة منسجمة وان استعمل أحياناً الإستطراد فان لكل كتاب منه تقسيماً متناسق الأطراف ومتناسب الأجزاء . ومنثوره سلس بسيط سهل غنائيّ . ومن صفات أسلوبه ميل بيّن إلى الصحة النحويّة ورغبة ملحّة في تعبير في غاية التواطؤ .

وكان الشيخ موسى كَمَرَ رجلاً سخيّاً ، أميناً رحب صدر طويل أناة ، رقيق جناب سهل مراس سامي همّه سليم قلب سمحاً صريحاً مخلصاً كثير تواضع سريع إدراك وفهم ناقد ذهن نحريراً وخطّه خطّ ابن مقلة وقد قال له كبتين جُولِيَارْ JULLIARD : « أحبّ أن أطلب لك من كُوِرْنُورْ (أي أمير أَنْدَرْ) خطة القضاء تكون قاضياً على سائر من في ديوان مَاتَمْ » فأجابه الشيخ موسى : « لا أقدر على حمل هذه الخطط » فقال له جُولِيَارْ : « ما الذي تقدر عليه من الخطط ؟ » قال الشيخ موسى : « لا أقدر إلاّ على تعليم العربية » . فطلب له ذلك فرفض الشيخ موسى قائلاً : « لا أحب أن أنتقل من داري في كنكل وانا ذو عيال كثير » ورفضه دلّ على أمانته . وقال ايضاً : « اني أحبّ فرنسا وآمر أولادي بتعلّم اللغة الفرنسيّة وآمر كلّ من يحبني أن يحبّ فرنسا ويعلم أولاده لغة فرنسا فمحبة فرنسا قد صارت طبعي ، وفي الحديث « جبلت القلوب على حبّ من أحسن اليها » لأنّ

فرنسا كأنهم جبلوا على محبتي وعلى الإحسان إليّ من غير سبب » وهذا دليل على صراحة صدره .

قال الشيخ موسى كَمَرَ : « ومن العجب ايضاً ان ابا تلميذ لي وهو الشيخ محمد المَقَامِيّ كان يحبّني جدّاً ويفضلني على سائر علماء بلادنا » ... فلمّا رآني كَبْتَانْ مَرْتِي MARTY في دَارِ كُورْنُورْ عند دَكَارْ وتكلمت معه قال لترجمانه بعدي انّ هذا الشيخ إذا توازن مع عشرة من علماء سِنِكَالْ لرجحهم أي يكون وزنه راجحاً أي أثقل من أوزانهم » .

قال مَرْتِي وأَحسن : « فان القول ما قالت حذام » . لأنّ الشيخ موسى كَمَرَ إن لم يكن اكبر كتّاب السنغال فهو من كبار أدباء بلادنا قديماً وحديثاً . وهو أرسخ منهم قدماً في ارض السنغال اذن هو أكثر منهم أصالة في الأدب وأوسع منهم ثقافة إذا تبارزوا بلغة العرب لقد جمع ما أعجز اهل عصره فانه اكثر منهم كتابة في الفقه والتصوف والطبّ والنحو والتأريخ والأدب . وبالجملة فقد كان الشيخ موسى كَمَرَ الجاحظ السنغالي إذا استثنينا ما في الجاحظ من هزل . وقد علم أنّ اللغة العربية تستطيع أن تكتب بها العلوم فأفلج حجّته بتأليف كتاب في الطّبّ الأهليّ السنغاليّ دون الاكتفاء بنظم قصائد او بعلاج مواضيع فقهية وتصوّفيّة فقط .

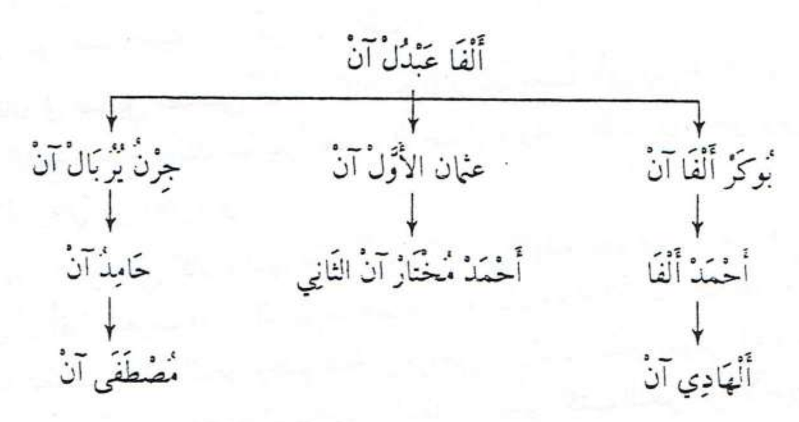
فنفعنا الله ببركاته وبعلومه وأعاننا على استخدام جيّد لما ورثنا عنه من كتبه العديدة ومن اعمال فكره الثاقب بجاه سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم آمين .

مدرسة كِجِلَنْ

ولقد كان للشيخ موسى كمر اصدقاء كثيرون ومنهم من اورد بعض اشعارهم مثل « احمد مختار المعروف بسَارْنْ يُرْبَالْ[1] العالم العامل والصالح الكامل والولي

(١) انظر المجموع النفيس ، مخطوطات ايفان رقم ٦ من صفحة ١١٣ .

الواصل » قد أَسست قرية كِجِلُنْ في ايام أَلْمَام عَبْدُلْ « لما أَمر كُلِيَابِ بالارتحال إلى هذا المكان وارتحل اهل آن معهم » . وهذا الموضع واقع على ٣٧ كيلومتراً من شمالي ماتم على ضفّة النهر وهو اهمّ مدرسة أَدبية في منطقة كَنَارْ قد بناها جِرْنُ سِرِي « ليقوم بحراسة المخاضة عن البيضان » وكان جِرْنُ يُرْبَالْ حامل لواء هذه المدرسة هو وجِرْنُ سِرِي مؤسس كِجِلُنْ وأَلْمَام عَبْدُلْ وسليمان بَالْ قد تعلموا في جامعة بِرْ في منطقة سَجَغُورْ في كَجُورْ . فدونكم شجرة نسبه .



ومن كبار ممثلي مدرسة كِجِلُنْ بعد جِرْنُ يُرْبَالْ اخواه عثمان وبُوكَرْ واحمد بن بُوكَرْ وحَامِدْ آنْ تِلِّرِ بن عثمان آنْ ووالد مصطفى آنْ والأخير هو الذي في قيد الحياة الآنَ .

ولم يخبرنا عن حياة جِرْنُ يُرْبَالْ إلا الشيخ موسى كَمَرَ والسيد عُمَرْ بَهْ الباحث في (إِيفَانْ) ومصطفى آنْ . وعلى حدّ قول عُمَرْ بَهْ فان جِرْنُ يُرْبَالْ قد توفي سنة ١٩١٧ م في دَكَارْ وكمثل الأدباء السنغاليين قد تعلّم في تِشَكَّنْتَ بِمُورِيتَانِيَا واتصل بالشيخ سَعْدَ بُوهْ وصار تابعاً له فأعطاه شيخه الورد القادري . غير انه كان السيد مُودُ مُحَمَدْ عَالِمُ السابق ذكره الأديب النحرير معلّماً له وأعطاه الورد التجانيّ . ولأجل ذلك كان لجِرْنُ يُرْبَالْ تلاميذ تجانيّون وأتباع قادريّون معاً . وهذا أمر نادر .

ولمّا كان في آخر دراسته ارتحل إلى كِجِلُنْ وحلّ بها حيث كان عثمان الأول أخوه الكبير يترأس مدرسة الفقه فقد لقّبوه بلقب الأول لأنه كان يعرف حقّ المعرفة الجزء الأوّل لمختصر خليل ويدرّسه جدّ التدريس . ولما توفي عثمان الأوّل

خلفه جِرْنُ يُرُبَالْ في إمامة المدرسة الفقهية بعد فترة قصيرة كان بها احمد مختار الثاني بن عثمان الأول مديرها بالنيابة . ولأحمد مختار هذا لقب الثاني لأنه كَانَ يُحْسِنُ تدريسَ الجزء الثاني لمختصر خليل .

كان جِرْنُ يُرُبَالْ يعلم الفقه واصول الفقه وشتى فنون مثل التوحيد والتفسير والحديث والمنطق والنحو والعروض وعلم البلاغة أي المعاني والبيان والبديع نرى أنه كان يدرّس مجموعة علوم الدين وعلوم الدنيا . فدلّ هذا البرنامج الكامل على سعة علوم من كان يتولى تعليمه . قال الشيخ موسى كَمَرَ فيه : « فذكره أشهر من نار على علم وصيته أسير من بدر الظلم » .

قال لي صديقي مصطفى آنْ : « كان جِرْنُ يُرُبَالْ معلماً لأبي وشيخه في البيان وكان الشيخ الحاج مالك سِهْ يقرأ عليه « الاحمرار » وهو كتاب في النحو لِابْنِ بُونَهْ الموريتانيّ من اهل بَابو » .

ومن العلوم التي كان يعلمها جِرْنُ يُرُبَالْ كانت الأولية لعلم البيان . فلا حاجة لي في أن أقول للعرب ما هو البيان عندهم غير أنه كان معناه الأدب والبلاغة معاً . فابتدأ الطالب بتعلم النحو وعلم اللغة والعروض . وكان المعلّم يدرس المقامات الحريرية ويشرّحها ويفصلها ثم يواصل بالمعلقات وبشتى كتب النحو مثل الآجرومية وألفية ابن مالك وملحة الاعراب والاحمرار واعانة الطّلاّب في فهم ما خفي من الاعراب [1] لأحمد أَلْفَا بن بُوكَرْ أَلْفَا والمقدمة الكُوكَبِيَّة وغيرها ومن المعلوم أَنّ شيخ شيوخ هذه المدرسة هو جِرْنُ يُرُبَالْ ولم يحفظ من آثاره إلاّ القليل وقد أورد الشيخ موسى كَمَرَ ومصطفى آنْ بعض أشعاره .

قال الشيخ موسى : قد كان رضي الله عنه مدحني بقصائد منها هذه القطعة وهي :

يــا من سما بحقائــق العرفان وبجـوده فاق الــورى بزمـان

يــا شيخ يــا سميدع اهلـــــه ومنـــور الأخـــوان والجيران

---

(١) وهو قصيدة ارجوزية في ٤٧٥ بيتاً ولنا المخطوطة في إيفَانْ .

يــا ذا الذي ما مثله في عصره | جمّ الرماد مرهّــق النيران
وعلوت ثم علوت يــا بدر الهــدى | ونطقت قول الحــق بالبرهان
شاع الفضائــل منك في الســودان | نلت المنى والفــوز في البيضــان
لا زلت في أمن الإلــه وحفظـــه | ما دامت القمــران في الملــوان
صلى الإلــه على الرسول المصطفى | هادي الأنام مبلّــغ القــرآن
والآل والأصحاب والأزواج مـا | نطق الفصيح الشعر في العربان

وقال ايضاً الشيخ موسى كَمَرّ : « وقد كان في بعض الأيام نازلاً عندنا بكنكل فلما أراد الارتحال قال :

وداع محب لا يزيغ وناصــح | صفوح عن الزلات عن كل صاحب
إلى خله لا بل وبزة قلبــــه | وقاه اله الخلق كــل المعاطب
عنيت بقولي شيخ موسى وكفّه | يفيض بها كل المنى والرغائب
فلا زلت في أمن الإله وعصمة | واكمال أمر الدين من كل جانب
عليك بنفسي في الدعاء وغيره | ولا تنسني يا ذا الصفى والمــواهب
قد أحسنت فيك الظنّ يا خير صاحب | جعلتك ترسي دون كــل المعاطب

إلى غير ذلك من قوله فيّ رضي الله عنه وارضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه . وقد نزلت أنا يوماً في قريتهم كِجِلُنْ فجاءني يسلم عليّ قائلاً :

وزرنا كُمُويَا شَيْخُ مُوسَى وأنتمــو | سراج الهدى والدين والأمن والهنا
وزائركــم راج إلى اللـــه زلفـــة | ونيل المنى في الدار الأخرى وفي الدنا
أتيتك أشكــو حاجــة عندكم نعم | فلا بدّ لي منهــا وثمــرك يجتنـــى

فمن الأسف أن يقول الشيخ موسى : « وله غير هذا فيّ تركته للاختصار » ولكن قال قبل ذلك ما يلي في « زهور البساتين » : وقد مات هذا الشيخ مود محمد عالم آخر يوم من شعبان عام ١٣١٤ من الهجرة وقيل أول يوم من رمضان ورثاه سارن يربال بقصيدته الميمية التي مطلعها :

يا بخل عيني التي لم تــذر كالدّيــم | طول الزّمــان على حبري فوا ألمي
واشجو نفسي وبثي بعــد غايتهــا | بعد المنوّر علم الديــن في الأمم
في أول العمر نــال العلم اتقنـــه | مع التقى والنقاء واصل الرحم

على قلوب الرجال بثه ولــــه ... مع التلطف حسن الصيت والشّيم
ذو الصبر حقّاً على كدّ الطلاب نعم ... وحبّذا أدب باللين والكـــرم
كم أبلغ العلم والأحكام أهلهما ... حقّاً فيا لك مـن علم ومـن حكم
شيخي محمد شيخ العلم والـــورع ... شيخي محمد شيخ العرب والعجم
بحر العلـوم رخيم الصـوت واحزني ... بحر السخاء جميل الفعـل والكلم
نعم الجليس أبو عثمان وا أسفـــي ... ابكي عليه بكـآ الثكلان ذي وجم
ابكي عليه إذا مـا مشكل نجمـــا ... وهـاب عنه رجال الفهم والبهم
ابكي عليه بكـآ الأيتام والدهـــــم ... وكم بكيت وكم ابكيت كم وكم
مـا لـذّ مـا لـذّ لي نـوم ولا وســـن ... لمّا نعيت بموت الشيخ ذي الكرم
يا رب يا رب يا رحمان خالقنـــــا ... اغفر لشيخي بحـقّ البيت والحرم
يا اللـــه يا اللـــه يا غفّار بارئنـــا ... اغفر لشيخي بحـقّ اللـوح والقلم
اجعل لـــه جنّة المـأوى وزخرفهـــا ... نزلاً بفضلك يا ذا العفــو والقـدم
واجره يا الهـي فوق منيتنـــا ... له بجودك يوم الحصر والندم
بـوّأ بفضلك روح الشيخ سيدنـــا ... أعـلى الجنان أيـا ذا الفضل والنعم
يا أرحم الراحمين ارحمـــه انّ لـــه ... حسن الرجاء إلى رحمـــاك والعصم
أمنــه روعة يوم الخــوف والنصب ... واغفر خطيئته يا ماحي الأثم
قد صار ضيفك يا مولى المواهب يا ... خير الذي يرتجى في الضيق والهمم
بارك وبرّك عــلى أولاده واجعــل ... فيهم خليفته يا بارئ النسم
صلى الإله على خير البرية ما ... تبكي الحمام على الأغصان والأطم
وآله الغرّ والأصحاب مدّة ما ... قد قــال ذو الحزن وانفسي وا ألمي

قال جرْنْ يْرْبَالْ موصياً لطالب له بالجدّ في طلب العلم :

أيا طالباً نيل العلوم وجمعهـــا ... عليك بالصبر في الأهانة والدل
وجوع وعري والخنى وغرابـــة ... وقلّة فكر في المدائــن والأهــل
وعن صحبة الهندات كن أنت هاربا ... واصغ هذا القول أن كنت ذا عقل
كما قال غوث الناس سيدي شيخنا ... وطاعته غنم لــذا القول والفعـل
وما أفسد الألــواح والهمّ والتقـــى ... كبيض التراقي من اليهنّ ذو وصل

وشيخه هذا كان هو الشيخ سيدي بابه من كبار المرشدين الموريتانيين المتوفى سنة ١٩٢٤ م فنفعنا الله بعلوم جرن يربال رحمة ربّنا تعالى عليه آمين .

الشيخ مُحَمَدْ عَبَّاسْ آنْ

قال الشيخ موسى كَمَرَ في « المجموع النفيس » : ومن ساداتهم بالعلم الشيخ محمد عباس الفقيه اللغوي النحويّ الشاعر الأديب نفعنا الله بعلومه آمين وكان من اهل العلم والفهم جداً وهو القائل في حين لقيته في البُوسْطَةِ[1] بَكلْ في المحرم افتتاح عام ١٣٤٥ من الهجرة :

حيِّيت من لقب شيخ ومـن موسى ... ومـن ازالـة آفات ومـن بوسى
ومـن تأسيك في اوصافـه عيسى ... ومـن تعاطي أكفّ منك ملبـوسا
لا زال فيضك بالأمـداد مكتنفـا ... وعين عزّك بالاحسان محـروسا
لا شك والدّهر قد أبـدى مسرّتـه ... على معنّى يعـاني الشوق محبـوسا
شلّت يد الحزن من رؤياك خل كما ... أنسى لقاءك معقـولا ومحسوسا
لو ناجت الحلم من ليـلي متيّمهـا ... لكان يحدي اليها العيس فـالعيسا
عـن وصف ميـة والآرام تشغلني ... وأضرب الذّكر عـن سلمى وبلقيسا
أكرم به من لقاء ما يخاف به ... مسّ الأذى من ضنى تخشى وتفليسا
لكـن احادث من شعر معسّلـة ... يحظى بها رائـم التّنفيس تنفيسا
لا تشمئزّ ولا تـدري مداهنـة ... ولست تفشي بقاء الدّهر نامـوسا
وحيث ناجاك مهـد في هديّتـه ... فكفّ يمناك تبديهاً قراطيسا
اوتيت بسطة ما تهـوى مؤسّسـة ... في العلم والجسم من مولاك تأسيسا
فقت المجاري حتّى ظل معترفا ... لدى التصلّي وما ابقيت تلبيسا
نعوذ باللـه من دنيا نكـون بهـا ... لا شيخ فيها نحيّيه ولا موسـى
صلّى على المصطفى المختار من مضر ... ربّ به قدّس الإسلام تقديسا »

- -

(١) كلمة فرنسية معناها الثغر .

جِرْنُ حَامِدُ آنْ أَحْمَدْ تِلُّرِ (١٨٨٩ - ١٩٥٦ م)

مات جِرْنُ يُرُبَالْ وشيخه ومرشده الشيخ سَعْدُ بَوهْ في عام واحد اعني سنة ١٩١٧ م وكان حَامِدُ آنْ بن عثمان الأول تلميذه اكثر شهرة من علماء مدرسة كِجِلُنْ بعد موت عمّه . ولد في كِجِلُنْ عام ١٨٨٩ م وترعرع فيها وقرأ القرآن الكريم على عمّه جِرْنُ يُرُبَالْ ثم ذهب إلى بُكِجَوِ يتعلم الفقه على الفقيه الشهير المعروف بالحاج مُخْتَارْ سَاخُو المتوفى سنة ١٩٣٤ م . وكان هو من رسوخ القدم في الفقه بحيث كان البيضان يستحضرونه عندهم في موريتانيا لقطع مشاكل فقهيّة عويصة وهو معلم حامد كن أبي الشيخ حَامِدُ كُنْ صاحب كتاب (المُغَامَرَةِ المُشْتَبِهَةِ) . ثم ذهب إلى موريتانيا عند اولاد دِيمانَ شأن أغلب ادباء السنغال وكان شيخه الموريتاني السيد محمد دَادَهَ أبا رئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية وله أيضاً عند البيضان الشيخان وهما العلامة يحظى ولد عبد الوَدُود والولي الشهير الشيخ سِيدِ يَهْ وبعد اقامة ١٨ سنة عندهم رجع حامداً إلى وطنه في مَاتَمْ حيث تزوج بِسُخْنَ عَائِشَةَ كَنْ أُمَّ مُصْطَفَى آنْ .

وعلى حدّ قول السيد عُمَرْ بَهْ عرف جِرْنُ حَامِدُ آنْ حياة مغامرة وجاب الطرقات والدّروب وكان راحلاً حقيقياً حتّى لم يبق منه اثر لذويه في الأخير . ولكنه جاء ذات يوم في سفر إلى دَكَارْ مع شيخه الشيخ سَعْدَ أَبِيهِ بمناسبة دعوة من أمير افريقيا الغربية الفرنسية فتوفي في دَكَارْ بنفسها سنة ١٩٥٦ م وهو ابن ٦٧ سنة كما اخبرنا عن ذلك ابنه مصطفى آنْ في هذين البيتين :

توفّي الوالد في يوم الخميس ... من بعد أن بثّ لنا العلم النّفيس
وقت الضحى من بعد ستين سنة ... وسبعة زيّن فيها زمنه

الشاعر : قال لي مصطفى آنْ انّ جِرْنُ حَامِدُ آنْ أباه قد ترك ديواناً ضخماً ذهب به إلى قرية « فُنْجُنْجَ » في السنغال ابن اخيه مختار آنْ وقد صدّر هذا الديوان أديب موريتانيّ وفي المقدمة ترجمة الشاعر وتبرز هذه الحكاية التالية المواهب الشعريّة لحَامِدُ آنْ .

لقد جرت بين محمد وُلْدُ أَحْمَدْ يُرُ وبين أبي مَدْيَنْ الصهر للشيخ سِيدِ يَهْ نقائض شعرية . فاستحضر امير أَنْدَرْ الشاعرين وصادر اشعارهما آمراً بصاحبيهما

المتخاصمين ان يعدلا عن المشاجرة الشعرية . وكان ولد احمد يُرُ يتّهم جرْنُ حَامِدُ آنْ بأنّه أعان أَبَا مَدْيَنَ على نظم اشعاره فحينئذ استدعى دُودُ سِكْ المشهور بابن المقداد حَامِدُ آنْ وقال له : «كنتَ ذاهباً إلى موريتانيا لتحصيل العلوم والآن أنتَ بحر زاخر في الفنون فلله الحمد فارجع إلى السنغال مسقط رأسك ولا تعد تتدخّل في أمور تجري بين البيضان» فتبع جرْنُ حَامِدُ آنْ ما اسدى اليه مواطنه من نصائح . وهو الذي قال عندما كان وُلْدُ أَحْمَد يُرُ يتحدّاه في المشاجرة الشعرية :

يَا غَادِياً تَرْكَبُ الأَهْــوَالَ وَالْخَطَرَا ... وَتَطْلُع البيدَ كَيْمَا تُـدْرِك الوَطَرَا
فَبَلِّغَنْ كُـلَّ قُحٍّ مِنْ بَنِـــي زَمَنِــي ... أَنِّي تَوَجَّهْتَ أَنِّي أَشْعَرُ الشُّعَرَا

وله ايضاً في الفخر :

أنــا شاعر البيضـــان والسودان ... ترب القصائد فارس الفرسان
وأنــا المجيـد سليقـة وجبلّـة ... كالليث عنـد تزاحم الأقران

وقال ايضاً مفتخراً :

سبقت بحمد اللـــه كلّ قريني ... ورضتُ بحـــول اللـــه كلّ حرون

وافتخر قائلاً :

إذا يلفى سواد الجسم لــوني ... فأخلاقي وعين اللـــه بيض

قال الشيخ موسى كَمَرَ في المجموع النفيس : «ومن ساداتهم بالعلم العلامة الفهامة النحويّ بل المتفنن الشاعر المفلق الأديب المنشىء البليغ اللغوي سارن حامد بن سارن تلّر عثمان ومما كتبه إليّ من البراوات في بعض الأحيان :

«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وسائر الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين اما بعد فانّه سلام اشهى من الرحيق المختوم وتحية أبهى من الدر المنظوم قال الشاعر :

منّي سلام إلى من لست انساه ... ولا يملّ لساني قـطّ ذكراه
ان غـاب عنّي فانّ القلب مسكنـه ... ومن يكـون بقلبي كيف أنساه

قال آخر :

سلام حوى الخيرات والأمن واليمنا : فكان السوى يسري وكان هو اليمنى .
من كاتب الحروف إلى السيد العالم العلامة والحبر الوليّ الناسك الفّهامة والعيلم

النحرير الدرّاكة النقّادة حامل لواء ورثة الأنبياء الذي انشد فيه لسان الحال بيت الشاعر :

ونادى المعالي فاستجابت ندائـــه ولو غيره نـادى المعالي لصمـت

شيخنا واستاذنا ووالدنا قدوة السالكين ومربّي المريدين صديقنا وقرّة أعيننا واحبّ الناس الينا المعنّي بقول القائل :

حبيـب لا يعادلـه حبيـب وما لسواه في قلبي نصيـب
حبيـب غاب عن عيني وجسمي ولكـن عن فؤادي لا يغيـب

« السيد الشيخ موسى وقانا الله واياه والمسلمين كلّ بؤس بجاه طه وعيسى عليهما الصلاة والسلام فموجبه أن تعلم أيها الوالد الشفيق والخلّ الصديق اننا على احسن حال وأرجو من المولى تعالى بفضله وكرمه ان تكون كذلك هذا واني اعلم جنابكم الكريم إلى آخرها » .

« وكان قد قال فيّ شعراً ايضاً ولكن ضلّ عنّي ذلك وطلبته الآن أيّ طلب ولم اعثر عليه واكتفيت من تعريفه ولمّا رأى تأليف العلامة محمد الخضر بن سيد عبد الله بن مايابا الجكني الذي يقال له « مشتهى الخارف الجاني في ردّ زلفات التجاني » وطالعه قال في تقريظه رضي الله عنا وعنهما وعفا عنا وعنهما وسامحنا واياهما :

حيّ الإله إمامنا نجل مايابـا من صار يرهب اهـل الزيغ ارهابا
وسلّ للدين سيف الحـقّ منصلتـا وصيّر الجاهل الضليل أوّابـا
وصار يزجر اهل الزيغ عن زلـل لم يخش من لامه في اللـه او عابا
واصبحت ملّة الإسلام واضحة والبست مـن لباس النـور جلبابا
واصبح الخلق طرا تحت طاعتـه ما فيه عمّا يريد اليوم مـن يابـا
وأيد الملّة البيضاء حيث غدى يزيـل عنها ظلام الغـيّ فانجابـا
وبيّن الحـقّ بالنص الصريح كمـا امسى ينبّه اذهانـا والبابـا
وبدلّ الغيّ رشداً والعمى بصراً فأوصل اللـه للإسلام أسبابـا
وقوّم الأغبياء بالحـقّ فازدجروا فيهم وانشب اظفاراً وانيابـا
والدين يرفل في زيّ وفي حلل والحقّ ذو صولة والغيّ قد ذابا

والجاهل الغمر امسى من نصيحته ... برّاً منيباً إلى مولاه توّابا
وذو الهداية يقفو نور منهجه ... وذو الضلالة من زلاّته تابا
الحقّ يعلو ولا يعلى فليس يرى ... من حاد عن منهج الماحي كمن آبا
جزاه ربّي إله العرش خالقنا ... جزاء من يرهب الفسّاق ارهابا
اهدى كتاباً إلى الآفاق فيه هدى ... وفيه زجر لمن قد كان مرتابا
تراه يهدي إلى الدين القويم كما ... تراه ينهى عن الفحشاء كذّابا
هو الكتاب الذي لولا فوائده ... لما يطيب لنا عيش كما طابا
نور مبين فريد العصر اودعه ... علماً ونصحاً وأنواراً وآدابا
برّ منيب تقيّ خاشع ورع ... يقفو شفيع الورى نفياً وايجابا
ينهى عن الزيغ ارباب الضلال كما ... يقود للبرّ ابدالاً واقطابا
لا تنسب الدّهر للبخل الذميم إذا ... ما ضنّ بالمرتضى مثل ابن مايابا
ابدى لنا فجزاه الله منّته ... من المسائل ما قد كنّ او غابا
جزاك ربّك خيراً عن شريعته ... كما فتحت لدين الحقّ ابوابا
صلاة ربّي على المختار من مضر ... تحوي وتشمل ازواجاً واصحابا

وزاد الشيخ موسى : « قلت قوله (ما كنّ او غابا) فالأحسن عندي (ما اكتنّ او غابا) ويمكن ان يكون معناه ما كنه هو عنده وعلى كلّ فقد احسن الشيخ جدّاً واجاد ولقد وفى بالمراد » .

كان أبْنُ مَايَابَا هذا من كبار علماء موريتانيا وعاصر الشيخ احمد التجاني قدّس الله سرّه وقد انكر في رسالة جميع المعجزات التي كانت تنسب إلى مؤسس الطريقة التجانية وكان ابن مَايَابَا مجاوراً لِلْحَرَمَيْنِ وجِرْنُ حَامِدْ آنْ قرّظ رسالته بينما قبّحها الشيخ الحاج محمد انِيَاسْ الكَوْلَخِيّ المعروف بالخليفة . امّا الشيخ موسى كمر فانه لم يقرّظ ولم يقبّح « مشتهى الخارف الجاني في ردّ زلفات التجاني » بل اكتفى بهذا الدعاء لأحمد التجاني ولابن مَايَابَا : « رضيَ الله عنّا وعنهما وعفا عنّا وعنهما وسامحنا وايّاهما » .

ولمّا بحثنا عن كتاب ابْنِ مَايَابَا وجدنا انّه انكر على الشيخ احمد التجاني اقواله : « من رآني يدخل الجنّة ، ومن اخذ وردي يدخل الجنّة ، ومن أخذ وردي

يغفر الله له ذنوبه وانّ اصحابي يقضي الله عنهم التبعات يوم القيامة وان طائفة من اصحابي يفوقون الأقطاب رتبة وان صلاة الفاتح نزلت على البكري مكتوبة بقلم القدرة في صحيفة من نور وان صلاة الفاتح لا يحبط اجر قراءتها » وختم ابن مَايَابَا أنّ الشيخ احمد التجاني يدّعي الوحي كما تدل على ذلك اقواله وذلك كفر .

وعلى حد قول الحاج محمد أَنِيَاس أَلّف ابن مَايَابَا « مشتهى الخارف الجاني » بعد وفاة الشيخ التجاني :

أمّا جِرْنُ حَامِدُ آنْ فقد تعصب لابن مايابا على الشيخ التجاني وموقفه من هذا الأمر دلّ على أنّ جرن حامد آن كان يتعوّد التدخّل في أيّة مجادلة ما كما قد أكّده لنا تحزّبه لأَبِي مَدْيَن في قصّة سابق ذكرها :

كان الشاعر كثير الترحال ومن كبار علماء السنغال الذين كان يزورهم الشيوخ البكيّون بطوبى زاوية الطريقة المريدية وكان كثيراً ما يصير ضيفاً للسيد محمد المصطفى بن الشيخ الولي الكامل احمد بَمْبَهْ البَكيّ في قرية يقال لها كَحِيلْ كان هذا الخليفة الأول لأبيه قد بنى فيها داراً رائعة وقال فيها هذه الأبيات :

أيّها الراكب المجدّ ذميلاً	تقطع البيد بكرة وأصيلا
قاصداً مغنى الأحبّة بلّغ	عنّي اليوم ان وصلت وصولا
وحقيق عليك تبليغ ما أر	سلت حقّا إذا بعثت رسولا
بلّغنهم أنّي وجدتُ كَحِيلاَ	قد غدى للزمان طرفا كحيلا
سل سبيلاً اليه واسل سواه	بعيون يريكها سلسبيلا
وبقاع ترى حدائق غلبا	وجناناً ترضى وظلاً ظليلا
بارك الله للذي قد بنى فيه	ويحميه وهو نعم وكيلا [1]
بشفيع الورى وصلّ عليه	يا الهاً فضلته تفضيلا

فقال السيد حامد بن عثمان بن عبد القادر التلري مجيباً له :

يا مريد النوال اقصد كَحِيلاَ	إذ غدى للزمان طرفا كحيلا

(١) لو قال « وهو كان وكيلاً » لأحسن والله تعالى اعلم .

زمّم العيس نحـــوه والمهـــارى تقطع البيد ناجيـــات ذميـلا
تلق سمحاً ندباً اديبـــاً اريبـــاً سيداً ماجـــداً امـامـاً نبيـلا
في رياض الجنـــان ترعى بأمـن وعيـــون تخالهـــا سلسبيـــلا
وكــؤوس تــدار بين النداماـــى من رحيق تخالهـــا زنجبيـــلا
وظبــاء كأنهـــا غصن بـــان وظـــلّ هناك يلفـــى ظليـــلا
وترى الظعن فوق خوص عتاق يوم بين تخالهـــنّ نخيـــلا
بـــل إذا رايت ثم رايت نعيما وفق ما تشتهـــي وملكـــاً جليلاً
وتـــرى الضيف ثـــم في ظـــلّ عيش ناعم البال بكـــرة واصيـــلا
وترى البائس الفقير غنيـــــاً بهدايا هناك تشفي الغليـــلا
لا ترى ثم غير أمر ونهـــي لمريد الهـــدى وفعـــلاً جميـلا
بارك اللـــه في امام جليـــل قد بنى للانام مغنـــى كحيـلا
بشفيع الأنـــام خير امـــــام قد غدى للأنام يهدي السبيلا
فعليه صـــلاة ربّ كريـــم امد الـــدهر بكرة واصيـــلا

ولمّا انتقل الشيخ احمد بمبه إلى جوار ربّه رثاه جرن حامد بن عثمان بهذه المرثية :

جرى الدمع من عيني وحـــنّ كئيب وفي القلب منّي لـــوعة ولهيـــب
لفقد خديم المصطفى خير قائـــد يقود إلى سبل الهـــدى وينيـــب
فأعظم به مـــن ثلمة عمّت الـــورى يحار بها ذو حيرة ولبيـــب
لبيك عـــلى فقد الخديم اخـــو الرجا وذو عاهـــة يشكو الضّنـــى وغريب
وتبكي على فقد الخديـــم شريعـــة وللشعر دمـــع فائض ونحيـــب
وآي كتاب اللـــه جلّ جلاله لها حزن للأصبيـــاء يشيـــب
لقد غـــاب عن كلّ العوامل نورهـــا لشمس الهدى بعد الخديم غروب
ويبكي حديث المصطفى بعد فقـــده وللنحو بـــثّ للفؤاد مـــذيب
وتبكي عليه كـــلّ حين مهـــارق بدمع يحاكي المزن حيث تصوب
ويبكي ضعـــاف والأرامـــل بعـــده وجار يخـــاف النائبـــات جنيـــب
ألا إنما الدنيا خيال لنائـــــم يراها لبيب باطلا واريـــب
وذو اللبّ لا يصبـــو إلى دار غفلة وما لبقاء الحادثـــات دؤوب

اری زینة الدنیا کجیفة دمنـة ... یطاردها بین الذئـاب کلیب
رمتنا الدّواهي بعـده بنـوائب ... تشیب رؤوساً والخطوب تشیب
واصبح دمـع العین فیـه تناثر ... هل العیش من بعد الخدیم یطیب
ولا شكّ أنّ الموت منهل وارد ... لكلّ من الأحیاء منه نصیب
تقلب هذا الدهر مسیاً وبكرة ... دلیل على أنّ الخطوب تنوب
أیا أیّها المغرور لا تك غافـلاً ... أراك نسیب الموت وهو قریب
وكن مستعداً للحمام وهولــه ... وما قد مضى في الدّهر لیس یئوب
ولا تنس ذكر الموت والموت واقـع ... بعید الشباب عصر حـان مشیب
قصارى جمیع الخلق منزل حفــرة ... فسیّان فیها كاهن وطبیــب
ألا فاخش سهم الموت إذ هو صائب ... فسیّان فیه باسل وهیــوب
كفاك دلیــلاً أنّ ذا العرش قــادر ... تصرّفه في ملكـــه ودؤوب
فبینا أسیر اللهو یغترّ بالهــوى ... إذا هو من برد الحیاة سلیب
وان فقد الغـوث القدیم اخو العلى ... فقد علقت بالأنبیــاء شعوب
ولو كـان في الموت المحتم ریبــة ... لما مات خیر المرسلین حبیب
وتلفي خدیم المصطفى خیر ملجــا ... إذا عظمت في العــالمین خطوب
لـدى بابه تقضى الحوائـج للـورى ... وتكشف عن كـلّ الأنـام كروب
عطوف رؤوف بالمساكـــن زاهــد ... خبیر بأدواء القلوب طبیــب
وهوب إذا ما ضنّ ذو الوفر بالنـدى ... وعزّ كریم یرتجـى ووهـوب
صبور على الضرّا رضي بقضائه ... إذا عمّت البلوى وحار لبیب
یعفّر حدّاً للمهیمن ضـارعــاً ... ویقفو سبیل المصطفى ویتوب
ویكشف غیب المشكلات بفهمه ... إذا حار عنها عارف وخطیب
ویعبـد ربّ العرش واللیـل حالـك ... ولیس سوى ذي الكبریاء رقیب
ویرتاح للجدوى ویرشد للهـــدى ... ویرفل في برد التقى وینیب
ومن قاسه بالأولیاء ذوي العـــلى ... وربّ البرایا انّه لكــذوب
إذا كان للأضیاف ذو اللؤم عابســا ... فانّ خدیم المصطفى لطروب
غیاث إذا ما الجدب عمّ على الـورى ... ومرعى لأرجاء البلاد خصیب
وان یسألوني . بالخدیم فانّنــــي ... خبیر بأوصاف الخدیم اریب

إذا اشتدّ هول فالخديم أماننا   وان جلّ خطب فالخديم مجيب
وتلفي وفود المعتفين ببابـــــه   حيارى لجمع المال وهو منيب
وتقتبس الأنوار من نور وجهه   وتغفر زلاّت الـورى وذنـوب
إذا كـان في بعض الشؤون عجائب   فشأن خديم المصطفى لعجيب.
رأيت الخديم المرتضى خير سيـــد   واعظم مدعـوّ لنـا ويجيـب
صبور على الطاعات والحال شاهـد   غياث مغيث قانت ونقيـب
ويقري جليساً يستفيد مواعظـاً   لها في قلـــوب السامعين رتـــوب
ويرتع نـأي الـدّار في روض جوده   كأنّ غريباً في الدّنوّ قريب
يفيدك علماً ان علقت بغـــرزه   ويكسوك اثواب التقى ويثيب
يفرّ إلى المولى من الناس خشية   على بابه من ان يزار رقيب
إذا اختلف الأشياخ في كلّ مشكل   فرأي امام الأولياء مصيـــب
وما آب مـــن يرجـو عطاياه خائبـاً   إذا كان من يرجو النوال يخيـب
وأوصافه قـد أعجزت كـلّ واصف   سيّان فيها باقـــل ولبيـــب
وكيف يعدّ الواصفون صفاتـــه   وقد حار فيها شاعر وخطيـب
كأنك ان بالغت في ذكر وصفـــه   لكثرة ما يثنى عليـه تعيب
ولو كان حيّ يفتدى لخصاله   فداه عديم في الورى وكسوب
وأبناؤه السادات اقطاب ذا الـورى   لكـلّ من الوصف الجميل نصيب
ومـا .منهم إلاّ امـام سميـدع   نماه إلى المجد الأصيل نسيب
بدور الهدى ان اظلم الجهل في الورى   بحور الندى ان كـعّ عنه وهـوب
مصابيح آفاق البـــلاد وكلّهم   ظريف ذكيّ ماجـــد وأديب
وفيهم كريم لا يمـلّ جـواره   وفيهم تقيّ صالـح ونقيـب
وبارك الهي في خليفة غوثنـا   خليفة من يأوي اليـه طلوب
وكم سيد يمضي ويأتي خليفـة   وكم من إمام بعد ذاك ينوب
حباه الـــه العرش خير سعادة   وما يرتجي عبد-هنـاك منيب
ويرقى إلى أعلى الفراديس منزلاً   ينال به ما لم ينله غريـــب
بحرمة من اسرى به خالـق الـورى   اجابة محبوب دعـــاه حبيب
وصلّ على المختار ما قال قائل   جرى الدّمـع من عيني وحنّ كئيب

قال كاتب الحروف عفا الله حامد بن عثمان بن عبد القادر الفوتي التلري فيه يمدح السيد الفاضل الشيخ سيد محمد بن الشيخ احمد بن سليمان الديماني :

اني رأيت الشيخ سيّد محمـد ... حـاز المكارم طارفـاً وتليـدا
شيخ ترى شأو المشائخ قـاصرا ... عن شأوه وترى العفاة وفـودا
تباً لعيس كالهلال سوى التـي ... تفري السباسب نحـوه والبيدا
ورث السيادة سيد عـن سيد ... وحوى المكـارم يافعـاً ووليدا
وترى لديه ذو العناد خواضعـاً ... وترى الجبابر ركعـاً وسجودا
وترى لديه ذوي السماحة بخلا ... وترى المشائخ والملـوك عبيـدا
وتخالـه يوم العطايـا زاخـراً ... وتخالهـم يوم النـدى جلمـودا
وترى طوالـع غيره نحساً كما ... كانت طوالعـه هنـاك سعودا
وترى البليـغ لديه اخرس باقلا ... وتخـال ضرغاً ما هنالك سيدا
وهو الذي أيامـه وشهـوره ... طـول الزمان تخالهـنّ العيـدا
وتخال يحيى يوم جـود مـادرا ... وتخال خنذيـذاً لديـه بليـدا
شيخ تجرد للفتـوة يافعـاً ... وحوى السيادة طرفهـا وتليـدا
وإذا نثرت له الثناء وجدتـه ... شيخاً غياث المرملين فريـدا
والجود لولا الشيخ سيد محمد ... من بعد حاتمه لمـات شهيدا
ولكم حباً للمعتفين نفائسـا ... وكسى العراة مجـاسداً وبرودا
وترى جفاناً كالجـوابي حولـه ... وترى وفوداً بعدهـنّ وفودا
وتراه في زي المعـافر تـارة ... وتراه اخـرى عالمـاً معمودا
وافيته فوجدت اشياخ الـورى ... وملوكهم طرّا لديـه عبيـدا
وصديقه يسقي لديـه سلافـة ... والغير يسقي علقمـاً وصديـدا
قسماً بخـوص يعمـلات ضمّر ... تفري الفلاة مفاوزا والبيـدا
مطلنفكـات رزح ويلمهـا ... عيسا ترى ارقالهـنّ وخيـدا
ما ان رأيت كمثله شيخـاً ولا ... غوثـاً فريـداً سيداً وعميـدا
لا زال يرفل في ثياب سيـادة ... لا زال يقفو والـداً وجدودا
اللـه يعلم لو رأيت زيـادة ... في ذكر وصفك ما وجدت مزيدا
انّي بذكر جميـل وصفك عاجـز ... لو صرت أقفـو عنتراً ولبيـدا

هذي نتيجة فكر قحّ لا ينـي يهدي اليكم قطعة وقصيـدا
فسواد لـون المرء ليس يضره ان لم تك الأخلاق منه سودا

قال كاتب الحروف عفا الله عنه حامد بن عثمان بن عبد القادر الفوتيّ التِلِريّ ناظماً ومؤرخاً لوقائع هذه السنة التي اشار لها بهذه الحروف :

عمّت جهات الأرض انواع الفتـن في سنة تاريخها شر قطـن
ووقعـت واقعـة شهيـرة ومات فيها انفس كثيـرة
لدى دكـار بلـدة الغرائـب ومعـدن الشؤون والعجـائب
مجتمـع القـانص والفـلاح وقائـل حيّ عـلى الفـلاح
واقعـة تعـدّ احـدى الكبر داهيـة دهيـاً وأم العبر
واقتحمت لأجلهـا الأخطـار وفقـدت لهولهـا الأوطـار
وعمّت الخطوب في البـلاد وعظم الهـول عـلى العبـاد
وحـارت العقـول والأفهـام ودهش العـرب والأعجـام
والجـوع عمّ سائـر الآفـاق وطرد الكرى عـن المثـاق
وبيـع نصف الصاع بالرّيـال ودارت الحـرب عـلى الرجال
وتاجر يعـدو عـلى تجارتـه وءامـر يتعب في امـارتـه
وحبس السّيل وقـلّ المطـر وعظم الخوف وجـلّ الخطر
وانشبت اظفارهـا المنـون من وجـل وغـارت العيـون
واغليت بضـائـع التجـار وحبست سفائـر البحـار
وضاق فيه الذرع مـن كبير وشاب فيه الفـود مـن صغير
وبهـت المقيـم والمسافـر ووجـم الأنيس والمسامـر
وجلـت الفتـن في الأربـا واتلفـت فاكهـة وأبّـا
وحـارت الأبصـار والبصـائـر وذهلت عـن اصلها العشائـر
ووقعت في دول النصـارى وقائـع صرنا بهـا حيـارى
وقائـع شاب لهـا الوليـد ودهش الحـاذق والبليـد
وخسفت مـن هولهـا الشموس وفقـد النفيس والنفـوس
مـورد كـل صالـح وطالـح وسابـح في لجـج وسائـح
ونفـذ المأكـول والملبـوس ثم استوى الرئيس والمرؤوس

وكثر التخليط والتلبيس — وجدّ في حيلته ابليس
ووقعت واقعة الأغلال — امسوا مقرّنين في الأغلال
صالوا على الأشراف صولة الأسود — انّ الحسود دائماً ليس يسود
وأسروا وحبسوا تهويلاً — وفتنوا وقتلوا تقتيلا
وغرّب الشيخ حماه الله — وسجن الذي جرى مجراه
ومحيت آياته في القطر — ونسيت أذكاره في الفكر
وصار نسياً في الورى منسياً — وكان وعد ربّنا ماتيّاً
وكثر الحريق في البيوت — ومنع الملوك صيد الحوت
ومسّت البأساء والضراء — وفقد الطرب والسّرّاء
وعظم الخطب على البرايا — وحارت العرب والزّوايا
قلوبهم قد بلغت حناجرا — دموعهم قد بلّت المحاجرا
ومات في ذا العام سِيبَوَيْهِ — زمانه أستاذنا يحظيه
وفيه مات ملك العراق — مردي ذوي الفسوق والنفاق
سيدنا الغازي سليل فيصل — نجل الحسين ذو المقام الأكمل
وآب سيدي إلى إيكيد — م الغرب بعد أمد بعيد
اللّوذعيّ صاحب العرفان — لباب صفوة بني دَيْمَان
وسقطت صاعقة السّماء — باذن ربّ رافع السّماء
على الفتى المهذّب الخضمّ — نجل مَحَنْضَ بَابَ باب العلم
وفيه مات ذو المزايا الساميَهْ — شمس الضحى احمد شيخ العافيَهْ
وبعده شقيقه الشهير — جمّ النوال العيلم النحرير
السيد الغوث ابو المعالي — الشيخ انت ذو المقام العالي
بينهما ميم من السّاعات — كما رويته عن الثقاة
ونعيت في العام بنت وَالِ — زوجة ابراهيم ذي النوال
فاطمة الزهراء ذات السبق — في ما تم سبحان ربّ الخلق
وفيه مات الولد النجيب — الحسن المهذّب الأديب
نجل خليلي احمد المِفْضَال — حائز قصب السبق والكمال
الا ندريّ نجل عبد الله — ذو البرّ والتقوى عظيم الجاه

وفيه مات العالم الكريم — الا ندريّ الحبر ابراهيم
وفيه مات الندب نجل عيسى — وقاه ربّ العرش كلّ بوسى
وبعد ذا العام بجيم أشهر — في المولد المنير خير الأشهر
مات الفتى عَيْنِينْ شمس الدين — قاضي القضاة صاحب اليقين
الا ندريّ فارس القضاء — ذو الأدب المأثور والسّخاء
وبعد ذا الشيخ على التوال — مات الفتى مامس نجل وال
وفيه فقد الحبر نجل الداه — سيد محمد عظيم الجاه
ورحمة الرّحمان ذي الرضوان — على قبور جملة الأعيان
سبحان فعّال لما يريد — من هو لا يفنى ولا يبيد
هلاّ نفوّض أمورنا إلى — ذي العرش والكرسيّ واهب الالى
يا حيّ يا قيوم يا مدبّر — خالق يا بارئ يا مصور
اجب دعاء مذنب دعاك — فما له من خالق سواك
يا واهب العطاء يا ذا النعمة — اكشف عن العباد كلّ غمة
وفرّجن عنهم كروب الدّهر — بالمصطفى المختار خير فِهْرِ
صلّى عليه اللـه ذو العطاء — ما دام ذو القدم والبقاء
وآله ذوي النجاة والفلاح — وصحبه ذوي الكمال والصلاح

قال كاتب الحروف حامد بن عثمان بن عبد القادر الفوتيّ التِلِريّ مؤرخاً لوفاة شيخه الشيخ سِيدِيّ والشيخ احمد بن الشمس :

في بَمْشَسٍ غاب عن العيون — شيخ الشيوخ قرة العيون
حائز قصبَ السبق في الأصول — وحافظ المعقول والمنقول
فاق الورى في الحفظ والرواية — في سائر العلوم والدراية
باب العلوم ثالث الشموس — من كان في الفنون كالقاموس
قطب الرحى سيدي نور الدين — ومأمن الخائف والمدين
يبكي عليه الحافظ البخاري — والسيد العلامة الفناري
يبكي لفقده صحيح مسلم — ونجل حنبل وكل مسلم
تبكي عليه السنة الغراء — والرهن والشفعة والولاء
وقد بكى لفقده التفسير — والنعت والاغراء والتحذير

تبكي عليه السيرة الشريفـــة تأسفاً واللغـــة المنيفـــه
يبكي عليه التـــاج والقامـوس والخبـن والتدبيـح والتجنيس
وقد بكى الناسخ بعد الكامـل كما بكى المنسوخ فيض الوابل
يبكي عليه القصر والمجـــاز والفصـل والأطنـــاب والايجاز
يبكي عليه العطف والترخيـــم والوقف والترقيـــق والتفخيـم
يبكي عليه امـــد الزمـــان علم أصول الدين والمعـــاني
يبكي عليه سائر الفنـــون وجملـة النصوص والمتـــون
يبكي عليه الدهر كـل مذهب بعد بكـاء مشرق ومغـرب
يبكي عليه القبض والهجـــود والرفـع والركـــوع والسجـود
يبكي عليه الـــذكر والتسبيـح والفيض والتحريـــر والتنقيـح
يبكي عليه العائـــذ الطريـــد كما بكـى القريب والبعيـــد
يبكي عليه العـــالم الـذكـي والجـاهـــل السفيـــه والغبي
يبكي عليه الضيف والغريـــب كما بكـى الخائف والكئيب
يبكي عليه البـــائس المديـــن والعاجز الضعيـــف والمسكين
وكـم بكـى لفقـده السخـاء والجـــود والوفـــاء والصفـاء
تبكي لفقـــده بـــلاد الهنـــد كما بكـى عليه اهـل نجد
لفقـــده تبكي بـــلاد الصيـن بمـدمع يفيض كالمعيـــــن
وقـد بكى عليه أهـل فـــاس مثـل بكـاء سائر الأجنـــاس
وقـــد بكى الحجـــاز والعـراق كما بكـى لفقـــده الرفاق
تبكي لفقـــده بـــلاد مصر وأهـــل شنقيط وكـــل مصر
وقـد بكى عليه اهـــل الشام وسائر الأفاضـــل الأعـــلام
لم لا هو العلامـــة الفريـــد والسيد النقـــادة العميـــد
وهل يقـال بعد هـذا الهالك قـال محمد هو ابـن مالك
أخـلاقـــه صافيـــة سنيّـــه وكفّـــه باسطـــة سخيّـــه
مضى إلى سعـــادة الخـــلاق وعمره صدّ عـــلى اتفـــاق
واحشره في زمـرة الأنبيـــاء يـا خالق الجبـــال والسماء
بـــواه الكريـم في الجنـــان بالمصطفى خير بنـــي عدنـــان

وفيه غاب الحبر نجل الشمس   من نوره يخجل نور الشمس
أحمد ذو الوقار والسكينة   حلف التقى مجاور المدينة
غوث الورى النحرير ذو المثاثر   الطاهر القلب جميل الظاهر
من قد بكى لفقده الحطيم   والركن والمقام والتنعيم
بكت عليه الطيبة الغراء   والحجر الأسود والبطحاء
بكت عليه سائر المناسك   وكل عالم تقي ناسك
ورحمة الله على الامام   أحمد نجل الشمس ذي المقام
جزاهما الرحمان جنّتين   بالمصطفى وجاه مروتين
صلى عليه الله خالق البشر   والآل والأصحاب خير من غبر

أَحْمَدُ بْنُ أَبي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ القادر آنْ

ومن سادات عشيرة آنهَانْبِ العلامة الفهّامة جِرْنُ أَحْمَدُ بْنُ أَبي بكر المعروف بُوكَرْ وكان أديباً لغوياً نحوياً . ولنا في إيفَانْ مخطوطة في النحو متنه ولم نعثر من آثاره إلا على هذا الكتاب وقال في مقدمته ما يلي : « ... وبعد فإن هذا المذنب الضعيف الراجي عفو مولاه اللطيف أحمد بن أبي بكر بن عبد القادر عليه دائماً كلاءة الملك القادر كان طلب من الله تعالى ان ييّسر له عقد نثر الإمام العالم العلامة والبحر الحبر الفّهامة محمد بن آجروم ليسهل حفظه لذوي الحلوم فجاء بحمد الله كما طلب منظوماً وان لم يكن من أهل ذلك الميدان معدوداً مضموماً ولم يكن فيه شهيراً معلوماً بل كان ناشئاً ثنيانا ومن الأصاغر منظوماً ولكن قد توجد الرمية من غير رام والله تعالى يولي من أراد كل مرام بمحض فضله من غير شوب تعباً ولا ملام فقال في ذلك معتمداً على القادر المالك :

فلننتخب من ارجوزته نبذاً :

قال الفقير التلريّ أحمد   حفظه من الشرور الصّمد
الحمد للجاعِل في الكلام   النحو مثل الملح في الطّعام
الرّافع المؤمن بالايمان   والخافض المشرك بالكفران
الناصب الرّسل بالدّليل   وحجّة نفت عن التقليل

وجعـل النبي امــام الكـــل   من فضله يـوم اشتداد الهول

وبعـد ذا فانّنـي عقـــدت   ما نثر الحبر وما ورّيــت
محمد هـو آبـن آجـــروم   تسهيـل حفظ لــذوي الحلوم
سميتــه اعـانــة الطّـــلاّب   في فهم ما خفي مـن الاعراب

انّ الكـلام عندهم لفظ مفيد   مركّب بالوضع صن يـا مستفيـد
قد فسر الوضـع بوضـع العــرب   بعض ووضـع العجـم عنـده أبي
وبعضهـم فسره بالقصــــد   مخـرج نائــم بهـذا القيـد
وهـو عـــلى ثلاثـــة الأقسام   ترتيبهـــا يأتيـــك بالتّمــــام
اسم وفعل ثم حرف يجلــب   لأجـل معنى في سواه يطلب
هـل قام زيـد قلــه بالمثـال   لـذي الثلاث حزت بالاكمال
فالاسم بالخفض وبالتنـــوين   عرف أو ال عند ذي تمكين
وبحروف الخفض أحرف القسم   تمييـــزه بان بهـــذه القسم

والفعل يعرف بقـد والسّيـــن   وسوف تا التأنيث ذي التسكين
نحو قد افلح التقـي سيسجن   في النار مشرك فبئس المسجن
وقل كذا سوف يقوم زيـــد   ويرتجى إذا أتانـا الزيـــد

والحرف ما ليست له علامــه   كالاسم والفعل فـدع ملامـه
لكنّما عدمــــه العـلامـــــه   له علامـة لـــدى العلامـــه
كهل وفي ولم فهل فيه اشتراك   للاسم والفعل فجانب من قلاك
والباقيـان في الاسماء ثبـــت   ولم لما ضارع من فعل وفت

ثم قسّم منظومه على ٢٩ باباً فهي باب الاعراب وباب معرفة علامات الاعراب وباب المعربات وباب الأفعال وباب في الجوازم وباب فيما يجزم فعلين وباب مرفوعات الأسماء وباب الفعل وباب المفعول الذي لم يسمّ فاعله وباب المبتدأ والخبر وباب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر وباب النعت وباب عطف البيان

وباب العطف وباب التوكيد وباب البدل وباب منصوبات الأسماء وباب المفعول به وباب المصدر وباب ظرف الزمان وظرف المكان وباب الحال وباب التمييز وباب الاستثناء وباب لا العاملة عمل إنّ وباب المنادى وباب المفعول من أجله وباب المفعول معه وباب مخفوضات الأسماء ثم ختم بهذين البيتين :

وبعد ما أتممت فالمساوي أطلب سترها من المساوي
إذ قلّ أن يخلو من قد نظما بيتاً او اثنين بعيب ينتمي

مُحَمَدُ المُصْطَفَى آنْ

لقد أوردنا سابقاً قطعة شعرية دعا به والد بركة لابن له عند ولادته . وكان هذا الميلاد في كِجِلَنْ سنّة ١٩٢٤ م وسمّى الأب ابنه بالمصطفى وهو سميّ الخليفة الأول للشيخ احمد بَمْبَهْ مؤسّس الطريقة المُرِيدِيَّةِ والمصطفى الأصغر كانت امّه عائشة كَنْ بنتاً للفقيه الشهير القاضي الشيخ حَامِدُ كَنْ جدّ صاحب كتاب (المُغَامَرَة المشتبهة) .

وعلّم الأب ابنه المصطفى آنْ القرآن الكريم وعلوم الدين مثل الحديث والفقه والتفسير ثم علوماً أخرى كالبلاغة وعلم اللغة والعروض وهلّمّ جرّاً في مدة أربعة عشر عاماً . فقد صحب الابن أباه إلى الحجّ ودرس دراسات فقهيّة في دار الحديث بالمدينة المنوّرة وهو كثير الارتحال لطلب العلم شأن أغلب الأدباء السنغاليين . تعلم في فُوتَ طُورُ في موريتانيا . وفي الحال يسافر كثيراً وقد ذهب إلى الساحل العاجيّ وليس نادراً أن يزور البلاد العربية أو رؤساء زوايا السنغال مثل الشيخ الحاج عبد العزيز سه خليفة التجانيين في تواون والشيخ أحمد البكيّ ابن سميه في طوبى والشيخ الحاج ابراهيم أنِيَاسْ في كَوْلَخْ .

وقد كان المصطفى آن من هؤلاء الشبّان الذين تعلّموا في جامعة الأزهر بالقاهرة والذين حرصوا حرصاً شديداً على القيام باصلاحات إسلامية وبثورة مقلقة عوائد الدين في افريقيا السوداء . والأمر يتعلق بالحركة الإصلاحية التي رنّت بها الآفاق حوالي سنة ١٩٤٧ م . فانّ نياتهم لطيّبة غير أنّ الوسائل للوصول إلى أهدافهم كانت على جانب عظيم من فشلهم التي انصات به العالم . لقد أراد هؤلاء

الإصلاحيون قتال الشيوخ (المُرَبِّينَ) مذيعي الجهالة والرّكود والتجمّد كما قالوا . وزعموا انه لا بّد من أن يصلح التعليم . فاذن ينبغي للمسلمين ان يحسنوا اللغة العربية حتّى لا يتورّطوا في زيغ المفّسرين الأقدمين ولذلك عليهم ان يذهبوا مذهب الوهّابيّة [1] . ومن المؤسف أنّ هؤلاء الشبّان لم يقدروا على استمالة قلوب الجماهير التي قد اخذ بمجامعها الشيوخ وسوّلوا لها .

وفي السنغال كانت فرقة من هذه الحركة الإصلاحية وسمّيت بـ (جمعيّة الثقافة والتربيّة الإسلاميّتين) وكانت لها مدارس ومنبر صحافة وهو (صوت الإسلام) وكان مديره المسؤول ورئيس تحريره المصطفى آنْ .

آثار المصطفى آن : قد كتب المصطفى آنْ الذي يسكن الآن في مدينة جِيسْ عدّة مؤلّفات وله (ارشاد الحيران في حكم شرب الدخان) قد طبع بمطبعة عبد الله جُوبْ في دَكَارْ . ومنظومة في السيرة النبويّة الموسومة بـ (نسمات السحر) وكتيباً في النحو واللغة سمّاه (منفعة الأليف في علميّ اللغة والتصريف) وكتاباً في تأريخ أمريكا وهو (تزيين الممالك في تأريخ ظهور أمريك) وألّف كتاباً في تاريخ تكوين الكعبة في مكّة المكرمة وهو (قلادة الغادة) ولمّا طرأت عليه حادثة في سيّارة سافر بها كتب ما سمّاه (المصطفى في المستشفى) وألّف أيضاً (حياة الشيخ أحمد بَمْبَهْ) و (نحر الآبال في ذكر أدباء السنغال) و (لآلى الطّلاّب في السّؤال والجواب) و (كتاب الايضاح والتنوير في الخلاف بين الحاج محمد سعيد والحاج سَعِيد نُورُ) و (كتاب الإسلام والثقافة في الجمهورية السنغالية) .

وعندنا عدد ٢ من (صوت الإسلام) في سنة ١٩٦٥ م وكتب فيه المصطفى آن الافتتاحيّة وثلاثة مقالات فدونكم نبذة من المقال الذي وسم بـ (الإسلام في أوربا أمس – واليوم) :

---

(١) هي من الفرق الإسلامية وأسّسها محمد بن عبد الوهّاب (١٧٠٣ – ١٧٨٧ م) واطلق عليها أخصامها هذا الاسم وأما أتباعها فسمّوا أنفسهم « الموحّدين » ودعوا طريقتهم بـ (المحمدية) ويذهبون مذهب ابن حنبل في الفقه .

« تفضل أحد سادات البلاد وقدم لنا موضوعاً سجلته براعة الشاعر الفرنسيّ الكبير الأستاذ (لاَمَرْتينْ) يتناول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورأي هذا فيه ، فانّنا حين نذكر لهذا السيد شدّة فرحنا لصنيعه نشكره ولأمثاله من الغيورين على الإسلام ثم نقول انّ للإسلام في أوربا جيشاً عرمرماً من لاَمَرْتِيِّينَ كثيرين من الكتّاب والقوّاد والملوك والفلاسفة قد شهدوا لنبي الإسلام بأنه أكبر مرشد انجبه العالم منذ بدء الخليقة كما شهدوا لديانة الإسلام بأنها أصلح وأعمّ شريعة قد وجدت للإنسانية جمعاء ، وفي هذه العجالة سأتكلّم عن الحضارة الإسلامية التي أفادت أوربا في عصورها المظلمة كما سأتكلّم في موقف عظمائهم حيال النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أذكر حالة الإسلام في أوربا اليوم والعهد الآن كالسّابق » .

ثم ابتدأ بفتح إسبانيا وجنوبي فرنسا وجزء من إيطاليا وتحدث فيما أعطاه المسلمون لأوربا من تراث اليونان تحت إشراف الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرّشيد (٧٨٦ – ٨٣٣ م) . وذكر ما ورثه الأوربيّون من مؤلفات العلماء المسلمين في الطبّ والحساب والفلك وقال : « وفي سنة ١١٣٠ م قامت في طليطلة مدرسة الترجمة بادارة المطران ريمُونْ (Rémont) وبدأ المفكرون الغربيون ينقلون من العربية إلى اللاتينية مؤلفات العلماء المسلمين ... وفي جنوب إيطاليا عمد دير مونت كاسنو إلى نقل مصنفات الأطباء المسلمين إلى اللاتينية ؛ هذا ومن أشهر أطباء الإسلام أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي زاد عدد مصنفاته على المئتين ، وقد نقل اكثرها إلى اللغة اللاتينية وظلّت هذه المصنفات هي المرجع الأوّل لأطباء الغرب حتى أواخر القرن السابع عشر م كما اشتهر في القرون الوسطى الطبيب ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الملقب آنذاك بأمير الأطباء وكان عالماً وفيلسوفاً كبيراً وفلكيّاً وشاعراً . ولقد ظلّ علماء الغرب يدرسون كتابه (القانون في الطبّ) مدّة ستة قرون » .

ثم ذكر أنّ الخليفة أبا جعفر المنصور هو أول من أسّسَ المستشفى للعميان كما أسس بعده حفيده هارون الرشيد المستشفى لتعليم الطبّ وزوّدوه بالمؤلفات العلمية النفيسة . ثم تحدث عن المكتبات العربية القيمة للعرب في العالم وقال : « قد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس من الكتب ما لا يكاد يوجد له نظير إلاّ في

نادر من المكتبات العصرية وفي هذه المكتبة ستمائة ألف مجلد وكانت قائمة أسمائها وحدها واقعة في أربعة وأربعين مجلداً ، ولقد كان في الأندلس وحدها سبعون مكتبة » .

وقبل أن يختم المصطفى آن مقاله ذكر انّ اختراع جهاز لقياس ارتفاع الشمس نسب إلى الفلكيّ ابن يونس وذكر أيضاً المحاولة الأولى من نوعها في عالم الطيران لابن فرناس الأندلسي في القرن الخامس عشر وتحدث في أبحاث أبي العباس الفرغاني الفلكي وابن الزركليّ الفلكي .

أمّا رسالته المسمّاة إرشاد الحيران في حكم شرب الدخان فجابه المصطفى آن الآراء المنافية له بعد نظرة وجيزة إلى أصل شرب الدّخان ثم أورد ما قال فيه فقهاء المذاهب الأربعة ثم ختم قائلاً : « وقد سألتني أيها الأخ في الله عن انتشاره في العالم فأجبتك بأنّ انتشاره قد جاوز الحدّ كثرة بل لا توجد ديار إسلامية في القارات الخمس أعني آسيا وافريقيا وأوربا وامريكا واستراليا إلاّ وأهلها يستعملونها تدخيناً وممن شهدتهم عياناً يستعملونها سكان افريقيا وآسيا وأوربا . وأما سكان أمريكا واستراليا فقد نقلت عن ثقاب بأنهم يستعملونها تدخيناً . وأما انتشاره في افريقيا فحدث عنه ولا حرج وذلك من مراكش إلى الجزائر إلى تونس ولا سيما في افريقيا الجنوبية ، وأما انتشاره في آسيا فيكفيك منه رغبة أهل الهند فيها مع كثرة عددهم حيث عدّ في باكستان وحدها خمس وسبعون مليوناً من السكان وسكان أفغانستان وايران وأهل الشام من سوريا ولبنان وفلسطين وكذلك العراق ولا سيما في أرض الحجاز خصوصاً الحرمين وقد شهدت عياناً أن أهلها يكرمون القادم اليهم . وقلّ ما تعارفت مع واحد منهم ثم تجده في المقهى إلاّ وناولك سجارة إكراماً لك وبسبب كثرته في الحرمين قال (عباس كراره) في كتابه الدين والحجّ ما نصه : « لا تتعب نفسك على حمل السجاير فانها في الحجاز أرخص وفيها كل نوع شئت » . وأما انتشاره في أوربا فيكفيك منه كونهم هم الذين يتولون صنع هذه السجاير في أنواع متعددة » .

وأمّا كتابه (حياة الشيخ أَحْمَدَ بَمْبَهْ) فهو مختصر كتاب الشيخ محمد الأمين جُوبْ الدّكني المسمّى بـ « إِرْوَاءِ النَّدِيمِ من عذب حب الخديم » (ولنا مخطوطة

في إيفَانْ) . واحتوى الجزء الأول على مولد الشيخ أحمد بَمْبَهْ ونشأته وقراءته على الشيخ القاضي مَجَخَتِ كَلَ وجوابه لكلام بِرْنْ طَيِّب بعد وفاة أبيه وشروعه في التأليف ورسالته إلى المريدين . وهاكم فهرسة أبواب الجزء الثاني .

ففي ميدان العمل وفي ميدان الشؤون الاجتماعيّة ورسالة الشيخ إلى الحاكم الفرنسي وخروج الشيخ من داره لتلبية نداء الحاكم وركوب الشيخ في الباخرة إلى كَنْغْ وعودته إلى السنغال وشهادات العظماء له بالفضل ووفاته .

ودونكم ما كتب المصطفى آن في التوطئة : « فلا شكّ أنّ كتابة حياة العظماء باب عظيم للغاية كما لا شكّ أنّه مع عظمته كان شيئاً يعتنى به عند جميع الأمم الراقية ومن غير الراقية ولا شكّ أيضاً أنّ في كتابة حياة العظيم أشياء تهمّ أبناء شعبه وربّما من غير شعبه أيضاً وذلك أنّ العظيم مثل أعلى لروّاد العظمة مهما كانت تلك الناحية التي كان فيها العظيم عظيماً . تخالف ناحية أخرى يعظم فيها أحد العظماء فلا تمنع أن يكون العظيم مثلاً أعلى كما صرّحت به أيضاً سواء قد أنجب الشرق هذا العظيم كعمر بن الخطاب في تعميم العدل لجميع الرّعيّة ومهاتما غاندي في الشفقة على الإنسانية البائسة وابن رشد صاحب المقدّمات الممهّدات في الفلسفة الاجتماعية والغزاليّ صاحب الأحياء في التربية الرّوحية أو أنجبه الغرب كبَاسْتُوْرْ الفرنسيَ في الخدمات الطبّية التي أسداها إلى الإنسانيّة وأَبْرَاهَامْ لِنْكُلْنَ رئيس الولايات المتحدة في خدمة الحريّة ومحاربة الرّقّ » .

« وفي هذه النواحي المذكورة المتعدّدة أي ومن بينها وجدنا في التربية الروحية والخلقية تعظم فيها شخصية فذة عديمة المثال في عصرها ألا وهي شخصية الشيخ أحمد بَمْبَ بن محمد بن محمد حبيب الله البَكيّ خادم النبيّ المكّيّ كما لقّب به نفسه رضي الله عنه وأرضاه آمين » .

« ثمّ انّي أحببت هذا الشيخ منذ رأيت بعيني رأسي تلك الأعمال الجليلة التي قام بها للديانة الإسلامية التي هي ديانة الانسانية وقرأت عنه ما لقيه من الأحداث الهائلة التي تشيب لها النواصي دون أن يرجع قهقرى عما كان ينادي اليه من الاخلاص لله والوطن ومن توجيه أصحابه ومريديه إلى المثل الأعلى ودائماً إلى المثل الأعلى كنت أحببته ورأيت له من هذه الأعمال ما حملني على الكتابة عنه لكن أنّى لي القدرة على

الكتابة عن حياة هذا الشيخ وحظّي في الكتابة ضئيل وضعيف جدّاً كما أن حياته مليئة بجلائل الأعمال التي قلّ ما يوجد مثلها عند شخصيّة من تلك الشخصيات التي تعدّ عظيمة ثم أنّي لي القدرة على الكتابة عن حياة هذا الشيخ الذي بصق على وجه الاستعمار ولطمه بملء كفّه من السخرية التي أبقى على الزمن من الطود الشامخ . لكنّ الحبّ كما قلت حملني على الكتابة عنه وأنّ تشجيع أبناء أمّتي على الاعتناء بمعرفته أرغمني على هذه الكتابة أيضاً فاليكم بني قومي أقدّم هذا الكتيّب عن حياة الشيخ أحمد بَمْبَ الذي أخرج من وطنه ومن بين عشيرته إلى المنفى لأجل أنه يقول للناس اهتدوا فانّ الله يحبّ المهتدين » .

ثمّ وصف حياة الشيخ أحمد بَمْبَهْ بلهجة خطابية بليغة وحدّة وجزالة في اللفظ وشدة في العاطفة ثم ختم قائلاً معتذراً : « قد أتينا على ما أردنا جمعه في هذا السفر المتواضع بعد أن كنا مقرّين لأنفسنا بالعجز لكن نرجو أن نكون قد فتحنا باباً يدخل فيه لتعظيم رجالنا العظماء مع أنّنا نعلم أنّ شعبنا هذا لم يعد ناضجاً بعد ليهتمّ بتعظيم أبنائه البررة ولكن يرجى أن يأتي يوم يكون فيه هذا الشعب كبقية الشعوب العريقة الراقية في تعظيم أبنائها الذين كافحوا لأجلها » .

وإذا لمنا المصطفى آنْ فعلى حدّته في البلاغة التي حثته على كتابة حياة الشيخ أحمد بَمْبَهْ كتابة روائية بدل أن يكتب حياة مؤسّس الطريقة المريديّة بوجه موضوعي يتّفق وحقائق الأمور وليس له الّا عذر واحد وهو شاعر .

أمّا كُتيْبُهُ (الإسلام والثقافة في الجمهورية السنغالية) فقال المصطفى آنْ في باب (التّكَارِيرِ في دورهم الثقافي) يقترن ابتداء نشر ثقافة عربية أولى في فُوتَ بدخول الإسلام فيها حول فُوتَ وأَنْدِيَابِي [1] المتوفّى سنة ألف وواحد وأربعين ميلادية وكان ابنه المسمّى لبى معاصراً لزعيم قبيلة ابن عمر وقد اجتمع به سنة ألف وستّ وخمسين ميلادية وقد أمد ابن عمر بفصيلة ليستعين بها على اخضاع قبيلة كَدَالَة البربريّة . وقد قلنا انّ نشر الثقافة العربية هنا مقترن بوجود أول حاكم مسلم فينا

(١) بل كتب البكري : « وَارْجَابِي بن رابيس » .

ويصحح ذلك دور مدرسة برْ [1] في نشر الثقافة العربية في افريقيا وإدارة هذه المدرسة وتأسيسها كانت بأيدي علماء من التكارير [2] ومن قبيلة بالب الذين نزحوا من فوت وكان الامام مالك سه [3] الذي هاجر من فوت سنّة ألف وخمسمائة وأربعين ميلاديّة والذي يوجد بينه وبين أحفاده اليوم اثنا عشر رجلاً كان خرّيجاً من هذه المدرسة ، اذا فلا بدّ أن تكون المدرسة تقدّمت في تأسيسها قبل أن يتعلّم فيها الامام مالك سِهْ ولا سيّما فالمؤرخون المسلمون كلهم اتفقوا على أنّ دعاة الاسلام حينذاك أي في القرون الأولى لظهور الاسلام يقرنون نشر الثقافة الإسلامية بالدعوة ومن مدرسة بر تعلم كلّ علماء هذه الناحية من سنغال أي نواحي كَجُورْ وجَابُورْ الخ كالسيد محمد خُجَ جُوبْ والسيد قاضي مَجَخَتِ كَلَ . وعندهم (أي عند التكارير) (لعبة فيفير) وهي مصارعة التماسيح في البحر ولأبطالها حشم وخدم ومغنون وأنا أعترف بالذين يسافرون إلى إسْبَانِيَا في كلّ سنة لمشاهدة مصارعة الثيران لو شهدوا مطاردة التماسيح في البحر لشهدوا أعجب مما في اسبانيا ... وعندهم لعبة جيش وهي نوع من الرماية لكن بطلها يكون راكباً على الفرس غالباً وبيده بندقية ويرمي بها أعلى من عشرين متراً وتعود البندقية إلى يده ويفتح نيرانها حالما تصل بيده والنظارة شاخصون إليه بأبصارهم وإذا كرر الفعلة بلا خطأ فإنه البطل المنتصر وأما الذي أخطأ فانه في محلّ السخرية والاستهزاء

وقد سبق لنا القول انّ المصطفى آن هو شاعر بـل من كبـار الشعراء ذوي الأصالة في السنغال اليوم . فالآن ليس يقصر همّه الّا على السّفر ومطالعة الكتب والتأليف منذ حين أصيب في حادث سيّارة وهو يختلف إلى كبار المشائخ العلماء الذين لما وعوا أنّه ذو مواهب غزيرة في النقد عرضوا عليه انتاجهم لينتقده ولكن لا يتلقّى صاحب الانتاج الّا تقريظا .

---

(١) بل هي كانت جامعة حقيقيّة في وسط مملكة كَجُورْ .
(٢) فانّ في هذا القول لمبالغة إذ كان ايضاً علماء شعوب أخرى كَالْوُلُفِيِّين .
(٣) هو مالك سِهْ أَلْمَامِ مملكة بُنْدُ وليس الحاج مالك سِهْ مؤسس زاوية تِوَاوُنْ .

ألّف الشيخ الحاج إبراهيم الكولخي كتاباً مَوْسُوماً بـ (سبيل السلام إلى ابقاء المقام) حينما نبئ أنّ مقام إبراهيم عليه السلام همّ بأن ينتقل إلى مكان آخر .فقرّظ هذا الكتاب بهذه الابيات :

ألا انّ السبيـــل إلى الســلام	هـو المفـضي لابقــاء المقــام
بــذاك الشيخ عــبّرعــن صحاح	مــن الآثار عـن خير الأنــام
أبـا اسحاق أنت حليــف الصدق	كما فالقول مـا قالت حــذام
جــزاك الله ذو الملكــوت خيرا	لـقد انصفـت في هـذا الكـلام
وبيّنــت الحقيقـة حيــث كانت	ومـا ان خـفت لومـة ذي المـلام

ولمّا أنشأت الحكومة السنغاليّة (القانون العائليّ) كتب الحاج الشيخ أحمد البَكِي بن المصطفى بن الشيخ أحمد بَمْبَهْ كتيباً معترضاً على القانون العائلي الرسميّ وسمّى كتيبه بـ (وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا) [1] فقرّظه المصطفى آنْ بهذه الأبيات التالية :

سفــر تحقّــق كــل محتوياته	وبــردّ حلـف البغي عـن شهواته
أبـداه نجل المصطفى وحـفيد من	خـدم الرّسول وفـاق كل لداته
ورأيتـه وقرأتــه فــوجدتــه	متفوّقـاً فـالدّر مــن طياتــه
فالشيـخ يعمــل هادئـاً وفعـالـه	تــدع المقــال معبّراً عـن ذاتـه
عدم النظـير فان تجـد كفؤاً لــه	في عـصره بين الشيــوخ فهاتــه
ان كـان هذا الشعب هبّ مطالبا	انصــافـه في دينــه وحيــاتـه
فـلأنــه في دينــه متلعــثم	حيث الرّقـابة في طريــق دعاتــه
أبنـاء قومي انّ ذا لمــرا مــكــم	فـالصدق غنم الحـرّ في طلباتـه

قد قال المصطفى آنْ تهنئة لفخامة الرئيس الأستاذ المُخْتَار وُلْدَ دَادَهْ رئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية ، قالها من لم يستطع حتّى الآن أن يصل فخامنكم محمد المصطفى آن نجل الشيخ حامد الفوتي التِلِرِي (نزيل نُوَا كُشُوطْ اليوم ٢٥-١-١٩٧٠) .

(١) سورة التوبة الآية ٤٠ .

حيّ الرّئيس الاريحي الباني	في شعبه وأشاد في البنيان
سلم عليه وصب عند حنابه	عطر الورود وأطيب الريحان
يا أيّها المختار يا حلف العلى	هنّأتكم في خدمة الأوطان
قدت البلاد بخطة مدروسة	صيرتها كعروسة البلدان
قد قدتها في حكمة ورزانة	بتبصّر في قوّة الايمان
قد قدتها بتطور وتقدم	حتّى نمت في الفنّ والعمران
لما علمت بأنّ شعباً لا يني	بتخلّف ان عبق عن عرفان
فتحت يداك معاهداً ومدارسا	للشيب والشبّان والغلمان
ولكم فتحت مصانعا ودعمتها	بسواعد أقوى من البركان
ولكم أقمت علاقة مع دولة	أدت لكسب صداقة الاخوان
وأقمتها في تونس وأقمتها	في غيرها كالصين واليونان
وأقمتها في مغرب من بعدما	زال الجفاء لصالح الجبران
وإذا الرئيس مسالم في حكمه	يرضي الشعوب ويعتلي في الشأن

فالمصطفى أراد أن يكون رادّ المظالم فشنّ عدّة حملات على الخيانة والخداعة وعدم الاستقامة اذا أبصرها عند المسؤولين عن (جمعيّة الثقافة والتربية الإسلاميّتَيْنِ قال في بعضهم : « مقصورة قالها محمد المصطفى آنْ يذّم شابّاً كان قد سوّلت له نفسه بجمع الدراهم ادّعاء منه بأنه يبني مدرسة عربية فاذا هو يبني قصراً للسّكن وللكراء انا لله وانا اليه راجعون .

لعن الاله فتى يجول بأرضنا	متسوّلاً لينال في ذاك المنى
قالوا بنى قصراً لكثرة ثروة	من غشه وأشاد في ذاك البنا
لكنه جعل الكراء لقصره	كوسيلة لمهرول نحو الغنى
والعرب قد دفعت اليه معونة	لثقافة تعزى لها لا ما عنى
أخبث به وبسعيه وبفعله	ولقد أبته أرضه وأتى هنا
كم جاب بين مكاتب ومتاجر	يبغي الفلوس بخفية لن تعلنا
ويريد منا العار وهو حليفه	وكم ادّعى ببناء فصل عندنا
كذابا به وبجهله أهدافنا	أهدافنا تثقيف أقوام لنا

بثقافة محسوسة تعلو بنا لذرى التعزز والشهامة والهنا
يا ربّنا هذا الفتى شؤم لنا أخرجه منّا ربّنا ولك الثنا
يا ربّ نجّ شبابنا من مثله فلتعطهم أدباً رفيعاً يقتن

وفي غرّة استقلال السنغال صار المصطفى مشاهداً لأمور صدرت عن أهل العقد والحلّ لم يرقب فيها مشمئزاً :

انّ المشاكل في البلاد تفاخمت وتزايدت مثل الجراد المنتشر
جوع وعري ظاهران وسلطة أيضاً تمثل كل أنواع الخطر
وأرادة فشلت وكان قوامها بثّ الفساد وكلّ أنواع الضرر
وحكومة عجزت كأنّ رجالها في حيرة ويفتّشون عن المفر
وضعوا البلاد بحالة يرثى لها وتصمّموا يا بئس أذناب البقر

لقد قلنا انه كثيراً ما يختلف رؤساء الدين ذهب ذات يوم إلى تِوَاوُنْ عندما وضع الحاج عبد العزيز سِهْ الخليفة العامّ للطائفة التجانية في السنغال الحجرة الأولى لجامع في تلك العاصمة الدينية فقال المصطفى بمناسبة هذا الأمر مهنّأ للخليفة سنة ١٩٧٠ م :

انّ الهمام النبيل البارع الورعا عبد العزيز بذا التأسيس قد شرعا
لمسجد بتقاة الله أسّسه دعا الأماجد للأفراح مندفعا
أقامه حيثما قد كان والده[1] أقامه ولذاك الحبر قد تبعا
نعم الصنيع اذا ما أمّه خلف يحكي به سلفاً في كلّ ما صنعا
أتمّه الله في يسر وفي عجل يؤمّه قانت لله ان ركعا
أتمّه الله في حال تسرّبه حتّى يرى كامل البنيان مرتفعاً
يأتي المصلّون أفواجاً وخاشعة قلوبهم بالذي من أجله رفعا
انّ المشايخ ان نادوا إلى عمل في خدمة الدين لبينا كمن هرعا

---

(١) انّ والد عبد العزيز هو الحاجّ مالك سِهْ مؤسس الزاوية التجانية في تِوَاوُنْ بالسنغال في غرة القرن العشرين .

لكنّنا كجنود جلّ مطلبنا شيخ يقود لرفع الدين ان صرعاً
فالشيخ لفظ وتقوى الله قيمته ورفعه ديننا الإسلام ان وضعا
لا الشيخ من يمتطي طرف الخناعجلا نحو الحطام وينسى الموت منخدعا
انّ الخليفة من يهدي لنهج هدى ويقتدي بمساعي سيّد الشفعا
وذاك ينفع أتباعا خلافته وينشني تابع بالنصح منتفعا
انّ الخلافة ان أدت لتفرقة فتلك شر وفعل الشر قد منعا
في عهدكم عاد شمل الدين ملتئما وما تفرّق بين الناس مجتمعا
أرشدت في الناس ذا جهل وذا بدع وذا هوى همّه التضليل واللكعا .
انّي لأعجز عن شعر وعن خطب فالشعر صعب لمن قد كان مخترعا
لذلكم حرت عن قول أقول به في اليوم اذ أنّني لا أحسن السّجعا
لكنّ قلبي يهوى كلّ داعية للخير يستقبح المحظور والبدعا
هذا ولا أبتغي فلساً ولا رتبا وانّما قلتها لله من سمعا
أعاننا الله في تكميل مبتدا بالمصطفى خير منعوت ومن برعا
صلّى الاله على طه وعترته ما دام يشهد مشروع متى شرعا :

قد عبر المصطفى عن حبّه لوطنه السنغال لمّا كان بعيداً عنه وهو اذ ذاك في ساحل العاج في شهر تشرين الأول سنة ١٩٦٧ م فنظم قصيدة دارت على خمسة محاور : وهي حنين إلى الوطن ووصف البلاد وذكر مكارم الأخلاق لأهل السنغال وذكر شغفه بفتاة سنغالية قاصية عنه واشتياق قلب شجيّ رجا رؤية مسقط رأسه من جديد . فهاكم هذه القصيدة المليحة :

هواي في اليوم أن أحظى بادلاجي للأهل مبتعدا عن شاطئ العاج
فانّني صرت مشتاقاً إلى وطني رماني الشوق في ضيق واحراج
قومي بعيدون عن سمعي وعن بصري أنا الغريب بقلب جدّ هيّاج
كأنّني كنت طفلاً تاه مبتعدا عن أهله ضمن فصل ليله داج
انّي أجول ولا أرض سلوت بها وسرت تيهاً كولّاج وخرّاج
أرضي بها الزهر حول الماء مبتسما فالموج من مائها يعلو كأبراج
كأنّما الورد يستجدي معانقة للنّد فوق رقيق النسيج ديباج

من ثمّ صحبي الأولى طابوا مؤانسة — للعلم كم فتّشوا عن أي انتاج
كل يحاول تثقيفاً ويعشقه — كم بادروا نحو عرفان بأفواج
هم فتية لا يني قلبي يحبّذهم — وشوقهم طنّ في لحمي وأوداج
انّي لأشتاق من قومي شمائلهم — فالكلّ من قلبه يحنو لمحتاج
أيضاً أسرّ بأخلاق لجيرانهم — أخصّ منهم فتاة طرفها ساج
عهدي بها في مصيف كنت زائره — بجنب ماء بعيد الغور ثجّاج
أنّي تعبت وأحزاني محركة — قلبي الكئيب وهل أحظى بافراج
لكنّني محسن ظنّي وفي ثقتي — بالله بارئنا من ماء أمشاج
ما بي قنوط ولا يأس لرحمته — لأنّه جلّ يهدي خير منهاج
انّ الرّجوع إلى أهلي وفي وطني — هو المنى في فؤادي الخائف الراجي

ولقد قال ذات يوم السيد المصطفى آنْ في مكتبي أنه كان يحبّ حباً جمّاً فتاة وأنّه يصفها ولا يصرّح باسمها لا خوفاً من الاعتداء بل خوفاً من أن يذكره الأبله ويحرّفه :

صادت فؤادك ياسمين فأسخنت — فيه الجراح ولم تجد بعلاج
قد حركت منك الكمين فأهملت — بعد الحراك وآثرت بهياج
هضماء ليس بها في وجهها شحب — والمشي منها على غنج ورجراج
رحماك رحماك يا أختي ولي وطر — فاقضي ولا تهملي يا نشوتي حاجي
وافيتها ليلة يعلو بهامتها — رمز الجمال ونعمى الخاطب الراجي
وقد علا الصدر رمانان زانهما — مواقع النصب في زهو كذي تاج
يا ربّ قدّر لها لي زوجة صلحت — حالي وحالتها في خير منهاج

قال هذه الابيات في دَكَارْ في نوفمبر ١٩٦٩ م وقبل يومين قد نظم ما سمّاه (القسم الثاني في ليلة قمراء برفقة عند زيارة الياسمين) .

قد صادمت قلب ابن حامد صادمه — جزاءها بنت الأكارم فاطمه
قد زرتها مشتكياً وتكلّمت — باشارة لكنّ نفسي فاهمه
فتوجهت للبيت ثمّ تبعتها — فوجدتها بهدوء حال قائمه
في البيت حاذت منكباها منكبي — ونحدّثت في خفض صوت كاتمه
قد أخرجت احدى دفاتر جدّها — وتساءلت عن محتواها جازمه

فشرحت حينئذ مصامن سؤلها وأنرت كلّ خطوط سفر قائمه
ورنت اليّ بنظرة وتبادلت نظراتنا فظننتها لي لائمه
لكنّما بنت الكرام تسامحت أن صرّحت أنّي سأصبح صائمه
والياسمين على حداثة عهدها بمحبتي قد أدركت هي عارمه
والياسمين تجيب قول حبيبها بطلاوة وعلى أناة باسمه
ودّعتها من ثمّ قلت إلى اللقا يا نشوتي فزيارتي لك دائمه
فتزايدت في مهجتي زفراتها فزجرتها لوفادة لي قادمه

وله أيضاً قصيدة لا تاريخ لها لكنّه قال : « في هذه الليلة أظهرت لي ما أضمرت وأظهرت لها نيّاتي » .

قصدي هنالك ليلتي افهامها أن قد برى قلب الحبيب غرامها
يا ليلة رقّت لنا نسماتها اذ رق في أحوالها نسيمها
بوركت اذ سهلت عليّ مقاصدي حتّى عرى انجاحها وتمامها
ان كانت البيداء أو آرامها تدع الرّفاق تقودهم أوهامها
ولدى الدساكر تائهون وكم حوى من في الدّساكر من يعزّ كلامها
كالياً سمين اذا نظرت لخدّها حيّرت أحرى ان عراك ابتسامها
محبوبتي نفسي غدت مكلومة فلتعلمي انّ الزّواج سلامها
ان لم يكن هذا الزواج فانّما معناه كلم النفس أو إعدامها
زهراء طوبى أو خلاصة قومها يا بنت من هو فخرها وهمامها
جودي نوالك للحبيب فانه يرجو ويرمل لو أصيب مرامها
والقول منك حلاوة وطلاوة مرمى لحاظك كم تصيب سهامها
لكن وعدك قد رجوت وفائه اذ وعد بنت الصالحين قوامها
والنفس في هلع ودأبا تشتكي آلامها وتزايدت أسقامها
هل من علاج يا طبيبة حبها أم لا تزيد شكاتها آلامها
يا ربّ هاذي يسّرن ما أبتغي بزواجها اذ راعني اكرامها

ولمّا توفّي البطل المسلم والقائد الجبار المصري الرئيس جمال عبد الناصر قال برثيه المصطفى آن ويوجه تعزيته في الرئيس جمال عبد الناصر إلى الرئيس أنور السادات وإلى شعب الجمهورية العربية المتحدة :

هي صدمة من أعنف الصدمات ... حرنا بها يا أنوار السادات
ما أعظم الهول الذي عمّ الورى ... دول الورى منكوسة الرايات
مات الجمال يقود موكب عزه ... النصر في الصولات والجولات
مات الجمال ونعته في عصره ... بطل السلام وقائد الثورات
مات الجمال وذكره بين الورى ... باق لما اسداه من خدمات
بطل السلام وكان أبرز قائد ... في عصره في سائر القارات
حر الضمير وكان يعرف جيّداً ... أن لا سلام بدون حريات
كم جاد للثورات خير معونه ... من بينها الضابط في الثكنات
بنغازي واليمن السعيد بيافر ... ولدى الجزائر سدد الضربات
في القدس خاض لها الكفاح مسلحا ... حتى عوى الصهيون بالهجمات
والغرب اذ علم الجمال وانه ... حر الضمير وفارس الحلبات
نصب العداء له وكاد لقمعه ... أيضاً وحاول ذله مرات
لكنما صان الاله جماله ... حتى دعاه لافسح الجنات
صنع الجمال تطوراً لبلاده ... حتى غدت معروفة النهضات
السد في اسوان أصدق شاهد ... ومصانع في أكبر الطاقات
وحدائق فناء تذخر خضره ... في داخل الصحراء والواحات
كم شجع العلم النفيس وكم حوى ... انصافه الأقوام في الطبقات
كم قائد قد زاره بمقره ... مسترشداً في أحرج الأوقات
يحظى بأثمن ما ينال تشاورا ... أيضاً ويصبح عوده كرات
كم جاد للشعب الضعيف معونة ... مادية في النقد والآلات
ينوي لكلّ الناس خيراً سابغا ... وكذالك الأعمال بالنيات
سوى الخلاف الأردني كما سطا ... ليعالج الأسباب فالغلطات
في ذلك اليوم العصيب وفاته ... من بعد لمّ الشمل قبل شتات
يا أنوار السادات ان مصيبة ... كهذه المصيبة غاية النكسات
لكنما الشعب العظيم كشعبكم ... يتحمّل الأثقال في النكبات
يا شعب مصر تجلدا وفقيدكم ... جلّ الفقيد فقيد كل النات
يا أسرة البطل الفقيد تجلدا ... فزع الجميع لتلكم المأسات

مــات الجمال وذكــر بعض خصاله   يتطلــب الآلاف في الصفحات
لــكن موجــز وصفه هو أنـه   رمز النضـــال إلى قـرون تأتي

دكار في ٢٥/٩/١٩٧٠ م محمد المصطفى آنْ

وفي الختام انّ جرْنْ يُرُبَالْ وجرْنْ حَامِدُ آنْ التِلري والمصطفى آنْ قد جعلوا مدرسة كِجِلْنْ من أبهى المدارس الأدبية في السنغال .

المدرسة لُوكَ أو الحاج عبّاس سَلْ

وقبل وصولنا إلى جيس ينبغي لنا أن نعوج بلُوكَ على دار الحاج عبّاس سَلْ وهو ولد في إِنِكيكْ بالقرب من مدينة سَكَلْ سنة ١٩٠٩ م واسم أمّه فاطمة وَدْ واسم أبيه مَبُرُسَلْ وقد تعلّم القرآن أوّلا على صاحب من أصحاب والده معروف بسَرِنْجَ علي جَهْ وثانياً على الشيخ عليّ جِبْي فذهب إلى أَنْكِيجْ عند ابن لصاحب الحاج عمر وهو سَرِنْجَ عُمَرْ جُوبْ الذي علّمه رسالة ابن أبي زيد القيرواني والجزء الأول لمختصر خليل فذهب إلى جَمْبِينْ حيث قرأ النحو على علي صَمْبَ ثمّ قرأ على الشيخ سَنْجَار جُوبْ الفية ابن مالك والمقامات الحريرية فقصد قرية مصر بالقرب من سَكَلْ فتعلّم العروض وذهب إلى سَانْلُو وقرأ على العلامة الأديب الشهير الشيخ إبراهيم جُوبْ كتاب الاحمرار النحويّ وعقود الجمان والسلّم في علم المنطق والورقات في أصول الفقه والتفسير وعلّمه السيد الحاج سَعِيد النُورُتَالْ الفية مَحَنْدَ بَابَهْ .

فأعطاه السيد محمد بَابَهْ العلويّ الاجازة في تعليم الحديث وأعطاه السيد أبو بَكَرْ سِهْ بن الحاج مالك سِهْ قدّس الله سرّهما الورد التجانيّ . فشرع يؤلف وهو ابن خمسة وعشرين عاماً فقال قصيدة طويلة في التوحيد . وفي هذا الباب قال لنا أنّه عـلى عقد الأشعريّ . وفي سنة ١٩٣٨ م ألّف في التربية كتاباً عنوانه : (كفاية الطُّلاَّبِ) وقرأ كتاب اللُّمَع لابن أبي النصر التوسيّ والرسالة القشيريّة ولآثار الشيخ أحمد التجانيّ وقع حسن في نفسه بوجه أشدّ وقد صرّح لنا بأنه معجب بابن تيمية والزمخشريّ . وله ديوان ضخم . قال لنا الحاج عباس سَلْ « ولمّا هممت ببناء جامع في لُوكَ ثار على مشروعي بعض الناس وشنّعوه فحذرتهم من سعايتهم غير أنيّ

بنيت جامعي رغم أنفهم فدونك ما قد جرى بيني وبين الوشاة : وافيت السيد أبا بكر سِهْ الخليفة للطائفة التجانية حينذاك في تِوَاوُنْ لطلب الاذن منه في شيد بناء مسجدي فأذن لي فيه وشجعني على الأمر تشجيعاً حارّاً ما هي إلا أيام قلائل حتّى نبّئت أنه رجع عن اذنه فخلت أنه قد حثّه بعض أتباعه على الاستدراك وكان فلان من أقاربه عندي موضع ظنّة غير أنيّ في أمري تماديت ولطيّتي مضيت فها هو ذا الجامع ايّاه قد بنيت . فنظمت هذه الابيات :

صَاحِ اركب الحزم واصحب صادق الحال

مـاضي العزيمة في الثاني وفي الـحـال

وكن مدى الدهر في سرّ وفي علن	بـالله لله لا بـالقيـل والـقال
وسر بقلبك جـدّ السّير مـرتجـلا	لـكلّ أعلى مـن الاحوال من عال
وزاحـم الرّكب أهل السّبق مرتجيا	فضل المهيمن لا وان ولا سـال
ونـزّه القصد منـك أن تـدنّسـه	بغير مـولاك مـن مولا ومن وال
لا ترض دون رضى مـولاك منزلة	مـن المنازل في بـروج الابـدال
واعلم يقينا يقينا الشرّ خالقـه	أن ليس للخلـق غير الله مـن مال
ولم يكن غيره للحلق جالب نف	ـع لا ولا دافع الا سوا وأهوال
وكن بـه وعليه الـدهر متّكلا	معتصماً واثقـاً في كـلّ أوجـال
بصارم الهمّة العليا تقطـع ما	دون المـرام من أغيـار وأعلال
بكلّ قلب عزيز النيل مطلبـه	مـن كل أفعس عالي المدرك الغالي
تراه يأنف أن يجري بسـاحته	ذكر السوى وسوى المطلوب كالتال
بعيد مرمى فؤاد حشو مضمره	بـرح الغرام لخير الخـلق والآل
أنمي سلام من الرّحمان أكمله	عليـه والآل أهل المنصب العالي

انتهى بحمد الله وحسن عونه ألّف هذا النظم في آخر شعبان عام ١٣٧٢ هجرية (مقابلة سنة ١٩٥٣) في قرية لُوكَ سِنِكَالْ » .

وكانت سنة ١٩٥٣ بدء ضجّات عظام طرأت على الطائفة التجانية في السنغال فنشأت طوائف غذّتها عصبات الدّسّاسين من خاصة الخليفة في تِوَاوُن وأمّا من كان من الاخوان الذين عرفوا مباشرة مؤسس الزّاوية فإمّا أن يلتجئوا إلى السّكوت تجليلاً

للشيخ الحاج مالك سِهْ وامّا أن يصيحوا باحتجاجاتهم وامّا أن يرجعوا عن بيعتهم لخلفاء وهنّهم خصومات أفراد ابتغاء لارضاء أغراض نفسيّة ومطامع دنيويّة وامّا أن ينقطعوا إلى الله وحده .

وأمام هذا المشهد المحزن تفطّر القلب به حسرة وأمام نزعات رؤساء الزّاوية بشّر الحاجّ عباس سَلْ بانقطاع إلى عزّ وجلّ وبرجوع اليه . وقد شدّ أزر أسلوبه الجزالة والعزيمة في اللهجة واستعمال أمر الفعل مثل « اركب ... وكن ... وسر ... وزاحم ... ونزّه » وهلمّ جرّا وما وجدنا شيئاً من الحشو وفي الخلاصة نمّ عن القصيدة كلّها طاقة وقوّة وعزم وجزم وعلى الرغم من هذا فتحت فتنة أهلية الأبواب على مصارعها للمخاصمات في سنة ١٩٥٢ وكان الخليفة السيد أبو بكر سِهْ حينذاك يرى من يأبون الّا على مخالفة أوامره ووصاياه للاخوان التجانيين من الاقارب ومن أتباع والده ومن المقدّمين أي الذين يجوز لهم أن يعطوا الورد التجانيّ . وكان الحاج عباس سَلْ من هؤلاء المقدّمين الذين كانوا ـ وان اعترفوا بحقّ الخلافة للسيد أبي بكر سِهْ قدّس الله سرّه ـ يرفضون أن يثبتوا شرعاً كلّ زيغ ما وأن لا يصبروا على حمل ثقل حرد أو خلط سريع اغتياظ صبراً لا انتهاء له دون أيّ جموح وبعض اخوان من أقارب الخليفة وكانوا حسدة عليه أخذوا في الافساد بين الخليفة وبين الحاج عباس سَلْ وقد كبر سن الخليفة فكان سريع الغضب . وذات يوم ذهب شاعرنا مع وفود من لُوكَ إلى تِوَاوُنْ لكشف أظلام السعاية التي كانت السّماء بين الخليفة وبين زائره مغمّة وبينما دار الحديث بينهما قيلت أقوال محزنة للحاج عباس سَلْ فقام وذهب غاضباً تبعه أتباعه ومن الذين كانوا لم يحترموا الزّائر قريب من أقارب الخليفة ونظم هذا القريب أبياتاً هجا بها الحاج عبّاس سَلْ هجاء مقذعاً فقال المهجوّ « ظلماً » هذه الابيات من بنات فكر المفدي سيدي الحاج عبد الله بن عباس الشهير بعباس صل نجل المرحوم الفقيه (مَا يُرُصَلّ) عليه رضى المهيمن عزّ وجلّ . وانه يلمس المطالع عليها بأنّ الرجل همّته حقّا السير على الطريق المستقيم الذي سلكه السلف الصالح . ولم يلتفت يوماً إلى ما عليه الآن أهل الزّمن الحاضر من التكالب على حطام الدنيا قال :

قـل للممزق عرضي دون ما سبب	والمفتري طـرقاً مـن أيما كذب
كن ابن من شئت فوق النجم مفتخرا	بكلّ أقعد في العلياء منتخب

وارحل مطيّك في البلدان مجتهدا بما يفـرّق بين الناس ذا رغـب
تحلّ عقـد عهود كان أحكمها الـ ـأسلاف في الله لا في اللهو واللعب
وقـل لما أنت فيما عالم ولما لم تـك تعلم مـن وصم ومن نكب
ثمّ استعن بجميع الخلق انسهم وجنّهم من أخي بعد ومقترب
فانّني ولربّي الحمـد أشكـره بالحقّ للحق لا بالناس والنسب
يـا ليته جلّ يرضى والانـام معـا في سخطة واشتياط من جذى الغضب
هذا وماذا عسى فوق التراب تـرى الّا تـراباً بلا مين ولا ريـب
ونحن في كنف الكافي الكفيل وفي حمى التجانيّ في أمن وفي طرب
وبعـد ذا بيننـا يقضي قضا حكـم عدل خبير بذي جدّ وذي لعب
والكل يلقى جزا ما كان يعمله جنساً بجنس فيرضى حسن مكتسب
لا عنـه تعزب في الاكوان خردلة وأنت مرأى رقيب فاخش وارتقب
فرأس مـال الفتى صـاحي سلامته فـلا يضرك مـا للغير مـن عطب
قـدّم لهول غـد من صـالح عملا ينجيك منـه ويطفي لفحـة اللهب
واتّهم النّفس لا تأمن غوائلها تريـك فوق الـذي تحويه من رتب
تريـك أنّك في رأس العلى كرمـا والناس غيرك تحت الذيـل من ذنب
لها كما قيل فاحذر من نقائص ما لربنـا من كمالات فـلا تـرب
وأنها دائماً تهوى وتطلب مـا لله مـن كبريا والـعزّ والـغلب
نعـوذ بالله من شرّ الغرور ومن شرّ النفوس وشرّ الـعجب والحجب
مـن كان منكـم لبيـت العزّ منتسبا ولا يـرى أحدا ساواه في الحسب
فليحسن السير في نهج الألى سلفوا علماً وتقوى وحسن الخلـق والأدب
وستر عـورات أهل الدين قاطبـة وصـون عرض لهم من أعظم القرب
يسرّهم ان رأوا خيراً لهم وكما يسوءهم ان أصابتهـم يد النّـوب
لهم لديهم ولو هم قـد بغوا ، حرم تـرعى لحاضرهم دأبـا وللغيب
وكلّ ذا كان مـن اجلال خالقهم في مؤمن مسلم لله منتسـب
هم سادة طلقوا الدنـيا وزخرفـها وجرّعوا النفس كأس الذل والنصب
يعطون من حرموهم واصلين لمن قـد كان يقطعهم للبـغي بالقضب
وكـان اصلاح ذات البين عادتهـم سرّاً وجهراً لـذي القربى وللجنب

لا يظلمون ، وحاشاهم ، وان ظلموا عفـوا بعيدين من تهم ومجتنـب
هلّا انتهجتم بمنهاج لهم خلفا فتسلموا مـن سكون اللام بالنصب
أمّا سوى ذاك من كبر ومـن حسد ومن سباب وتشريب ومعتصب
فهـم بريئون ممّن كـان ديـدنـه هـذي ؛ ولو كان منهم معرق النسب
تراهم شغلتهم حال أنفسهـم وحال عقبى الفتى في غائب الغيب
تـراهم تتجافى عـن مضـاجعهم جنوبهـم مدّة الأزمـان والحقب
يـدعون ربهم خوفـاً ومـن طمع ويمزجون دمـاً بالدمـع من كرب
أفنوا لدرك العلى الأعمار فاغتنـموا كلّ المنى بالهنا من صادق الطلب
وكـلّ من ليس يعني تـاركون لـه لله درّ هداة قـادة نجـب
وان أتى جـاهـل يـوماً يخـاطبهـم بالفحش قالوا : « سلاماً » خشية الصخب
وان رأوا فيـك ما لا ينبغي زجـروا بالرفق واللين لا بالعنف والغضب
ويطلبون لذي الفحشاء معـذرة ما أمكن العذر شرعاً أيّما طلـب
هذا ، وان لم يروا عذراً لـه سـتروا عن أعين الناس ما للمرء مـن عيب
مـع ذاك يـدعون ظهر الغيب ربّهم لهم فيرجـون منهم حسن منقلب
كـانوا اذا اتقدت نار الشقاق سعوا بين الطوائف في اطفـاء ملتهـب
أولائـك القوم لا يبغـي لهم بـدلا غـابوا ولكنّما الأحوال لم تغب
هم الشيوخ هـم الآباء يا لهم هم الأطبّاء أفـديهم بكـلّ أب
يحيي لميتة حال ذكر حالهـم في الحال ؛ ترياق أدوا قلب مغترب
فـلا تفوتك ان فـاتتك رؤيتهـم أخلاقـهم والـذي قالوه في الكتب
تلـك المكارم لا قعبـان مـن لبن شيباً بمـاء فعادا بعد كالـسّرب[1]
قـد رضي الله عنهـم كلهم ورضوا عنه طهارى من الأدناس والريب
فالله ينظمنا من سلك جملتهم تحت منيع حماهم من بلا الشهب
فكن عـلى قدم في الله راسخة لهم صبوراً بحرّ الجمر مـن حطب

(١) هذا بيت لجرير إلاّ القافية وهي في جرير (بعد أبوالا) .

فالأمر جدّ فلا هزل ينيلك ما ... نالوا من الفوز بالأسنى من الرّتب
ما بال دمعك يجري بالخدود على ... سوائك الدّهر مغترّاً بكلّ غبي
سكران حيران في تيه الضلالة من ... فرط الغواية عبد الجاه والنسب
فالنفس أمارة بالسوء فابدلها ... بحمر دمع يحاكي قانئ الذّهب
واندب لما سوّدت في الدّهر من صحف
لها على وله الثكلى من الرّعب
وحسّن الظّن بالمولى الكريم وبالـ ... ـعباد طرّا فلا تحقر ولا تعب
كلّا ولا ترين فضلاً على أحد ... ولو على كافر خوفاً من السلب[1]
فالأمر حقّاً لعقبى الحال كن أبدا ... بين رجاء وخوف دائم الدّؤب
فالله يرزقنا الحسنى بخاتمة الـ ... ـناجين فوزاً بكلّ السّؤل والارب
ثمّ الصلاة بأعلى ما تكون على ... محمد سيّد الكونين من عرب
وآله الغرّ والأصحاب قاطبة ... وكلّ منتدب لله محتسب

ومن الملاحظ أنّ الشاعر قد رسم صورة خصمه الذي كان سيّء القصد ثالبا كذوباً متكبراً بغير حسب ذاتي غير جدير بأن يخلف آباءه الكرام ونفسه أمّارة بالسوءوهو أحمق غبي وهو لو عرف نحوه حقّ المعرفة « لسلم من سكون اللام بالنصب[2] » وحسود لا يحترم الكبير بل يفسد بين الخليفة وأتباعه المخلصين وهو متشبه بلبن شيب بماء وحيران وعبد الجاه .

وله ديوان ضخم في مديح الرسول صلّى الله عليه وسلم والشيخ أحمد التجانيّ وقد ألّف ديواناً مديحياً كما عيّنه فيما يلي : « وبعد فهذه القصائد المتوج أوائلها بترتيب الحروف الهجائية التسعة والعشرين مع لزوم الحرف المبتدأ في وسط البيت

---

(١) عند الصّوفيين السّلب هو ما انتزع من كرامة لوليّ تبختر وتكبّر .
(٢) يشير الناظم إلى المعنيين المضادين في لفظ خلف بسكون اللام كما في مريم عند قوله تعالى : فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة . وبفتحه كما في الأعراف عند قوله « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب » .

وآخره للعبد الفقير إلى ربه ابن عباس صل التجاني لطف الله به وبلّغه غاية الاماني آمين وسمّاها « فتح القدير بتيسير العسير في مدح البشير النذير أو عين الوصول إلى حقيقة السول في مدح الرسول أو افاضة الحق لإفادة الخلق في مدح طلعة الحق بالحق » .

فلننتخب منها القصيدة التي ابتدأ كلّ بيتها بحرف الباء واختتم بحرف الباء أيضاً في القافية :

بدئي بحمد للإله تسبّب	باد لمدحي المصطفى وتحبّب
بشر ولكن لا يرى كفؤاً له	بصر وعبد للإله مقرّب
بذر الوجود وجوده متدفّق	باب الإله وبابه لا يحجب
بدر سرى فوق البراق لمنتهى	بحر الندى غيث الأنام محبّب
بادي الشفوف على الورى نادي المدى	بهر العقول جلاله لا يقرب
بطلت بمقدمه الكهانة اذ غدا	بالشّهب يرمى جنّها لن يقربوا
بشرى لنا نلنا المنى بشرى لنا	برأ السّقام ورزقنا متصبّب
بسط الكريم بمدحه طيّ المنى	برّاً وبحراً طاب لي ذا المشرب
بارك لنا وأدم علينا خيره	باري الورى انيّ لفضلك أرغب
بات السليم مؤرقاً أجفانه	بله الخليّ بغفلة يتقلّب
برح الخفاء ونّم بي سهري وبي	برح الغرام ونار شوقي تلهب
برق تألّق بالحمى أوحى لنا	بعض الذي كنّا نروح ونطلب
بحر الصّلاة مع السّلام يفيضها	برّ على خير الورى ويرحّب

وله أيضاً شتى قصائد مديحية للشيخ أحمد التجانيّ مؤسس الطريقة التجانيّة .
ومن أشهر هذه القصائد همزيته الطويلة فهذا مطلعها :

كيف ترجو مقامك الأولياء	وانتهاء لهم لديك ابتداء
كلهم يستمدّ من بحر فضل	لك أعطاك فاعل ما يشاء
قيل فيكم ما لابن داوود هذا	لك منّا فامنن أو أمسك عطاء
كلّ سرّ وكلّ نور لديهم	وهم هم لهم سنا وسناء

موجة منـك يا لبحر محيط   مـن محيط وهـم اليـه دلاء

ثم قال في الختام :

وتعطّـف عليـه عطفة قلـب   راحـم ذا ضنى بـه اشفـاء

واكشف الحجـب عنـه كشف شمـوس   داجـي الليل مـا عليهـا غطـاء

ولأنـت المـرجوّ مـن حمل عبـد   كـلّ عن حمل بعضه الأقوياء

طاب في طابة بطفسش[1] مـدحـي   حـامداً أحمـداً لـه الامـلاء

صـلّ ربّي على النبي وسلـم   بصـلاة تجلى بهـا الأشياء

وعلى الآل صحبـه وخصوصاً   خاتماً منه يختم الأوليـاء

وفي رأينا لم يأت الشاعر بمزيد في المعنى ولا في اللفظ على همزية السيد محمد البوصيري التي مطلعها :

« كيف ترقى رقيـك الأنبياء   يـا سماء مـا طاولتهـا سماء »

فانّ أدباء السنغال اذا مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم أو الشيخ أحمد التجانيّ سلكوا مسلك أدباء الشرق أو أدباء المغرب فأظنّ أنّ أصالة الحاج عبّاس صَلْ هي في القصيدتين اللتين أوردتهما في أول هذا الباب وفي الخلاصة هو من كبار شعراء السنغال .

عَامَرْ بن إبراهيم صَمْبَ

وقبل ذهابنا إلى مدينة جِيسْ ينبغي لنا أن نعوج بمدينة كِبِمِيرْ وأن نزور السيد عَامَرْ بن إبراهيم فانه ولد في هذه المدينة سنة ١٩٣٧ م ومات والده وهو ابن ستّة أشهر فترعرع فعهدت به أمّه خديجة إلى عمّه مَالِك بن حبيب الله . وكان مالك هذا حافظاً للقرآن وكان يسكن قرية بَدَرْكِي على ١٢ كيلمتراً من كِبِمِيرْ فتعلّم عامر الكتاب العزيز ثم رجع يقرأ القرآن أيضاً في مسقط رأسه على الشيخ مَخَرِ أَنْجَايْ وعلى شيخ مورتانيّ اسمه وُلْدَ مْتَالِ جنْكَ ثم أخذ عامر جميع الفنون عن شتّى

---

(١) هو عام ١٣٨٩ للهجرة .

مشائخ وقرأ أيضاً الفرنسية حتّى فَازَ ببكَلوريا والاجازة والدكتوراه وتلقّب بالاستاذ المبرّز في الأدب العربيّ وهو شاعر « لا بأس به » كما قال له شيخه وصديقه وُلْد مُتَّالِ . ولمّا توفّيت أمه الحنون خديجة سِيسِهْ رحمة الله عليها قال :

إلى الله أشكـــو فقد أمّـي خديجـة ... كما ناحت السماء فقد شمس منيرة
ولـــو جاءني رعـد هتوف من السّما ... لقـد فاقه والله سمعـي بنعيـة
وجاء ابن عمّي هاطل الدّمع قائلا ... فيا عامراً أصبر ذا لعمري نصيحتي
وما لي وصبراً يا ابن عمّي حمـــزة ... فمن بعد ربّ العرش أمّي دياتني
وفي القلب حزن ثمّ في الجوّ ظلمة ... فمن لي بردّي نحو أهدى طريقتي
فقد صـارت الأم فؤادي وجنّـتي ... وفي البرّ صارت ـ خليليّ ـ قبلتي
ولو كانت الأقدار شخصاً بجسمه ... فوالله لم تذهب بأمّي بحـفرة
اذا السّيف في يمناي والبأس في قلبي ... فليت المنايا مثل مـــرء بجثّـة
ومن لامني في جري دمعي لموتهـا ... فيرجع إلى الدّنيا أمّي في سـاعة
فلولا وجود للمنية في الدّنـيـا ... لكانت حياة للورى مثـل جنّة
ولو خلت يوماً سوف أبقى بـلا أم ... تألّمت حتى الموت حقّاً بكربـة
سأبكي إلى لحدي أمّـي خديجـة ... كما ناح طفل دون أمّ فقيـدة
ولكن سأدعو الله ربّي وخـالقـي ... اللهي فـلاق الامّ في خير نعمة
وان شاء ربّي سوف أتلو لها ميمـا ... لا خلاص قـرآن حكيم بليلـة
« ولو كانت الدّنيا تـدوم لأهلهـا ... لـدام رسول الله » خير بريـة
صـلاة على خير البرايـا محمـــد ... مـن الله ذي مجـد عظيم وقوة

وقال عامرّ ابن إبراهيم يرثي أخاه الشقيق سرينج صمب الذي مات في مدينة جِيسْ بنوفمبر ١٩٦٩ م :

أتعـرف مـن تحويـه يـا أيّها القبر ... فهذا « سَرِنْجَهْ صَمْبُ » يا حبّذا البدر
نشيط كريم ذو وفــاء وبهجـــة ... وان قولك توجز فقل : « كله خير »
وفي زرع حقل العمّ أحْمَدَ لم يكـن ... نظيرٌ له يَدْرِيهِ يَدْنُوْ ثمّ الحَضْرُ
اذا ما ذكـرنا لطفه ليس دهرنـا ... لمدح لـه يكفي فينفد لي العمـر
وذلك فضل الله يؤتيه من يشا ... فقل ما تشا مدحاً فلن يكفي الشعر
لقدكنت عند الدّار في (جِيسَ) سَائِلاً ... فما جاءني سوى نـواح فذا النكر

ونعيك يا أخي كوقع صواعق ... به أضرم القلب الشجيّ لي الأمر
لقد كنت لي خلّا رؤوفاً بلا حقد ... فما جاء منك قطّ ضرب ولا شرّ
عزيز على روحي وداعك لي يأتي ... ألا أضلعي تهفو وللدّمع لي الذّر
جزاك اله العرش أعلى جنانه ... سأبكيك حتّى يحوي الجسم لي القبر

وقال عَامِرُ بْنُ إبراهيم يرثي بنت عمٍّ له اسمها بِيكِي وقد توفيت سنة ١٩٧١ م :

يا من نعى بنت عمّي سيد الاسخيا ... هل بِيكِي تنعي أم العفاف بعد بِيكِي
والله لم أر بنتنا سهلة الخلق ... الّا ظننت ابنةً للعمّ أعني بِيكِي
يا بِيكِ بعدكِ ماء الوجه قد نزفا ... والموت لو كان عفافاً لَأَبْقَى بِيكِي
كانت لها طينة للناس طيّبة ... بدون ذمّ ولا سبّ من فم بِيكِي
يرحمها الله ربّ العرش خالقنا ... فلتؤو – يا ربّنا – فوق الجنان بِيكِي

وهذه أبيات رثى بها عامر بن إبراهيم الشيخ ابن العربيّ له المتوفى في ابريل سنة ١٩٦٩ م :

بكيتُ من لهب للنار في كَبَدِي
فالشمس في الشعر قد مالت نحو اللحد

بشرى لكم أهل فردوس بضيفكم ... قولوا له مرحبا أهلا بلا عَدَدِ
فانّ ضيفكم قد كان مشتغلا ... بالعلم والجود وتقواه للصّمد
لو كان يُخْلِدُ عِلْمٌ زَاخِرٌ بَحْرُهُ ... دام ابنُ عَرَبِيٍّ حَيّاً إلى الأبد
لو أخلدت بهجة ذوي البها والسّنا ... لمّا توفّي شيخي قطّ والأحد
فهو ابن عربيّ سحبان زمانه ... بحر من الفقه وكنز من المدد
سقياً لروضته صبراً لعترته ... بجاه قدوته خير الورى الممد

فلما انتقل الرئيس جمال عبد الناصر إلى جوار ربّه قال عامر يرثيه بهذه اللامية :

ألا سبيل إلى امرىء فأسأله ... عمّن نَعاه « الرّديو » لأهل سِنْغَالِ
وهل نعى كَنْد أم شَرْشَل وأم كِنِدِي ... أم هل نعى من لنا أنفع في الحال
فانّه قد أتى أمر نجنّ به ... « قد مات الناصر » فالدّنيا ببلبال
يا صاحباً جاهلاً بمن وفاة له ... هزّت جميع الورى أصغ بمقالي

مـا هو الاّ بطـل جلّـت مآثـره وقلّما نظرت م جميـع الرّجال

هـو الملاذ اذا خطـب ألمّ ولا يرجى سواه لأخطـار وامحـال

اليه مفزع جمع العرب قاطبة عنـد تفاقم أغيار وأهـوال

مات الرّئيس وصار المصريـون طرا مثل اليتامى وكلّ ناح عـل دَالٍّ

أب زعيم ثمّ هـاد وحَكَمُهُمْ وكـلّ ذا فقدوا في مَوْتِ جمال

وفي جنازته قـد عدّوا ألفَ ألْـفٍ اِضْرِبْهُ في خمسة مـن مكتئب البال

حَمَـى دياراً له كالليث أَشْبَـالَـهُ أفنى حيـاة له في صرف أوجـال

لـولاه لم يعرف المستعمرون فرا را مـن سَوِيسَ ببأس القوم مفضال

قد أبعد الخزى عن مصر وعن عرب وتقهقر الفقر من فوق السّدّ العالي

وهو في الصّلـح مشهـور بمغفـرة وهو في الحرب معـروف كرئبال

ولجمـال جمـال لا شبيـه به كأنّ يـوسف محلول في جمـال

من شاء فليذكرن مأتم نـاصرنـا كأنّه قـد جرى في كلّ محال

قـد نصف الناس في باك وفي ميت لمّا نعي لهم في ساعـات آصال

في كلّ بُقْعَةٍ اسـلام جنازتـه من كلّ عـين جرى دمع كسيّال

يا رائحاً شدّ رحلا نحو الرّبّ ويـا عـديم شبه وأنظـار وأمثـال

لا زلت منّي مخصوصاً بحسن الثنا على المدى وباكباري واجـلالي

فانّ مدحك يـمّ لا يحاط به سيّان في ذاك إكثارِي واقـلالي

عـوّضنا الله خيراً عـن مصيبتنا الـ ـتي بنـا ألمّت لمـوت جمـال

لاقاه ربّ الـورى في باب فـردوسه بجاه خير الـورى والصحب والآل

ولعامر بن إبراهيم أيضاً ما قاله عند وفاة الرئيس دغول : لمّا توفي وحيد دهره وإكسير عصره وجبّار الجبابرة جنرال دَغُولْ رئيس فرنسا العبقريّ في ٩ من تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ مقابلة ٩ من شهر رمضان عام ١٣٩٠ وهو ابن ثمانين حولا الّا ثلاثة عشر يوماً جريت مجرى باقل في بلاهتي وان لم تكن لي بلاغة أَنْدَرِه مَلْرُو وفصاحته فنظمت هذه المرثية وقلت :

فجّرت وفـاة دغول عيوننا عُيُونَـا بل صارت عيوننا جروحاً قدما بَكَيْنَا

بكينا مـوت الناصر فبرمـد منينا ألن يجعلنا الآن موت دغول عمياناً ؟

آها وآها حتّى بطل الأبطال فقـدنا ونعيه مثل صاعقـة سقطت علينا

لقـد كان مـن فكّ القيود لفـرنسيّيـنـا
لمّا صاروا في كلّ وادي الكبـول يهيمونا
خاض الليـث الوغى بمن آمـن به ايمانـا
وضعضع مـن جيش العدى رجلانا وفرسانا
قام البطل كضيغم حمى له العرينا ثمّ قيّد الاعداء وأعطى الاسرى تيجانا
ولمّا اجتاحت ثعابين ظلم لهم أوطانا سلّ دَغُول سيف ردّ المظالم في لندننا
نادى فلبّى من أبى ضيماً وطغيانـا فألقى خطبته قطّع بها الثعابينا
لمّا دبّت الدّبابات دبّاً في العالميـنـا وفاهت المدافع وانفجرت براكينا
نطحـــت ذرى الجبال السّما فطعنت طعنـا
وطارت أمواج البحار في الفضا طيرانا
ورجّ كوننا رجّا ثمّ رجح رجحانـا غمرت شآبيب قنابل حتّى برلينا
ذلّ نازي وصار كلّ فرنسيّ فرحانا وكلّ صوت القرى والمدن عليه أثنا
انّ الانسان بالنعمى أشـدّ الخلق كفرانـا
اذ نفـوا منقذهـم وغـاية أمانيـنـا
فصبر الليث بعد أن أعطاهم مواعينا لمّا جعلتهم عقارب الشقاق أقرانا
قـام دغول رسول الوفاق عام زَغْضَظِينـا [1]
وصار لفلكهم في يمّ هـائج ربّـانـا
وأرسى في شطآن أضحت لنجوهم خلجانا
ولفرنسا دول جـمّة في العـالميـنـا
وبعضها لاستقـلالـه شحّذ سكاكينا ومن مواطني دغول من أطلق نيرانا
فدغول والمجاهد قاوما المستعمرينا ثمّ كافحا كالرّئبال وسرّحا السّجينا
وفاهياً من اعتدى ودحّضا براهينا فأحسن المنجي لأهل الجزائر احسانا
وأتى بالاستقلال من افريقيا سودانا وأضحوا بأمر له من المشط أسنانا
أي ظلوا متساوين وأحراراً واخوانا فأصبح الملوك ورعاياهم متآخينا

(١) هو عام ١٩٥٨ م .

لمّا قام باستفتاء سلبيّ الفرنسيّونـــا — استعفى وألّف مواثيق للآحقينـا
ومنذ كون فرنسا لم نر مثله قرينـــا — ولم يجعل دغول حدّا في حبّه الأوطانا
وأدّى لوطنه لمّـا وهـي تمكينـــا — وجعله في دول جلّت فعلا الشّأنا
وبمآثره رادفت فرنسا العمرانا — من لي براد كتلة ما وكونه مذعانا
ومن لي بعقـاب طار وحده طيرانا — من لي بليث سار وحده سرّا واعلانا

هــو دغول الوصول كان فصيحا لســانـا
وذا من لكلّ طالب العـلى أسوةً كانـا

فذاك زعيم وهاد ومنقذ أوطـانـا — مشمخرّ سامي الجبهة أجدر الجديرينا
أديب خطيب حرب محمّ معمعانا — أبيّ أريحيّ قاد رجالاً ونسوانا
وقد أدّى كلّ واجبـاته لفرنسيّنا — وأخرجهم مـن هاوية فيها ساقطينا
وأدّى كلّ رسالته وأعـلى الانسانـا — ومـات الهمام فانّ في قلبي لأحزانا
ما دمنا في الدنيا مشتمين ورداً وريحاناً — نم نوم العادل يا دغول رئيس العالمينا
وملوك الكون اجتمعوا وشيّعوا الجثمانا — جعلنا الله مـن عبره مستفيدينـا

هذه المرثية قالها أيضاً الدكتور عامر صمب في حقّ شيخ الإسلام وعلم الأعلام السّيّد إبراهيم نياس قدّس الله سرّه ونفعنا ببركاته آمين :

أبقى محـرق قلب إذ نعي العـلـم — قـد خصّ منه بالدّين الفم والقلم
وكـان نجـل لعبد الله بحر النّـدى — يا عجباً إذ يرى في القبر ذا الخضمّ
يـا ناعي القطب إبراهيم ذي الشّرف — لا يتم للولد بل لديننا يتم
من لي بمن يعبد الإلـه خالقه — نهاره ليله والنّاس هم نوّم
مـن لي بمـن يمدح المختار سيّدنـا — محمّداً خير مـن تمشي به القـدم
مـن لي بمن حبّه للشّيخ أحمدنا التّـ — ـيجـان مشتهـر بالله معتصم
مـا أعجب جـرءة المنون حين سطا — عـلى ابن آدم حين الدّاء يخترم
ما أعجب الحكم حقّاً في مخاصمة — حيّ وموت وهذا الخـصم والحكم
إذ كان منتظراً في الـحيّ شيبتــه — أو في قواه بـدا عجز أو الـعدم
فالمـوت جا خفية ولا يقاومـه — كهل ولا بطـل جهرا ولا البهـم
كذا قضى الله للأنـام مذ خلقـوا — الموت مثـل أكول طعمه الأمم

ماذا علـى الشّيخ للإسلام إن رحلا — عن خدمة تخلد اسمه ـ فـلا يذمُ
قد كان في كلّ أمر الدّيـن أو الدّنا — فضل له إذ علّت مـن ذاته الهـمم
كم كافر جاء في الإسلام حين ندا — كم زائغ يهتدي بـه فيحترم
قد سكّن الله ذعر الخائفين به — مـن جور مستعمر والظّلـم يهتضم
كم طالب منه عيباً رام مثلبة — قد خـاب إذ ما بدا فيه إلّا الكـرم
وكان للنّاس إن ضلّوا وإن جهـلوا — يهـدي ويعلمهم في الكلّ ذا العلم
قد زرته خلّة والدّار مكتظّـة — بأهل فقـر فأعطاهم حتّى فحمـوا
في خلقـه لا يرى حقّاً إلّا بهجـة — في خلقـه لا يرى حقّاً إلّا الشـيم
ومـن عجائب ما بنى الخليـل لإسـ — ـلام فقـد علّم الأولاد كلّهم
بنى المعاهد للتعليم في كولـخ — كالنار جامعه علا بها العلم
منـزله كان للعفـاة كعبتهـم — إذ كـان صاحبـه حليفه الكـرم
إبن الكريم كريم أصلـه طيّـب — يـدفن في لحده الـوقار والقسم
روقته جعلت إيّاه بدر الدّجى — رسوخه في علوم ديننا عـمـم
وزوجة لعزيز لو رأت وجهه — قـالت : أهو يوسف أم إنّني أحلم ؟
أهل له مثل أنجام إذا أفلت — مـن صفّها نجمة فترتـقي نجـم
يا رحمة الله حلّي ضمـن روضتـه — لاقـاه خير الـورى وهو يبتـسم

قال عامر ابن إبراهيم : « زرت يوماً ابنة عمّ لي واسمها فاطمة بنت صَمْبَ مشهورة بـ (يَايْ جَوْ) وهي ساكنة مع زوجها في حيّ (جَبَلْ) بِدكَارْ فسألتها عن ببغائها التي كانت تتكلّم أو كادت وصارت تضحك وتقهقه فقالتْ لي بنت عمّي انّ ببغائي العزيزة قد أكلها قطّ لعنة الله عليه فقلت ورحمة الله على الببغاء زائداً هذه الابيات راثياً لها :

وَيلٌ وَوَيْلٌ لِقِطٍّ قَـدْ قَتَـلَا — بَبْغَـاءَ « يَـايْ جَوٍّ » فِي حَيٍّ جَبَلَا
لِسَانُهَا كَـادَ الكَلَامَ يُحْسِنَـا — كَانَتْ تُقَهْقِهُ كَمِثْلِ ضَحْكِنَا
ما أحمل صَفِيرَهَا إِذْ سُمِعَـا — هـل ممكن لغيرنا أن ترجعَا ؟
لكـنَّ أقدارَ الإلـه قُضِيَـتْ — أتمنّى لَوِ الأُخْـرَى قَدْ شَرِبَـتْ

وله أيضاً قطعة شعريّة رثى بها جبران خليل جبران :

يـا عين فابكي عـلى رمس لجبران … خليل جـبران من أبناء لبنــان

رمس عـلى ربوة إزَاءَ غــاب أرز … يحـوي في ألحاده جـسماً لجبران

لكنّ آثاره جلّـت مكـانتهـا … في الشرق والغرب ، هل هذا ببهتان ؟

يـا كاتبا مُلْهَمَاً من بين ذَوِي شِعْرٍ … يـا أشعرَ الناس نَثْراً بَعْضَ أحيـان

تفني حياتـك في فنّ وفي أدب … بالصدق والـعشق في سرّ واعـلان

قد حت في الجهل قدحاً لا شبيه به … الّا بما قلـت في ظلم وطغيـان

والحقّ والـحبّ قـد كانا عظّمتهما … بكلّ ما جاش في ذهن ووجدان

نظمت في العدل نَظْمَاً كَيْ تُدَافِعَ عن … حقوق ضُعْفَى وعن حقوق نِسْوَانِ

انّ المسيح الذي عَلَّمْتَنَا دِينَـهُ … قـد جلّ عن دين رهبانٍ وقسّانِ

بل دينه شمس روح لا أُفُولَ لهــا … ينبوع حب وانصـاف وغفـران

فـارقد رقـاد الذي قد عاش منتصفا … مـا فاح أذكى رياحين وعيـدان

ولمّا رآها كتب صديق له : « مع فائق التقدير والاعجاب والتهنئة الخالصة من علي الشّنوفي » وهو تونسيّ كان طالباً مع عامر في باريس عام ١٩٦٦ م .

قال أيضاً عامر ابن إبراهيم : « نظمت هذه الابيات بالرباط في المغرب الأقصى سنة ١٩٦٧ يوم السبت في محلّ يقال له أودايا فقلت :

حَكَّ الرِّمَالَ ضُحًى فِي يَوْمِ السَّبْتِ يَمٌّ … بَلْ فِي الشَّوَاطِئِ صَخْرٌ بَاذِخٌ أَصَمُّ

مِـنْ أَعْجَبِ آلَةِ الأَلْحَانِ فِي أُذُنٍ … نَغْمٌ يَفُوحُ مِنَ الأَمْوَاجِ تَلْتَطِمُ

لَمَّا جَلَسْنَـا وَفِي مَقْهًى يُظَلِّلُنَا … كَأَنَّنَا نَسْمَعُ المِيَاهَ تَنْتَظِمُ

صَوْتٌ رَخِيمٌ وَبَحْرٌ لَوْنُهُ نِـيلِـيٌّ … شَـايٌ بِـالنَّعْنَاعِ وَالْهَوَاءُ يَبْتَسِمُ

كَانَتْ عُيُونٌ لَنَا يَرُوقُـهَا مَنْظَـرٌ … حَتَّى وَمَنْ جَاءَ مِنْ خُلْدٍ فَلَا النَّدَمُ

لَكِنَّنَا لَـمْ نَكُـنْ فِيـهِ إِلَّا مَارَّةً … فَذَاكَ عَيْـشُ الَّـذِي بَقَاؤُهُ الْعَدَمُ

وَإِنْ قَضَيْنَـا مِنَ الأَوْقَاتِ فِيهِ حِيناً … فَإِنَّهُ حَبْـلُ يُمْنٍ لَيْسَ يَنْصَـرِمُ

وَشَاهِدُ القَوْلِ لِي فِي خُلْدِ « أُوْدَايَا » فَهْوَ السَّعُودِيُّ عُثْمَانُ[1] لَـهُ الكَرَمُ

ومن أصدقائه الموريتانيين العلامة الفهّامة والشاعر المُفْلِق والمؤرخ النحرير والباحث العريق والأديب المتفنن السيد المختار بن حامد الذي بعث اليه ذات يوم بهذه الرسالة : « الحمد لله حضرة السيد العالم الأديب الكريم عامر صمب مدير المعهد العلميّ المحترم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته انّ القصيدة التي قد نظمتم وأنشدتم لفخامة الرئيس المختار ابن دَادَاهْ بمناسبة زيارته لِدَكَارْ باستدعاء من فخامة الرئيس سَنْكُورْ ـ انّ هذه القصيدة ـ كان لها صدى عظيم في الأوساط الموريتانية وخصوصاً الأدباء الذين يميزون الحسن من غيرهم . قد عبّرت هذه القصيدة عن عبقريّتكم الفذّة وكفاءتكم الثقافية فلكم الشكر العميق ومن الآن فصاعداً نتواصل بالاقلام حتّى نتواصل بالاقدام ان شاء الله فانيّ اليكم بالأشواق ولا أنسى أيّامنا السالفة في دَكَارْ التي جعلناها تأريخ الليالي وعنوان المسوة والامان والسلام على الجماعة كلّها » قال عامر قد تفقدت هذه القصيدة جدّ التفقد بغير جَدْوى ولكن ذكرت بعض أبيات قالها في الشاعر الشهير المَوريتانيّ المختار بن حَامِد وكنت في كل صباح ألقاه وأرحب به بالحلويات فهاكم هذه الابيات :

يا عالما تجمع المخطوطة الكُتُبَا ضِمْنَ التوابيت والاشعار والخُطَبَا
لتبعثَ العِلْمَ من أعماق مَدْفَنِهِ وتُحْيِيَ العصبَةَ المَوْتَى مِنَ الأُدَبَا
أما كَفَاكَ الذي أُوتيتَ من أَدَبٍ بَرَّزْتَ فيه على مبرّزي النُّجَبَا
ان كنتَ لا بدّ في التابوت جَامِعَها لنا لنجعلها للأعين النصبا
فاجعل مع الكتب لي حلوى لآكلها فانّني رجل لا آكُلُ الكُتُبَا

غير أنّ القصيدة المذكورة كان مطلعها :

ألف سلام إلى الرئيس وُلْ دَادَهْ مَنْ زَانَهُ خَيْرُ أخلاقٍ ونَجَادَهْ
أَهْلاً بمن سار شوطاً في تقدّمه مع أنّه راسخٌ بالله في العَادَهْ

(١) قال عامر كان عثمانُ هذا من وَفْدِ المملكة العربية السعودية وكان يصحبه في أُوْدَايَا يجلس معه ويشرب الشاي في هذا الفردوس .

ولمّا تلقّى عامر رسالة المختار بن حامد قال :

تذكرت والذكرى تـثير لذي النوى هومـاً وفي الذكرى تهبّ صبا الهوى
إلى سيدي المختـار وهو ابـن حَامِدٍ سـلام ذكيّ من فؤادي لـه الجوى
فـن مبلغ عنّي في « إيفَـانِ » بعده بأنّي لن أنسى شهراً بيننا ثوى
خليليّ عـوجاً بنـوا كشطٌ وانــزلا وقولا لـه أنّي بِكِيسِي أَحْوِي الحَلْوَى
وأعظم بشيـخ قـد حباني بنظمـه بِـ « إيفَانِ » يوماً غصنه ما به الصّوى
لقـد قاد في بـرّ القريض جيـاده ومن كلّ بحر المعاني مـاءه روى
أمّـا ذكركم حبّي وأستـاذ جيله فسيف ولا نبـا فـزهـر ولا ذوى

كان ذات يوم من أيام سنة ١٩٧٢ م جلالة الملك فيصل ضيفاً للسنغال من استدعاء الرئيس سنغور فقال ابن إبراهيم كلمة الترحيب بفخامة العاهل المعظم :

أهلاً بـه مـن مليك بيننـا يَنْـزِلُ واستقبلوه بسهـل عطـره صَنْدَلُ
يا سائلاً عن شجاع لانبا سيفه في نصر ديـن لنا قد جاءكم فيصل
سنغال بشرى لكم اذ زار أوطانكم مـن جوده مثل بحر مالـه ساحـل
الحمد لله من قد خصّنا كرما بـأن يزور الـذي رؤيتـه يؤمل
ذاك ابن عبد العزيز الـذائع صيتـه بـه استقام عمـاد ملّـة مائـل
للديـن لست أرى للملك لست أرى أحمى حقـوقها من ذا الـذي ينزل
لو كان بدر السما كالبدر زَائِـرنـا مـا داسه قطّ مَنْ يَطِيرُ أَوْ يَرْجـلُ
كلّ الملوك اذا سلّـت سيـوفهـم نبت سوى فيصل فالبحر هل جدول
حكم له حصف أقواله حكم يا مرحباً بالذي في الملك لا يعـدل
قـد قدّس الله ارضاً أنت مالكهـا لما بها مكّة وخـير مـن يرسل
أحلى ثنـاء على كثير سنغـالنـا أن قال نحوهم « أنتم عرب » قائل
ان كـان لله بيـت وسط أرضكم فمن صلّى نحوه أنت لـه العاهل
كفاك في المجد أن كانت لنا قبلة بأرضكم حجّها كلّ منّا يأمـل
كفاكم كَرَماً أن كان أصْلُكُـمُ من هـاشِمٍ جَدٍّ مَنْ هُو خَاتِماً يُرْسَلُ
متى تزر بلداً تجد بمال علـى مـن دان دينك أو من هو عوناً سائل
عرفت بالبرّ وصفـت بـالورع يدريه مـن يفهم يـدريه من يجهل
نصرت أهـل الفدا بالقول مع عمل شدّدت أزر عروبة فلا تعـذل

عزّزت لأهـل اسلام أواصرهـم ... عـلى اختلافهم فعـدلكم شامل
اقامة واجبات الله ديـدنكـم ... أحييت سنّة من هو كلّنا يفضـل
لا زلت لا زلت في يمن وفي دعـة ... للدّين والملك يـا من ذا نعم النازل
دامـت عيون لكم بالنفط فـائـرة ... اذ فيه خير لكلّ مسلم يسـأل
واقبـل قوافيَ ثمّ استر مسـاؤهـا ... وهل يُطِيقُ مَدِيحَ حَاتِمٍ بَاقِلُ
دامت عـلاقاتنا الحسنـاء زائـدة ... لـوجه ربّي وحبّ خيرِ مَنْ يُرْسَلُ

كان عامر بن إبراهيم زائرا الجزائر في ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ مقابلة سنة ١٩٦٩ م فقال هذه القطعة مادحاً بها الشعب الجزائريّ الذي قد أبلى بلاء حسناً في محاربته فرنسا المستعمرة :

سَلُوا الجبال التي كـادت تحيط بكم ... تَرَوْا دَمًا لِلْعِدَى حتّى في الحال جرى
جُنْدٌ بِخَيْلٍ وَبَارُودٍ وَأَسْـلِحَـــةٍ ... وكلّهم أَسَدٌ نَحْوَ العِدَى زَأَرَا
فذاك الشعب الـذي صارت مـآثره ... شمس الضحى للعـلى فنوره ظهراً
فذاك الشعب الـذي ظلّت منـاقبه ... بأسا وجودا وعلما وتـقى وبـرّاً
فذاك الشعب الـذي قد جاد بنفسه ... ومـاله فبـاستقـلال لـه ظفـرا
وضيفـه لا يرى سوى بحـور الندى ... دفّ رنّان ووجه مـاؤه نـضرا
مـن شكّ في القـول واقترى عندكم ... يعلـم بأنّ قراكم مثله نـدرا
لولاك يا شعب لم يعرف مستعمركم ... خزي الهزيمة والفرار والـضررا
ورثت من عبد قادر شجاعته ... وحبّـه وطنـاً لم يكـن أثـرا
ورثت من ابن باديس عروبته ... تسعى بجهدك فيما كان قـد فكّرا
من سوء حظّ العدى وجودكم أشبلا ... لعبد قادركـم وكان سبـع شرى
انّ الأمير الذي فخر البلاد لكـم ... قد كان من دين اللهي بـه افتخرا
هو الذي قال هذا البيت في بأسكم ... لذي الجهالة ذمّ البدو والقفـرا
« عـدوّنا ما له ملجـا ولا وزر ... وعندنا عاديات السبق (زِدْ) ظفرا »
من ظنّ عجزا لكم عن حكم شعبكم ... فليذهب الآن إلى قطـركمَ سبرى
فَهْوَ يَرَى بَلَداً يخـوض في عَمَـلٍ ... ويطلب العلم كي يَحْيَا عَيْشاً نـضرا
وعندكم ثورة في الحال أهدافهـا ... أن يعرف من له زرع غدا نـيّرا
أنتم لَعَمْرِيَ في استرجاع شخصيةٍ ... بالسّيف ثمّ اللسان زد : هلم جرّا

حييت خلالكم من شُهِدُوا في الوغى وكلّ من كافحوا قتْلاً حتّى دبـرا
حييت خلالكم عبد القدير الـذي بسيفه صُبْحُ تَحْرِيرٍ لكم جَشَرَا
يَا مَنْ سَمِيٌّ لَهُ مِنْ أهلِ صـوفية فَهْوَ أبو مدينٍ واسْمُهُ اشتهـرا
ورثتَ منـه تُقىً والـصَّبْرَ مـع ورع ثم القناعـة ثم عِرْضَهُ النمـرا
لا لوم لقائـد لم يَأْلُ جُهْـداً لـه في جعل ضرّاء سكّان البلاد سرّا
أعطيت كلّ فلاح أرض مـزرعة لا شك في أن يصير عيشـه خيّرا
بنيت دوراً ثمّ أعطيـت كلّ الـذي يحتاج فيهـا اذن وقيته الخصرا
أخذت في جعل صحراء برغـانكم حديقة مثـل غوطة فعـوا الـخبرا
وجيلكم أسدٌ بكلِّ حَقْلِ الوغـى وبـالثّنايا مـلأوا السمع والـبصرا
لا زال عـزّك يسمو ما سما فَلَـكٍ وقاك ربّ الورى الأهوال والخطرا
ألله أسأل أن تبـقى جـزائركـم شعباً سيجبر عظـم الدّين ان كسرا

قد زار عامر يوماً من أيّام سنة ١٩٦٨ المغرب الأقصى وقال : قد مدحت جلالة الملك المعظم الحسن الثاني ـ أدام الله ملكه وكثّر خيره وخير جميع رعاياه ـ بأبيات تافهة المعنى ركيكة اللفظ . ولو وسعني مدحه فلعلّي أن أنزل عنده منزلة حسّان بن ثابت عند النبي المصطفى جدّه . ولكن أراني كما قال الشاعر : « كهرّ يحكي انتفاخاً سورة الأسد » فانّي لواع لعجزي عن الثناء على كائن من كان فكيف ادّعي امتداح ملك عظيم الشأن ؟ وكيف أطمع نفسي في تعظيمه بمجرّد الشعر على حين كان بيني وبين القريض بون شاسع ؟ ومن يقل الشعرويحسبه من الدّرجة الجيّدة وهو ليس كذلك فليرجع إلى قول أبي الطيب المتنبي لله درّه اذ قال :

انّ بعضاً من القريض هـذاء ليس شيئاً وبعضه أحكـام

غير أنّي بادرت إلى عصيان قول الشاعر وان كان ممن دار له الأحبار أهل المحابر :

اذا لم تستطع شيئـا فـدعـه وجـاوزه إلى مـا تستطيـع

قد سوّل لي الخيال في مدح سلطان البيان أن أرصّع اكليله بجواهر التبيان مع اعترافي بأنّي لم أكن من فرسان ذلك الميدان ولا ممّن له في الطّلاوة أرفع مكان مثل

مواطني السنغاليّ شاعر الشعراء ألا وهو ذو النون له في مدحه بعض أجداد الملك المعظم لما قال في بعض أشعاره :

آبــاؤه خلفــاء خــير الأنبياء ... لكنه هــو حلية الخلفــاء
وهــم نجوم في سمــاوات العلى ... بـل انّهم زهر بنو الزّهراء
واذا نظـرت إلى صبــاحة وجهــه ... تلهيــك مــن هند وعــن أسماء
خطّ ابــن مقلــة دون خــطّ يمينه ... بـل دونـه سحبان في الانشــاء
يا حلّة الفضل الذي أذيــاله ... تكسو المحــبّ سـوابـغ الآلاء
يا جنّة الفقهاء بل يا جنّة الصّ ... ـلحاء بل يا نزهة الظّرفـاء
داووا لنــا داء النـوى بلقـائكــم ... فالبين دائي واللقــاء دوائي
بـل تربكم تبر لمـن يهـواكــم ... وثـرى حماكـم ثروتي ونمـائي
فاسمع نـدائي يا ابن مـن سمع الندا ... وأجـب وحقّق دعـوتي ورجائي
وأرى أمامـي نور وجهـك لامعـا ... ورأيـت كـلّ العالمين ورائي
لم لا وأنــت أجـلّ من وطئ الثرى ... بعد النبي وأظرف الشرفــاء
أقـلامنا أبّدت كـلالا في امــرئ ... أعيى مـداه شقاشــق الخطبـاء
خلق لــه كالدرّ الا انّمــا ... أخلاقـه كالـرّوضـة الغنّاء
فاس ومكناس له تتنــافســا ... فأقيم فوق منّصة العليــاء
أنت المــلاذ المستغــاث بجاهــه الـ ... ـمرجوّ في السّراء والــضـرّاء
بـل جدك الأعــلى أتـانـا فضلـه ... مــن ربّـه في ليلــة الاســراء
خـذ هذه منّي اليـك هديّـة ... تبدي بزيّ عروبة حسـناء
أزكى صــلاة على أجلّ جـدودكم ... خير الـورى ذي الملّـة السّمحــاء

والله لقد صدق ذو النون لما قال : من أراد أن يصف الكامل فليصفه في بحر الكامل . أمّا أنا وان لم يكن لي نبوغ سميّ المنبوذ بالعراء وهو سقيم فسأصف مَحَطَّ رَحْلِ السياسة والدّهاء ومن هو بسيط اليدين في بحر البسيط أعني جلالة الملك المعظم أبقاه الله لتوطيد ما بين مملكته المباركة وبين السنغال من علاقات ودّية واقتصاديّة أسّسها التاريخ والجغرافية والاسلام وأكّدتها الثقافة العربية والمجانسات الطبيعية . لأمر ما أن قال الشاعر السنغاليّ « مصطفى آن » « انّه لو كان الأمر كما وجب أن يكون لصارت العربية لغتنا الرسمية في السنغال » . وقلت :

ألف سلام إلى السّلطـان حسّان مع ... ألف التحيات مــن قلبي ولسان

من كـان مقصده مدحاً لسبط النبي ... فليحتـو موهبـات عقـل حسّان

أعني حسّان رسول الله شاعره ... مــن ردّ أعداء من جاء بقرآن

لو كان بـدر السّما بــدراً كمثلكم ... فلم يدس أرضه رجـل لانسان

ولو رأى ابــن خفاجـة بلادكـم ... لقال « هاهوذا خلـدي وريحاني »

مــن زار مغربكم فلا عليـه بمـا ... خوف مـن الجوع أو ذعرم حرمان

ثغر ببسم ووجه في طـلاقتـه ... قلب بصدق يفيض فيض طوفـان

نغم بوزن كذا رقـص بقهقـة ... هتـاف الرجال أو ولوال نسوان

زيّ أنيـق مـع الترحـاب في أدب ... يـد تفوز ندى كمثل بركـان

النسوة الحور والشبان ولـدان ... يحسـب ضيوفكـم مـن أهل جنان

هـذا هو الشعب حقّـاً في حفاوتـه ... سرّاً وجهراً ومـا مدحي ببهتـان

أبوك قـد جاء باستقـلال مغربكم ... أنت الـذي ردّ رفعـة للأوطان

لولاك لم تصر الرّباط عاصمة ... لا للبلاد ولا لـدين الرّحمـان

حلم وجود وتفكير ثقـافتـه ... نعم المزايـا التي لاحت في حسّـان

من شكّ في القول واستضيف عندكم ... يشعـر بمعنى القرى في كلّ مكـان

أضف إلى هذه صفات سلطاننا ... تقديم شعب لـه انماء بلـدان

ان كـان جدّك في الألقـاب أوّلكم ... فالحق أنّـك ما يرى لك الثاني

ناهيك من ملك لاحت شبيبته ... مع حكمة ندرت في ولاة الـزّمان

وأنت في الحرب ضرغام اذا تحدّى ... وأنت في الصلح مشهور بغفـــران

قـد مجّد الله أرضاً أنت عـاهلها ... محبّ عصريّة فيهـا باحسـان

أدام عرشكم الالـه جامعنـا ... بجاه خير الـورى وفضـل فرقان

دامت عـلاقاتنـا الحسنـاء زائدة ... تسوسهـا ثقة في كـلّ ميـدان

وله أيضاً قصيدة مدبحية لخليفة الطائفة المريدية الشيخ عبد الأحد بن الشيخ أحمد بَمْبَهْ رضي الله عنه وكان عامر ابن إبراهيم يريد عطاء ممّا كِتبه مؤسس الزاوية الطوباوية من مخطوطات :

كم من سباسب شقراء طَوَتْ قَدَمِي ... إلى خليفتنا ذي الجـدّ والهمـم

« قـل للخليفة أبقى الله حرمتــه » ... بأنّ زوّارهُ أتَـوْهُ كالخَـدَمِ

قد قال لي بعضُ أصحابٍ لنا قبل إتْـ ـيَانٍ بُيُوتكُـمُ بالوجـه مبتـسم
متى نَـزُرْ قَوْمَ مَنْ أَهْوَى زِيَارَتَهـم نرجع بكُتْبٍ إلى آنْدكَارُ في نِعَمِ
ان تذهبوا اخوتي إلى خليفتنا روحوا بلا الزّاد وارجعـوا بلا نـدم
جود البكيّين مشهور لدى فُقَرَا أوطان عـرب كذا البلدان للعجـم
ألف السّـلام إلى شيخ المـريديّه مع ألف التحيّات من قلـب لنا وفـم
نَرْجُو م فَضْلِكَ يـا ملجا الأرامل والا ـأيتام نيل الدّعاء والنّصح والحكـم
يا نَجْلَ بَمْبَا الـذي عَانَى شتّى مِحَنٍ فكان يؤزره المليك ذو العظـم
قد ذاب قلـب لنا في حبّـه مثلما يذوب حبّ مـن الملاح في الخضم
كـم قال من نظـم ما المرء يجهلـه كم طار شعر له في الناس كلّهـم
لكنّه كـلّ ما قد خطّه بيـد أسداه حقّـاً إلى النبي وذي القـدم
قد علم الشيخ بمبا سيد البدلا لا المجد للسيف بـل المجـد للقلم
فانّنا نبتغي من بيت كتبكـم خطّاً لأحمدنـا الخديـم ذي الهمم
دمتم بخير لنا عبد الوحيد الذي حكمتـه ظهرت في الفعـل والكلـم
بجـاه مخدوم بّمْبا خاتـم الأنبيـاء وجـاه سيدنا الخديم ذي الكـرم

وقبل انشاده القصيدة قال عامر هذه الابيات :

وانّي لـدى بابكـم واقـفْ وأرجـو الوُلُوجَ لي دُونَ سُـدْ
جِئْنَا مِنْ « دَكَارُ » إلى دارِكُمْ لنيـل المخطوطات التي نَوَدْ
فَإِنْ تُعْطِنَـا يَدُكُـمْ كُتُبـاً فَشُـكْراً لكم قَدْرَ جَزْرٍ وَمَـدْ
ويـا نجـل بَمْبَـهْ أَغِثْنـا أَغِثْنـا جئناكُمْ لِنَطْلُـبَ مِنْكَ المَدَدْ
فيا ليت تَـدْرِي مَـدَى حُبِّنَا إِيَّاكُمْ وَليس مـن الحـبّ حَـدْ
أدام الله عُـمْـرَ سَيِّـدِي وَشيخِ المُرِيدِينَ حَتّى الأَبَـدْ

وله أيضاً أبيات سلّم بها على الشاعر المفلق الشيخ أحمد عيان سِهْ في اندر عندما كان يزوره في داره في حيّ « جلفين » سنة ١٩٦٩ م :

رأينا في الأمس خنذيـذَ الأوطَـانْ جـرى طرفه سابقـاً في الميدَانْ
فذقنـا سلـوى لم يذقـه اللسّـانْ وحتّى لـو ذاق شعـراً لجبران
ومن كان ضيفـاً لـه في « جُلْفِينْ » رآى ألفاظ الشاعـر كالمرجَـانْ

فَيَا شَيْخُ يَا حِبُّ « أَحْمَدْ عَيَانْ » جزاك الاله ربّنا الدّيّانْ
اذا ما نظمت في كلّ فُنُونْ كأنّ قصيدك طبل رَنّانْ
ويا ربّ يا خالقي يا رحْمَانْ أقمه دهرا بلبلا يا مَنّانْ
أريد به بلبلا في البيان سلانا في سنغالنا عن سَحْبَانْ

قد جاءه يوماً قوّال أنشى من أبي نواس عند خمّارة في القُطْرُ بَلّ وبينما هما يتحدّثان عن شيء وآخر فاذا القوّال قال انّه لم يخش الله عزّ وجلّ فعلم عامر أنّه كان سكران كعادته ، وبعد انصراف القوال قال عامر :

قال ابن إبراهيم وهو عامرُ عُبَيْدُ مَنْ لِذَنْبِنَا الغَافِرُ
باسم الاله ربّ العرش العليّ أعوذ بالباري من أمّ خَلٍ
فجاءني اليوم فتىً قد نَشِيًا وقال : « انّه جلّ مَا خَشِيَا ! ! ! ! »
أستغفرُ الله من سمع ذا الأثِيمْ فقلت : « صَهْ وَاذْهَبْ يَا أَيُّهَا اللَّئِيمْ »
أفٍ لِرَاحٍ أَفْسَدَ عَقْلَ امْرِئٍ حتّى يكون كقرد في حَمَاءٍ

قال أيضاً عامر بن إبراهيم : « قضيت في فرنسا عشرة أعوام تقريباً لطلب العلم وكنت رزقت منحة رسميّة أعطاني ايّاها الشعب السنغاليّ ولمّا فزت بشهادة التبريز في الأدب العربيّ والفرنسيّ عبّرت عن خالص شكري لأمّتي وأمّي .

فنظمت هذه القصيدة في جامعة « أنْتِنِ » سنة ١٣٨٦ لمنسلخ ليلة من ربيع الأول للهجرة المقابلة لسبع عشرة خلت من شهر تمّوز عام ١٩٦٦ . وكنت متهيّأً للعودة إلى وطني السنغال فقلت :

يا رِجْلُ طِيِبي رَمْلاً لِأرض أوطاني كالابن الشاطر لا كالزّاهي الطرخان
ان كنتُ منكم بعيداً منذ آونَةٍ لا عَبَثاً غِبْتُ بل لطلب عِرْفَانِ
مهما يكن ها أناذا في ديارِكُمُ ديار حُبٍّ وانصافٍ وغفرانِ
أمّا البلاد فلا تزال شمس هدى بالأسخياء الكرام ثمّ الشجعان
من شكّ في القول واقتري عندكم يشعر بمعنى القرى في كلّ مكان
ثغر ببسم ووجه في طلاقته قلب بصدق يفيض فيض طوفان
صفّ بدقّ رنّان لا شبيه به الّا بما ثار من ركض لفرسان
نغم بوزن ثمّ رقص بقهقهة في هتاف الرّجال فولوال نسوان

زيٌّ أنيــق مع الترحـــاب في أدب ... يـد تفور ندى كمثل بـركان

النّساء كالحور والـرجال والـدان ... ظنّ ضيـوفكـم من أهـل جنـان

هـذا هو الشعب حقّاً في حفـاوتـه ... سرّا وجهـرا ومـا هذا ببهتـان

فلنرجعنّ إلى ما قد لفظت به ... بأنّني عـائد من أرض بيضـان

حتّى وطئـت سروراً رمـل أجدادنا ... في أمعتي بعـد غلّ مثل الشنـان

لكنّ فوزي ليس نُصْرَتِيَ فَقَطْ ... بل صار نصرة أمّي ثمّ أوطـاني

لأنّ أمّيّ قد صحّت عزيمتهـا ... أن يضرب الابن سهماً في كلّ ميدان

قـد أرسلتني إلى مـدرسة البلد ... بعـد انتهائي مـن دروس فرقـان

أمّ رؤوف مع قلب تقي ورع ... السّموّ في النفس وشغـل لجسمان

فلترقدن كالـذي قد عاش منتصفا ... لا يمتحي ذكـرها من كُنْهِ وِجْدَاني

أمّـا وشعبي الـذي أعطـاني مِنحَتَهُ ... فالرّزق قـد هاله في كلّ أحيان

جزاهما الله عنّي خير جـائزة ... مـا ناح طير على وكر وأغصان

انّي فرحت حقّاً كَفَرْحِ والـدة ... اذا ضمّت طفلها مـن بعد فقدان

قرّت بترحابكـم عيني ـ أَحِبَّائِي ـ ... شأن المـلاح لمّا مشى في شطـآن

شكراً جزيلاً لكم يا أهل أوطاننـا ... ما فاح أزكى رياحين وعيـدان

ثـمّ الصلاة على نبيّنا المجتـبى ... والآل والصحـب ثمّ أهل عرفـان

وقال أيضاً هذه القصيدة بمناسبة حفلة قام بها أبناء مدينة كبمير في يومي ١٣ و ١٤ من شهر محرم سنة ١٣٨٨ هـ (مقابلة ١٢ و ١٣ من شهر نيسان عام ١٩٦٨ م) .

فنحن الشباب رجـاء الأمَـمْ ... وكـلٌّ من الجمع عالي الهمَمْ

اذا مسّت الحاجـات في الكَلِمْ ... فـا صابنا قطّ سهـم البكمْ

وكـلّ الـزمـان نسـابقـه ... وان يمش نركـض ولا بـالقَدَمْ

ولكـن نطير كبَرْقٍ خَطَـفْ ... إلى عـالم وجهـه مبتـسِمْ

وكلّ منّـا اذ عرت للوطَـنْ ... خطـوب الدّهـور حقّاً لم يَنَـمْ

ونحـن السّيـوف في غمد الوَطَـنْ ... اذا سلّنـا قد أزيـل الظّلَمْ

ونحـن البدور في برج السّعود ... وان نحن نَطْلُعْ نُزِلِ الظلَـمْ

وأُسْدُ الوغى ونجـومُ الهـدى ... وبئر العـلوم وبحـر خِضَمْ

خصصنا اذا الجهل عـمّ الورى لعمري بفضـل النهى والحِكَمْ
كرام الفعـال في يوم النّزال وفي العهد نحن وفاة الذّمَـمْ
فنحـن عمـاد مـدينتنـا وعـن دعوتهـا فلسنا البهـم
دعتنا إلى المجـد والجـود ثـم م غايات معـرفة والكـرم
ولو كانت الجنّـة في الـدّنيا لكـانت كِبمِيرْ فَقُولُوا نَعَـمْ
ومـن وصف موضعـاً هكـذا فهل يُوجَدْ وَصْفٌ مِنْهُ أَتَـمْ
وفيهـا ولـدان وحور العيـون وفيهـا وجدتم كلّ ما حُلِـمْ
وَشَـابٌّ اذا كان غيرَ همـامٍ فقل انّه صار أخـا الهـرَمْ
ففينـا وجـدتم أُسَـىً لكـم مـن البأس مثل أسـود الاجَمْ
وفينا رأيـتم شبّاناً ذوِي اَعْـ ـتزام وزد : هـاؤلاء البهـمْ
ومـا معتني رفـدنـا خائـب لعمري ولا جارنا يهتـضم
فـا لحقتنا عيـوب الهـوان ومـا لحقتنا شرور اللـوم
اذا حـلّ يومـاً فتور الصّـدور فمـن ارتجـا عوننـا ما نـدم
ولا يـزل الـدّهـر أيّـامـه لنـا حشم والليـالي خـدم
فعشنـا بجـاه النبي المصطفى بـأعلى السّعود وضمـن النعم

قال عامر أيضاً : « ولدت زوجتي طفلة في يوم الخميس الساعة التاسعة سنة ١٩٦٩ م . وقبل ميلادها مررت ذات يوم بقرية في ضواحي دَكَارْ تسمّى (مَلِكَهْ) فتمنيت لو أعطيت بنتي اسمها اذا رزقني الله عزّ وجلّ أنثى يوماً ما . فقضي الأمر : أسمّي طفلتي « مَلِكَهْ » وبمناسبة ميلادها رحّبت بها ناظماً هذه القطعة وقلت :

يا مرحباً بك يا بنتي وبا « مَلِكَـهْ » أبقـاكِ ربٌّ الورى بالخير والبركَهْ
يـا قرّة الـعين انّي اليـوم في فـرح وانّني في ميـاه البحر كالسّمكَـهْ
لاقيـت قـابلـة وهـي قـائلـة بشرى لكم من ميلاد البنت في المهكَهْ ! ! [1]
نحـوت العين إلى مهد صغير به اسـ ـتلقت وليدة لي فاسم لها « مَلِكَهْ »

(١) المهكة : معناها في ألين نضارتها .

انّ الالــه الذي أهدى ولادتهـــا ايّــاه أشكر في السّكون والحركَهْ
مددت يدي نحــو البنت في طَرَبٍ لكي أُقبِّلَهَا حتّى وَشْيَ المَسَكَهْ[1]
كوني بُنَيَّةُ في الـدّنيا مثـالَ حُسْنٍ وذات مـالٍ وعيشي عِيشَةَ المَلِكَهْ
ودمت في أدب ودمت ذات علـم ودمت لا تسقطي في أيّـة الدّركَـهْ
هنّأت أمّـك بألف التهـاني ومـع ألف السّلام ثـمّ الرحمـة والبركَهْ

قال عامر بن إبراهيم : « ولد ابن لي في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٠ م فسميته جبريل عليه السلام فانجلت به منّي غيوم الهموم والظلام كأنّه عندي قنديل فقلت هذه الابيات مُرَحِباً بـه :

فأهلاً وسهلاً بالذي حـلّ بيتنا وطاب فؤاد لي بخير وبـالبشر
أيـا جَبْرَئِيلُ إِعْلَمْ بـأنّي كراقِصٍ سُرُوراً وقلـتُ الآن للعين لي قـرِّي
ويـا عين قرّي اذ من الرّبّ زارنـي وليد لطيف ـ عاش بالصّيت والذكر
أجـل قـد رقصت عند ميلاد بنيّه وانّي بأمـواه كمثل سماك البحر
وأدعـو لـه عمراً طويلاً بـلا أذى وخيراً كثيراً مـن يد البدو والحضر
وأدعو له علمـاً كثيراً وأدبـاً جميلاً ونجـواً في البحـور وفي البر
أجبريـل كن للنّاس خير مسـاعد وبالوالدين كـن كذا الولد البر

ولعامر بن إبراهيم قصائد أخرى غير أنّه يجب علينا أن نسير سيراً حثيثاً نحو مدينة جيسْ وهي ملتقى طرق مهمّ اذ من هنا هيّن على الناس أن يقصدوا مراكز أدبية أخرى مثل تِوَاوُنْ ودَكَارْ وكَوْلَخْ وانْجَاسَانْ وطُوبَى وغيرها .

مدرسة جِيسْ أو يُونُس ذُو النون له

تألّق في جِيسْ اسم شخصية تألّق شَمْس في رائعة النهار ألا وهو الشيخ ذو النون له ابن الشيخ محمد الفوتي وقد أشرنا اليه بأنّه بعث إلى الشيخ موسى كَمَرَ برسالة تقريظية لكتابه « الحرز الاحمى » .

(١) مسكة : قلنسوّة لولد صغير .

محمد الفوتي

وهو محمد الفوتّي الكِجلُنِيّ أصلاً وكان أديباً أريباً غير أنه لم نعثر من آثاره الّا على قصيدة واحدة مدح بها الشيخَ سَعْدَ أَبيهِ بن محمد الفاضل وكان محمد الفوتّي هذا إذَنْ من أتباع الطريقة القادرية . هاكم هذه القصيدةَ الحَائِيَّةَ :

الله أكبر انّ الباب قد فتحا ... وأنّ جـدّ معاني الجدّ قد نجحـا
فالصعب لين وعون الله متبسط ... أنّى تـوجّه ساعينـا وأين نحـا
حيث انتمينا لقـوم عزّ جانبهم ... ولا يرى مـن بهم يعتزّ مفتضحـاً
يـا فوز منتظـم في سلك رمـزتهم ... ومن بسـور حماهم ظـلّ منطرحـا
طوبى لقوم على أبوابهم وقفوا ... اذ لا يتاجرهم الّا فتى ربحـا
لله قوم اذا ما الليل جنّهـم ... قـاموا وباتوا سجوداً ركّعاً صلحا
والليل يسري بشكواهم لمالكهم ... كأنّما الليـل عبد القوم لو شرحا
لولا طلوع شموس من نهارهم ... على النهـار لسيم الخسف ان وضحا
لا تعد عيناك عنهم انّهم سرج ... تهدي بأنـوارها من نحوها لمحـا
دارت عليهم كؤوس الوصل مترعة ... عن شاربيها تزيل الهمّ والـترحا
لـو ذاقهـا نائـم في ليـل غفلته ... يوماً أفاق ومن سهو الضلال صحا
تراهم ومع الاكوان ظاهرهـم ... يبدوا وباطنهـم في الغيب قـد سرحا
بحر مـن النور كم لاحـت مباسمه ... في غيهـب من جنود الجهل فافتضحا
سبط الرسـول وحاميه ووارثـه ... من لا يدانيه يوماً قدح من قدحـا
أولاه مولاه أسراراً مقدّسـة ... لم يولهـا قطّ من عن بـابـه برحا
يدعى بسعد أبيه خير متّبـع ... عـن تابعيه علامات الشقـاء محا
وخير شاف لأدواء القلـوب شفـا ... وردّ للـرشد عبداً بعدما جمحـا
فالله يبقيـه مسروراً ويرزقنـا ... من كفّه شمّ ريّاهـا الـذي نفحـا
فاعـرفه تحظ بمـا تبغيه من فرص ... مـن ليس يعرفه لم يعـرف الفرحـا

وان لم نجد من آثار محمد الفوتّي سوى القصيدة المذكورة فانّ ابنه يونس المعروف بذي النون ترك ديواناً ضخماً قد صوّره « إيفَانْ » برمّته . بيد أنّنا لا نعرف من حياة صاحبه الّا قليلاً ـ فهو يونس بن محمد من ذرّية أَلْمَام يُوسُفْ سِرِدِمّبَهْ لِهْ .

(١٧١٠ إلى ١٨٠٤ م) ولد في جابه سنة ١٨٧٧ م . ولا شكّ في أنّه قرأ القرآن في مسقط رأسه ثمّ سافر لطلب العلم خلال فُوتَ تُورَ وفي موريتانيا وأخيراً في سان لوس حيث صار تلميذاً مجتهداً للشيخ أحمد أَنْجَنْكَ . ولم يبق لنا الّا بعض من راسلهم لأنّ الشاعر لم يؤرخ قصائده قطّ . ولم ننس أنّه كان يراسل الشيخ موسى كَمَرَ ويمدح أو يرثي أعلاماً في الأدب العربيّ أو رؤساء للدين مثل الشيخ أحمد بَمْبَهْ وابنه الحاج محمد الفَاضِلِ البَكيّ ومُمَّرْ جَارَهْ بُصْ خَالِ الشيخ أحمد بَمْبَه وكذلك بَلّ بُصُ ومحمد ابن أَلْمَامِ عَبْدُ القادر والحاج أحمد أَنْجَايْ آنْ والشيخ إبراهيم جُوبْ الأَنْدَرِيّ وفُودِي كَبَهْ المجاهد الأكبر والشيخ سَعْدَ أَبيهِ ومحمد بن المختار اليَدَالِيّ وغيرهم .

ومن حين إلى آخر لقينا اسم مدينة سنغاليّة كسِنْلُو ورُفِسْكَهْ وطُوبَى وَأَنْدَكَارُ وأخيراً مات في جِيسْ سنة ١٩٢٧ م السنة التي انتقل الشيخ أحمد بَمْبَهْ إلى جوار ربّه تعالى بعد أن كابد عيشة ضنكة كما تدل عليه هذه الابيات من ديوانه :

ولا تشق أخي بوعد دهر	فآخر وعده خلف ورد
فما حرّ كعبد لا ولكن	نّ هذا الدهر فيه الحرّ عبد
رأيت زماننا دهراً خوّانا	فملأ ظروفه كيداً وكدّ
زمان ملأ فكّيه سموم	يرى في الحال للأحشا تقد
فيسر المرء مشفوع بعسر	كبحر دأبه جزر ومدّ
يصور عليّ هذا الدّهر جورا	وانّ زماني الخصم الألدّ
يري دهري رجا خوفاً كغيث	يفيض خلاله برق ورعد
هو الغربال أفرغ فيه ماء	لراج بل هو الضرع الأجدّ[1]
ومن صافاه صارعه جهرا	وأتلف روحه حرّ وبرد[2]

فهو اذن ذمّ زمنه ذمّاً مقذعا : هو له اسم الأفاعي وهو كخصم ألدّ وأهبّ الحرّ والبرد وشفع اليسر بالعسر وأرى الرجاء خوفاً فهو دهر خوّان غدّار غرّار . ويمكننا

(١) جدّ الضرع : يبس فهو أحدّ والسنة الجدّاء أي المحلة .

(٢) مأخوذ من صحيفة ٧٧ من مخطوطة إيفَانْ .

أن نتوجّس زمانه زماناً عزّ على شاعر أن يعيش بشاعريّة فقط . فلنذكر أنّ سلطة الأَلْمَامَاتِ قد انتهت وهو ابن عشرة أعوام وقد انحلّ حكم الملوك السنغاليين وقد تقدّم الاستعمار الفرنسيّ تقدّماً انقلب به نظام الطبقات التقليدية فصار الحرّ عبداً :

« وقائعه (أي الدهر) أرتنا كلّ هول ۝ يخاف سيوفها ترك وكـرد
ألم تر هـؤلاء النـاس طـرّا ۝ عيـونهـم لأجـل الحـزن رمد

قد أكّد أهل النقد الخبراء أنّ ذا النون هو أكثر أصالة من شعراء السنغال الكاتبين بالعربية . هل يسعنا أن نحقّق هذا الحكم على ضوء آثار الشاعر ؟ هل يبرّر ديوانه هذا الرّأي المواتي ؟ مهما كان الأمر دونكم ما نجده تفصيلاً في الديوان :

١) بيتان مدح بهما الشيخ أحمد الامين سيسه الشيخ سعد أبيه .
٢) خمسة أبيات قالها الحاج الفاضل البكي بن الشيخ أحمد بمبه .
٣) قصيدة لمحمد فاضل الموريتانيّ .
٤) قصيدة عدد أبياتها ٤٨٠ بيتاً تنتسب إلى الشيخ أحمد أَنْجَنْكَ وهي تشطير لبديعية الحاج مَاجُوْرْ سِيسِهْ .
٥) قصيدة احتوت على ٢٩ بيتاً للشيخ مَاءَ العَيْنَيْنِ .
٦) عشرة أبيات مدح بها محمدُ فَالْ بن المختار اليداليّ الموريتاني ذا النون . وكلّ هذه القصائد توجد في أوّل الديوان لذي النون .
٧) قصيدة لذي النون طويلة كانت أو قصيرة غير أنّ أطول قصيدة منها لها ١٧٤ بيتاً وهي مديح للنبي صلى الله عليه وسلم ولذي النون أيضاً نصّ من النثر وصف فيه مدينة أَنْدَرْ لملك من ملوك المغرب الاقصى . وفي الديوان أيضاً قصيدة [1] لها ١٤٠ بيتاً (=٥×٢٨) ذلك أنّ الشاعر بدأ كلّ خمسة أبيات بحرف من الحروف الهجائية الثمانية والعشرين فانّ الابيات الأولى الخمسة ابتدأت بالألف وقافية عروضها (أي آخر صدرها) وضربها (أي آخر عجزها) هي حرف القاف مثلاً واحتوى الديوان على ٦٠٠٠ بَيْتٍ .

---

(١) هي في صفحة ١٣٣ لمخطوطة ايفان .

ولم يصنف الدّيوان أحد بترتيب الحروف الهجائية ولا بترتيب المحاور التي عالجها الشاعر ولم يؤرخ أحد أيّة قصيدة ما خلا قصيدتين لضرورة البيت أو القافية ولأجل هذا لا يسعنا أن نبيّن الظروف التي أورثت هذه القصائد وأن نوضحها جدّ الايضاح والبيان . وعلى الرغم من ذلك يمكننا أن نصنّف القصائد وأن نرتّبها على معنى المواضيع على هذا المثال :

١) قصائد مدح بها ذو النون كبار معاصريه .
٢) قصائد مديحية للنبي صلى الله عليه وسلم .
٣) تفكيرات حِكمِيّة .
٤) أغراض وصفيّة .
٥) أغراض غزليّة .
٦) فخر ومواضيع متنوّعة .

المدائح النبوية

ولذي النون قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم فأسّس أوائلها على الحروف الأبجديّة وهي ثمان وعشرون حرفاً وفيها تشبيب ثمّ ذكر مكارم أخلاق رسول الله مثل الحلم والجود والإحسان والشجاعة والعدل والعلم والعمل :

أ أمن بعد سلمى هيّجتك البلابل — وهالتك في تغريدهـنّ البلابل
ب بليت لها والقلب يشجو لأجلها — ودمـع جفوني فـوق خدّي هامل
ج جزعت خمور الحبّ طفلاً ويافعاً — وانّي لأنواع المحبّـة شامـل
د دهاني دهري حين فرّق بيننـا — وقلـبي لأجـل الوحد والحزن ذاهل
ه هوى قلبي المغمـوم في هوة الهـوى — وانّي لأعباء المصـائب حـامل
و وليلي بكاء كلّـه فكـأنّـني — لفرط شجـوني أسكـرتني البلابل
ز زعاق النوى يردي المحـبّ فانمـا — زعـاق النوى يا خلّ للصبّ قاتل
ح حديث اشتياقي عنعنتـه مـدامعي — ونار شجوني أجّجتها المنـازل
ط طمعـت بعيد الهجـر وصلاً فعذرت — فمـا أنا مهجور وما أنا واصل
ي يميل فؤادي عـن هواها وذكرهـا — إلى المصطفى ان حلّلتني الزّلازل
ك كمال جـلال الدين منبـع نـوره — جمال بهاء العزّ للخير فاعـل

ل له الفضل بـين الخلق طرّا لسبقـه   وليس له في العالمين مماثـل
م مـلاذ البرايا في الشدائـد كلّها   وشمس الضحى ان ادلهـم الغياطل
ن نفـوع نفـوح علّـة الكون كلّهـم   وملجـاهم ان أحدقتهـا المعاضل
ص صفيّ صفـوح خضرم ذو مكانـة   سراج منـير صاحب الصيت عادل
ع عفوّ عـن الجهـال متصل الجدى   حليم علـيّ الكعب أروع بـاسل
ف فريـد المعالي خير من وطئ الثرى   سنيّ كـريم ذو المواهب فاضل
ض ضياء جبين الدهر دبدنـه التّـقى   وخير امـام تقتفيـه الأمـاثل
ق قريب لمـن يرجو نـداه وخـير من   تمدّ اليـه في العطايا الأنـامل
ر رؤوف رحيم مجتبى درّة العلى   وبحر مـديـد في الدراية كامل
س سرى ليلة الاسرا فنـال مواهبـا   تقصرّ عـن ادراكهنّ الأفاضل
ت تبـارك ربّ خصّـه بعلومـه   وأعطـاه نيلاً لم تنـله الأوائـل
ث ثنائي لـه ما دمت حيّـا فـانّـه   عمادي اذا ما حيّرتني الشواغل
خ خليـل اله العرش ثـمّ كليمـه   وخير همـام قد فقته الحـلاحل
ذ ذؤابـة أخيار النبيئين جملـة   خضمّ بحـار الفضل قرم حلاحل
ظ ظمئت إلى اللقيـا فأنّى لي اللقـا   أيـاً خير من قد سوّدته الشمائـل
غ غرامـي طويل في هـواك وانّنـي   لوصلك محتاج وللفتـح سائـل
ش شفائي صلاة الله ثـمّ سلامـه   عليك ومـن والاك ما سال سـائل

فانّ في الديوان لشتّى قصائد مديحية لصلى الله عليه وسلّم ولكن اكتفينا بالقصيدة المتقدمة قال ذو النون : « هذه ابيات قيلت في محل غبطة الجميع الرفيع منهم والوضيع السيد محمد بن العالم الشهير والولي الكبير الشيخ عبد القادر لا زالت سحائب رضوانه تفيض على مرقده العاطر كتبها عجلاً وأنشدها وجلاً محبّكم الذي لشدة كلفه بكم لا ينام ولا ينيم سميّ (المنبوذ بالعراء وهو سقيم)[1] وأودعها من ضروب التحيّة والتسليم ما يليق بجانبكم الفخم ويوازي جلالة قدركم العظيم :

(١) في سورة الصافات الآية ١٤٥ .

أزور حـمى السـادات أهل المعارف أولو البر والتقوى غيوث العوارف
خـلائف ربّ العـرش أنجم دينـه وحرّاسه أعظـم بهم مـن خلائف
أقاموا بأعبـاء الخلافة بعـدهم أما ما روى تقـديمه كـل عارف
فأولاه مـولي الفضـل منـه تفضّلا تـلائد فضل قـورنت بالطـرائف
فأحبـب به من سيد ساد جيله فالبسـه المولى فنـون مطـارف
كـلا طرفيـه صبن عـن قدح قادح وطلعتـه تغنيك عـن وصف واصف
غياث للمهـوف ورشد لجـاهل وريّ لظمئـان وأمـن لخـائف
فبورك فيه من همـام بدت له شواهـد سبق شوهدت في المـواقف
وهذا علوم السـرّ فهو سراجـــه تأخر عنه فيه ميدان آصـف
وشارك في كلّ الفنون وأهلـه فـأصبح يمّاً لا يغيـض لغـارف
يحدّثنـا عن نبلـه واجتهـاده زمـان صبانـا أذكيـاء الطـوائف
فـلا زال ما دام الجـد يـدان بـابه محطّ رحـال الأوليـاء الغطـارف [1]

وله أيضاً في حق محمد بن أَبِي مَدْيَن حفيد الشيخ سِيدِيَ :

والعـود لـولا النـار مـا عرفا والـروض لولا الـزهر ما وصفا
وترى هـلال الشهـر منبلجـا ويـزيد رونقـه اذا نتصفـا
والـدر لولا جهـد طـالبـه مـا زاد ربات البهـا شرفـا
فمحمد نـال العـلى والفخـــ ـــر وراثـة خلفـا يلي سلفـا
فعســى الاقيـــه فيـدركني وصــل يعانق لامـه الالفـا
فبيـانـه شهـد لسـامعــه وبيـانه كالغيث ان وكفـا
فيمينــه يمــن لقـاصـده فكفـاه مولاه وعنـه عفـا
فعسـى أنـال وصـاله كرمـا وأنـال مـن داء الفـؤاد شفا
وأبوه ان أبـدا البيـان لنـا سحر القلوب وجـوهر الخزفا
ميـدانه مـا رامـه أحـد في العلم الا آب وانصرفـا

(١) انظر هذه القطعة في صفحة ٤٩ لمخطوطة ايفان .

وأبــو أبيــه عــدت فضائلــه | مسكــاً يفيض ختامــه الظرفا
لو لم يكــن هذا الامــام لــه | جــداً وذلــك جــده لكفا
أجـــداده كلّ جــهـابــذه | سبحــان مــن أولاهــم تحفــا
فحفيــد هــذا الشيخ نعمتنــا | لا زال بــالخيرات ملتحفــا
فــاللـــه بــارئنــا يعمــره | ويزيـــده شرفــا صفــى وضفــا
واطــال سمــك بنــاء والــده | بــالمصطفــى وبــآلــه الشّرفــا
صلّــى عليــه الله مــا قضيت | حــاجــات من لجنابــه وقفا

وله أيضاً يسلم على حضرة أخيه في الله ومحبه لله الحاج محمد الخليفة بن عبد الله أَنِيَاسْ الكثير الخير القليل الضير :

على سيّــد قد أسّس الجــود والمجدا | وأورثه آباؤه المــدح والحــمــدا
سمّي حبيب الله أعــني محمدا | أعزّ الورى جدّا وأكرمهم جدّا
سلام يفوق الروض حسنــاً ونضــرة | ويخجــل ريّــا نشره الرنّد والوردا
فــؤادي مشغوف بحبّ وصاله | وحبّ لقاه لا بهند ولا سعدا
فتى خير مــن أخير أهــل زمانـــه | فنيل مقاماً أعوز الشيب والمــردا
فتــى سايرتــه همّة أحمــديّــة | فجابت به فيح الف لا الغور والنجدا
إلى أن أتى بيــت العتيق فحجّـــه | وزار المصفّى خير من انجز الوعدا
أيــا راحماً نيل المعالي فواتــه | ولا تــأل في تعظيم رتبتــه جهدا
فحسبك برهانا عــلى أنّ مثلــه | بــأوصافــه الحسنى قليل اذا عدّا
هــداه وتقواه وجــود يمينــه | وطيب سجــاياه التي فاقت الشّهدا
فوالده القــرم الــذي فيض نــوره | يروّي العطاش العلم وفدا يلي وفدا
هــو الشيخ عبد الله لا زال وجهــه | ينير لنا صرف الــزمان اذا اشـتدّا
أصلّي على ختــم الــوجود محمـــد | مع الآل والأصحاب مردبة الأعدا

وله أيضاً يمدح الشيخ ابراهيم جُوبْ صاحب كتاب « تُحْفَةِ الاخوان » وهو ترجمة الحاج مالك سِهْ بن عثمان :

تطيب دواما للشّراب نفـــوس | اذا ما أديــرت في الصباح كؤوس
بيمنى فتى لا زال في حفــظ ربّــه | ولا زال يــرقى للعلى ويســوس

فـذلــك إبــراهيم للــه درّه … فــدون سنــاه أعين ورؤوس

فتى كــان من أخيار تلميذ مــالك … عليـه من أثواب الوصول لبيــس

وايــاك والانكار جهـلا فانّــه … عذاب يضرّ الحاسديـن بيس

تـلاميذه بيض الوجوه عيــالم … لهــم أكوس تشفي النهى وطسوس

فيــا ليت لي وجنـاء تخـرق بيــدها … كما يخرق الثوب المصوف سوس

تخب برحلي والسماك كــأنــه … عــلى اجا عضّت عليه ضروس

تـؤمّ مصابيحاً تفيض أكفهــم … ومــا همّهم الّا تقــى ودروس

تيــاً ومني منهم حمياً ودادهم … وتعتاد قلبي لوعـة ورسيس

كهوف لمــن يأوي حتوف لمن قلى … سيوف انتصار للهدى وفؤوس

لهــم ارسم بين الجــوانح مــا عفت … نفيس سوى قــرب المزار خسيس

أراني لا اهوى لأجلهم الــى … مــواضع فيها فــرتنا ولميس

فتــاتان لي فتــاتنان فهـــذه … الثغــور بــروق واللثاث سدوس

هم القــوم كان الله لي ولهــم معــا … وهم في صدور المكرمــات جلوس

أداروا كؤوسا طيّبـــات كأنهــا … معاني بديــع ضمّهنّ طروس

ويوجد ان جاء الشّتاء في مكانهــم … كساء وكــانون يشبّ وكيــس

عــلى رغم أنف الدهر الفنـا الهوى … وقــد جمعتنا جمعـة وخميس

فوالله مــا ضاعت لقوم ذوي نهــى … دراهيم بيعت للعلى وفلــوس

فــدون معالي شيخهم كــل شامخ … فمكناس تـدريه وفــاس وسوس

لقــد ضمّ من فضــل الإلــه فوائدا … مــن الأنس ما لم يضممن أنيس

رأبناه والرحمان مالك دهــره … بــه ينجلي بأس ويرفع بؤوس

فعدّ اذا مــا شئت ذا الشيخ خنصرا … فـذا الشيخ درّ في الشيوخ نفيس

فهــذا همــام لا تقســه بغيره … ولو كان في ثوب الكمــال يميس

يمينك يا هذا باتيــان مثلــه … يمــين يمين الحــالفين غموس

قــد أحكم أجناس البــديع جميعها … ونضر وجــه القول وهو عبــوس

لقــد كان هــذا الشيخ قــدّس سرّه … خــلال ديــار المكرمات يجوس

تهيّج ابدي المنكــريــن مصائبــا … جفى لم تهيج مثلهنّ يســـوس

فهيهات ليس الترب كالتّرب قيمة … لقــد جنّ من يرضى بــذا ويقيس

فـذي نكرات الجـود عرف رسمها فأضحى عـلى قلب البخيل يدوس
لقـد قوّم الاعـدا بصولة بطشـــه وراض جـواد النفس وهو شموس
وخاض بحورا للعلوم زواخــرا فجـا بفهوم دونهـنّ شمـوس
على المصطفى أزكى صلاة الهه تقر عيون أثــرها ونفــوس
مـع الآل والاصحاب مـا ذرّ شارق وما رقصت حـول الأجارع عيس
فخذ هذه منّي اليك هــديّة تــود حـلاها الخـود وهي عروس

ومن كبار شيوخه الشيخ أَحْمَدُ جِنْكَ ٱبْنُ دِنْبَهْ الذي شطّر القصيدة البديعية للحاج مَاجُورْ سِيسِهْ . يوجد هذا التشطير في صدر ديوان ذي النون مع توطئة مهمّة جدًا وكتب ذو النون في أول التوطئة ما يلي : « هذه ترجمة هذا التشطير الموسوم بارادة الله القدير بلطيف النسائم السّحرية في صافي الأنوار البدرية على النفحات الورديّة في مدح خير البريّة » واحتوى هذا التشطير على ٥١٨ بيتاً . وقد مدح ذو النون شيخه أحمد جنك غير ما مرّة فله فيه هذا المديح :

أيـا سيدا قـد طال عهدي بـوصله وصرت أعـاني ما أعاني لأجلـه
أخبركـم أن الزمـان بُعيدكم رماني سهاماً من كنائن أزله
طويتم بسـاط الأنس من بعد نشره كما كان يطوي قارئ همز وصله
فؤادي في نار الهموم مخلـد ومدمع عينـي وبلـه أثر طلّـه
أراني بقـائي بعـد غوصي في الفنـا تعلق معنـى كلّ أصـل بفضله
بنفسي أفدي نور ذات سهدته يشير إلى بـاب الشهود وفصلـه
تجلى لطور النفس حرفا فدكها كلا شيء من اسم الجمال وفعله
ونكر حال الـدهر قلبـاً وقـالبـا وكلّفـني ما لا أطيق بحملـه
وقل للذي خلى الهـوى لهوانه الا انّما عز الهوى بعـد ذلـه
فصم صـدى من لم ير العز والهـوى ويصغي إلى نصـح الخلي وعذلـه
فــن لفتى أودى بمهجتـه الأسى وقاضي قضاة الشوق أفتى بقتلـه
ولو نال كـل الخلق بعد غرامــه لهاموا وما بعض الغرام ككلّـه
فتى قـد سقاه الدهر في طي صرفـه حوى وكسـاه خلعة المتولـه
إلى شطر هذا الشيـخ وجهك ولّـه وسنّ حسام المـدح من بعد سلـه

ودع عنك أيام الصبا وادّكاره ... ودع ذكر حيّ بالعذيب وأثله

ورض طرف شعر للمعاني وعج به ... إلى منحنى حزن البيان وسهله

يمجّ بديعاً كالجمان نفاسة ... مقادا بحبل الوزن من بعد فتله

يريك رياضاً رقة وجزالة ... على طرفي عقد الكلام وحلّه

وصف جانب الاستاذ قسّ زمانه ... سبيكة نور الفيض حزيت سبله

وآثر جناب الاقتصاد تورعا ... واما طريق المفترين فخلّه

فانّ الفتى من كان يجتنب اللغى ... ويقصد في حدّ المقال وهزله

فذ غاب عني عيل صبري وليتني ... أسايره سيرا امرئ مع ظلّه

أتى الامر من ما تاه من أمّ بابه ... لجلب نداه الجمّ أو دفع جهله

أطل يا اله العرش فينا بقائه ... وزده فيوضاً لا تناهي واعله

فأحبب به من سيد نجل سيد ... وذي شيم تبدي لنا طيب أصله

مغاص فنور العلم درة دهره ... ومصباحه السامي وكشف محله

اذا اشتغل الأقران بالمال والغنى ... تراه وجمع العلم أكبر شغله

وكم من عدو جامد جامع الخنى ... فبلّ بحلم الشيخ من داء غلّه

وعلج كعجل غلظة وفظاظة ... فلاينه حتّى استفاد بوصله

أعدّ جحيماً للعدو اذا دعي ... نزال وللثاوى نعيما بنزله

وكم ماتح وافى قليب رجائه ... فأدرك ما قد سرّه ملأ سجله

أيا رائما نيل المعالي فواته ... يصبّ عليك الفيض من وبل بذله

على العزم صمم قدر جهدك كله ... وبادر لتليين الفؤاذ وصقله

وجزّ طلى التسويف ان كنت طالبا ... نجاحا كموسى حين سار بأهله

وكن مع أرباب الارادة والحجى ... وودّع ودع ربع المجون وأخله

وكلّ من ألقى دلوه في دلائهم ... وخلى طريق الغافل المتدله

أفاض عليه ربّنا جلّ شأنه ... سحائب يمن من معادن الّه

فمن كان بالله المهيمن سيره ... اليه فأعمال الورى في سَجله

ولا تحسبن المجد يوجد هينا ... فدون منال الاري لسعة نحله

وكن ان بدى بعد الونى رمل عالج ... غزالا وكن في غره مثل وعله

ولا تك من عافته عن نيل سؤله ... عوائق من وعر الطريق ووحله

اذا رمت أن تطوي المسافات كلها   فصبراً على عبء السلوك وكلّه
ولا تقفن أثناء سيرك انّه   يؤول إلى ردّ المريد وختله
رم الخير من حيث المكارم والعلى   تجده فمأوى البقل موضع حقله
ومن ناصح الاستاذ سرّا وجهرة   أراه الذي يهوى قعيدة رحله
فكم ناقص عقلا يقول لدهره   فيا زمني أنّي تثنّي بمثله
ولم يدر أنّ الله أظهره لنا   سراجاً منيراً نستضيء بنبله
فقال لسان الدهر أني بمثله   عقيم وانّ الدهر أدوى بنسله
وانّي رأيت الدهر دون مرامه   وأخياره قد فاقهم شسع نعله
وفرسان أقلام الأقاليم كلّها   أقروا بأن لا نقل يرضي كنقله
يقلب قلب البرق دون سنائه   وينثر درّ المشتري تحت رجله
وكم من غزال صاده حوك شعره   فأمسى صريعاً من رقائق غزله
وكم من معان مشكلات على الورى   جلاها سريعاً من بها نور عقله
لقد حلّ في أفق المعارف منزلا   رفيعاً ترى الجوزاء دون محلّه
فخيض به في أبحر معنويّة   وعبّر عمّا لا يطاق بفصله
فخصّ بالقاب الأكابر بعدما   سقاه حييّ الاسم هامع وبله
فأكوار أدوار الفتوحات تنتهي   اليه وتبديها دلائل دله
على ضفّتي نهر الحيات خيامه   وتحرس مرعاه أناسي ونجله
وكم من كمّي رام كشف نقابها   فريع بضرغام الحجاب وشبله
يقادر شرباً أصبحوا ندماؤه   نشاوى ويصحيهم نواسم علّه
سقاهم بقول فيصل أكوس الفنا   فكانوا مرادي الله في الخلق كله
أجابوا وهم أهل لتقديس ربّهم   على أثري خيل الوصول ورجله
رأوا ما رأوا في حضرة القدس بعدما   أفيض عليهم سرّ ليس كمثله
الا قل لمن يبغي لحرق جنابه   ذكاء فما غمد الحسام كنصله
فما همّه الا مناجات ربّه   وارضائه في قوله ثمّ فعله
فالحق بالاحباب لما تجوهرت   خلائفه والشكل يهوى لشكله
وروّاد روض للهدى استسلموا له   فلما أنيل السبق قالوا له له
فأملى على الاسماع ما طاب نشره   فنودي لفرض الاقتراب ونفله

ألا فليكـن في علم ذا الشيخ انّنـا دوام المـدى مستمسكـون بحبلـه
أقول بمرأى للجميع ومسمـع بـأنّ أبا الزهراء مشكاة أهلـه
أروم من الرحمان جلّ جـلاله قبيـل وفاتي جمع شملي وشملـه
لعـل الهـي جلّ ربي وربـه يعيد مكـان الفصل وصلا بفضلـه
هـو الله يعطي مـن يشاء بفضلـه ويمنـع عكسا من يشاء بعدلـه
صـلاة اله العرش ثمّ سلامـه عـلى أحمد المختار خـاتم رسلـه

ربّما كان الممدوح وهو الشيخ أحْمَدُ جِنْكَ شاعراً مفلقاً وكاتباً بليغاً ومعلّماً لعلم البيان نحريراً ومدرّساً للعروض نادراً وبحراً في الأدب العربي لا ساحل له وكان قول الفهم والتفهيم في اللغة قوله اذ على قول الشاعر ذي النون تلميذه الميمون كان الممدوح « قسّ زمانه » و « درّة دهره » و « جامع العلم » وكان لِلسِّرِّ ليس كـمثله وأظنّه خائضاً في بحر التصوف هذا وقال ذو النون في من أعطاه كنية أبي (فاطمة) الزهراء :

فـما همّه الّا منـاجـاة ربّـه وارضـاؤه في قـوله ثمّ فعله

فقصيدته أي تشطير أبي الزهراء في أول الديوان تبرّز هذه المناقب له .

وله في المجاهد الشهير فُودِي كَبَا المتوفّى سنة ١٩١٠ م في غَامْبِيَا :

منّـي سـلام أبي تشبيهــه بكَبَـا للحبّ غـوث كبا المعتــلي رتبـا
أهلاً بغوث كبـا أهلاً بمـا كتبـا تـراه زهـر ربي يضـاحك الشهبا
أبـدا بـه عجبـا تعنـو له الأدبـا تخـالـه شنبـا يفترّ أو حببـا
سبحان من وهبا لـه فنون حبـى كأنّـه في صبـا ه استـوعب الكتبا
يرضيك ان كتبـا يقفو اذا خطبـا آبـاءه الخطبـا أبـا لـه فأبا
كم فارس ركبا في غاسق وقبـا جـواده طلبـا لحـوقه فكبـا
كم ذي عمى طلبا في نقض غوثا فبا كضـارب ضربا بسيفـه فنـبـا
كم نعمة جلبـا كم حاسد غلبـا كم مستميح حبـا فنـال ما رغبـا
واعلـم بأنّ أبـا ه ملجـأ الغربـا كلتا يـديه تبـا ري في السخا السحبا
أجداده نجبـا ء كلّهم نقبـا تعظيمهـم وجبـا لكل مـن لببـا

وله أيضاً يمدح صديقه محمد بن موسى :

محمـد كأبيه المرتضى موسى   كانا لدفع الأذى كالسيف والموسى
أنّـا رأينـاه في الابنـا خليفته   فكان من أبه هارون من موسى
لمّا أنخنا بحول الله منزلـــه   أزال عنا الأذى والهـمّ والبوسى
قد كـان والده مـوسى أبـو الفقـرا   من جاءه شاكياً مـن دائـه يوسى
ما نـال ما نالـه إلّا ذووا همم   قادوا الخيول لجلب الخير والعيسا
بشرى لنا حيث كنا من أحبّته   فلا نـرى أبـدا بيسا وتلبيسا
كم عـاب هذا الفتى قال فقلت له   تبعت يا نـذل في فتـواك ابليسا
وجوده يملأ الأبصار رونقـــه   وجوده يملأ الكيسان والكيسا

وله أيضاً في الشيخ صَمْبَ لَامِيْن :

أبرق بـدا ما بين جـان وجـامنـا   وأحبسه لما بدا صنب لامنا
إمام رعـاه الله جـلّ جـلاله   وصيره بين الجـد يديـر آمنا
لقد شاقني لما سمعت بفضلـه   وحرك في الأحشاء ما كان ساكنا
فموجبه أني أحـبّ لقـائـه   ليفتح لي في المكرمات خزائنا
رضيناك هذا الشيخ عالم قطرنا   تنير لنا أزماننـا والامـاكنـا
ولم يك هتّاك ولم يـك حاسبا   ولم ذا دعـوى ولم يـك مائنا
ولم يك همّازا ولم يـك ماجنا   ولم يك حلافـا ولم يـك خائنا
وفي طيّ تركيب البيـان بـدت لنا   وحوش المعاني النافرات دواجنا
وصمّم أنــواع الفنون ممارسـا   دقائقها اللّاتي تريك معادنا
وأتقنها وشيا وأحكم نسجهـا   ولم يقرأ إلا قران إلّا العواهنا
فجاء حماها ثـم وافى صراتهـا   وأبدا لنا أمصارها والمدائنا
لقد قاد في بر البيان جيـاده   وسيّر في بحر المعاني السفائنا
يحييك ذو النـون الحريص عليكم   وحبل هواه فيك لم يك واهنا
ونهدي إليكم ما بقينا تحيّـة   يجلي عن القلب الطخا والضغائنا
وأزكي سلام يشيب بالبشر والرّضى   يثير لنـا في الودّ ما كان كامنا
فأحبب به من سيّد صـار في الهدى   ذكاء بها نهدي ونحيي المواطنا

وتنجوا بها ممّن يحاول نقصنا ... ومن كان أفاكا ومن كان عائنا
صلاة من المولى علـى خير مرسـل ... كدرّ وياقوت تريك العناغنـا
وأصحابه الأسياد ما ارتـاع عاشـق ... إذا ما رأى حول العقيق ظعائنا
وما هيـج الأشواق شاد تظنه ... إذا ما بدت عيناه للعـين شـادنا

وقال أيضاً يمدح أخويه أحمد حمادا وعليا لمّا احترماه وأنزلاه في دارهما :

وليلة بتّ في دار لحمــاد ... أخي على مزيـلي غلة الصادي
يا بيت خلّي عـلي لم تـزل أبـدا ... مغنى يحف بتبشير واسـعاد
هذا لعمري بيت كـلّ آونـة ... يفوح بالعنبر الهنـدي والجـادي
أنساني البيت مـا قد مـرّ من زمن ... حتّى سلوت عن أزواجي وأولادي
أهــلاً به مـن مكان قـد ظفرت بـه ... ونلـت منه وصالاً دون ميعاد
على فراش وطيء بـتّ ذا فــرح ... ولم يفتني اذكاري وأورادي
انّي أقـول ولا أرجو لمـوعـدة ... حتّى أمين ولا أرجو لايعـاد
حماد قد كان للورّاد ان وردوا ... مـاء نميرا وروضـات لـروّاد
دار تريك تصاويرا مـزخرفة ... كأنّها دار أتراك أو أكراد
فـالله يوليكمـا سترا وعـافيـة ... وطـول عمر بأولاد وأحفـاد
عـاملتمانـا بما نهوى ونـأمله ... كأنّنا بين أعراس وأعيـاد
فالقـول ذو النون حا كيـه وحائكه ... لا زلتما قمري يمـن وارشاد
بأكغش [1] من سني الميـلاد أرّخـه ... موافقـاً طلسشا مـن هجرة الهادي

مدح ذو النون الشيخ أحمد بَمْبَهْ غير ما مرّة في ديوانه . وفي رأيه وفي رأي أهل بلاده كان مؤسّس الطريقة المريديّة جيلانيّ دهره وتستريّ زمانه هاكم ما قال « مسلما على هذا الشيخ الرباني والغوث الصمداني الشيخ أحمد بَمْبَ :

---

(١) وجمع هذه الحروف مقابل لسنّة ١٩٢١ م ودلّ على الزمن الذي ألّف ذو النون هذه القطعة وبين تأريخه في الشطر الثاني أي ١٣٣٩ هـ .

مغني سعاد عفته هوج العثير ... وسقته واكفة الغمام الممطر
والعين ترفل في مراقد حورها ... ترنو الرياض بكل طرف أحوار
وترى مهاها البيض ترعى روضة ... مطلولة نمصت ببطن محسر
أطلالها يمرحن في أطلالها ... فكأنّها في الشعب شعب العرعر
أوعالها تستن في أوعارها ... ترعى خزاماها وغض الأزهر
وترى القلائص في تيائر آلها ... فكأنهنّ سفائن في أبحر
غزلانها تقفو مدى ظلمانها ... ان راعها صبحاً زائير غضنفر
فالشوق لو زار الخلّي أقلّه ... نالته منه كسرة لم تجبر
فالشوق سهم للمشوق وسمّه ... لو مسّ آساد الشرى لم تزأر
قد كنت مبتدأ وغيري في الهوى ... خبري ومعرفة غدت لم تنكر
أنا والهوى صبان حالت بيننا ... محن تترجم حالة لم تسطر
من لي برؤية من أحب وحالتي ... ادهى فعالا من لقاء الفيقر
أعرض فؤادي هيض عن طلل عفا ... لم يبق فيه سوى المهى والجؤذر
وذر الربوع ومن بها قد حل من ... غيد عليها كلّ ثوب أخضر
فتفوق أوجهها البدور وتزدري ... نفحاتهنّ بكل مسك أذفر
مهما شدا شاد املن قدودها ... كغصون بان غب ريح صرصر
وكران شاد يستبيك كشادن ... قد حف بالمزمار ثم المزهر
نحن الوسائط للهوى فليشكرن ... أهل الهوى قلمي وان لم أحضر
لم يشكر الرحمان من لم يشكر الـ ... ـإنسان من لم يشكرن لم يشكر
فالحمد مني يستهل غيومه ... من يومنا هذا ليوم المحشر
فالشكر مني دائماً يزداد ما از ... دادت عطاياه التي لم تحصر
لله ربّ العرش جلّ جلاله ... سبحانه من واحد متكبر
من حيث أطلقني وقيد في الهوى ... غيري وصيّر أبحري لم تعبر
أهل الهوى شرق البلاد وغربها ... انّي أناديكم بصوت جهوري
كونوا معي في مدح هذا المرتضى ... شمس الفضائل ذي المقام الأكبر
وله مآثر كالجواهر حسنها ... تنسي مآثر تبّع أو حمير
ان شئت ذكّره وأنّث غيره ... شتان بين مؤنّث ومذكّر

تلقى الورى ان جئت ساحة داره — والقوم بين مهلّل ومكبّر

فالمادحون على جلالة قدرهم — لم يدركوا مضمار هذا الأشهر

طوّلت في مدحي وهم قد قصّروا — شتان بين مطول ومقصّر

قد كان عهدي عن جناب أخي الندى — الشيخ أحمد بمب عدّة أشهر

فيمينه قد عممت في الجود حتـ — ـى لم يميّز يعمرا من جعفر

وله حماسة ضيغم ومروءة — فاقت مروءة كل ندب خيّر

أما يتيم عند هذا الشيخ لم — يقهر وسائل جوده لم ينهر

محني غدت منحا إذا عاينته — أحبب به من عارف متبحّر

ما مثله كسرى علا ومهابة — بل دون ما واه جلالة قيصر

فبنات نعش دون شسع نعاله — بل دون رتبته السّهى والمشتري

بل لم يجئ حبر بأدنى فضله — ان راح يزبر رقّه من محبر

هذا كلام صادر من كاتب — قد قام للفصحاء فوق المنبر

يطوي وينشر في ميادين اللغى — ما راق عيني منجد أو مغور

يا ناسجا ثوب المديح وناظما — فقر الثنا فانظم لقولي وانثر

وانح قلوصك في فنائي واستفد — منّي وراقب سر قولي الأزهر

من لم يدن لي جال في تيه الهوى — حتّى يموت وذنبه لم يغفر

كم ذيد عن حوض الهوى من عقني — فالشوق من عرضي يطنّ وجوهري

فتريك أقلامي بقاعاً روضها — يفتر بين مدرهم ومدنّر

نظما ونثرا يعجبان لمن غدا — يتلوهما في مورد أو مصدر

ما حاك مثل ثياب مدحي حائك — في رقة المعنى وحسن المنظر

بل ما حكى حاك بديعا مثله — بل لم يعنعن في ممر الاعصر

وترى فوائد في ظروف حروفه — تبدي ثنايا بائع أو مشتري

نفحات معناه ونسج بيانه — كبصيص درّ أو وبيص العنبر

ألفاظه طنانة تغنيك عن — بدر غدت مكنوزة أو بيدر

فلسان حال الشيخ أعلن أنه — يهمي لهاه لعائل ولموسر

فالدهر يعلم انه هو فرده — وعلى حقائه النهى لم تعثر

وفيوضه وهبية ولغاته — ما جابها القاموس ثم الجوهريّ

وبمنكب ضخم يزاحم من مضوا	وهم وفود جمعهم لم يكسر
ويعاور الأقطاب كيسانا وهم	أهل العلى كالشيخ الأكبر والسّرّي
والشيخ عبد القادر الجيلي والـ	ـبدوي والغرنيّ ثم التّستري
هـذا سميّ المصطفى وخديمه	وأمينه في كلّ سرّ أبهر
وله من الرحمن سر باهر	فعليه أفئدة الورى لم تخطر
اني أراهم في الورى أفرادها	كل امام كامل ندب سريّ
أكرم بحبّ المصطفى وسميّه	وشعاع ياقوت الكمال الأنور
قد نال من فضل المهيمن نحلة	محفوفة بجمال فيض نيّر
تكفي وجاهة وجهكم حصنا لنا	بدء وختما يا جميل العنصر
فصلات جودك واصلات عندنا	ونـدى يديك لأسود ولأحمر
بل وصفكم يا قطب عصرك ظاهر	معناه في آي الضحى والكوثر
دارك بنيّك يا حنون لأنّه	كالخشف أزعجه طرير المنسر
كن حصنه في كل أمر هائل	يا نورنا يا ذا العطاء الأوفر
صلوات مولانا على مخدومنا	هو مظهر الغيب الذي لم يظهر
معها سلام دائم في آله	والصحب من طردوا العدى بالسّمهريّ

فهذه نبذة من مديحه الشيخ أحْمَد بَمْبَهْ :

ولكني ولهت إلى أناس	علومهم تري النّاس سدادا
وهم قوم لهم في كل فخر	خيول إلى تراض ولن تقادا

إمامهم إمام لوذعيّ	جواد دائماً يعلو الجوادا
وتحسبه قريشيّاً نجارا	إذا ما علق السيف النجادا
وكم خاض البحور زمان يبغي الـ	ـعلى فأتى المدائن والبلادا
ولم يستبق للخيرات بابا	يدقّ سوى ألم يه ونادى
ولم نر للمفاخر والمزايا	مدى إلّا وقاد له جوادا
وكم بسلاء كالآساد بأسا	فاضحوا حين واجههم جرادا
وكم قاد الشرود من المعاني	إذا ما استوزر القلم مدادا

مجيد الشعر ان غنّى ويلهي ... قلوب السامعين إذا أعادا

وتسمع من جميع الناس طرّا ... إذا أنشأ أو أنشد : « قد أجادا »[1]

فساد وزاد للعليا قصورا ... وما أخذ الطنافس والوسادا

إلى أن صار فردا لا يوازي ... وقد رمّ الفساد لنا فسادا

أفاد جميع من وافاه حتّى ... أفاد أخا الحجود لو استفادا

لقد نال الفوائد منه جمّ ... غفير فاجتنوا منه المرادا

هو الغوث الذي يشكي لشاك ... فصار لكل مضطرا عمادا

وكم قلب أنار سنا هداه ... وقبل نراه كالفحم اسودادا

وزاد على معارف حاتمي ... فكان لمن يروم القرب زادا

فهذا حاتميّ الطائي جودا ... بل انّ الشيخ أجود حين جادا

فدون مدى مدائحه لبيد ... وكالجيليّ قربا واجتهادا

وكم جاء لحاج في حماه ... فنال به علا بهر العبادا

وان الجود يتبعه كظلّ ... زمان صباه فاتّحدا اتّحادا

وكم قد بشر الوراد منه ... عطاه سيبه يوري الزنادا

وكم من طالب رضوان ربّي ... فنال بقربه ما قد أرادا

وهمته إلى الرحمن تعلو الـ ... ـأراضي السّبع والسّبع الشّدادا

ومن لم يستفد منه إذا ما ... أتاه لم يكن إلا جمادا

هو البكي أو المكيّ أصلا ... فعد عدوه الطاغي رمادا[2]

فسبحان الذي خلق البرايا ... فلا يدري علوا وانفرادا

وقرب من يشاكر ما وجودا ... وعدلا ان يشا من شاء ذادا

أهنئكم بعيد أنت فينا ... تفيد ولم تعلمنا النفادا

---

(١) لو قال الشاعر : « ... من جميع الناس مدحاً » لأحسن لكنّ معناه : « قد أجادا » .

(٢) ومن عادة السنغاليين أن ينسبوا إلى علمائهم أصلاً محمّدياً او عربيّاً وأصلهم في الحقيقة زنجيّ محض .

أفدت من استفاد فدتك نفسي   وأنت اليوم أفيد من أفادا
فبابك لا يقول لمن أتاه   فذا رجب لما لي أو جمادى
ومن أهدى لغيركم نظاما   فقد نالت تجارته الكسادا
رجوعي بعد ذا لا بد منه   غدا يا من يزيد من استزادا
ولولا خوف افراط لزدنا   ولكنّي أراعي الاقتصادا
صلاة الله يتلوها سلام   يريك الفيض يزداد ازديادا
على طه أجل الرسل طرا   وأصفاهم عيانا أو ودادا
وآل ثمّ أصحاب كرام   نجوم هدى لمن يبغي الرّشادا

فانّ الشاعر لم يغل والله في مديحه للشيخ أحمد بَمْبَهْ ولقد شهد أهل زمانه بأنه كان أكثر جودا من حاتم الطائي وأكبر حلما من السموءل وأبلغ من سحبان وأشعر من حسّان وأصبر من الوتد على الذّلّ أو من أحمد بن حنبل في المِحَنِ . ولمّا توفي خلفه ابنه محمد المصطفى وبعد هذا الخليفة الأول كان الحاج محمد الفاضل أخوه رئيسا للطريقة المريدية . وقد ولد محمد الفاضل بن الشيخ أحمد بَمْبَهْ سنة ١٨٨٨ م وتوفي في عام ١٩٦٨ م . ولذي النون في أخيه ومحبه أحمد الفاضل ما يلي :

فللكأس في وقت الصباح فوائد   تداولها زيد وعمر وخالد
ولا سيما ان كان أحمد ساقيا   فضائله لا تجتنيها القصائد
وفي كل يوم ان أتيت مكانه   تحفّ به كيسانه والموائد
مزابره ان شاء تبدي فرائدا   قلائدها تهوى إليها الخرائد

وله أيضاً يمدح الحاج محمد الفاضِلَ البَكِيِّ :

فالفاضل بن الشيخ أحمد أحمد   أخلاقه ما دام أحمد يحمد
أعدوا مدائحه وطيب ثنائه   فالعود في عود لأحمد أحمد
في لله رم ما شئت عند محمد   فعطاء ربّك دائما لا ينفد
فمحمد كأبيه أحمد في التقى   انا عليه الله ربّي نحمد
فمعاصروه دون شسع نعاله   بل دون علياه السّهى والفرقد

فالاذن تحسدها العيون لذكره   وإذا بدا فالعـين تحسدها اليد
يا صاح وات الشيخ أحمد عاجـلا   ان الأماني حـول أحمد تسجد
أضحى الخوارق كالعـوائـد عندهم   فالدهر يعلم مـا أقول ويشهـد
أحسنت ظنّي في الإمام ونجلـه   ولعل عـاقبتي بأحمد تحمـد

وقال ذو النون في مدحه بَلَّ بُسُ خَالَ الشيخ أحمد بَمْبَهْ البَكِيّ :

لا زلت يا فائق الأقران بَـلَّ بُـسُ   من الألى بثيـاب العلم قد لبسوا
فلتسقنا أكؤسا صينـت لشـاربها   من قهوة ينجلي عنّا بهـا الهَوَسُ
فحمـد كأبيـه أحمد نـوره   نار الضلالة والغوايـة يخمد

وله أيضاً في بَلَّ بُسُ :

مزيد تحيـاتي لكـم ليس ينقص   لـمن هو عـن مـولاه لا يتربّص
هويتك حتى قـد هويت جميع من   إذا ما أتوني قالت ألقابهم بُصُ

ومن المعروف أنّ حبيب الله صار عند الوُلُفِ بَلّ فانّهم يحفظون الباء الأخيرة من الحبيب واللامين من الله في النداء وكان جدّ الشيخ أَحْمَد بَمْبَهْ يسمّى بحبيب الله ولكنه لم يعرف إلا بِبَلّ أو مَامْ بَلّ (ومعنى مَامٍ الجَدُّ عِنْدَ الوُلُفِ . وجَدّي كَانَ اسْمُهُ أيضاً بَلّ مِن جِهَةِ الأَبِ) .

المرثيّات

وله أيضاً يرثي شيخه سَعْد أَبيهِ :

يا مرقـدا ضمّ هـذا العيلم العلمـا   أعني بـه شيخنا ياقوتـة العلما
لفيك من فضل رب العرش خالقنا   غطمطم زاخر يستغرق الدّيما
لفيك نجل رسوم الله من مضر   سعد السعود أبو ساداتنا العظما
لفيك ما فيك من علـم ومن ورع   ومن نوال عظيم يذهل الكرما
لفيك بدر وبحر في الضياء وفي الـ   ـسخاء أعظم به من سيد كرما
كم نال قـاصده من جوده نعمـا   تستجلب الذهب الابريز والنعما
وكم أفاض على من أمّ منزله   عذبا فراتـاً نميراً بارداً شبمـا
أبدى طرائق أهل الله حين عفـت   آيـاتهنّ فأحيى أعظما رممـا
نفى العتو فأفنى الغيّ حين غدا   ركنا يدافع عنا الظّلم والظّلما

تصريفه نافذ في الخلق أجمعه . وفيضه ساجم لا يألف السأما
قد صدّ عن زخرف الدنيا وزينتها بهمّة حرّة قد فاقت الهمما
أمّا المعارف والأسرار جملتها وافته حينئذ لم يبلغ الحلما[1]
قد كان مرآة خير الخلق شافعنا مذ كان للسّنّة البيضا يدا وفما
أما الكتاب الذي من عند خالقه لم يأل عن درسه مذ كان منفطما
يستعبد الفصحاء الصيد والبلغا ء اللسن ان أخذ القرطاس والقلما
ولّى فغادر أهل الفضل في محن ومأتم أيتم الحكّام والحكما
العرش في فرح والفرش في ترح لمّا مضى من غدا للمستجير حما
حام حمى بيضة الإسلام فانبسطت منه يد تطرد الآفات والوخما
إنسان عين أولي العرفان قيد عيو ن الواصلين غمام اليمن حيث هما
قد كان أكبرهم فتحا وأنظفهم ظرفا وأظرف منهم هيكلا وسمى
أهل الشريعة والتحقيق قد أخذا منه فأمسى لكل منهما علما
وقد أتى ذانك الجمعان حضرته واستخرجا من علوم الشيخ كنزهما
فصار بحرين للأحبار والبدلا فأعجب لبحرين تياراهما التطما
ورد لزائره روض لناظره نور لقاصده نار لمن ظلما
قد كان أبسط من فاضت مواهبه كفا وأفصح من قد رصّع الكلما
أما اسمه صين عن نحس فصار به من أم جانبه بالسعد متّسما
انّ السعادة في الدنيا وآخرة لمن بهذا السرى يستدفع الأزما
قد غاب في عالم الأسرار طلسمه فصار فذلكة حارت بها الفهما
ان قلت انّ إله العرش صيّره قطبا تصدق وان لم توله قسما
فعدّه مغنما فيما تريد تفز من عدّه في مرام مغنما غنما
قد كان في أزل سعدا لطالبه فجا سعادة من يهوى كما وسما

(١) لو قال الشاعر « فاتته حينئذ الخ » لأحكم إذ يجب ان يربط جواب أمّا بالفاء ف + أتته وللضرورة صارت الألف ألف وصل .

فموته أشجن الاشراف والصّلحا ذوي القلوب وأشجى الحلّ والحرما
ولا ألوم امرء قد عدّ روضته ان عاقه عائق ركنا وملتزما
كانت فيوضاته تهدي جماعتنا لما أتانا فولّى الجهل منهزما
ملازم كل معروف وديـدنـه الزام ما كان لم يلزم وما لزما
وكم له من اشارات مقـدّسة قد أقبحت صورا تخالهنّ دمى
كم من غويّ به نـال الوصال وما أما له بعده ثغر صفى ولمى
فخذه سلّم ما تهوى وتأصلـه من يتّخذه دواما سلّما سلما
فجاهه لي مجنّ حيث كـان ولم يلاقني الكيد إلّا انهدّ وانهدما
يفلّ عنّي نيوب النائبات كما يذود عنّي الأذى والغمّ والسقما
انّي أرى طبعه شهدا ونفحتـه مسكا ومبسمه درّا لمـن نظما
ان تلقه تلـق كـل الخلق في رجـل تنحطّ دون معاليـه نجوم سمـا
من كان أفضل رسل الله والده تقديمه بين أرباب الهدى انحتما
قد كان أفصح من قسّ وأبلغ من سحبان ان قـال أما بعد أو رسما
ما من وليّ له فتـح ومعرفـة الا ويرفع هذا المفـرد العلما
فالله ينفع كلّ المسلمين بهـم فضلا ويرفع عنّا الشك والتّهما
لم ألف يا خلّ من رباه جانبه من بعد غيبته يستمن الورما
فالدهر هو أبدع من توليـد فكرته في حقّ ذا الشيخ منثوراً ومنتظما
هذا فقـد دان أقطاب الوجود لـه شرقاً وغربا فساد الكلّ حين سما
سل النصارى عن القطب الأجلّ وسل عنه الزوايا وعنه فاسأل العجما
حدّث عن البحر يا خـلّي ولا حرج على امرىء صاب دمعا أثره ودما
من للاسافل والأعلين قاطبـة من للأرامل والأيتام والغرما
من للسجود ومن للجود حين مضى من للقيام الذي يستتعب القـدما
من للركوع ومن للاسم الأعظم بل من للوجود جميعا ان رأوا نقما
بل من ينوّرنا بل من يصدّرنا بل من يعلّمنا الأحكام والحكما
بشاهد الله في حالاتـه أبـدا ربّا كريماً جميلاً عادلاً حكما
لا تحسبوا أنّ لي من بعده بدلا لا والذي خلق الكرسيّ والقلما
له خلائـف لا تثنى أعنّتهـم عن المعـالي وكلّ لازم اللقما

لكنهم وافقوا ذاك الخليفة في   تقديمه وفق ما سعد الورى رقما

فالله ربّي يجازيهم بما صنعوا   خيراً ويجعلهم للمصطفى ندما

في طول عمر وتوفيـق وعافية   تثني المصائب والاكـدار والغمما

مع حسن عاقبة تصفي الختام لنـا   وتشمل الأهـل والأحباب والخدما

أبناء ذا الغوث انّ الله فضّلكم   فينا وكنتم شحاك الأغبيا اللؤما

أمامكم كلّ ما خلاه والدكـم   من المزايا فزموا الأينق الرّسما

ولا يشارككم في وصفكم أحـد   يبغي المبارات إلا ملقيا سلما

أبوكم أو أبوه بـل جدودكم   أعلى الورى حسبا أو فاهم ذمما

ما منهم أحـد إلا وشيمتـه   لقيا المساكين والأضياف مبتسما

فلم تزالوا ولا زالت جموعكم   يرافقون التقى والنصر والكرما

قل للألى لازموا الانكار واتخذوا   هجو الشيوخ وبغض الأوليا شيما

وهل تضر شموس الصحو في فلك   ان أنكرتها عيون عمّهنّ عمى

ونستمدّ مـن الرحمن بارئنـا   عيما يسحّ عليه الفوز والنعما

فالله يستره فضـلا وينزلـه   في عصبة لم يروا همّا ولا ندما

ويجعل الخلـد مثـواه ومسكنه   مع النبيئين أرباب الهدى الرحما

في غبطة ونعيم ثـمّ مرحمـة   تعمّ من معـه بـدء ومختتما

بجده المنتقى الهـادي وأمّتـه   هم الذين بهم قد فاقت الأمما

عليه أزكى صلاة والسـلام معا   والآل والصحب والأقطاب والعلما

وله أيضاً يرثي الحاجَّ أَحْمَدَ آنْجَايْ :

قلوبنا سلبتها صدمـة الكرب   فافزعتنا واجثتنا على الكرب

نشاطر الورق في أشجانها فغـدت   دموع أعيننا تنصبّ كالقرب

يا ناعيا قـد نعى هذا الإمام فقـد   نعيت صنو اللغى والنحو والأدب

من للقوافي التي تحكي إذا بـرزت   مباسم الروض أو كاس ابنة العنب

من للوسائل والاحسان للقربـا   من للوسائل والآحكام والخطب

تبدي جزالـة ألفاظ مشعشعـة   كماء ورد إذا ما شيب بالضرب

في كل معنى لطيـف دق مـدركه   أصفى وأعذب من لثم ابنة العرب

أمست تدب دبيب الراح ان تليت   للمستهام فيكسي حلة الطرب

يجيد حل المعاني المشكلات كما — يجود بالفضة البيضاء والذهب
تراه يفصح عن تحميد خالقه — ما ليس يفصح عنها السن السحب
تاج نتيجان أهل العصر قاطبة — سمح الخليفة حبر طاهر النسب
فكم وكم زمر أموا منازله — فأصبحوا لكمال الأمن في رجب
آس لذي سقم واس لذي يتم — كاس لذي عدم دراكة الطلب
شاف لذي وصب كاف لذي حسب — قاف لذي قرب با أعجب العجب
قد كان مستغرقا أوقاته أبدا — في ربه وبه استغنى عن اليلب
من للرغائب بل من للغرائب بل — من للفنون ومن للبحث في الكتب
من للصلاة لدى مختارها أبدا — وتاليها ومن للشكر حين حبى
من للسلوك إلى البيت الحرام على — نجب كفلك وفلك كنّ كالنجب
من للصلاة على المختار من مضر — من للنوافل والاذكار والقرب
ومن يزحزح عنا الكد ان عرضت — بوائق الدهر في أعوامه الشهب
قد كان أجرأ من ليث وأجود من — غيث يفيض بلا شك ولا ريب
ان جاء منزله ضيف وضيفه — يفترّ عن مبسم براقة الحبب
سحائب العفو من مولاه تغمره — فضلا وتكسيه من ابرادها القشب
لو كان يفدي فديناه بأنفسنا — والأهل والآل والاخوان والنشب
قد كان يعبأ بي في كلما أربي — وكان خير أب لي بعد موت أبي
اني أعز جميع المسلمين على — وفاة سيدنا علامة الحقب
الحاج أحمد انجاي المعتلي حسبا — بقية العلماء الكمّل النجب
فما لنا بعده إلا الرضى بقضا — ء لله باري البرايا كاشف الكرب
والله يرحمه فضلا ويستره — بحرمة العرش والكرسي والحجب
وبالملائكة الغرّ الكرام وبالـ — ـمختار خير الأنام الهاشم العرب
فالبيت والرسل والآيات جملتها — والأنبياء موالينا ذوي الرتب
عليهم صلوات الله أجمعهم — والصحب والآل ثم الآل والصحب

وله أيضاً مرثية الشيخ مُمَّرْ جَارَهْ صنو الشيخ أحمد بمبه :

ألله أكبر غاب الدين والورع — فعم هذا البرايا الغم والجزع
يا ناعيا قد نعى هذا الإمام فقد — نعيت شيخا به الإسلام يرتفع

أعني بـه الشيخ ممر جار ملجـانـا به غـدا الدّين في الأرجاء يتسع
من الالى خصّهم بالمجـد خالقهـم فضلا وان خرقت أيامهـم رقعوا
آباؤه أوليـاء كلهـم صلحـا يا نعم ما نطقوا طرّا وما صنعوا
أنا فلم نـر بأساً في وفاة فتى له من الله في رضوانه خـلـع
لاسيّ من زاده تقواه حين دعي للموت من حيث شعب النفس ينصدع
فالله يكـرم مثـواه ويجعلـه في مقعد فيه أهل الله يجتمع
فالموت أنشب من في الدهـر مخلبه ولا شجاعـة تحميه ولا هـلـع
تذوب أرواحنا شوقا إليه وتنـ ـهل المدامع والاحشاء تنقطع
له السعادات والقوم الألى معه فيضمحلّ الأسى عنهم وينـدفـع
وفي العبادة القى دلـوه فلـذا لا يهجع الدهر ان أهل الهوى هجعوا
صنو الإمام أعز الناس مرتبة شيخ الورى من به أهل العلى انتفعوا
تقول حضرته للخلـق قاطبـة يا قوم فاستمعوا منّي العلوم وعوا
من اقتدى بـولي كامـل ورع فقلب هذا بنور الحق ينطبع
وهؤلا الأولياء الصيد قد وردوا من فيضه ثـم مـن عرفـانه كرعوا
ان الوصول نفـوذ للالى رغبوا فيه ولكنما أرواحهم سـلع
ان الشياطين هـابته لكثرة ما لاقته وهو بحول الله مدّرع
ولا تساويـه أيا كان من سند لالا فلا يستوي الضرغام والضبع
ولا تقسه بمن قد جلّ مرتبـة يوما فهل يستوي الياقـوت والودع
انا رأينا كلام الشيخ في ملإ مثل الطيور على روض العلى تقع
فالله يولي أخـاه البرّ أنعمـه حتى يرى فضله للمقتـدي يسع
بعين رحمـة مولانـا ونعمتـه محمد من به الإله تنجمع
وآله الغرّ أهل الخير ما سجعت ورق فأضحت دموع العين تنهمع
وصحبه الامناء الصيـد قاطبة من تنجلي بهـم الأكدار والبدع

الغزليّات

قد لا يكون في حياة الإنسان إلّا مآثر جديرة بالذكر وقد لا يكون في وجود البشر إلّا آونة لبكاء الأموات فان في ذلك لمناسبات أخرى للتغنّي بالحبّ وما كان ذو النون لينكر علينا هذا الحكم والرأي إذ هو الذي قال مفتخراً :

« وما أنا الا الشمس في عالم الهوى ويعلم قاص ما أقول ودان »

فدونكم قصيدةً بدويّةً لفظاً ومعنى كأنها من تآليف فحول الشعراء العرب :

فما بال دمع العين أصبح جاريا إذا ذكرت هند فيرتاع باليا
لقد نصبت هند وذلك دأبها حبائل شوق قد قطعن حباليا
وكم شادن كالبان لينا وقامة أثار الأسى لما أتاني شاديا
وذكرني هنداً وأولج في الحشى سكاكين أهمت للشجون دمائيا
لقد غبت عنها وهي في رمل عالج أعالج منها ما يدقّ عظاميا
وكم بلد فارقتها وأحبّة تركتهم والكل يبكي ورائيا
وذكراهم هاجت بياني ورصّعت بديعي وأبدت للفهوم معانيا
وطيف خيال زارني متنكرا فلما رأته العين أدبر نائيا
رأى الراقبا لما أتاني ثانيا فصار يواري شخصه في ثيابيا
فكم أبحر قد خاضها وفدافد ترد القطا حتّى ألمّ ببابيا
ألا قل لهند فاترد خيالها وقد صار ثوب الليل بالصبح باليا
أيا هند لا تستهجني بتغزلي فما كل مصريّ يقول القوافيا
وقافية قد بتّ أحكم نسجها تفوق معانيها اللطاف الغواليا
رأيت تصاريف الزمان طلبنني زمانا ولكن لم يجدن مكانيا
حسوت الهوى صرفا فنلت أمانيا وأفعمت كيسانا صفت وأوانيا
فحسبي ربّي من فتاة إذا بدت رأيت محياها يغيظ الغوانيا
قد أنشدت أبياتا لأجلب شوقها فقالت سريعاً لا عليّ ولا ليا
ولم ير لي عيب يضيح لعلها تعاف سوادي ليت عيبي سوادها

ولم يسمّ الشاعر الاسم العائلي لهند هذه ربّما صدرت هذه من خيال ذي النون .

وله أيضاً في الغزل :

فكم من شادن يسقيه ساق أرى في خده قدمي وساقي
يسوق إلى الهوى ان ظل يسقي فأفرط في السقاية السياق
سقاني أكؤس سارقت وراقت وجنح الليل مسدول الرواق
وأيام الفراق سبت فؤادي ودمعي سائل بين المثاق

عسى ولعل يسمح لي بلقيى فيطفي نوره نار الفراق
سقاني في الهوى كأساً دهاقا وأولاني أسى مرّ المذاق
وأبهى منه لم ير في بخارى ولم يُر في دمشق ولا عراق
ودائي لا يداويه الأطبّا ولا يرقي فؤادي ألف راق

وله أيضاً في الغزل :

لمن باللوى والرقمتين مغاني عفاها سحاب دائم الهميان
مغاني بها القينا يلهي كرانها مثالثها مشفوعة بمثان
فرقرقن الجانا وارقن أعينا وأنزلن كل الشوق كل جنان
مغازفها تشجي القلوب رنينها فتهتز أغصانا قد ود غوان
ودمعي قبيل اليوم أبيض ناصع ولكنه في اليوم أحمر قان
يقولون لي ذر من هويت فانني وربّي ما لي في السلوّيدان
ذوات الوجوه البيض والأعين التي أشد بقلبي من وقوع سنان
يقول عذولي حين رقّ لحالتي ودمعاه من عينيه ينهملان
هوى قد رأيناه هوانا بعينه وما الشوق إلا في هوى وهوان
هوينا فهنا حين بانوا وانهم قد استوطنوا منّي أعز مكاني
رأيت فؤادي دائم الخفقان ودمع جفوني دائم السيلان
رأينا الهوى عين الهوان فأصبحا قد اتّحدا في الوصف والسريان
وما ضمّ مثلي في الصبابة والهوى ظروف مكان أو ظروف الزمان
وما الشوق إلا من معاني حقيقتي وما العشق إلا من بديع بيان
انا واحد الآحاد في كل مشهد يصان من الأشواق والهيمان
فشؤبوب حالي دائم الفيضان وخيل علو دائم الذالان
دمي ثم دمعي يجريان صبابة وسرّي كمثل البرق في البرقان
أيا من يباريني ولم يدر حالتي فانّي شاميّ وأنت يماني
وما أنا إلا الشمس في عالم الهوى ويعلم قاصٍ ما أقول ودان
مغان غدت تلهي قلوب ذو النهى تريك مبساما باهر اللمعان
تراهم سكارى ان ذكرت خصائصي بغير كؤوس صففت ودنان
هم القوم لا زالوا بحورا لسائل فشأوهم قد كل عنه لساني

وكم قلد أمراً مهـــم واصطفاهم موالى سمطى لؤلـؤ وجمـان
لقد وقعت منّي فنــون هواهم وقوع سنان في حنان جبان
أفاض علينا الله جـلّ جلالـه بهم غيث ايمان وغيث أمان

لقد أبرز ذو النون شاعريّته في الغزل ابرازاً مبيناً وأظهر فيه ما هو قادر عليه . وفي رأيه لا يمكن للمحبّ أن يسلو عن حبيبته فانّ النسيان في الهوى لا معنى له ولذلك كان لا يخشى المسافات الشاسعة وله أيضاً في الغزل :

ويكفيك حالي دون نشر كتابي بأنّي في حزن لشدّة ما بي
يقول عذولي : «هل تموت من الأسى؟» رأيت سكوتي عنه عين جوابي
سلو الفتى عمن يحبّ ولو عدا عليه لدى العشّاق غير صواب
ولو كان محبوبي يرق لعاشق لحنّ إلى حالي وفصل خطابي
وفي كل وقت أرتجي منه قربه إذا صبّ في الكاسات خمر عتابي
قطي مسافات تليــق بمثلـنـا على ناقة تطوي الفـلا كعقـاب
سنركب للمحبوب كـلّ غطمطم ونخرق للقيان كـل حجاب
وأكثر ممن يدعي الشوق بيننا ذباب تغذت من ضروع كلاب
وانهم لـو يعشقون لأذعنـوا لأول محبوب بأول بــاب
فلم يبق لي الأهوا ذنوبا لعلني إذا نحن متنـا لا يطول حسابي
سراب الهوى يحكي شرابا وعـذبه عذابا وعقباه تجي بعقاب
وللحب آيات فمن رام حصرها يكلّ فلم يظفر لها بنصاب
وان أرقص الأقـلام فـوق طروسها رأيت حباب الماء فوق حباب
مزابر ان رنّت وحنّت عنت لها اراقم عيص أو ضراغم غاب
معاني تحجوها زهورا وتــارة خلية نحل أو ثغور كعاب
وأهل الهوى عدّوا الشكاية في الهوى نباح كلاب أو طنين ذباب
ولاح رآني ما أصبت وانّـني مصاب وانّي في أشدّ عذاب
فقلت له من كان يمشي على الثرى ولم يك صبا وهو عين مصاب
فليس امرؤ قـد مات شوقا كـغيره وما طعم شهد يا أخي كصاب
فطوبى لمرء قد رأى أو رأى امـرأ رآه بمسك قد ختمت كتابي
بحق صفات الله أدعو وذاته ليرزقني الرحمن حسن مآب

بأحمد خير الخلق من قد بدت لنا سيادتـه مـن مرّة وكـلاب
عليه مع الأصحاب والآل كلهـم سلاما اله يرفعـان جنـابي

وفي القطعة التالية حدّد الشاعر الحبّ تحديداً نفسانيًا فِيُسِيُولُوجيًا والحبّ من نوعي النفس والجسم وذاته روحية وجسديّة معاً وقد يورث الجدل الذي صدر عن هاتين الطبيعتين فناء في السكوت والدمع والبلاهة . قال ذو النون في ذلك :

الحبّ مـا حال بين النفس والنفس فألجأ العاشق الهـاوي إلى الخرس
وأهل موسى لو استغنوا بما رزقـوا يغنيهم المنّ والسلوى عـن العدس
ذو النون نون وهذا الشوق كان لـه بحراً وليس يعيش النون في اليبس
الله حسبي من شوق أمـارسه دهراً فيلجأني كرها إلى الهـوس
الله أكبر من وجه ألمّ بنـا خرّت له أوجه الرهبان والقسس
قالوا : «أأنت نسيت العهد»؟ قلت لهم ربّي لآدم عهد قبلنا فنسي
وانّ أعيننـا رمـد لبعدهم ما الأعين الرّمص مثل الأعين النّعس

وله أيضاً في الغزل :

وفتـانة الألحـاظ واللفتـات لها وثباتي في العدى وثباتي
لقد اودعت في القلب وقت فراقها فنون شجون حركت سكناتي
فلما تولت للفـراق عشيّـة رأيت حياتي بعدها كمماتي
وليس حياة المـرء إلا ممـاتة إذا كان من يهواه ليس يواتي
وهيهات هيهات السلوّ فانما فؤادي يساوي بين هـاء وهاتي
فلا شوق إلا ما أكنته مهجتي ولا حزن إلّا من موارد ذاتي
ولو كلفتني الحال ارواء غلّتي لأفنيت نهري دجلة وفراتي
أحاديث شوقي عنعنتها روّاتها أسانيدها معروفة النكـرات
فتلك روايات صحاح لأنّهـا روتها الشجون الجون عن عبراتي
قضاة الهوى جاروا عليّ وبرهنوا بما التقطوا ثمّاً تذيع وشاتي
ولو كان حقاً ما يقولون ما غدا لا حل الأسى لنبكي علي شتاتي
وذاتي في وشك الفنـاء فانّهـا أرقّ سياجا من ثياب صفاتي
حياتي تلاشت بل حياتي بعدكم عقيب النوى يا صحبتي كـوفاتي .

فلي ولكم مني ومنكم من الجوى أمور بها ضاقت عليّ جهاتي
تقيسون قيسا ضلالا وبيننا مراحل تثني عزم كلّ قطاة
وأيام قيس في زماني ساعة فكم بين بحر زاخر وأضاة ؟!!
لقد علم الأيّام والحال شاهد بأنّ جميع العاشقين عفاة
فجيش الهوى يزداد بأساً وقوة وسلطانه استولى على المهجاة
غدت امراء الشوق تحت أوامري ويرجو وعيدي كلهم وعداتي
لقد جنحوا للسلم حين بدى لهم تجلي جلال القهر من سطواتي
فنادى لسان الحال أنتم رعيتي وأنتم جنودي يا جميع لداتي
ولو حاولوا عصيان ما أمروا به لفلوا بجيش صال في الغفوات
وكافحهم من فرط حزني ولوعتي جيوش أسى مسمومة الصدمات
إذا أظلم النقع الأحم عليهم هداهم سيوفي في حيّز الثكنات
لذا خطّ في الرايات سبقي وسوددي وسكّت دنانير الهوى بسماتي
وقد قلدوني اليوم دستور ملكهم فسنّت أمور السلم والغزوات
وصرت وحيداً في الجموع وكيف لا وقد أعجز الأيام قرع صفات
أيا قوم عوجوا بي على العقدات وألقوا عصيّ التسير جنب صرات
فتلك مغاني من أحبّ وان غدت دوارس بين الضال والاثلات
يقلب قلبي ان نظرت رسومهم على جمرات الشوق والحسرات
معاهد كانت للعيون جنانها بها وتريني مقتضي شهوات
وفيها سليمى تستبيني إذا بدت بمرأى بهيج كامل الأدوات
فتاة أنيلت رفعة وسيادة وتحسدها في الحسن كل فتاة
إذا برزت تنسيك بدراً وان رنّت أرتك غزالا ربع في الفلوات
إذا ما تثنّت ضحوة أو تمايلت أرت غصن بان مال في الربوات
فما هي إلّا جنّة فوق ربوة غدت نزهة الفتيان والفتيات
وان هجرت من غير ذنب جنيته ولم أر من يطفي لظى زفراتي

وله أيضاً في الغزل :

عفت لسعاد من يبرين دور على أطلالها أسفا ندور
وقد كنا بها والعيش صاف وكاسات الهوى كنا ندير

تجيب الصاهلات كران شـاد ... يرن لنا كما يتلى الزبـور
وعهدي عن مساكنها الخـوالي ... لها حجـج وتتلوهـا شـهور
فأمسى الربع لم يؤنـس ملمّا ... به إلا نئـيم أو زئـير
ولم يسمع لدى الأطلال إلا ... عواد أو بغـام أو صفير
يقول لسان حالي حين بـانوا ... ولم يبق الثغاء ولا الهرير
فأيـن هنود هاتيـك الفنـابل ... وأين أولائك الجمّ الغفير
كأن الدمع مـذ غابوا وغبنا ... لفرط الحزن بير أو غدير
بعيد ورودهم صدروا وكم من ... ورود بعـده يـتلوه الصدور
رعى الله الأحبّـة حيث كانوا ... فيسقي جمعهم مـاء نمـير
لقد نظموا قصائدهـم عقـودا ... فدان لهم فرزدق أو جرير
أرى روادها الـوراد روضا ... أريضا ضمّه مرعى مطير
لقد طابوا نفوساً حين كنا ... لهم ندما وجاورنا وخيروا
نرى الأيام أعيـادا ترينـا ... هنـاء لـم ينلـه أردشير
لقد آوت مرابع تي المغاني ... روابعها فأشرقت القصور
فمالت في خمائلها غصـون ... وغنت في جوانبها الطيور
وأرسلت السّماء مثعنجـزات ... فتبسم من حواليها الزهور
فمن لي بالوصول إلى غـوان ... كأنّ وجوههنّ سـنـا بدور
بدور في الخدور كم بدور ... تروق العين ضمّتها الخدور
شعور كالشعور إذا تـدلـت ... لقيل إذا شعار أم شعور ؟
وكنت إذا ذكرن اسمي كأني ... مليك أو أمير أو وزيـر
عسى أن يجمع المـولى تعالى ... جماعتنا هـو المـولى القدير
عسير مثل مـا نرجو ولكـن ... عسير عنـد مولانا يسـير
فسوف تـتي مواعـدها جيـاد ... فتطوي لي السهول كذا الوعور
فتبتهـج القلوب إذا وصلنـا ... أماكننا فتفـتر الثـغـور
فتركض في الفيـافي والموامي ... وتنـدكّ الجنـادل والصخور
وانجاز الوعود غدا فروضـا ... لعيس لا يغيبها الفـتـور
كأنّ البيد لما ان رحلنـا ... قراطيس وهنّ لهـا سطور

لقد خاضت سفائنها غمارا فساعدها الجنوب أو الدّبور
ويطوون المراحـــل في الصّحاري فتذرع دوّها عير فعير
تراها كالصوامع ان ركبنا ذراها فانحنت منها الظهور
ولا تشكو ولو طالت وجاها وأعمت مقلة الحربا الهجير
فتــاتي لو رأتنا يوم بـنـا لتعلم أنّني الجلد الصبور
يسامرني أمور في هواهــا تكلّ لها القوافي والبحور
لقد لفظت بي البيد البوالي فها هي لا تـزار ولا تزور
فتاة غضّة لو كنت زيـرا لزرت جنابها مع من يزور
فها هي من نفور قد تولت وعادات الحسان هي النفور
رأتني غير مأسوف عليــه فخامر خاطري أمر خطير
أروح كأنني في فرط حزن أسير أو كسير أو أجير
أيا ابنـة مالك اني مشوق إليك وأنت للعينين نور
صحابي لا تقيسوني بغـيري أيحسب من يطير كمن يسير
يسير بشوقـه قيـس وأنـي على علات أشواقي أطير
وكم ليـل تضل به نجوم وتحت ذيولـه مطر غزير
يضلّ سواد عينك في رجاها فلا يهدي إذا ضل الخفير
أشـق ثياب غيهبـه كأني على حـافاته شرر يطير
فتاتي انّني لـك حدّ صبّ عشوق والعليم به خبير
ويعلم ما أقول الخلق طرّا ويعلم ما أقـول سعيد نور
لقد قاسيت بعـدك من شجون يذوب لخوف وطئتها ثبير
سأمنح قادما منكم إلينـا جواهر لا يجود بها البحور
سفائن جئن منك لهنّ منّي نفائس دونها الرّوض النضير
أيمكن لي العبور على بحور عراض ليس يقطعها العبور
أقول وعينك الحوراء عبرى أهذي عبرة أم ذا عبير
أما والراقصات إلى المعـلى وما حوت المباسم والخصور
وما للغيد من وصل مروم وصدّ دونه يعمى البصير
لأنت حياة روحي دون ريب وذكرى القلب ان أزق المسير

سمي أبي لديك فحاذري ان　　تخاشنه الأذبه إذ تطير
إذا رخمت نونا من هواني　　يكون هوى فيحصل لي السرور
إذا ما القينة الشنباء غنّت　　غدت أوتارها شجني تثير
بأيدي فتية قد انستني　　فانستني الخطوب إذا تدور
فأيام اللقاء لنا جنان　　وأيام الفراق لنا سعير
بدا فتيانهم وهم أسود　　تصيد وهذه الفتيات حور
على لباتهنّ عقود درّ　　حرائر جل كسوتها حرير

وله أيضاً في الغزل :

ألا أيها الحادي بذكرهم غنا　　فخذ عذر هذا الصبّ ان حنّ أو أنا
ونحن أناس قد دهتنا صبابة　　ترد لظاها أقوياء الورى زمنى
لقد قيل للعشاق لما تحققوا　　بتحقيق ذرات الهوى لكم المهنا
ألا فارحموا قوما سكارى من الهوى　　ولا عاينوا خمرا ولا رمقوا دنا
برائدكم تشفي القلوب من الضنى　　إذا اليل وصل عن ملاقتكم جنّا
فهذي دموع تستفيض على اللحى　　فرادى ومثنى دونها مزنة دكنا
فأكبادنا تنقدّ من شدّة الأسى　　وآلامنا تزداد من بعدهم حزنا
تظنوننا في البعد ننسى عهودكم　　بعيد نواكم لا ومن أمطر المزنا
وأرواحنا قد مازجتها رقائق　　قديمة عهد لا تطاق ولا تثنى
تذكرنا أيّام كنا بذي اللوى　　فما روضة إلا وقد أصبحت غنا
رعى الله أياما بذي الفرد قد مضت　　وأوقاتها تبدي لك الأمن واليمنا
وحي ربوعنا حول يبرين قد عفت　　فكم شادن صدناه في ذلك المغنى
اذاعت وجوه ثم لما تحملوا　　مع الركب يوم البين أسرار ما كنّا
وقلنا حيارى واقشعرت جلودنا　　لأمر دهانا في الهوى حيثما قلنا
هم من هويناهم رعى الله شملهم　　وقد هيجونا من هنا ثم من هنا
ولولا دموع في الخدود لأخرقت　　جحيم النوى أجسادنا حيثما بنا
ومن كان مشتاقا ولم يأت حيّنا　　كمن طاف بالبيت العتيق وما أمنى
أعنّة شوقي للمحبّة لا تثنى　　وأزهار سري في الصبابة لا تجنى

أقر بتقديمي عليهم أولوا الهوى ... ومن حاو عنّي فهو فيهم كمن جنّا
وغنة أوتار القيينات أعلنــت ... بأنّ اشتياقي صين في الحسّ والمعنى
ومن عقني في الشوق يخلع عاجلا ... ولم تلهه في الشوق أسما ولا لبنى
أقـر جميع العـاشقين بـأنّـنـا ... ينال الهوى منا ويروى الجوى عنا
قد انصبغت بيض الهـوى بدمائنا ... كما انصبغت بيض الأنامل بالحنا
جنود الهوى نحن الالى تعرفونهـم ... لنا الغارة الشعواء والشيم الحسنا
نسالمكم ان رمتم السلم بيننـا ... جزاء وفاقا ثم ان عدّتم عدنا
نشاطر هذا الشوق نصفين بيننا ... فدنّا كما دانوا ودانوا كمـا دنّا
وقائعنا مثل الرعود على العدى ... وأوجهنا مثل البروق إذا لحنا
سلوا جملة العشاق عنا فانّهـم ... لقد هنؤونا حين كنّا لهم ركنا
وانّا ملوك العشق بـل امراؤهم ... قد استخلفونا في البلاد وها هنا
فلا حبّ الا من عيون اشتياقنا ... ويعرف ذا من لقب الأمرا وكنا
بل ان الهوى لا يستطاع دفاعه ... وكـم فصيح القـول أنطقه لحنا
وكم من بليغ لا يشقّ غباره ... فصار عيّا ليس يفصح كاللكنا
أراني الهـوى لطفا أرق مـن الهـوا ... وكم سحر الالباب ان رنّ أو طنا
وفي جنب ميا فارقين معـالم ... تؤجّج أشجاني وتستوكف الجفنا
حويت جميع العشق طفـلا ويافعا ... وما ذكـر المشتاق الا وبي يعنى
لقد علم العشّاق طـرّا بأنّمـا ... امتناني عليهم لست أتبعه منا
حكاية أحوالي حياكة نسجهـا ... تعادل ريّا نشرها السهل والحزنا
أبـاحـوا دمانـا حين بحنـا بحبّنا ... ولو كلفونا ما نطيق لما بحنا
وآباؤنا قـد أورثونا هـواهـم ... وما ترك الآبـاء تهدى إلى الأبنا
ولشواقنا قد اورتنـا مكانـة ... تفوت علاها الجفن والاذن والذهنا
وهيبة حال لو بدت لتقاعست ... أسود شرّى تبدي براثنهـا الشثـنـا
الا ان سرّي لـو تأمله طـلا ... لأرقه لطفا وأذهلـه حسنا

فيمكننا أنْ نقيس ذا النون بالعشاق العُذْرِيِّينَ كجميل بُثَيْنَةَ وكُثَيِّر عزَّةَ عندما لاحظنا القطعات التي سبق ذكرها فهاكم قطعة وصف ذو النون حبيبته وشبّهها

بظبية أو بدر وهي حوراء هيفاء وفمها كالوردة وعطرها يخجل عرف المسك :

فلم تر عيني قبل حوراء ماشيا غزالا بدا بدرا على الأرض ماشيا
فأسنانها كالعاج حسنا وكم شج ولمّا رآهـا قال يا ليتها ليا
هي الغـادة الهيفاء كالروض بهجة ويخجل ريّاها الأريج الغواليا
ولا تتجلى لامرئ في صلاتـه ولو صالح الا وأصبح ساهيا
فقلبي لأجل الحزن أصبح حائرا ودمعي لأجل الشوق يملأ واديا
فيا لـك من ريانة السّاق ان بـدت وريحانة الساقي إذا بات شاديا
لها شنب يلهي الهنـود وقامـة تريك قضيب البان لم يك ذاويا
فديتك يا روح الجمال وذاته بنفسي وأهلي ثم ما لي وماليا
فسلم عليها يا نسيم وقل لهـا إلى اليوم حبل الشوق لم يك باليا

ودونكم قصيدة وصف بها الشاعر فتاة من سانلوى ومن المعروف أنّ ذا النون قد واصل بعض دراساته في جزيرة أنْدَرْ وكان شيخه هنالك الشيخ الأديب أحمد جِنْكَ وذكر أسماء حارات هذه المدينة مثل لُودْ وهي حارة في شمال الجزيرة وسِنْدُونِ وكَرْجَانْ وهما حارتان في جنوبها فقال ذو النون :

يا ربّة الحسن بل يا جنّة الرائي فأنت إنسان عيني كل إنسان
انا نرى فيك أوصافا يقـارنها نهـد وقدّ كرمان ومـــران
انسانة ما رأت عيـني مباسمها إلّا وشيطانها للحاج أنساني
فوالذي خلق الإنسان من حمإ انّ ابنة الأندري جنّي وشيطـاني
دموعها درّة بيضاء نـاصعة وأدمعي كالعقيق الأحمر القاني
نونان في حاجب قوسان في وتر رمتهما تحت صبح الوجه عينان
عينان فوقهما نونـان تحتهمـا تفّاحتان على مبيض كثبان
الماء والنـار في خدّي وفي خـلـدي لم يجتمع قبل هذا اليوم ضدّان
نيسان دمعي عند البحر درتـه بل صار سمّا بفكي كـل ثعبان
نفسي فداء لسمراء برهرهة أفرغت في حبهـا كيسي وكيساني
له غدت أوجه الغادات ساجدة ما بين لود وسندون وكرجان

داؤوا أساة الهوى داء ألمّ بنا   يا أنجما بين ديمان ودَامَانِ[1]

ان كنت في سفر فلقلب في حضر   وذاك أوقد أشجاني وأشجاني

عرّفت دهري أحوالي فنكّرها   يا ضيعة بين عرفان ونكران

أوطار نفسي عن الأوطان قاصية   فشقّني بعد أوطاري عن أوطان

ذو النون يكتب ذا فورا ويسرده   وشوقه ليس يبليه الجديدان

بلّغ سعاد وان شطّ المزار بها   بأنّني في هواها جدّ حيران

كم رام دهري ان أسلو وهدّدني   بجوهري صارمي صد وهجران

صددت عنه ولم تنجح مقاصده   فبعد ذلك صافاني وواخاني

كان الهوى قبل هذا ساعدي ويدي   فما أهبت به إلّا ولبّاني

ان صادمتني خطوب من أماكنها   فلا أخاف وعين الله ترعاني

من كان يحفظه المولى ويستره   فلم يصبه أذى قاص ولا دان

لعل رحمة ربّ العرش تجمعنا   فلا شماتة نخشاها لدى الشان

في ضمن أمن ويمن صاحبا دعة   وطول عمر بخلّان واخوان

من قبل قد كانت الأشواق جملتها   أحكامها تحت تصريفي وسلطاني

لم يلقني عاشق ينمّى له مكن   في الشوق إلّا وحيّاني وبياني

سبقت في الشوق أهل الشوق فاستبقوا   إلى حماي وجابوا كل ميدان

وقد أقروا بأنّي مفرد علم   فالدهر يخدمني والنصر يلقاني

بعد الفناء بقاء للملمّ به   فاعجب فديتك من باق لدى فان

انّي أقول لمن يبغي مكاتبتي   ذو النون سلطان أهل الشوق عنوان

فالشوق يخفض من قد كان ذا شرف   عدلا ويرفع هيان بن بيان

فكن مجدّا مجيدا ان وصفت ولا   تقنع بباكورتي نحو وأوزان

إلا إذا كانتا في جنب غادية   تفض زهر المعاني البيض للراني

فللمعاني بديع راق منظره   يبدي فنون بيان تحت تبيان

(١) هما قبيلتان في الجمهورية الإسلامية الموريتانية .

ومن الملاحظ انّ هذه القصيدة عبرت عن أحداث مرّ بها الشاعر في الواقع . ولا ريب في أنه قد عرف حبيبته حقّ المعرفة وأظنّ أنّ هذه القطعة هي أحسن القطع في الديوان إذ جاد ذو النون في تقليد فحول الشعراء العرب في المعنى وعبّر عن مسرّاته وعن آلامه وعن فخره وعن الحبّ الذي قد عاشه وكابده فوصف بأسلوب رائع فتاة اندرية اسمها سعاد فيسعنا أن نقول انه وصفها وأجاد غير اكتفاء « بباكورتي نحو وأوزان » وقال أيضاً في قصيدة له :

أفناني الشوق حتى لم يدع خبرا ... لمبتدإ ولا حالا ولا بدلا
وكان منفصلا ما كان متّصلا ... فهاج لي عللا قد قربت أجلا
قد كان أفحمني دهري كأنّي ما ... أنشدت قطّ نسيبا لا ولا غزلا
قلبي غدا ينكر الأفراح ان برزت ... حزنا وطرفي غدا بالسّهد مكتحلا
تركت ما عنه ينهاني الهوى ورعا ... وفي أوامره قد كنت ممتثلا
قد كنت قبل أمين الشوق حيث بدا ... ولا يقال فلان حيث ملّ سلا
ان الهوان إذا رخمت آخره ... يأتي هوى يلد الآفات والخبلا
ما ضمّ قطّ مكان عاشقا ولها ... الا يضرب بي في شوقه المثلا
قد عنعن الشوق عن نفسي وعن نفسي ... هذا حديث صحيح ثابت نقلا
ما كنت أول شاد غاب شادنه ... ولم يميّز لجهل واديا جبلا
بل لست أول صبّ شوقته هوى ... بيضا العوارض تبدي الحلى والحللا
بل ما رأيت طلى يستر في ظلل ... إلا وأمست دموعي فوقه طللا
ورتل الشوق آيات مبيّنة ... وصل تفاصيلها واستحضر الجملا
فالشوق غايته القصوى بلغت وما ... تركت ليت لهذا الشوق حيث جلا
بحر الهوى قد جعلناه ملاه سفنا ... وبرّه قد جعلنا ملاه السّبلا

باب الفخر في ديوان ذي النون

قال يونس في قصيدة غزليّة :

مالي أخاف العيون النجل ان نظرت ... وانّني لا أخاف الفارس البطلا
جماعة الشعر أيوماً ان اجتمعوا ... فانما علمي فيهم أنا ابن جلا
كم منكر رام نقصي حين يسمع بي ... لمّا رآني إليه مقبلا قبلا

ولا أرى من عدو شاتم سفها الا وذلّ بعون الله وانسفلا
ولا أبالي إذا ما الهول يطرقني لطارق طار فوق الجوّ أو نزلا

غير انه من السهل ان نلتقط في قصائده الغزليّة بعض أقوال المفاخر فهاكم أمثالاً :

سبقت في الشوق أهل الشوق فاستبقوا إلى حماني وجابوا كل ميدان
وقد أقروا بأنّي مفرد علم فالدهر يخدمني والنصر يلقاني

وقائعنا مثل الرعود على العدى وأوجهنا مثل البروق إذا لحنا
وانا ملوك العشق بل أمراؤهم قد استخلفونا في البلاد وها هنا

وما أنا الا الشمس في عالم الهوى ويعلم قاص ما أقول ودان
أنا واحد الآحاد في كل مشهد

الدهر يعلم أنّي المفرد العلم ودون وصني نار ضمّها علم
أنظار أهل الهوى ترنو إلى حصصي كأنّني فوق هامات الهوى علم

في باب المراسلة الشعريّة

وهذا الفخر قد يؤدّي إلى مبارزة شعرية قد رأينا قطعة بعث بها مجيبا إلى صديقه المصطفى بن الحاج الكَنْجُوريّ ومطلعها :

منّي إلى المصطفى ابن الحاج ذي الدين مكتوبة دونها روض الرّياحين

وكتب إليه يوماً أحمد فاضل يحث نفسه على حسن الظنّ بالله :

عليك بحسن الظنّ بالله انّه محطّ رحال القوم يا فضل يا فضل
وانّ الذي يعروا من الهمّ تارة فخطب وكلّ الخطب آخره سهل

فأجاب ذو النون قائلا :

وذا سيف صدق حدّه ليس ينفل وعنه فلا يلهيك جدّ ولا هزل
سلكت لحسن الظنّ بالله مهيعا قد أعيى كثيراً من أماجد قبل

أرى حسن ظنّ المـرء وصلا وعكسه ... تراه لسوء الحظّ يعقبه الوصل
فأقوال نسل الشيخ أحمد فاضـل ... إذا جاءنا غـمّ فانا بهـا نسلو
فكن طالبا نجحا لدى ربنا ولا ... يعوقك عن حاجاتك الحزن والسّهل
أيا ابن إمام الدهر لا زلت سيّدا ... به ينجلي البأسا ويجتمع الشمل
أذيل أقوالا نظمـت جمانهـا ... لأنك فرع المجد والوالد الأصل
وقل للذي قد فـاته قد ماؤه ... فمن فـاته جزء فهذا هو الكـل
رعى الله أياما بذي الفرد قد مضت ... سامته السعدان والبان والاثل
ولم يبق بعد البين الا ادكارها ... فاضحت ولا سعدى لديها ولا جمل

ولا شك في أنّ المرسل إليه كان الشيخ الحاج محمد الفاضل ابن أحمد بَمْبَهْ قدّس الله سرّهما .

ولمحمد الحسن بن الشيخ محمد فاضل الموريتاني :

أجلال أزلي وجمـال سرمـديّ ... وبقـاء قـدميّ ودوام أبـديّ

ولذي النون في الجواب :

أم تجـل صمـديّ وكمـال أجدي ... وبهاء رفرفيّ وسنـاء قـدسيّ
أم بطـون أحمـديّ وصفاء ملكيّ ... وظهـور بشريٍّ ورواء آدمـي

فانّ بيت محمد الحسن يعظم ما لله من صفات القدم والأزل . وبيتا ذي النون يمجدان ما للنبي محمد صلى الله عليه وسلم من صفات ملكية وجمال بشريّ .

في باب المواعظ والحكم

أحبّ ذو النون ومدح ووصف وبارز فأحكم فهو في امكاننا أن نستخرج بعض مواعظ وعبر وأحكام آداب خلقيّة من ديوانه . قد تحدث في الحبّ والموت والحياة والحداثة والشيخوخة وكرّ الأيام اعتمد على تجاربه فحثّ على البسالة والجود والملاطفة . فدونكم قطعة يعظ بها الشبيبة الغافلة :

شبـابك فـرّ وشيبـك كـر وعمـرك مـر فأيـن المفـرّ
ذيـولا تجـر كأنـك عمـر وعيشـك صبر وخـيرك ضرّ

تهيم لبكر   لدي أنت بدر   وريقك خمر   وثغرك در
للهو تخر   وما لك فكر   وحلوك مر   كأنك غر
فعامك شهر   وقلبك صخر   وذنباً تسر   وسرك شر
وطوراً تغر   كأنك هر   وطوراً تضر   ككلب بهر
وأنت تبسر   لأمر يضر   ولست تقر   لهذا المقر
ولا تستقر   لهذا الممر   ويكني لحر   شعير وبرّ
ومن هو حرّ   جميل السير   لكان يفر   لهول سقر
ادر قلب بر   بوجه أغرّ   هوى قلب فر   عني في صرر
دموعاً تدر   لحزن يتر   كصخر أيرّ   أرتني العبر
بروضي يمر   سحاب مدر   به ما يسر   لأهل الفكر
فطوراً أجر   وفي السرّ حمر   وفي القلب حر   كوخز الابر
جديد كطهر   ونظم كنثر   وترب كتبر   لقوم غرر
وحبر كبحر   وسر كجهر   وطيّ كنثر   لمن يدّكر
أزل كل كبر   ونزّه وكبّر   اللهك واشكر   لتالي الخبر
وهندي كعمر   ويسر كعسر   ونهي كأمر   لمن قد كفر
ومن يكفهرّ   دواماً كقدر   كمن يقشعرّ   أسى للقدر
يضر مضر   وفي القلب مكر   ولم يك أمر   لمن قد غدر
وكن من يفرّ   لما فيه وزر   وذلّ وفقر   شعار المصرّ
ثيابك طهر   وذا الرجز فاهجر   ورافق شمّر   قبيل السّفر
وبحر كبر   وليل كفجر   لمن هو حبر   بدا أو حضر
دواما ندر   صلاة تقر   وعيناً تقر   لخير البشر
وآل نسر   بهم ويدر   لنا كل برّ   وصحب صبر
تقاصير شكر   موائد برّ   برائد نصر   لمن يا تمر
ويردي طمر   مكر مفرّ   بكل ابر   عليه غدر
وكل مكر   عجيب الأثر   دوا ما يبر   عين ذا الفقر
مدارس سر   حجاحج غرّ   فلله در   هم من درر
كواكب زهر   موارد فخر   مصادر ذكر   من المقتدر
لهم كل بر   له طيب نثر   به يستمر   لكلي البشر

واحتوت هذه القصيدة على ثلاثين بيتاً ولكل بيت أربع قواف فهي تذكرنا قصيدة لبشر فارس عنوانها « إلى عوّاد » مطلعها :

ارخ عزم الوتر في خريف حـــذر صفرة في الشجر علمتني الخطرا

أو تقريباً ما قاله أحمد شوقي في الفصل الثاني لمصرع كَلِيُوبَاتَرَا :

يــا ليــث سر يـا نسر طر عــد ظافراً أو لا تعــد

ولقد أجاد ذو النون إذ عددنا ١٢٠ قافية فزاد ذلك خفّة ولا سيما بالرويّ أي بحرف الرّاء التي تبنى عليها القصيدة فالوزن راقص ويجري ويجرّ كقصف متواتر ويهرّ هرير الكلب ويمرّ مرور الطّبل وكل القطعة كزواجر الرّعد .

وفي رأيه انّ الموت هو أكبر خطر على أهل الشوق فقال :

أعرضت عن خطأ الهـوى وصوابه ومللت من كيد الزمان وكده

ما للهوى لم يكفه من عيشه برّ إذا ما كالـه من مده ؟

لم يـدر انّ الموت ملأ ظروفه ويسوقه يوما زواجـر رعده

لا تلتفت يوما إلى رأي امرئ ينساه في خطأ يزل وعمده

فلكم دهى ملكا على كرسيـه أو نائماً متقلبـا في مهـــده

وقد فكّر في فنّ الكتابة والتأليف فقال :

مني إلى شعراء أهـل زمـــن الخائضين غمار كل بيان

الرّاكضين الخيــل في مضماره من كل أجرد دائم الذالان

مستخرجي خبئ البديـع واللغى يبدو لهم لمعان كل معان

أزكى تحيات تفـوق وتزدري طيبا بعرف الند والريحان

أما كان أوجبه سوى ان البلا غة يدعيها خـامد والأذهان

ما ذاك إلّا انّهم عمى النهى صمّ لرائـق حكمها المزدان

فاستهنوها بعدمـا صعبت على فئة لهم في المشكلات يدان

كلا وربك لو دروها لانتهوا ولأعرضوا عن ذلـك الميدان

وترى البليد يرى الفصاحة سهلة يدنوا جنى رمانها للجاني

يجني الذبيب الحلو ثم يمجه صابا فيضرب منه كل بنان

بـل لا يميز غثهـا وسمينهـا لخمود ذهن وانعقاد لساني

ليس الفصيح لسانه كعييــه ان الثرايا والثرى غيران

فهذا نقد أدبيّ خفيّ وفي ظنه انّ البلاغة فنّ صعب المنال حتى وكبار البلغاء يكابدون ما هو أشقّ عليهم وأعزّ ويعتبرها البليد وحده عليه سهلة .

ولقد طرح ذو النون بعض أحاجيّ وألغاز فهاكم أحجّية :

وانبوب ليـل خلته ودخـانـه   شوارب بيضا في مشافر سود
تراه سوادا في بياض كأنّهـا   فتاة زنـوج زوجت ليهودي
ترى سرجا في حافتيـه جنوده   وبنشر في الأرجاء كل بنود
رأيت سناها من بعيد كأنّهـا   بروق يوريها زناد رعود
ويجعل ليلا كالنهـار ضيـاؤه   فيمنع سعدى عن وصال سعيد

ومن الملاحظ أنّ ذو النون قد وصف طلوع الشمس هكذا وانّما العبرة في ذلك أنّ الحبيب لا يسعه أن يبقى مع حبيبته ولا يسهّل اللقاء بين العاشقين إلّا الغيهب ودجى الليل .

ودونكم أحجية قد أعطى حلّها :

مدادي سـواد والبيـاض بيـاض   كأنهما للناظرين ريـاض
ويحجوهما من كان يرنو نواليهما   عيونا ولكن العيون مـراض
فهذا سواد العين ذاك بياضها   ليميّهما أهـل البلاغة خاضوا
وأقلامنا مثل الرشاد ودواته   تراها كبئر والقلوب حياض
بيمني أريب أريحيّ وتحته   جواد علوم بالبيان يراض

ولذي النون عتاب يهجو به حاجبا حجّاباً صعبَ مَرّاسٍ :

فلسوء حظّي قد لقيت الحاجبا   حتّى يلقّب عينـه والحاجبا
ما قال لي: « أهلا بضيف قد أتـى   يغشى دياجي تارة وسباسبا »
فلقاء هذا الشيخ ليس بممكن   ما دام من وافاه يلقى الحاجبا
بل لا تحل بيني وبين الشيخ يا   من فعله أمسى يسرّ العائبا
ذو النون يطلب وصلكـم لكنّـه   لولا جلالتكم لآب مغاضبا
فلأيّ شيء ردّني عن وصلكم   حتى غدا يزوّر منّي جانبا
فبأيّ أمر قد أمات رجائنـا   ان كان ذنبا صرت منه تائبا
جادله أو جادله لو تلتّي لدى   أبوابه كتبا ضفت وكتائبا

أم كيف يحجب من غدا للكون بحرا ... فائضا وترى الكرام قلائبا
أمسى له خرق العوائد عـادة ... وله عدت غون العلوم ربائبا
أرجو بكـم نيل الوصال بل انّـني ... ما كنت جاعلكم لنا إلّا أبا
أعييتم من عاصروكم في الورى ... فروا لوصفكم البديع عجائبا
بل يستحقّ لوصلكم ان نقتني ... خيلا كأمثال القطا ونجائبا
أنا لا أخاطب ذا السفيه لأنه ... ما كان الا حائكا أو حاطبا
ذو النون ناسجها وان بديعها ... يعيي ويعجب ناظما أو كاتبا

فلنذكرن أن قد قال لنا ناقد أنّ ذا النون هو أكبر أصالة من شعراء السنغال. وان بالغ الناقد فانّ شاعرنا في رأيي ممّن هم أرسخ قدماً في الأصالة إذا كانت جميع معانيه مقتبسة من أرض السنغال وألفاظه تمثّل ما هو أفصح من اللغة العربية وأبلغ. وأهل الأدب في الجمهورية الإسلامية الموريتانية الذين هم خُبَراء بذلك قد لاحظوا منه علامات العبقريّة الشعرية ولأجل ذا قال له الشيخ سعد أبيه : « انّك لعربيّ ضلّ عن قومه » وفي ديوانه قصيدة حيّاه بها محمد فال بن المختار اليدالي قائلا :

ذا النون حسبك ما أراك تسلّم ... وانا امرؤ بـك مولع ومتـيّـم
منّي إليـك تحيـة معبوقـــة ... ما ان يكافؤها السلام الأكرم
ومع التحية من ســلام طيب ... أزكى الســلام ترحّب وتكرم
ذا النون حسبك ما حويت فضيلـة ... أنت السميدع والهمام العيلم
وكفاك فضلا ان قولك رائق ... وعويص شعرك في الأنـام مسلّم
والمرء تكرمه الفصاحة عنـــوة ... ويسود غير مسوّد ويكرّم
فحويت كـل فضيلة وعويصة ... وبديع نسجك في البلاغة محكم
وبكل ما قـد نلت منـك شفاء ما ... بالقلب من ألـم بـه يتألّم
فقميص يوسف عبرة لأبيه قد ... كان الشفاء وهو صب مغرم
يا رب صل عـلى النبي وآله ... من هو مبدأ أصلنا والمختم

ولقد استخرجنا من الديوان الضخم ما اعتبرنا من قصائد وأشعار جيّدا خيّرا في حيّز الأصالة معنى ولفظا. وعسى أن يكون آخرون لينتخبوا ما هو أبهى وأبدع وأزهى وأبرع وليس ذو النون قريباً من الحقيقة لمّا افتخر قائلاً :

أفواه أقلامي تبث غرائبا	تبدي جواهر شكره مع حمده
ويمجّ دهري من لسان محامدي	عجبا وقلبي مثله لم يبده

ونقّح الكلام وانظم وانثر	وانشر ثيابه التّي لم تنشر
فلنختم الذكر يقول عطر	لم يجنه قطّ ملوك حمير
لم يحكه حاك ممر الأعصر	بل لم يطالع مثله في الأسفر

انّ ذا النون استعمل أسلوباً رائعاً ،ولغة سليمة صحيحة أنيقة ومفردات لائقة مصطنعة نادرة طنّانة طنين «كُورَا »[1] ورنّانة رنين « طَبَلَة »[2] وأما رخامة الأبيات ونغمة الايقاع وجودة البحور سلسة فقد جعلت شعر ذي النون فتّاناً وجديراً بمكانة في صدر انتاج فحول الشعراء العرب ومن السّهل أن تحقق هذا كله فيما ألفه من مدح أو غزل أو فخر .

وأمّا نثره فهو نسجه على منوال صاحب ابن عبّاد إذ استخدم السّجع ولقد أوردنا رسالة تقريظية بعث بها إلى الشيخ موسى كمر . انّ ذا النون هو شاعر تقليد بالمدح والرثاء والغزل والفخر وكان من طبعه ميّالاً إلى التقليد في المعاني ولا سيما في الأسلوب وقد وفّق كثيراً في هذين البابين ولا شك في أنّه صادق في أغلب الأحيان فصار شاعراً عاطفياً وان كان تقليدياً في المديح والغزل والرثاء فالممدوحون والمرثيّون والحبيبات كانوا أشخاصاً عرفها في الواقع أو كاد إذ لم يكن ذو النون تقليدياً إلا في الأسلوب أي في بنية القصيدة وفصاحة اللسان وفي النفسية البدوية فخلق شاعراً له قوّة في الخيال وعمق في الشعور وأعمال فكر في الأمور ورصانة في التفهم وسلامة في الذوق وسحر موسيقيّ في التعبير وكل ذلك جعله متفوّقاً في الشعر بل في الأدب السنغالي ولو عرف زمانا هذا سوقاً أدبيّة كسوق عكّاظ لكان ذو النون يمثّل بلاده خير التمثيل في تلك السّوق .

---

(١) هي آلة موسيقيّة سنغاليّة وتريّة .

(٢) هي ايضاً آلة موسيقيّة ضخمة .

وكان ذو النون أيضاً أبن زمانه وهو قد لعب دور الصحافيّ عندما أرسل وثيقة طويلة تفصليّة من واقع مدينة سان لوي سنة ١٩١٤ م إلى سيدنا ومولانا عبد العزيز ملك المغرب الأقصى حينذاك فهاكم هذه الوثيقة :

بسم الله الرحمن الرحيم والسلامان على سيدنا ومولانا محمد ذي الخلق العظيم وعلى آله وصحبه أولي الرياسة والتقديم .

حمداً لمن برأ الالواح والأقلام وعلمها بواسطة الالهام ما توارت تحت أكنة الافهام وفصل بفيصل الارقام ما اتصل وانفصل من الحِكم والأحكام فأعرب الشاسع عما استعجم من جمل الكلام فتتصور من مادة عنصر عين النّفس صورة من تكاتبه وهو يعاورك كاسات الأنس حتى كأنّه لولا عدم اللمس في قياس المسّ قد لاح عيانا لعين الحسّ فيتمثل لفرط شدة انسجام المعنى المستطاب وعذوبة الألفاظ في فصل الخطاب أشخاص نورانية من وراء حجب الألباب ويتعيّن ما غاب في ضمائر الأنام فترى المحبين لابسين دروعاً سابغة على الأقدام من نسج داوود الآلام والاسقام فيظاهر الواجد منهم قشيبا من خلع الغرام بعد تجريده عن ثياب الدّعة ساعة احرامه كعبة الهيام فيكتب الراقم ما هو مطوى سجله في سواء سويداء صميم الفؤاد العميد من مفارقة زيانب وهنود ومن ذكر ظعائن سلكن الاغوار والانجاد وضربن خيامهن فوق اجارع الأكباد فبمجرد استعمال الأدوات أعني بها البياض والقلم والدواة تنفتح لك أبواب من جنات المناجاة ما يغنيك من مواصلة قدم لقدم أو من مشافهة فم وفم فلأجل ذلك عده الألمعي لسانا حيث لا ايماء ولا كلام خوفاً ليلا يطرقه أوهام العوام وعدّ المراسلات بدون مكاتبات أضغاث أحلام وأن من رأى رسلاً ولم تكن بأيديهم رسائل عد المرسلين من أخطأ الوسائل فتعالى ربّنا من إلّه ألف بين الأرواح والأجسام وخلق الأفلاك والاجرام وأنزل الغيوث من خلال الغمام فنبتت منها الزهور في الاكمام وعارضت لشروق بروقها ثغور حور مقصورات في القيام فسبحانه من خالق تجلى على الحروف فحصل عليها الوقوف وتبادرت إلى تقبيلها الشفاه والأنوف وأشحن بعد ذلك أقاليمها من مستعمرات اللغات ما أذهـل كل قائل هاء وهات ولما طن صدى الأصوات المختلفة من جميع الجهات أتى حال السامعين بمقتضى ما هو المقصود بالذات

المنطوي تحت معاني تلك الكلمات فنزلت للكون من صرافة الأزل الذي جل حكمه ان ينضاف إلى العلل جمل صدرت من حضرة الحيّ المعبود فورد في أثناء تلك التفاصيل الخطاب والشهود باذن من لا يستحق الاله القيام والركوع والسجود فتجلت من جلال معانيها عجائب بلاغة القرآن المنبعثة تحت حروفها دقائق حقائق العرفان ففهمت منها الاستعارات والكنايات والمجازات فانضمت إليها أوعاظ تسيل لها العبرات وألفاظ مستقلة بأساليب مشتملة لما وراء البراعات وألحاظ من الحقائق لا تدرك أدناها بالاشارات ولا العبارات وبعد تنزلها من شواهق هذا المعاني وتدليها من غرف هذه المعاني ضاربة أطنابها على فضاء الأكوان فعمت لها في الهيئة الاجتماعية الأواني والكيسان وصارت بعد ذلك فرائد الأمكنة والأزمان وموائد فيها للاخوان والخلان جميع ما تشتهيه الأنفس وتلذ له الأعين ولم يكد يصرح به فصح الألسن ونشكره جل من جامع ألف بعض الحروف بعضاً وشكلتها لتجلي ضما وخفضا فمن كرمه ان جعل أيام اللقاء للمحبوبين أفراحاً ومن عدله ان صيّر أيام الفراق للمحبين أتراحاً ومن منه ان جعل أيام المواصلة أيام أعياد واعراس وجعل المكاتبة أعزّ على الأحبة من النفائس والانفاس والسلامان على سر الأسرار والهيكل الجامع لما وراء أطوار الأنوار سيدنا محمد أفصح من نطق بالضاد وأحمس من كافح الاضداد فأقام هذا الدين على دعائمه القيمة بعد هدمه الأوثان والأصنام فارتفعت عن الدين الظلم والظلام وعلى آله الأسياد وأصحابه الآساد والتابعين الذين يهتدون بهديهم صلاة وصوما وتابعي التابعين الذين يقتفون آثارهم يوماً فيوما .

فإلى سلالة الأمراء الكرام وسبط السلاطين العظام المستحقين بالخلافة النبوية بين هؤلاء الانام بل ومن المعلومات اليقينيات عند الخاص والعوام ان آباءه الأعزة الفخام قد صحت نسبتهم إلى سيد الوجود عليه الصلاة والسلام وكفاهم ذلك فخراً ودرجة وذكراً وان لم يحصل ما حصل لهم من المولوية الكبرى والجلالة العظمى بل لم يزالوا من لدن جدهم النبي النبيه يتوارثون الزعامة كابراً عن كابر حتى وصلت إلى هذه الأروع النزيه أبقاه الله في المولوية درة غالية على نحور الثقلين وملجأ للأسافل والأعلين ولقد برزت ذاته الشريفة الجامعة لأوصافه النظيفة فحلت للكون محل الروح للجسد والجراءة للأسد فانجعلت على غبطة الجميع الرفيع منهم والوقيع

ألا وهو الهمام بن الهمام والسيد المقدام المخصوص بعلو الجاه ورفعة المقام أعني به الذهب الابريز المسمى بسيدنا ومولانا عبد العزيز جعله الله في حرز حريز موجبه بعد أداء فرائض التحية ونوافل الأدعية ومندوبات الاثنية ما تملأ به الأوعية هواهر والاندية عنابر والاردية رفاهية والاهوية عافية موصولة بالطلبقة والد معزة وتكرار ما يليق لتلك الحضرة الاعلام للجلالة العزيزية ان مسامعنا طالما شنفتها محاسن صفاتكم حتى شوقتنا إلى رأية ذاتكم « الاذن تعشق قبل العين أحيانا » بل ان المحبة تصير المعاني أعيانا وان رأت أريحيتكم الهاشمية وعواطفكم المحمدية وجلالتكم العظامية ومكانتكم العصامية ان تمنحونا بالمواصلة والمكاتبة فذلك المرجو من جنابكم العالي الشأن بل ان ذلك أحبّ إليّ مما تطلع عليه النيران بل وما جزاء من يحبّ إلا أن يحبّ ولولا عجمة في لساني وتلكأ في بياني لأرسلنا إليكم رقيما بابلى الالحاظ ولوشحناه بفرائد من درر الألفاظ ما يفحم خطباء عكاظ وقل لأعضاء المجالس العزيزية أولي الجدى والاجادة الموسومين بالهداية والافاده بعد رفعك إليهم على أجنحة النسيم شرائف من غرر التحية والتسليم معجونة بمياه التسنيم إن كاتب هذه الحروف نجاه الله ببركتكم من شر كل جلعد جلوف ممن نهض به الاشواق واترعت له كل كاس دهاق فلم يتمالك ان لهج بكلمات لم تكن من لغته وبرز في زيّ لم تكن من علامته أو سمته فليعف وليصفح وليغض بصره كل فتى أفلح قال هذه الكلمات بفمه وخطه بقلمه سمّي المنبوذ بالعراء وهو سقيم واودعها من ضروب التحية والتسليم ما لا يقدر حق قدره الا الخبير العليم واردفها باحتفالات شائقة واكرامات لائقة تستنزل المعصم من قنن الجبال وتنفتق لها الزهور من روضها الغير المحلال ولقد شفعتها بهذه القصيدة العذراء التي طلعت في سموات الشعر كالشمس في كبد الخضراء فاستمع لما يتلى عليك ولا زالت الخيرات ملقية ازمتها اليك ومن أراد ان يصف الكامل فليصفه في بحر الكامل :

عبد العزيز سلالة الامراء ... ومحط رحل سياسة ودهاء
أباؤه خلفاء خير الانبياء ... لكنه هو حلية الخلفاء
وهم نجوم في سموات العلى ... بل انهم زهر بنو الزّهراء
اسلافهم دانت لهم دعم الورى ... واكابر الامراء والوزراء
فلقد سمعنا من محاسن وصفه ... ما ليس يحصر من علي وسناء

واذ نظرت إلى صباحة وجهه   تلهيك من هند وعن اسماء

أنا سمعناه كريماً منفقا   ومحل ، غبطة هذه الرؤساء

خطّ ابن مقلة دون خط يمينه   بل دونه سحبان في الانشاء

قل للذي قاس الهمام بغيره   جهلاً تقيس الخيل بالحرباء

امضى من الاسياف امضا آته   بل انّه اصفى من الانواء

كانت ملوك الرّوم تعرف قدره   وتجله واكابر الأذواء

فنقوله طنانة ونقوده   رنانة لجماعة الفقراء

اضحت فضائله تسير كأنّها   بدر الدجى في اللية الظلماء

اخباره نروي مسلسلها عن ال   ـاحبار بالتلقين والافتاء

ولقد اراني الخل صورة ذاته   موشية بصفاته الغراء

فرياض معناه يفض زهورها   بين البرية السن الشعراء

امداحه صرر حشين جواهرا   أو انها كالبرق في اللألاء

لو كنت من اهل البديع لصغت في   اوصافه تاجا يسرّ الراء

وبثثت من درر الكلام فرائدا   تعنوا لهنّ خواطر الادباء

ونظمت من عدم اللقاء قصائدا   تحنو لرقتها نهى الجلساء

وتريك لطفاً كالنسيم ودونه   ثوب اذا ما حيك من صنعاء

مولى الانام ولجة الكرم الذي   يوليك بين فتوة وسخاء

وترى بها الورقاء تقطع طوقها   تنسيك كل حديقة خيفاء

وجنيت من شجر البعاد فواكها   ملحا تري الخنساء كالخرساء

ولبان من كفي بدائع خاطر   تغني فكاهته عن الصهباء

في رقة مقتولة بجذالة   كجمال وجه سبته بحياء

روادها القوا عصى تسيارهم   في الشيخ والقيصوم ثم الثاء

عجراء من سلم عصى راعيهم   والناس بين معالم الجرعاء

فسنبتني لك في المعاني كعبة   لبناتها نسبي عصى الفصحاء

الفاظها مثل الجمان نفاسة   وترى معانيها كمثل الماء

فيعاور المرء اللبيب كؤسها   تزري بكل عقيلة لمياء

ذو النون حاكيه وحائك خزها   يا قبلة البلغاء والنبلاء

وهو الفتى الفوتي الذي قــدام جــا   نــب برّك المقصــود للعقــلاء

لم لا وأنت اجـل من وطئ الـــثرى   بعــد النبي واظــرف الشرفــاء

شــدوا بايديكــم عليـه فـانـه   مــولى الـورى المخصـوص بالاثناء

اقلامنا ايدت كلالا في امرئ   اعيى مداه شقاشق الخطبـاء

خلـــق لـه كالــذرا لا انما   اخــلاقــه كــالروضـة الغناء

فــاس ومكناس لـه تتنـافسا   فاقيم فـوق منصّة العليـــاء

ولقـد علمنا انه الكبريت الاحـ   ـمر للانـام ونصره العلماء

ان الاحبة يرقصون لـذكـره   طـربـاً فتدمـى اعين الاعـداء

يهـدي سنـا آرائـه رايــاتــه   هــو صاحب الرايـات والثـاراء

تعزى اليك بلاغة لو اطلقت   لجمعـت بـين النـون والجيـداء

وتجاوز غبس الـذبـاب غـدت به   تعفـو وتصفـح عـن ذنوب الـشّاء

وعدالة تنسي عدالة من مضوا   مع عفـة ورزانـة وبهـــاء

ما لاح من فاس ثنايا بـارق   الا وعارضـه ثغور ثنـــاء

قد صنت مدحي عن سوى حضراتكم   فعسى تنقّط فيـك عـين عنـاء

انت الملاذ المستغـاث بجـاهه   المـرجو في السراء والضراء

بل جـدك الأعلى أتانـا فضلـــه   مــن ربـه في ليلـة الاسراء

لا داء أعظم مــن معّادات امــرئ   اعــداؤه في تـرحـة وشقــاء

اضحت معنعنة فضائـل سيدي   مروية عن حملـة الخبراء

لمـن الكبـائر جهلنـا لاكـابر   لاسيّ مـن هو أكبر الكبراء

يـا حلـة الفضل الـذي اذيـالـه   تكسو المحبّ سوابـغ الآلاء

يـا جنة الفقهـاء بـل يا جنة الصـ   ـلحاء بل يا نزهة الظرفـاء

داووا لنـا داء النـوى بلقــائكـم   فالبين دائي واللقـاء دوائي

بل تربكم تـبر لمـن يهــواكـم   وثــرى حماكـم ثـروتي ونمــائي

فاسمـع ندائي يا ابن من سمع الندآ   واجب وحقق دعـوتي ورجـائي

واذا أجبـت بفضل جـودك دعوتي   فالخير كـل الخير في انحـائي

وبقيت ثم فنيت فيك وإنما   يمسي فناءي فيك عين بقاء

وأرى أمامي نور وجهـك لامعا   ورأيت كل العالمين ورائي

لا بدّ من تحف لنا من جودكم | يا مقصد الامناء والوجهاء
انا لنرجو منك كل فضيلة | ترجى لأنك عمدة الكرماء
قد كنت بين سماحة وحماسة | ليثا وغيثا فاض في الارجاء
خذ هذه مني إليك هدية | تبدي برى عروبة حسناء
أزكى الصلاة على أجل جدودكم | خير الورى ذي الملة السمحاء
طورا يعبر عنه بالياقوتة الـ | ـحمراء أو بالدرة البيضاء
والآل أسياد الورى والصحب آ | ساد الوغى في البدإ والانهاء

تم وعمّ عام ١٣٣٨ شرب ماء زمزم من هجرة صلى الله عليه وسلم ومن عجائب الاتفاق ان صارت أبياتها الحسنة السياق ستا وستين بيتاً على عدد اسمه تعالى الله بدون شعور منا حتى عدت فصارت كذلك والحمد لله على ذلك .

نسألك اللهم بالآيات التسع وبالمثاني السبع وبالقرآن ذي الذكر وبالشفع والوتر ان تحفظ هذه الجلالة المولوية تحت أستار الرعاية والعناية ان تعصمها وتنجيها من النقصان والاذاية وان تستر ذاته التي هي قيمة الدنيا وما فيها من عيون الحسدة ومن مكائد المردة .

ولقد كان الناثر لهذه الدرر والناظم لهذه الفقر ممن استولى نصارى الفرنسيين على أراضيهم من قديم الزمان وخفقت عليهم راياتهم المثلثة الألوان هو وأجداده ممن يقيمون الصلوة ويوتون الزكوة ولم يغير لهم الحكومة شيئاً من وظائف الدّين لأنهم لا همّ لهم إلا كتبهم وألواحهم وما لا بد منه كتعمير المساجد ولزوم البساتين وبقيت منهم شرذمة قليلة من ينتسبون إلى الغصب والسرقة وبقايا أراذل يستترون بالعامين ويتلصصون ان انتهزوا الفرص ويمارسون ان ألقى عليهم القبض من مرارة الغصص واشام الحصص ما يتركهم أحير من الطير في القفص وأذل من الفيران بين أيدى الهرر وأذل من الخروف بين أيدي النّمر ولو لم يألفوا هذه السجية الهائلة الغور وعفونة الأخلاق المحيطة بالجور لانحرفوا عن هذه الطريق الكثيرة الضير لعدم رواج بضاعتها المزجاة التي حسمت مادتها السياسة التي لو نشرت جميع ما يلزم نشره عليها لانسلخوا عن جميع ما يتوسلون به إلى الفساد والافساد كما تنسلخ

الشاة من جلدها ومع هذا فليس القانون بغافل عما يعمل الظالمون ولكن أكثر الناس لا يعلمون بل ان الحكومة جردت من ذاتها أعيانا تعد أنفاس هؤلاء الملعونين وتراقب احساس هؤلاء الطاغين ؛ لأنها لو أهملهم أو امهلتهم لخرقوا سياج هذا القانون السلطاني ولأثار غباره في ميدان التعدي كل فارس شيطانيّ ولقد طلب مني سلطان البيان ان أرصع أكليله بجواهر التبيان في ذكر شيء يتعلق بهذا القطر الخامل الذكر مع اعترافي بأني لم أكن من فرسان ذلك الميدان ولا ممن له في الطلاوة أرفع مكان ولكني بادرت إلى عصيان قول الشاعر وان كان ممن دان له الأحبار أهل المحابر . شعر :

إذا لم تستطـع شيئاً فـدعــه وجـاوزه إلى مـا تستطيع

فكأني بمن يزعم ان مكاتبتي لهؤلاء السادات ومخابرتي لهؤلاء القادات نفع الله بهم الخلق ورفع بهم الخرق صدرت مني لطلب المماثلة والارتفاع لا لطلب الاتباع والانتفاع وليس معي من الدروع السابغة ولا من السيوف الدامغة ولا من الحصون المانعة ولا من الأسلحة القامعة استعد بها لملاقاته إلّا أدوات النفي : كلا لأن الأعداء ان رمقوني أخاطب هؤلاء الكبراء لرجموني بأحجار البغضاء ولم أر مصيبة أعظم عندهم من عدم الالتفات إلى جهات هؤلاء الشنات .

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بدينار

ومن مننه سبحانه وتعالى عليّ بل ومن كرمه جل جلاله لدي من حيث ألهمني ما لأرباب المفاخر من المآثر وعلمني بواسطة الهامه ان الإنسان تحت سلطنة اللسان ان خيرا فخيراً وان شرا فشراً عودت نفسي بترميم ما اندثر من مكارم الأخلاق التي يعتني بها أهل المروءة في الآفاق وتصميم ما كتبوها في بطون الأوراق إلا أنه لا يسري مدد في خلد ولا تدور فكرة لأحـد ان لي طاقة في البلاغة أو قوة في الفصاحة توجب التفات هذه السيادة أهل الاجادة والافادة أو تفقدهم إلى هذه الصناعة الكاسدة فيكون سبباً لنا في تحصيل نصيبنا من مِنَنِه الطارفة والتالدة بل لم يبق على وجه البسيطة شجرة تجنى وتظل وربك يهدي من يشاء ويضل غير الشجرة النبوية التي توتي آكلها كل حين جنى الفوائد ولم أر من غير حضرتكم رحمة تستوقف الغزلان الشوارد وتستأسر لحسن رونقها عيون الخرائد ؛ فلأجل

ذلك أطلقت فيك لسان القلم وأعملت جياده في ميادين الكلم ولعلي أعد من جملة خدمك الذين خدموا العلوم واشعلوا لتحصيلها نيرات الفهوم وان أكون ممن نبهوا رقود الاقلام وركبوا متون الكلام وذكروا نبذاً من أخبار هذه الناحية المظلمة الأطراف مع ما لقطتها من أكابرها ذوي الصدور الواسعة المختلفة الأصناف فتصير هذه منحاً تشكر ومننا تذكر لأننا مع وفور علمائنا وكثرة نبلائنا لم يخطر ببال أحد من السادات ان يجمع لها شذرات في ورقات ولعلهم ان رأوا هذه الكلمات تنشطهم إلى تسميط ما يحتاج إليها جغـرافي هذه الجهات فتتحلى به الانحاء من قلائد التبيان ما نبتهج به الآذان والأذهان وأكبر عواصم هذا القطر بل وأسبقها من قديم الدهر وهي مدينة اندر ولا حائط لها إلا الحجر والمدر وكم لهذه العاصمة من وجوه غرر ورؤية امثالهم من النوادر أندر وأهلها متدينون بالشريعة المحمدية ومولعون بالمدائح النبوية تراهم ينفقون في أيام مولده ما لا يوزن ولا يكال ولا يحصر المكائيل الارطال وهي ملتصقة بالبحر الاطلنطيقي المغربي في أرض سنكال ولقد مرت لهم أجيال في ظروف شهور وأحوال وهم المعول عليهم في الكرم وحسن الشيم حتى ان القائد الشهير ذا الأمر الخطير المسمى (بفيدرب) منحهم بعد مجلس شورى الدولة رتبة الاحتلال وأقرّ لهم بمكانة أشبه شيء بالاستقلال لما كانوا يباشرون معه صفوف القتال بحدهم وحديدهم ولم يلتفتوا إلى وعد الملوك ووعيدهم ولم ترعهم قط هيبة الوقائع ولا خشونة المصارع ولقد كانوا من أهل الثروة ولم يكدر زلال اقدامهم أبهة الغنى ولم يحجمهم فيما بلغنا تتابع العنى حتى نزلت هذه الطاحنة الكبرى والملحمة العظمى . فكانوا أول من اكتتبوا في ديوان القتال وكافحوا شدائدها الممتدة في الأوعار والأوصال فساقهم سائق الموت إلى مورد كل وبال وما فشلوا وما وكلوا وما خجلوا وما وجلوا ونازلوا الأعداء في الوعور والرمال وصادموهم في الوهاد والجبال وهم ضاحكون أمام هذه المدافع الطوال فنال الأمر إلى فوزهم بالنيشان الذي علق على نحر هذا الدّهر وفازوا بحرية هذا القطر فطهروها من الهمجية وقلدوا الأجلاف وظائف المدينة وآبوا غير خزايا ولا محزونين وباء الأعداء في الأصفاد مقرنين ومن سوء حظ الأعداء ان صارت هؤلاء البسلاء من أعاديهم الألداء ولقد شهد لهم من قبل رجال السياسة كما شهدوا لهم من بعد بالحماسة بعدما أشاروا إليهم قبل هذا كله بالفصاحة والصباحة والتعصب القومي والسماحة

ونشأت أنا ولله الحمد في هذه العاصمة أتنشق رياضها وزهورها وأسامر فتيانها وحورها واستوطن أعلى أماكنها من قصورها وأستجلي بدورها من خدورها حتى تلقيت ما قدّر الله لي من العلوم وتلفقت ما شاء أن ألتقط من أهل الفهوم فلفقت جملاً من شواردها فصارت داجنة لي بعد النفور أكثر أوابدها فجزى الله عن الوالد خيراً من حيث طوقني تلميذاً أروعهم خلقاً وأورعهم خلقاً أعني به البركة الأنوار وسر الله الأبهر الورد المورود أبي الفضائل والسعود الشيخ أحمد لا زالت هباته في الفيض غريب الله في الأرض ذات الطول والعرض ما من علم إلا وأورى فيه زنادا وما من فن إلا وأجرى فيه جوادا وما من معارف إلا وله فيها مطارف وما من وصلة إلا وله فيها صلة وما من جمال إلا وهو يوسف مصرها وما من بلاغة الا وهو صاحب نظمها ونثرها أيد الله به شيعته كما أيد به شريعته فيا لها من مدينة كانت من أعظم المدن الإسلامية اليوم في أرض السودان ولقد تواردت إليها الناس من جميع البلدان ولا سيما ساكنو الحرمين ومن وراء البحرين وأخلاط من السوادين وأمراء البياضين ووجهاء الزوايا أهل المروءة والتمكين وأهل الشام وأهل المغرب وأهل الشام وأهل العراق ولفيف من الهنود ومشائخ الآفاق ولن ترى منها فجاجاً إلا ولقيت شيوخاً وحجاجاً تراهم مجامع يدخلون في الجوامع أفواجاً.

فلتزع روحي التي بين كتفيّ أيسر عندي من كفران النعم التي منوا بها علي ولكنها مع جلالة قدرها وشبوع ذكرها في آخر رمق من الحياة لما خلت معاملهم في هذه السنوات لإنتقال الدولة وما لها من الأمتعة ملقية اثافيها لقربة اندكار بقعة الأحجار والأكدار وهذه الحالة ان استمرت ولم تداركها رحمة من ربها لرجعت جميع ما يغبط بها إلى خبر كان وصارت عبرة مكتوبة في جرائد الامتحان ولنسجت على باب شهرتها عناكيب النسيان وباضت على فم غارها حمائم الأشجان حتى تصير أفظع عاقبة من العواصم التي قبلها فلتراجع كتب التواريخ ولولا ضيق المجال المتولد من الضرورة الداعية إلى الاستعجال العائق عن افصاح ما يتعلق بمجالي هذا المقال لأودعنا شطور هذه الطروس نفائس تطيب لها الأرواح والنفوس ولسقيت السامعين من ظروف هذه الحروف ما تملأ الأواني والقحوف ولسقت إلى الأدباء الذين هم من الاجادة بمكان بابراز ما كنت أشير إليه من أوصاف هذه الأرجاء لشدة تأثير هذه الغوغاء التي دهمت سكان الأرض والسماء وبقيت الناس لشدة وطأتها يخبطون

خبط عشواء لما اشتعلت نيرانها في جميع الأزمنة واشغلت آءة الاذان في جميع الأمكنة ارعفت أنوف الأقلام عجلا . وأنشدت هذه القصيدة خجلا وقيدت ما راج لي تقييده وجلا ولقد بذلت الجهد في تحصيل ما نويت جمعه لا جوهر لكل ناظر سمعه ولكن خيل بيني وبينه ونرجو من الله سبحانه أن يمنّ علينا بكرمه فينيلنا تأييده وعونه ولولا الامكان بحسب المكان وحال المكان الآن جل ان يوصف باللسان لنطق صاع يوسف الأخبار بما فيه من عجائب الأقطار ولقد كنا في غابر الأزمان ممن لهم اليد الطولى في كل شان ولنا أيام من قبل كأيام بني ساسان وهذا القدر كاف ولداء الجهالة شاف والله المستعان وعليه التكلان وليكن هذا آخر ما نسجناه في منوال هذا التعبير المكتوب في لوح محفوظ التذكير ولقد استوقفت هذا القلم السيال لما طلب مني رجال الارتجال ان اشمر أذيالها خوفاً ليلاً تجر على الأوحال بعد غوصه في أبحر المعاني والبيان مستمد مداته من مدد التبيان آتيا بعدده وعدده لابساً من البديع أحصن درعه وأمنع زرده ولقد سرى سريان طلاوته كالغيم وسال على البياض كالايم .

ولما علمنا ان الموجز المقل خير من المكثر الممل نزلنا عن صهوات جياد الأقلام بعدما ملأنا حقائبنا من جواهر الكلام ما ينير القلوب والافهام ولقد نفثت سمومها من قبل افعوان الخطاب في عنفوان شباب الكتاب معاذير قدمناها تجاه أولي الألباب وطالبين من ذوي الأبصار والقلوب ان يغضوا أبصارهم عما فيه من العيوب ويسامحوني فيما طغى فيه القلم أو زلت به القدم والله المسئول من مدد نواله المسبول ان يمن علينا بالاقبال والقبول وان يتحفنا بالعافية الدائمة في عوالمنا وان يرزقنا كلمتي الشهادة في خواتمنا (شعر) :

آمين آمين لا أرضى بواحـــدة ... حتى أضيف إليها ألف آمين
تامين دعوة داعي الخير واجبة ... آمين قولوا بحسن الظن آمينا
ان الدعاء الصالح المأمول منك منى ... نفسي وما في ضميري آخر كمنا

ولا زائد على هذا إلا أننا نطلب بوجاهة وجه الله ولا شيء أعزّ على الله من الله أن يمن علينا برؤية وجهك المبارك الميمون الطلعة قبل مماتنا ويعود على كافة من ستضمه حضرتك البهية أبهى تحيات كالشمس يتجدد ويدوم إلى ما بعد

الرمس ويضيق عن توصيفه عالم الحسّ ونطلب منكم أن تمدونا ببعض ما عندكم من التحف التي تلألؤها يزدري بالدرة في الصدف حتى تصير عندها كالخزف وكيف لا وأنتم فزتم بذلك عناية من غير حرف وورثتم الفضائل خلفا عن سلف وأن تفيض علينا الجلالة العزيزية مما أكرمها الله سبحانه كالأكسية الفاخرة والأردية الزاهرة وكالجلاليب وتوابعها وكالبرانس والقلانس والطنافس والنمارق والأبارق .

ويعجبنا كل ما هو وارد من حضرتكم كالدراهم البيض والدنانير الصفر والملاآت الحمر والثياب الخضر والسلام على من سيقف على خطي هذا من أهل لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وعلى كل حال فليكن الجواب معجلاً لا مؤجلاً وما ذلك على الله بعزيز من اكرامنا بمحض فضله وجوده مولانا عبد العزيز .

ولقد أردناها تهنئة وتعزية تعم جميع المسلمين لما سيسرهم أو يسوؤهم من يومنا هذا إلى يوم الدين ولا مرحباً بما ساء أحداً من المؤمنين . اللهم صلى على سيدنا محمد وسلم .

الشيخ ابنُ العَرَبيِّ لِهْ

« ولما توفي الحاج مالك سه قدس الله ربّي سره قال أخي ذو النون يرثيه هذين البيتين :

« فقل لأبي بكـر واخوته الغرّ   بأني أعزّيهم على موت ذا البدر
لقد كان بحرا حل قبرا فراعنا   ومن عجب ان ينزل البحر في القبر »

رحّب بنا الشيخ ابن العربيّ له أخو ذي النون بانشاد هذين البيتين في مدينة جيس عندما زرناه في سنة ١٩٦٨ م . وكان متقادما في السنّ حتى لم نسمع بما كان يلفظ إلّا إذا ألصقنا آذاننا بشفاهه وان كانت ذاكرته صحيحة . وإذا بدأنا بيتاً عربياً ختمه وجاء بآخره . وقال انه كان له ديوان ووعدنا به عند مرورنا مرة أخرى غير أنّ زوجته منعته عن ذلك لما صمّم من أخذ الديوان من صناديقه وعلى اعطائنا إيّاه . وحاول الذّهاب خمس مرّات إلى مكتبته فسدّت طريقه زوجته متعمدة . ولما توفي سنة ١٩٦٩ م تقاسم أولاده كتبه فجأة ولا شك في أنه كان شاعراً مفلقاً

وان لم يبلغ مرتبة أخيه ذي النون . وليس لنا إلا قصيدة واحدة منه مدح بها الشيخ سعد أبيه :

بعد المزار دعا إلى التـذكار ... وأفاض غربي دمعي المدرار
صبًا أهاب بـه الشجون فاعتدى ... شبحا أرق من الخيال الساري
انّ الأحبّة صيّروني في الهـوى ... كرة تقلبها يـد الاخطار
انّي أواري ما استطعت أواري ... خوفاً ليلاً يستبين جـواري
هم بالحجون ونحن في كنف اللوى ... شتان) بين ديارهـم وديـاري
والربع من بعد التنائي يزدهي ... بالياسمين الغـض والعرعـار
قد كان قبل البين مغنى آهـلا ... بالثيبات البيض والابكـار
يا طيب عيش لي هنالـك قد مضى ... وصفاؤه ما شيب بالأكدار
مغنى عهدت بهـا حسانا كالدمى ... نجل العيون حوالـك الاشعار
كم عابد ألهـاه عـن أوراده ... صوت القيان وغنـة الأوكار
كم حال بين فتى وبين مراده ... جور الزمـان وقلـة الأنصار
ذكر العقيق فساقطته مـدامعي ... والخدّ مصبوغ بلـون بهار
ولقد رأيت الشوق يكمن في حشى ... صبّ كمون النار في الاحجار
كرر حديثك لي وكم من قصة ... يحتاج سامعها إلى التكرار
حنّ الفؤاد إلى سـعاد وبيننـا ... افلاء ذات معـالم وقفـار
حلف السهاد كان في أجفانه ... خرط القتاد وهـزة المنشار
ان رمت أن أجني مجاني خدها ... قالت لواعظها : « حـذار حذار »
ان لم أنل منها الوصال لعـلة ... دقت مداركها عن الابصار
أعرضت عنها ثم عن جاراتها ... من كل ذات خلاخل وسوار
متوسلا بامامنـا غوث الـورى ... سعد السعود وملتقى الأنوار
الشيخ سعد أبيه جمع جوامع الـ ... ـعرفان سدرة منتهى الأخيار
حضراته محفوفـة بتـلاوة الـ ... ـقرآن والاوراد والأذكار
سهل خلائقـه وتحت ثيابـه ... جود يحيي سوابك الأمطار
قل للذين قالوا : « فلان مثله : » ... زيف الدراهم ليس كالدينار
زعموا بأن قـد سودته جدوده ... قلنا نعـم وجلالة المقـدار

السّهي كالشمس في كبد السما | كلا ولا الآبار كالانهار
ل يدأب سيره حتى غدا | فرداً لأهل البدو والأمصار
يسامره الدّنوّ وهمة | سبقت خيول سوابق الأفكار
للأسد العار فيه كما | يرتاح ذو طرب إلى المزمار
نكريه وتدّعون معارف | أتكون معرفة مع الانكار
لا يقال لهم منون لأنهم | سرج الهدى وأهلّة الأقطار
وا لوجه الله جلّ جلاله | شوقا إليه نفائس الأعمار
تبق فيهم للشجون بقية | إلا التأوّه ساعة الأسحار
تضاءلت الشوامخ تحتها | بعدا وتثني عزم كل مباري
رام وصف جنابه متمشدق | جمع الفنون وطار كل مطار
ه عصفور برّ همّه | أن ينزح الدماء بالمنقار
من جموح حوله فكأنهم | خيل إذا غرضت على البيطار
لي برويته وقبلة راحة | فاقت شذاها جونة العطار
م طلبت بأن أزور فعاقني | شحط النوى وعوائق الأقدار
يساعدني اللقا بلقائه | حتى أرى من جملة الزوار
ث الفنار حب وحيث معينه | عذب لمن وافاه ذو الأوطار
ث الشريعة والحقيقة كانتا | سبحانك اللهم أنت الباري
يحص ما قد ناله من ربه | لسن الورى ومحابر الأحبار
لا وأبحر فيضه من جده | طه أبي الأنوار والأسرار
مشهد أجمع الفضائل كلها | من مكنة وسكينة ووقار
زال مأواك المفخم منزلا | تجبى إليه فرائد الاشعار
دي فريدة عصرها في مصرها | تفتّر عن ثغر كسلك نضار
دها إليك هدية لم يقرها | قار ولم يقر اسماها قاري
دي معاني تستبيك كأنها | للسامعين سلافة الخمّار
اءت تقاصير المدائح دونها | تسقي النديم ببارد معطار
ربنا بالذات والأسما وما | واريت تحت براقع الأستار
طل الحياة لشيخنا وممدنا | شيخ المشائخ قدوة الأبرار

فنحن على يقين بأن لابن العربي أكثر من هذه القصيدة الرائعة ونرجو أن يكون هناك باحث أكثر منا حظاً للعثور على ديوانه المذكور .

ونحن لمّا خفنا السّخرية غادرنا مدرسة جِيسْ دون أن نعوج بدار شيخ قد ادّعى مقام المهدي بل رتبة نبيّ يوحى إليه.فأتى بكتاب عنوانه « الفرقان » الا هو الشيخ عبد الله انجخت ووزن كتابه هذا خمسون كيلوغراما وله سور كسورة العلماء مثلا وعدد آياتها ٥٧٢ آية .

مدرسة كُلْدَا

الحاج محمد الأمين بن زبير

هو الحاج محمد الأمين بن زبير وهو في قيد الحياة في بلدة كلدا بكاسمنسا وهو ابن خمسة وستين عاماً وهو أجاد في المدح ولا تقهقر أمام من يباريه في نظم الشعر ولا في النقائض وإذا لزم الحال فهو تردّد في التصريح باستقلال نفسه بعيداً عن كل طوائف صوفيّة أسّسها مشائخ البلاد وهو أيضاً أتقن في الرّثاء وفي المناظرات العلمية والأدبية وبخلاصة القول هو شاعر مفلق وكاتب مجيد أي أحكم في الشعر وفي النثر معا وهو مبدع في منهاج تعليم الأطفال وآراؤه في ذلك جديدة مبتكرة وسجلها في رسالة تسمّى بـ (ميدان البراهين في النصيحة لعقلاء السوادين) وهذه نبذة منها وان كانت جديرة بطبعة برمّتها : « أما بعد فيقول أسير ذنبه الراجي غفران ربه محمد الأمين بن زبير قد حضرت ذات يوم في مجلس المناظرة لبعض الأصدقاء ولم تزل الجماعة تزداد بالناس الواردين حتى صرنا جماعة جمعت بين الأمير والمأمور وكان سيد الحضرة الداعي إلى اجتماع تلك الحفلة من الأذكياء وله اخوان قبلوا في قالب الاستواء في الذكاء حتى ميّزوا بين القبيل والدّبير هذا وقد حضر في المجلس بعض من يدّعي العلم . وبعض من يتكلم بالعربية اقتحاماً وبعض من يزعم بعلم القرآن ، فسألني بعض من أولائك العقلاء عن أمور استشكلوها بل وأنكروها من علماء اقليمنا فسبقني بالجواب ذلك العالم ، وتكلم فيه المتكلم بالعربية وخاض ذلك المدّعي بعلم القرآن : وأكثروا القيل والقال وجالوا في كل مجال ، حتى انتصف النهار والسائل لم يبال بما هم فيه من اظهار العلم ولم يلتفت إليهم بل قال إنما سألت هذا وأشار إلي ، فقلت له أجل وسأجيبك بعد أجل لكن

خلق الإنسان من عجل . (نصّ السّؤال) : سيّدي نحن جادلنا قبل اتيانك في أمر تعليم الغلمان لكتاب الله تعالى . قال بعض منا الحقّ ان يعلموا بقراءة الألفاظ مع تفسيرها ان كان يمكن والا فتركهم القرآن إلى كتب يمكن تفسيرها لهم فيفهمون معنى العربية المقرّبة لهم معاني القرآن ثم إذا تفطنوا رجعوا إلى قراءة القرآن بحيث يمكن لهم حينئذ فهم معاني ألفاظه أولى فيعملون بما فهموا لأنّنا قرأنا ألفاظ القرآن مدّة سنين ولم ندر معنى ما نتكلم به في تلك الألفاظ فكأنّنا ضيّعنا عمرنا ولا فائدة لقراءتنا مع انّ نتيجة القراءة وفائدتها الفهم بفحوى القراءة ... وقال آخرون بل انه لا يمكن قراءة القرآن مع التفسير لكن يقرؤون القرآن يعني ألفاظه حتى إذا أتموه انتقلوا إلى تفسيره كما يفعله الخاص والعامّ انتهى نصّ السؤال : قلت في الجواب والله الموفّق للصّواب هذا سؤال يقتضي أبواباً وفصولاً ومقدمة ومباحث وتنبيهات تحتوي على نصائح للسّائل وغيره وسأكتبه رسالة تسمّى « بميدان البراهين في النصيحة لعقلاء السوادين » .

وقبل ان يخوض في علاج موضوعه مفصلا قال ابن زبير :

(**الباب الأول**) : في معرفة مدار هذا الخلاف قلت مدار هذا الخلاف راجع إلى أمر واحد باعتبار المعنى المراد لأنّ كلاً من دعوى الفريقين له دليل قاطع كما سأبينه ولا عجب في ذلك ألا ترى الخلاف الواقع في الابتداء بالبسملة في الفريضة وعدم الابتداء بها ؟ وكل ذلك اتباع للشارع من كونه ابتدأ بها مرة وتركها مرّة ولا نطيل بذكره اما كون هذا الخلاف مرجعه لشيء واحد فواضح لكون كل من الفريقين يطلبون سبباً يكون أسرع وصولا إلى معرفة كلام الله وبمعرفة كلام الله تعرف قواعد الشريعة وسأبيّن لكلا الفريقين دلائل تتضح كوضوح الشمس في محلّه » ثم قال في الفصل في البحث عما منعنا من وجود صحّة العلم مع مداومتنا في القراءة « اعلم أيها الحبيب الصادق أنّ من أسباب جهل قومنا أمرين أولهما عدم الأمير أي ذي الأمر والنّهي وهو المعبر عنه بأمير المؤمنين فبه تستقيم أمور الدين والدنيا . والعلم من موجبات العمل الدنيوي والاخروي إذ كل ما له بال من أعمال الدنيا ناشئة بالعلم ولا نطيل بذكرها كما ان كلاً من أعمال الاخرى الذي من الدين من اعتقاد وقول وعمل نتيجة العلم ولا يزيل طبيعة الجهل

إلا السّيف ... قال الله تعالى بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ... قال الشيخ المحقّق سيد جرن سعد دلق الفونجليّ :

دين وملــك توأمــان دين أسـ ـس ملك حارسه فلا يتزلزل
ملك بـلا دين جــدار مائل دين بلا ملك كميّ أعزل

... والأمر الثاني قلة الانصاف من بعض الشيوخ المتقدمين وبعض الحاضرين... فإني رأيت كثيراً من المعلمين في أرضنا يمنعون مريديهم الانتقال إلى معلم آخر للتعلم هذا وان حصل ما عند معلمه الأول فتراه يمنعه من ملاقاة العلماء ويثبطونهم بقولهم فاطلب الدعاء والبركة فانه لا خير في علم بلا دعاء ولا بركة واقتنع بما نلت عندي ولو حرفاً فانّي سأدعوك لك ان شاء الله وهذا منه ليس بانصاف إذ لو أنصف لأمره بالانطلاق إلى طلب العلم عن طيب نفس مع دعاء له بخير الدارين ... وأما زماننا هذا فلا ترى فيه ابن شيخ يتعلم من مريد أبيه فضلاً عن الشيخ بعينه وذلك لابقاء الرياسة لأن لا ينقلب البطن ظهرا ترى أولاد الشيوخ يتكبّرون عن العلماء وينظرون إليهم شذرا وترى عندنا قبيلة الشيوخ وقبيلة الموارد وان بلغوا في العلم لا يخرجون من حيطة المشائخ يسألونهم فيفتون على جهل فضلّوا وأضلّوا ... ومن عدم انصاف علماء زماننا انك لا ترى من يتعرض لذكر مناقب واحد من علماء عصره ويعمّقون في مدح كل عالم مات ويحكون له فضائل وكرامات وخوارق ويقرون له بالسبق وإذا سمعوا بعالم أنكروا عليه بدون تجربة وقد قبل عند الامتحان يكرم الرّجل أو يهان أينكرونه بدون مناظرة ... وكيف يمتنع عالم عن سؤال عمّا لم يعلم وكأنه استوفى العلوم واستكملها ولا يستشكل عليه مشكل وكيف وقد قال تعالى : « وفوق كل ذي علم عليم » . أما نحن فلا يكاد الماهر يرى علماءنا بل يسمع بهم ولا يجالسهم الا بغتة ضرورة حتّى إذا نجا بنفسه إلى قوم اتّخذوه وليّا أو عالماً بحريّا تراه يصول بالألفاظ صولة الأسد ويسارع في الحلّ والعقد ويتكلم بالقرآن المجيد ويأتي بالحديث مع كونه لم يكمل شروط الابتداء ولا شروط التوسط فضلاً عن الانتهاء » ثم بعد توكيد رأيه هذا باستشهاد ما قال فيه الشيخ السنوسيّ واصل في « فصل في بيان غلطات بعضها في اللفظ وبعضها المعنى والغلط الكائن في اللفظ مثلا عند قولهم في كتاب الاخضريّ في العبادات على مذهب الإمام مالك في باب الطهارة ما يفارقه غالبا كالزيت والسّمن والدسم

كلّه والوذح ، فاني رأيت أهل أرضنا من كل من لاقيت يقول والوذخ بالدال المهلة والخاء المعجمة ويفسّرونه تفسير الودك بالكاف حتّى أني ذات مرّة جمعت نصوص هذا الكتاب في قريتنا دار السّلام فوجدت كل نصّ كتب بخطّ اليد أتاه بالوجه الغلطيّ وذهبت إلى قريتنا مدين فوجدتها أعني اللفظة كذلك وكنت أسأل الطلبة عن تفسير كلمتهم تلك ويقولون لي مخّ . والحال انّ الوذح بالذال المعجمة والحاء المهملة بعر الغنم ففي المنجد الوذح ما تعلق بأصواف الغنم من البول والبعر ومنهم من يحرفون هذه اللفظة إلى معنى الوزغ أيضاً الذي هو ضرب من الزحافات الواحدة وزغة وهي في كلامنا الفلانيين لكجدّ وفي كلام السّوسات بس يّا جو وهذه الدّابّة ما لها ولهذا الباب مع انها بالزاي المعجمة والغين المعجمة بينها وبين الوذح بون بعيد » ثم واصل بايراد غلطات أخرى في القرآن عند العرب والعجم وقال : وقد علمت ان عدم الفهم يوجب الغلط ولو لعربيّ نسبة وأصلاً ولذلك قيل :

النحو أولى أوّلا أن يعلما إذ الكلام دونه لن يفهما

ثم تعرض للباب الثاني بقوله : « انّ العلم هو ادراك الشيء بحقيقته يقال فلان علم شيئاً أي أدرك حقيقته وأتقنه والجهل ضدّه واصطلاحا هو العلم بما خوطبنا إلى علمه من العلوم الأربعة التي احتوى عليه القرآن الشريف وقامت بها الأديان أولها علم الأصول ومداره على معرفة الله ومعرفة النبوّات : ومعرفة الميعاد الثاني علم العبادات الثالث علم السّلوك وهو حمل النفس على الآداب الشرعيّة والانقياد لربّ البريّة . الرابع علم القصص وهو الاطّلاع على أخبار الماضين من الأمم السالفة والقرون الماضية ليعلم سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه ... انّ قراءة القرآن عبادة وان لم يفهم المعنى وهو محض تعبد ولا يكلف العبد الا التعبد أي الاستسلام في جميع أحكام الشرع ولا للعقل والعادة فيه مجال ... والحكمة في ذلك أي في تعليم الولدان الفنون مع قراءة القرآن ... لكنّ الذي يناسب ما ذهب إليه الجمهور وكان عادة عند كثير من الأكابر أنّ من كان له غلام نجيب ووجد معلما منصحا عالماً بالقراءة وان مبتدئياً مجتهداً في تعليم الولدان أن يقرأ ذلك الغلام على ذلك المعلم الموصوف حروف القرآن مجرداً ثم بعد الختم يرجع إلى علم ما يقرب معناه إليه كعادة السّلف والخلف ... وأمّا هذه القراءة التي غلبت في أرضنا مع ما بها من

اللحن والتحريف فما ذلك الا عدم التعلم من أهله ورجاله إذ لكل شيء رجال وذلك منهم تكبر وعناد لعدم المكره ليس الا السلطان تراهم يقولون قراءتنا هكذا لأنّنا أعجميّون قاتلهم الله أيقلبون القرآن أعجمياً . وإذا رأيت أحدهم يتكلم باللغة الفرنسية تظنه باريسيًا وليس الا أنّه تعلم لغتهم من متقنيها وقلّب في قالب لسانهم وأما القرآن فلغرابة الدين أي عدم الأمير يستهزئون به ويقرؤونه كيف شاؤوا وهذا لا ينبغي ويجب على كل من قدر على تغيير هذا المنكر أن يغيره وينبّه الاخوان من غفلاتهم ... قلت ولا غرو في ذلك لأنّ التعليم بحسب المعلم لا بحسب المتعلم الا أنّ ذلك ربّما يكون صعباً على المبتدئي الذي في أدنى مراتب الابتداء إذ معاني كلام الله تعالى لا تكاد الطاقة البشرية تطيقه إلا مع الممارسة بالفنون الأدبية المعبر عنها بعلم الأدب . وهي ستّة ثلاثة للألفاظ وثلاثة للمعاني فالثلاثة الأول علم اللغة وعلم التصريف وعلم النحو ، والثلاثة الأخر علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع هكذا قاله في عقود الجمان وقلت في قصيدة سميتها « قاف المعاني » :

وبعد فاعلم ان علـم الأدب	ستّا جميعهـا في العـربي
لغـة تصريف ونحـو وبيـان	كذا معاني وبديع خذ بيان
فالصور الأول جـا للفـظ	والآخرات للمعاني فاحفظ
وكلهـا آلات علــم الشرع	كما أتى عن علماء الوضع
لذاك أوجبـوا لهـا بالبحث	ايجـاب كلها بهذا الحيث

إلّا انّ المدّرس حيث اتصف بهذه الأوصاف بأن كان نحوياً بديعيًا سلّمنا له الأمر لما قيل دع الفنّ لممارسها وصار هو من أهلها وأهل مكة أدرى بشعابها ... » ثم تصدى لفصل في فضل قراءة القرآن ولفصل في تفصيل مراتب القراءات فقال « فبالقرآن حدث علوم جمّة وفنون شتّى لولاه لم تخطر على قلب بشر منها اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والرّسم والقراءات والتفسير والأصول والفقه » ثم أتى بتاريخ تدوين القرآن في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه مع وضع أبي الأسود الدؤلي لعلامات في المصحف بواسطة نقط في عهد معاوية ومع وضع نصر ابن عاصم ويحيى بن يعمر لنقط الاعجام في خلافة عبد الملك بن مروان ثم قال في تدوين الحديث لأبي بكر بن

عمرو بن حزم بأمر عمر بن عبد العزيز فذكر أسماء أصحاب كتب الصّحاح ثمّ تحدّث في تدوين علم الكلام بأمر الخيلفة المهدي سنة ١٥٨ ه ثم في علم الفلاسفة قائلاً : « تشمل الفلاسفة أربعة علوم : المنطق والطبيعيات والرياضيات والالهيات . ومنه علم الكيمياء والطب وعلم الفلك ... فأوّل علم القراءات علم الحروف المفردات التي أوّلها ألف وآخرها ياء ثم علم الهجاء بحيث يعرف للألف أربعة أوجه فتحة أو فتحتين أو ضمّة أو ضمّتين أو كسرة أو كسرتين أو سكوناً أو هكذا إلى منتهى المفردات . ثم يعرف الجمع بين الأحرف الهجائية في مثل يدك فيقول يدك ثم يعتني بعلم مخارج تلك الحروف وهي خمسة عشر مخرجا ثلاثة في الحلق وعشرة في اللسان واثنتان في الشفتين وعرّفه بعضهم بأن يسكّن الحرف ويدخل عليه همزة الوصل .

فأين ينتهي الصوت فثمّ مخرجه أه أغ أل أس أم مثلا » فأطال بذكر ذلك حتّى أن ألف ابن زبير أبياتاً في أسماء القرّاء السبعة قائلاً :

وان تـرد معرفـة القـرّاء فسبعة من غير ما مراء
فنافـع وابـن كثير المكّيّ ثمّ أبو عمرو بدون شك
ثم ابن عامر الكريم الشامي عاصم حمزة الشهير السامي
ثم الكسائي السابـع البدور لكلّهـم رواة بالمشـهور

ثمّ تصدّى لعلم الفقه وفن التصوف فواصل قائلا : « أما القوم الذين يتكلمون بالعربية اقتحاماً وتمرداً ولا يلتفتون إلى حرمة اللغة العربية بل اتخذوها لعباً ولهواً يريدون بذلك أن يطفئوا نور الله والله متمّ نوره ولو كره الكافرون فمثلهم كمن يتكلم بما لا يفهم وإنما اكتسبوا لسان العرب بواسطة المقاربة والمعاملة لا بواسطة القراءة ومنهم من صاحب العرب المتنصرة ومنهم من ذهب إلى الحجاج فحصل بينه وبينهم تعاون وتحادث واقتطف من ذلك ما يقتضي به حاجته وهذا وان بلغ في الفصاحة ما بلغ لا يتصف بعلم الفقه فأحرى بعلم البلاغة المؤدي لعلم فحوى اللغة وهذا يستحق بأن يقال فلان يتكلم بالعربية لكنه لا يعلم الفقه قلت نعم لأنه يتكلم بما لا يدري ولا يدري أنه لا يدري » ثم ختم بذكر أصحاب المذاهب الأربعة . فرسالة ابن زبير هذه ذات بال عظيم إذ عالج صاحبها مسألة حالية فنحن في زمان

نطرح على أنفسنا ما هو خير منهاج لتعليم الأطفال ؟ فقد أجاب الشيخ العلامة النحرير الفهامة الخبير ابن زبير فأجاد في جوابه وبعد ان أخبرنا عن الأسباب السّيّئة لطريقة التربية بل التعليم وعن أدواء هذه الحالة قال بالمنهاج الأصلح فيه ووصف الأدوية لهذا المرض العامّ والطامة الكبرى . قد ذكر أسباباً شتّى سياسية كانت أو تربوية أو إنسانية أو منهاجية وهي عدم أمير أشرف على أمور الدين والدنيا في أرضنا ـ وأنا لا أشاطره رأيه في ذاك إذ نحن معشر السنغاليين نقوم على دولة علمانية لا دينية ـ ومن هذه الأسباب منع الشيوخ لمريديهم عن طلب علم ما ليس لهم به علم وعدم اقرارهم بأنّ فوق كل ذي علم عليما . حتّى لم يمدحوا العلماء الحقيقيّين الا بعد وفاتهم ففاتت علوم هؤلاء الموتى طلّاب علم ومنها أيضاً سوء منهاج تعليم الولدان فانّ معلمي البلاد لا يحسنون نطق العربية إذ جهلوا علم الحروف الهجائية ومخارجها ولا فرق لهم بين القاف والخاء والغين ولا بين الذال والسين والشين والظاء وهلم جرّا وأورث ذلك اللحن والتحريف . وإذا كان لمعلم اختصاصيّ تلميذ نجيب موهوب لا يجمع له بين القراءة وتفهيم معنى ما يقرأ التلميذ من علم أو من آيات قرآنية ومنها أيضاً قلّما يعلم المدرّسون برنامج فنون ضرورية بتمامه وهذا السّبب راجع للسّبب الثاني وقد أحصى ابن زبير هذه العلوم والفنون وفي الختام أظنّ أنّ رسالته هذه حالية وعصرية وأصلية وحبّذا لو انطبقت آراء المؤلف ! ! ! .

هذا تخميس قصيدة شوقي لخير البرايا خمسها الحاج محمد الأمين بن زبير :

سبا شـــبابي صبايا وما صبت بي الصبايا
لكن ثوى في حشايا شوقي لخير البرايا
اضرامه قـــد ضناني

لهـني لخير العبـــاد جمّ الجدى والأيادي
لـــه تناهى ودادي حتى كأنّ فـؤادي
قد شق بين زمـاني

ليـتي تنـاهيت عمّا نهى بـه ثمّ لمّا
لــه ودادي تـمّــا والروح في الجوّ يوما
وليلـــة في المعــاني

يا ليتني جبت بـرا وخضت نحوك بحرا
إلى فنائـك سـبرا والعقل والقلب طرا
وتـارة في الجنان

محمد في حمـاه أروده وعـلاه
وقد بـدا في سـناه وتـارة في حـلاه
وفوتـه قد شجاني

لك العلوّ ولـم لا قد كنت للخلق اصلا
ووكنت أصلا وفصلا فكيف لم أك خلا
للمصطفى من شفاني

من جـاءني بـدواءي أشفى به كل داءي
وكيف وهـو شـفاء من علّتي وشقاء
وصدّني من هـواني

فكيف أعرض عمّن في مدحه زدت علما
وزدت فهما وحزما ما رأي ما الحال يا من
ثناؤه في لساني

أثنيه شوقا بكلتـا يديّ ثـم بكلتـا
رجليّ هاتا وهـاتـا والعقل والقلب حتّى
أثنيتـه ببناني

فكيف أرجو نجاتي ولم أكمل صلاتي
ولم أجاوز فـلاتي يشق عني حياتي
ان لم يزه عياني

يا نفس تسعى إلى ما ألست تبتّي سلاما
هـلا ذكرت اماما يطيب نفس إذا ما
ذكرته في المعاني

هل من نصيص قموص من الجمال أصوص
إلى الحجاج جريص يا لهو تسويف شخص
عن قبره بالتواني

يا سيدي يا إمـام يا قائدي هازمـام
إليك أفشي كـلام يا سيدي يا ذمام
يا قائدي يا عناني
جرني فأنت زمـامي وأنت حـامي ذمامي
وأقبل إليـك نظامي غثني فأنت إمامي
ولقـني بالتداني
قد حزت في الكون سبقا وقفت غربا وشرقا
ونلت في الله صدقا خصصت بالنور حقا
وحزت سبع المثاني
يا سيدي يا طبيب يا سيدي يا مجيبي
أنت الحسيب حسبي يا مصطفى يا حبيبي
يا من هـواه غشاني
يا سيد الخلق كن أنـ ـت لي شفيعا إذا ضن
نبي الشفاعة من حن يا مجمع الخير يا من
قد ساد أهل الجناني
يا فوز من لـك اذعن وقال مدحك واحسن
وشـاد فيك وأعلن يا عين حقّ ويا من
ذكر اسمه قد كفاني
إليك وجّهت سعي كي أن أفوز بهدي
يزيـل جهل وغيّبي غثني وياغوث حيّ
وميت ثـم فـاني
فقيك لعبي وجـدّي وأنت حظّي وجدي
وأنت في كل قصـدي مليح وجـه وخدي
وجبهـة والبناني
نجى غـدا من تلاه وقد ردى من قلاه
وقد تنـاهى عـلاه فتى العـلى وحلاه
حلى لكل زمان

يـا فوزنـا وهدانـا يا خيرنا وشـفانا
فامنن إلينـا منـانا يا ماءنـا يا غـدانا
يا خير حيّ وفاني

يا ليت كنت جليسا لـه وكنت أنيسا
من لي ولست يئيسا يا حامدا يا رئيسا
شوقي إليك كفاني

محمد قـد شفانا محمد قـد هدانا
إذ قـد أتى وكفانا يا ربنا يا منـانـا
غثني ففيك امتناني

هو المدثـر فاعلـم هو المزّمـل فافهم
أقول والقلب في غم يا ويح نفسي إذا لم
أكن أرى من يراني

وقد رجعت بشرهي عنه بـه وبشدهي
أقـول آه لـدلهـي ليتي رأيت بوجهي
وجه ابن عمّ معاني

تقول نفسي متى ما بدا لها وإذا ما
من طيبه ثمّ شـمّا لو كنت أفنى إذا ما
رأيتـه ولقـاني

يا من له البدر شقّا قد حزت في الكون سبقا
وأنت للرسـل صدقا شمس الرّسالة حقا
من لي بـه يا زماني

وقد تزايـد حـزني كمـا تزايـد غبني
ان لم يعـاينه عيني ربي به قبل كـوني
وقبل كون زماني

يا سـيدي وحبيـبي إليك يسعى خبيبي
أبغيك قبـل مشيبي أيا سمّيّ حبيـبي
يا من هـواه لهاني

مناي أنـــت وليّـي يا سيّدي وصفيي
وأنت في الناس زَيّ مولاي أنت سميّي
نعم السّميّ سماني
وقـد أتيت وحاذي قد خفّ لكن رذاذي
قلّت وأنـت معـاذي جـرني فـأنت ملاذي
يا من شفا وشقاني
وقـد لهـاني التلاهي عن مدحه وشفاهي
فأيـن لي والتناهـي صلّى عليك اللهي
بعدّ ما في الجنان
وقد نظمت كـلامي لمــدحه بنظــامي
مستفعــلا للتّمامي وثمّ أزكى سـلامي
على ابن عمّ مهاني
عليه مـولاه صـلّى كما سمـاه وأعلى
مقامـــه منــه نيـلا والآل والصحب كلّا
وعدّ حيّ وفاني

وابن زبير هذا شاعر تقليدي في أمداحة صلى الله عليه وسلم . وهو مشهور بقصيدة تسمى « تحفة الأخوان على تخميس النونية المسمّاة بَريّ الظمآن في مولد سيد بني عدنان » وهاكم نبذة « أما بعد فيقول أفقر العبيد إلى رحمة ربّه الغنيّ الحميد محمد الأمين بن زبير لما كان مدحه صلى الله عليه وسلم من أفضل ما يتقرب به إلى الله وأليق بالاشتغال به عند عبد أواه أحببت أن أخمّس مولدية الامام الهمام المشهور بالسبق في جميع الأنام الحاج مالك سِهْ ابن عثمان تاب عليه وعلى الجميع الرحمن ... وعلى أنّي معترف بالعجز والتقصير غير أنّي تابع لذلك البدر المنير :

سما لك دَعْدُ ليلك سامريني جمالك دعد مـالك قابليني
وسوف أقول ويلك فاسمعيـني ألا يا دعد ويحك نبّئيني
بذكر البان تهتان العيـون

أدعدي قد عهدتك ذات صون   برامة إذ أرومك ذات أمن
لما قد صرت في أمن ومـين   أفي بين حبالك أم بيـين
لعشاق برامـة خبّريني
ترومين الهوى وهـواك غـاو   وتجتنبين ضرّي بالمسـاوي
لدعدي ضرّ جسمي بالدعاوي   ففي نبلك الأحبة كي نداوي
ضنى فينا باجراء الشؤون

أليست دعد ترحمـني لكـوني   مننت لها قديماً دون مين
ولمّا قـد صبنت الكأس عني   وقد أفنى لعـل العمر منّي
ودين العين أقبح كل دين
فانّي قـد عزمت على عبـور   ببحر من بحور ذي شذور
لحور في بيـوت من قصـور   متى ما دان بحرك من كـدور
فصاف سلسل بحر الأمين
رسول أبطحي هـاشـميّ   كـلابيّ بهـيّ جـوهريّ
نـزاريّ معـديّ سـخـيّ   نـبيّ عبـقـريّ أريحيّ
صفيّ الله ذو خلق بيـون
هو الأصل الأصيل وذو المـزايـا   هو الطبّ الذي يشـفي البـلايـا
هو العلم الذي ينفي الدّنـايـا   هو العرنين عرنين البرايـا
صبيح الوجه ذو خلق حسين

وأرجو أن يهون لي حسـابي   وقرّ العين مني في كتـابي
وأرجو أن يـزول بـه حجـابي   وانّ النظم يكفي ذا طلاب
فنظمي حفظه حوز الشجون

فهذا آخر أبيات التخميس وقد بدأ الحاج مالك سِهْ نفعنا الله ببركاته آمين قصيدته بهذا البيت ودلّ على عدد الأبيات بقوله : وانّ النظم (يكفي) أي ١٢٠ بيتاً إذ عدد (يكفي) (ى = ١٠ ، ك = ٢٠ ، ف = ٨٠ ، ى = ١٠) بلغ ١٢٠ فلنرجع إلى ما نحن في صدده انّ مطلع قصيدة الحاج مالك سِهْ هو :

ألا يا دعد ويحك نبّئيني　　بذكر البان تهتان العيون

فجاء ابن الزبير وكتب قبل هذا البيت ثلاثة أشطر ولكل شطر قافية تماثل قافية الشطر الأوّل لبيت الحاج مالك سِهْ قدس الله سرّه .

وقد جارى الحاج محمد الأمين بن زبير ابن عمه محمد بن عمر بن زبير في الشعر ولما ألّف ابن عمه هذه القصيدة التالية :

مسست بزول عائشة انْدَكَارُ[1]　　قَبَابِت فالبَلَام بها النوارُ

فَصَنَبُوا سَامَ شَاذَكَاذَ فيهم　　خذولة ربرب وبها الصوار

أعَائِشَ هل لنا بقرى تمنّا　　مقيل ام لنا بحماك جار

فهل لك منزل بحياض مانا　　فبيني بين دارتها المنار

أعائش هل سمعت بما أقاسي　　من الأقوال تلفظها الشرار

بأنّ الله ملّك مترفيهم　　على الثقلين ليس له الخيار

فلا أمر لمالك ما استطاعوا　　ولا الرضوان حيز له الديار

وان مفاتح الفردوس صارت　　لسيدهم يصاغ له السوار

فيا للناس من رجل كذوب　　يساعده الدّجاجلة الضمار

ولم أر ان قدوة ـ واله موسى ـ　　يغول به وشيعته احتكار

وأفقههم يحلّل بيع ورد　　بلحم الديك ان عدم الجفار

متى تردستهم حزقا لئاما　　تقول سراة تند كلنت بارو

إلى الآفاق من جهد تراهم　　يشتت شملهم ابدا انتشار

يبيع زعيمهم وردا بشرب　　فبئس السعر سعرك والشعار

يباع بدرهم التلقين فورا　　وبالألف الخلافة والجوار

وأحسن ما يني التقديم كبش　　وان شئت الامامة فلا أزار

فبيع الدين بالدنيا غرورا　　سجيّتهم فبئس الافتخار

---

(١) أنْدَكَارُ هي عاصمة السنغال وأما بايت وبلام وصنبوا سام شاج كاذ ومانا فهي قرى في كاسَمَنْسَا وفي غِينِيَا بِسَاوُو .

فان يكن الحزفة يزدرينا | بلحن القبول . ديدنه الهتار
ألم يك مذ بدا سلقا شريسا | حقود الخير همته الشجار

قال السيد الحاج محمد الأمين بن زبير يجاري ابن عمه بحرا ورويًا ومعنى وقصدا :

ألا أبلغ حريمك أين صاروا | تنبهم وان نعق الحمار
بأن ثعالب الاعلاج ضلّوا | إلى تمبا وتند قلب سار
وقائدهم مسيلمة ينبئ | بجهل قومنا حسدا فحاروا
يحرج رحمة المولى افتراء | يكفر من يشاء ويستشار
يداهن من يوفقه غرورا | يخبر كي تساق له العشار
يحرم تارة ويحلّ أخرى | ينجّم ساعة وله الزنار
يعيّب إبليّاء[1] فانّ فيها | محمد لا يشوشه الزمار
ألم مذ بدا بحرا عميقا | يموّج عندما انتزح البحار
ألم يك مؤمنا بل كان حبرا | به عين يصاغ له النضار
وقد ورث النبي بحفظ علم | كتاب الله ليس له الشنار
وانّ الله قال قد اصطفاهم | فأورثنا الكتاب كفى الاجار
فظالمنا حديث صحّ فانظر | لفضل الله ويحك يا مضار
طلبنا العلم جاء وصحّ أيضا | ونور العلم كان لنا الشعار
فكن متفلسفا ان خبت علما | والا كن حبيبا لا تغار
وانّ بابليا تالله حبرا | جوادا لا يسابقه المهار
إلى العليا وان يكرهه زيد | ومن يكرهه حق له الفرار
نقول إذا استعير مقال حرّ | سكاب لا يباع ولا يعار
فان قال الحسود فلا ثواب | بنال بابلياء ولا فخار

(١) إبليّاءُ فهي قرية يسكن بها ابن عمّ الشاعر في كَاسَمْنسَا المعروف وهو العالم بمحمد جُولْدِ .

وسمنا أنفه بشهاب ذلّ — قلى قلنا أجير بذاك عار
وان هو ضيق الأبواب عنا — فباب الله ليس به غبار
وان هو خصم التجاني عنا — فجهل أو عناد أو فجار
فانا حسبنا المولى دواما — ويكفينا الجواهر حين جاروا
فانّ ابن السعيد له رماح — بها نسلوا إذا غشي الشرار
فان غط الطريقة عنك ضنا — يحذرهم ليجزنك الغيار
فنيتنا ببغية مستفيد — فني كشف الحجاب لنا منار
وان يك بالوفود وبالهدايا — يفاخرنا فليس بذا الفخار
فغنيتنا الخريدة للنظيني — وان ضلّوا وان ذلّوا وباروا
وان يك بالمناع فقال ربّي — يمتعهم وبئس الادخار
سيعلم من يفرقنا فسادا — ليغنم كي يتم له الوقار
بأنا لا نوافقه متى ما — يرد تضليل قوم هم غرار
ونحن وشيخنا التجاني تغني — محبّته لنا فبها المدار
أخذنا ورده المثلى اختيارا — وسائطنا مشاهير كبار
ومن يك يبتغي شر فاوحاها — ببيع الورد حقّ له البوار
سنقصد ساحة الأحباب يوما — نزورهم وان بعد المزار
بها أبناء لأحمد عبد لاوي — كرام لا خداع لا غمار
وشيخ سكيرج يحمي حمانا — صدوق لا الهرار ولا الضّرار
لنقصد ثم ساحة عين ماض[1] — بها انغمروا ان حزه القبار
بها حفد الوليّ بها نجاة — بها شرف بها نجب النجار
لئن كان الدثار لأهل فخر — وأيم الله حق لنا الدثار
وأيم الله جلّ لكل حرّ

---

(١) ولد الشيخ أحمد التجاني في عين ماضي بالجزائر سنة ١٧٣٧ م .

وهذه القصيدة قالها السيد الشيخ الحاج محمد الأمين بن زبير يخاطب ابن خاله الشيخ محمد جُولْدِ في قرية ابلياء :

دعى ابن الخال حيث يقول أني … أروم من الأمين يريد عقدا
أساجله بوصف بدور بيت … وحقك لن أميل لذلك خدّا
ولم أك ناظما بيتا للّيلى … ولست أرى أميمة لا وهندا
وكيف يرى أميمة من عراه … بذي سلم شموع إذ تبدا
نعم هلا دعوت بمكفهر … بها الأرياح تهوى نحو بدّا
تزف زفيف رأل أو حصان … مكر مقبل في الحال قصدا
إلى دار السلام نجوس فيها … بسائس عارف بالأمر حدّا
نقد به المهامه كل قد … نؤم زيارة نمشي رويدا
هناك تقول يا ابن الخال يوما … وكنت إلى الايابة مستعدا
دعوت بناقة هوجاء تهوى … بها الأرياح بي لازور زيدا
وكيف ترى لهذا اليوم إذا ما … قدمنا في دكار نريد وردا
ببابور البرار نريد نَمّا[٢] … نؤم ديارنا ونحوم وجدا
على أني أفكر يوم بتنا … بكُلْدّا إذ أتانا القوم وفدا
وإذ أنا كاتب إذ كنت تملي … علي بما رأينا ثمّ ادّا
ونكري تكس فورد صباح يوم … نؤم بابليا مجدا فجدا
نقيل لديك وقتا حيث تحوي … لذائذ ما نعهد لهن كدّا
نمرّ إلى مدين وأنت تبقى … بنعمى لا تعد لهنّ عدا
فنحمد أحمد القرشيّ نرجو … به في الكوثر مورود وردا
تململ تحت صدري حبّ بدر … نقي جيبه خير مردا
عفيف في شبابته عنيف … كريم كان في علياء فردا
هو المختار حقا ذو المزايا … شفيع الخلق قدوتنا المعدا
ومن يك قائلا وأتى بشعر … سوى في مدحه- حقّا تردا

(١) هي مدينة في السنغال .

ومن يمدح سوى المختار قولا تكاد به الجبال تخرّ هدّا
وقل قرشي وقـل عربي تصدق كما لك كن كما لك فيـه ودا
فلا تـك مائـلا ايـاك عنه فباعد عن ذرى من كان ضِدّا
ألم تـر آيــة الشعراء لـولا مقـالة بعـدها إلّا لأدّا
إلى التحريم لكن ليس الا بليغ في مدائحـه تصدّا
ومن يـك في ضلالته فدعه وان يمدد لـه الرحمن مدّا
ولا تـك عوض كاتب وصف ليلى ووصف أميمة أو وصف سعدا
ألم تـر مـا يبدل عنـد ربّي وما يلفظ وكيف تروم حيدا
ودونـك والجواب أتـاك صبرا إذ استسعيت يعبوبا مجـدّا

فهذه قصيدة وافرية تحتوي على تجنيس تام من البديع قالها ابن زبير يمدح ابن خاله محمد بن سِيدِ :

سما نحوي الخيال مـن ابـن خالي وغادرني الخيال مريض خال[1]
فصار يلومـني أن قـد غشاني وأسلمني تجبر كل خال[2]
فقلت لـه رويدك لا تلمني وجدّك انّني لخير خـال[3]
ويوم قـد غشاني كل سهم شديد البأس مرد كل خال[4]
وظنوا بي الظنون وحـال بيني وبينهم جنان غير خـال[5]
فيأتمرون بي أليقتـلوني لأمـر مـا وعندي بنت خال[6]
فقلت لـه أفاط إليـك عني فانّي في الأمور بريد خال[7]

(١) وخال أخبر هو القلب .
(٢) الرجل المتكبر .
(٣) العزب من الرجال .
(٤) الرجل الضعيف .
(٥) الجبان .
(٦) أخ الأمّ .
(٧) صاحب الشيء .

فقولي ويك حالك غير حال	أبيني لي الكلام فلا تخال[1]
فانك عند ذي كرم وأصل	شهير بالبراعة غير خال[2]
حميد الفعل متّفق القوافي	أمين لا يرافق غير خال[3]
وكوني ويك ذات حمى وأوبي	إلى سمح جواد مثل خال[4]
مثقف كل مطرد شديد	ذليق الحدّ يهلك دون خال[5]
تمكن عند كفّي ذي بهاء	غشاه ليله غشيان خال[6]
فصار كفارس م الجرّد ليلا	جوادا لا يطاوع أمر خال[7]
فقلت له محمد جولد هلا	تبيت فلا تمرّ مرور خال[8]
وقال فدتك نفسي يا ابن عمّي	فانّي لا أبيت بدون خال[9]
وجئت له به فأبى وربّي	وغادرني وحيدا عند خال[10]
فجاء الطالبون وهمّ قوم	ليوذوني ودوني كل خال[11]
فقلت أما وربكم فانّي	لهذا الأمر ذو خال وخال[12]

(١) لا تأتي بالشيء المتشبه .
(٢) غير ذي خيلاء .
(٣) الرجل السمح .
(٤) السحاب .
(٥) ظنّ .
(٦) الكفن .
(٧) لجام الفرس .
(٨) البرق .
(٩) ضرب من الثياب .
(١٠) الموضع الذي لا أنيس به .
(١١) الجبل الضخم .
(١٢) التفرس في الشيء .

فانّي لا ألام وليس بيني وبينكم الخلال بدون خال [1]
فدى لك يا محمد يا ابن خالي تليدي طار في وجميع خال [2]
لقد وجّهت نحوك وجه فرح وبشر قد خلي عن كل خال [3]
عليك من ابن عمك كل وقت سلام ما تصلّى يا ابن خال [4]
وصلّ على رسولك يا إلهي ومن في الحشر ينشر كل خال [5]
وسلم والصحابة ما تمشت على وهن نميلة حول خال

قد أتى بُطْرُسْ كَرَامَة اللبناني (١٧٧٤ – ١٨٥١ م) بقطعة شعرية احتوت على خمسة أبيات وقافية كل بيت خال ومطلعها :

أمن خدّها الوردي أفتنك الخال فسحّ من الأجفان مدمعك الخال

وزد خال الشطر الأول قالها بطرس متوسّلاً إلى وَالِي العِرَاق داوود بَاشَا . غير أنّ ابن زبير نظم قصيدة طويلة احتوت على أربعة وعشرين بيتاً وقافية كل بيت كلمة الخال فصار الجميع ٢٤ كلمة متشابهة لفظاً على اختلاف معناها .

قال محمد الأمين بن زبير : « قد طلب مني أخي وشقيقي عمر بن زبير بأن أجعل له تقييدا في النحو ويكون أقصر المقتصرات مسهّلا لفهم العبارات فنظمت له هذا التقييد وسميته بـ« يوانع البسر والاعناب في بعض ما يحتاج من حقائق الاعراب » فألف قصيدة نحوية رائية قسمها إلى ستة وعشرين بابا ولها ستّة وسبعون بيتاً فقط ودلّ ذلك على قدرته الاجمالية الشاملة ومطلعها :

كلامهم في اصطلاح النحو يا عمر لفظ مفيد كزيد قام يعتبر
وكلمة مفرد وجمعه كلم وكل ذلك تحت القول منحصر

---

(١) فخر .
(٢) بدني وجسمي .
(٣) الشامة اي بثرة في البدن .
(٤) تقدم .
(٥) اللواء .

أجزاءه عند أهل النحو منقسم إلى ثلاثة أقسام كما سطر
اسم وفعل وحرف بالندا وبأل والجرّ للاسم تمييز كما ذكروا
بقد وبالسّين أو بالتاء في فعلت ويا اذهبي فاعرفوا الأفعال وائتمروا
ما لا يدلّ لمعنى نفسه كإلى وهل ولمّا وبل بالحرف معتبر

ولمّا قال الشيخ أحمد بن عبد أَنْجَايْ من شيوخ مدينة كَوْلَخْ مفتخرا في مناظراته ابن زبير هذا البيت :

فنحو وتصريف بيــان ومنطق أصول وعلم الشرع من تحت ركبتي

أجابه محمد الأمين بن زبير بهذه القصيدة الدالية قائلا :

قال الأمين الاشـعري العقــد المالكيّ الاحمديّ العقــد
ابن الزبير الفــلــدي البلدي لكنّ بشرى لمكــان رودي
بلغ لأحمد الكريـم حمـدي واقرأ لـه شكري بدون حدّ
ومن أبوه يـوم رفـع البنـــد اهيب من ضرغام غيل ورد
يلقى بقلب غير وان مــرد كل غشوم وشـجاع فــرد
أأحمد بن عبد جاي سافد نفسك بي وبجميع ولــد
انّك نعم مــن إليك يسدي مدحا يفوق طيب نشر ورد
وكل مستسق أتى يســتجدي منــك تلاقيه بمــاء عدّ
سوف تــلاقي بكــلام جــد م المدح يسقيك بعذب برد
كيف وقد ســاد الفتى بالجد لا بالجدود بل بسعد الجد
وإنما المجد لـدى ذي مجـد مجد جديد لا بمجد جد
والرشـد باقتران أهل الرشد لا باقتران جــاهــل ألــدّ
والسعد باقتران أهــل الســعد لا باقتران جــاهل مرتــد
والكد مأجــور بحســن القصد لا مع كثيره وجود الكد
ان العــلى راقيــة في طـــود من الجبال فوق أرض نجد
محال ان تملكهـــا بالكيـــد بلا صداق بل بمهر نقد
عليك بالجــد بطــول مــدّ ولا تصاحب كل خل وغد
وجــانب اليــل بنسيط مـهـد مورد نفسه بــورد وجـد

وكن دواما في ابتغاء زيد | من قل عمرو وكثير زيد
كن مستمدّا من قليل مدّ | أو من كثير مدد ممتدّ
ولا تحقر أبدا ذا ودّ | واشكر جميل صنعه بالقصد
واستر بليدا حمقا ذا صد | واصبر لذي ظلم أتى ذا عمد
تمم لمن عاهدت كل عهد | وفي تمام العهد حسن زهد
وقوّم اللدن بأقوى زند | مقتبس النور بقدح زند
كن راكام العزم كل نهد | أجرد سابق كسبق زند
وابغ العلوم قبل أخذ زهد | والزهد دون العلم محض كد
والعلم مطلوب ولو لهند | نعم ولو إلى وراء سند
والعلم للعالم أقوى جند | وأفضل المرفود يوم رفد
كن عالما أو طالبا ذا جد | أو من يحبّ لا تكن بضد
العلم نور ومنير اللحد | وصاحب يوم أداء العهد
وللفلاح قائد للعبد | يوم القيام لجنان الخلد
أحلى من الشهد وذوق قند | أطيب نشر مسك ورد رند
كن متقنا له حبال القيد | مجددا لحال ربط العقد
محتزما في السير سبرقد | مشمر معتدلا في القد
مختفياً ملتبدا في الصيد | مدبر الحول محال معد
منازلا بكل فرد فرد | ولا تصاعر صفحة عن خد
اياك والفخر فعنه عد | فاجتنبن عن كل شي آد
وأصدق الأقوال قول عبد | أنا عبيد الله دون جحد
لست بذي يد ولا ذي أيد | قصير يد وخليق برد
وأضعف القولة قول عبد | أنا ابن در أو أنا ابن فيد
وها أنا فرد أو ابن فرد | ابن هزبر أو أنا ابن طود
معظم الصوت كصوت رعد | كأنه لم يك ابن رأد
فيها كنظما جا حكيم عقد | دلّ بدالاتي دليل فقد
نيل براعة ولكن عندي | جهل مصرّ دائما في طرد
وان ترى لي خللا فسدّ | وربّ سدّ صدّ بين سدّ

سد الخلال لا شدّ رفد ... إلى خليل خلّ دون حقد
أزكى صلاة وسلام نهدي ... بها دواما لرسول المجد
محمد خير ضجيع مهد ... خير رضيع من بنات سعد
وآله وصحبه بالسّرد ... خيار شيب وخيار مرد

والشاعر دعا أحمد أنْجَايْ إلى اتخاذ موقف متواضع وعلم بأنّ فوق كل ذي علم عليما .

وهذه قصيدة قالها محمد الأمين بن زبير يجاوب الحاجّ بَلّ فُودِي :

لقد ذهبوا بي نحو تلك المذاهب ... ولم أك أرضاها وربّ المغارب
مذاهب فيها كل سهم وباسل ... على كل جرداء مروق وواصب
مذاهب فيها كل خرق مخوفة ... بكل عبوس من ضراغم ضارب
تريد سليمى أن أؤوب لهمها ... أيابي وأنّي قلت لست بآئب
فقالت وقد ظنّت بأنّي هجرتها ... ولم يبق الا حسن ظنّ بصاحب
فان كنت قد اهجرتني لطبيعة ... وان هي الا بانتياب النوائب
يقولون انّ الشعر صعب مناله ... وان ليس يسدي نسجها غير غالب
وان يأتيها سوى كل مفتن ... بعلم العروض والقوافي النجائب
ومتقن علم النحو ثم بيانه ... ومتقن تصريف اللغات الغرائب
ويأتي معاني هذه وبديعها ... جميعاً مقيساً عن أصول المذاهب
فقلت بلى لكنّني قلت معلنا ... بأنّي لهذا الكلّ لست بكاتب
ولكنّني قد ما نصحت وانّها ... نصيحة ذي صلح ولست بكاذب
لكل مسانيد متى ما تناسدوا ... ولكنّها في اختلاف المشارب
وتلك فيوضات فنعم خبرها ... ولكنها عندي دقيق المذانب
وها أنا لا ألوي إلى كل متقن ... ولا متقن من متقنات الأسالب
ولكنّما ألوي إلى كل زاخر ... من أبحره شيخي أبي الفيض واهب [1]

(١) هو أشار إلى الشيخ أحمد التجاني أبي الفيض .

له الفيض والأكوان كلا بفيضه اسـ ـتفادوا فجاء الفيض من كل جانب
ولا فخر ذي فخر ولا علم عـالم ولا كل شيء من جميع المناقب
ولا جاه ذي جاه ولا فضل فـاضل سوى ما أتاه من المكاسب
فكل ولي يبتغي منـه مرحبا فأين جميع الأولياء الأطالب
وأين السّريّ والجنيد وشـاذلي وأين وأين القادري والثعالب[1]
الا أنّني صدّقت مجمع شملهم ولكنّني جريت كلّ التجارب
أكل ضياء يستوي نار نورها كنار بمصباح ونار الحباحب
أيمكن للماشي ولو كان مسرعا لحوق جواد كامل العدو دائب
وهذا ولو أنّي غـدوت لمدحه أكون به مستهدفا غير صائب
ولكن صلاة الله ثـمّ سلامه على المصطفى والآل مع كل صاحب

وله أيضاً في حق السيد الحاج سعيد النور الحفيد للحاج عمر تّالْ :

مني السـلام إلى سـعيد النور وتحية تـزري بنور الحـور
بقصيدة صيغت بكـل فريـدة حرفا تغـاير نور واد الطور
فتكاد تسطو بالبليـد إذا غدا متهاونا بعـلم سـعيد النور
آها الكبير ومـن إليه تملمـلي عند الأذى كتململ السنّور
ومن الذي ان ضاق صدر موتّر فالى فنـاه تسابق الموتـور
ومن ان تزلـزل قصر كل مضغّـط فـلـه أساس بناء كل قصور
أسعيد من سعدت بـه الأزمان كن متواليـا بمئـاربي وأمـوري
كن مرسلا بكتيبـة لكتـابتي فقول كشف شدائدي وخطيري
توصي إلينـا عـاملا يك صادقا في الفصل بين صفوه وكدور
حرقوا المساجد عنـدنا فتعلنوا بالاثم هـلّا بالتقى وبـرور
ارسـل لبيبا ان شككتم ماهرا يبلوا ليأني كنـه صدق شطور

(١) سرّي السّقطي : صوفّي سنيّ ومعلم جنيد قال ان أحرف القرآن مخلوقة وقال ان المحبّين يفوقون في النعيم أتباع موسى وعيسى ومحمد وقد لامه ابن حنبل على تلك الأقوال ، وتوفي سنة ٨٧٠ م في بغداد .

يأتيك بالخبر اليقـين تحققـا ليس السميع أخي مثل بصير
يا والدي شيخي حبيبي ملجئي أملي رجـائي غيبتي وحضوري
هـذا بنيك قد أتاك بجهـده قولا وجهد المرء غير قصور
ان لم أكـن أهـلا بسعدك قـد أتـى سعد لـدى السعد لغير جدير
إذ ليس بي عـار فأنت ودينا ان ضاع ضعت ولم تكن بغيور
حاشاك ان ترضى وابنك سادم متأسف حـاشـا سعيد النور
أفلا أرى من جده عمر لـه طول الحياة جهاد كل فجور
يردي بسيف تـارة بـدعائه يرضي يفكّ قيود كـلّ أسير
وبجوده وجياده انقـادوا لـه ورمـاحه كرمـاحه بشهور
أفلا أرجّي مـن يرجّى جدّه وأبوه من زمن مضى ودهور
كلّ بدور في سمـاء زمانـه لكن سعيد النور بدر بدور
ثم الصلاة عـلى النبي محمد خير الأنـام وخير كل خبور
مع صحبه ما قال كاتب أسطر مني السلام إلى سـعيد النور
وتحية تزري بنور الحور

وقال في سفر السيد الحاج عبد العزيز سِهْ يُهَنِّئُهُ والذين معه من أحباب الطريقة التجانية في حجّهم إلى بيت الله الحرام عام ١٣٨٤ هـ .

خبرا هاليك يوم الأحد قـد ظعنـوا فما استكانوا لما فيهم وما وهنوا
هلال ذي حجّـة للحجّ قـد عزموا بعام دفسش قد بانوا ومـا جبنوا
الحاج عبد العزيز البررا فقـه للحجّ قوم بهم قد فاخر الوطن
هل تعرفونهم ما هم وما لهـم قوم هداة ثقات قـادة سفن
في رأس مركبهم حفيـد قدوتنا التـ ـجاني ملجانا يوم الورى زبنوا
محمد الحبيب البر قـائدهـم هاد لهادي الورى المختار إذ عطنوا
وقد ترى منتقى تال منهم وترى في وجهه نور أجداد له دفنوا
والشيخ انْمُبَكِ سليل المصطفى لهـم لكل خير بطوبى ـسبقهم علن
والشيخ أنْجَايْ فاضل إذ كـان صاحب أسـ ـتاذ الكبير لــه مــن ربــه المنن
والحاج تِجَانْ سِهْ يا هل تـراه لدى استار في كعبة بالشكر يعتلن

والشيخ أحمد لـح ممّن تلوح له الـ ـخيرات والصدق من أوصافه ددن
والشيخ عباس صَلِّ سَلْ عنه كيف منّي وما يلملم مـا حطيم ما قرن
سل عن مقام وسل عن بئر زمزم سل عباس صل عن صفا سل مرويالسن
وكيف طافوا ومن أين الحجيج أتوا وكيف عبد العزيز كان حين دنوا
وكيف لاقوا سعودا فيصلا بطلا بأيّ يوم وما منّوا وما مأنوا
لا تنس مالـك سِهْ إذْ حَـجَّ معتمرا بالحمد في كل ما يأتي به قمن
وأفصح العرب العرباء أحمد دَاتْ من خير ركب عليهم ربّنـا يحن
لو أفسحوا له يوما وانصتوا للقـــوا سحبان ثان إلى أقواله أذنوا
فهؤلاء رفقاء البدر لو وزنـوا بالكون أو فردهم يوما ليتّزن
انّ الذي فـرض القرآن إذ خرجـوا لرادّهم لمعـاد ذلك الوطـن
ســهل سبيلهم ربّي وردّهـم لأهلهم ربنا يا من له الشأن
وردّهـم ســالمين محضين بحصـ ـن قط ما ضاع من بالله يحتضن
صلوا على المصطفى ما قال مقتصدا خبر أهاليك يوم الأحد قد ظنعوا

وبعد تهنئته لخليفة التجانيين الشيخ الحاج عبد العزيز سِهْ التِوَاوُنِيّ قال ابن زبير : « اما بعد فهذه براوة بقصيدة إلى الشيخ الخليفة في الطريقة المريدية الحاج فضل أمبَكِ قالها الحاج محمد الامين بن زبير الساكن في كُلْدَ بِكَاسَمَانْسَا :

أفلا تحنّ إلى الركـوب لترحّل وقتا تهيئي للسلام على الولي
شيخ المشايخ فَضْلُ امبَكِ ومن لــه تم العطايا من أبيه الافضل
أعني الخديمَ حَبِيبَ طَهَ أحمد من حاز فضلا م الآله الأجل
قد زاه الشعراء قبلـك فانثنوا منه بآلاف النقود م الحلي
منهم بدار تشترى مليون ومنـ ـهم من يئوب وكان ملآن الـدلي
منهم ترى سيارة قـــد حازهـا من زاره يمضي بروح شلشل
ولذاك هـل لك يا أمين بنزهة فاقصد لطوبى لست أول سائل
بل لست آخرهم فتقصد سيدا ما ردّ فضلا منه كف مؤمل
إلا وكانت كفــه مــلآن من درّ وياقوت وحـليّ مجتلي
يا أيها الفضل المفضل هاك ما قد حاكه صدر الفقير المرمل
قد جئت أطلب منك جودا مثلما عودته الشعراء قلبي يا ولي

اسمي محمد الامين ومسكني كُلْدَا فثمّت كان موضع منزلي
وصلاة ربّي دائما وسلامه للمصطفى الهادي النبي المرسل

وله أيضاً في ردّ الجواب فدار السّاكن في أرض كين :

بلغ فدار سلامي أيها الغادي بأنّ حبّي إلى أخلاقه باد
وأنّني عازم عند الرجوع على نزول نعم كين حيث الجدي واد
يا سيدي يا حبيبي من له الفضلا قد أذعنوا خير زهاد وعباد
لولا وتلك له مورثة عرفت من والد وارث من خير أجداد
بلغ أهاليك من صحب وما جلبوا من خادم وتلاميذ وأولاد
تحيّة وسلاما طيبا أرجا ما انتقل القيل من ناد إلى ناد
ثم الصلاة على المختار ما تليت بلغ فدار سلامي أيها الغادي

وله أيضاً في حق الشيخ الحاج عبّاسْ صَلْ :

فتي درّة مني صداقا هديتها لبنت بها ليلا بنيت فضضتها
فيا لك من حوراء نحوي تعرضت بليل ولولا أن ليلي قصرتها
ولكنّها ليل بليلي قصيرة ولم أتلذّذ إذ بصبح فبها
كريمة أصل عنقها عنق ريمة وعينان منها من مهاة صرعتها
ملاحة درّ هل لدرّ ملاحة مليح كملح ريقها حين ذقتها
وخدان من در اللورد صفرة ترائب مرآت صفت ان وصفتها
فيا لك من بنت لقد عزّ نيلها عزيزة أهل حرّة إذا ردتها
تخيب ظنّ الطارقين تحصنا ففزت بغصن ناعم إذ هصرتها
في وبها ما ان بنيت بمثلها فبيضة خدر لا ترام فرمتها
وهل هي الا بنت فكر تمثلت أمامي مثول الغانيات جلوتها
لعبّاس صل صل بالهدايا لأنّه هداك ببنت الفكر منه فحزتها
فبالله يا عباس قد غصت لجّة ففزت بدرّ ثمّ ثمّ خصصتها
ولكن أصلي ثم انّي مسلم على المصطفى أزكى صلاة تلوتها

بسم الله الرّحمن الرّحيم هذه مرثية قالها الحاج محمّد الأمين بن زبير يرثي على السيد الحاج ابراهيم نياس كولخ .

هل ادكارك من مــاض ومــن آت يفيدك العلم في حال الململمات
لا تأمن الدهر مهما جاء مؤتمنا فالدهر مصدر خيرات وغيرات
ولن ترى من صديق قط صادقه دهر سوى خانه حقّ الخيانات
ما من مليك ترى والدهر ملكه ازمة الفصل من بين الخليفات
الا واعــزله يومــا واخــذلـه حتّى كان لم يكن والي الولايات
هذا ومــا من غنى في تنعمه طلق العنــان لميدان الرياضات
الا وافقــره يومــا واعجزه حتّى كان لم يذق طعم الحلاوات
كم عالم فطن ترضى سريرته يميس تحت برود م البراعات
تراه فوق جمالات الجمال إلى دار البقاء لدى باري البريات
وجاهل شرس تخشى شرارتـه تراه من بعد يدعو يا لويلاتي
أين السرى بلس أين قلند فنوا أين لمن قي سقوا كاس المنيات
أين الولي الشهير الصيت مالك سه أين الخديم بطوبى ذو الفتوحات
ألم تروا حبر كولـخ كان مرتحـلا من أرض لندن على جنح الطيارات
فحل لحدا بكولخ قلت يا لـك من بدر يحــل بلحـد للصيانات
فقيل ظلمة لحد قلت ان بـه بدرا وللبــدر تنوير الدجنات
فتلك موعظة للحاضرين بقــوا وعبرة لأولي الأبصار في الثات
وثلمة فتّــت للدين اكبــدة كانت لأهل الهدى أهل الديانات
نعى النعات عـلى برهام يس فلقـوا يوما طويلا طووا فيه البليات
مولاي قابله بالرضوان ساتره وادخله مولاي روضات بجنات
فاغفر جميع خطايا كان كاسبه فأنت يا ربنا محصي الخطيئات
فالعبد عبدك ان تغفر فانت له أهل فبالفضل عامل ذا الاساآت
وجازه ربنا خير الجزاء بما قد كان يعمله من كل خيرات
فاغفر لنا وله والوالدين كــذا وكل أشياخنا أهــل الدرايات
واصبب على قبره شؤبوب رحمتك الـ ـعظمى بجاه النبي خير البريات
عليه صل اللهي دائما أبــدا ما الدهر قلّب حالات لحالات
فبالله يا عبّاس قد غصت لجّة ففزت بدرّ ثم ثم خصصتها
ولـكن أصلي ثم اني مسلم على المصطفى أزكي صلاة تلوتها

وله أَيضاً يرثي الشيخَ أَحْمَدَ أَنْتَ صَمْبَهْ وهو عمّي وكان من أَصحاب الحاج مالك سِهْ ومن مُقَدَّمِيهِ الأَوَّلِين وكان يقطن في كِبِمِيرْ مشهوراً بجوده وكرمه وتقاه وورعه وأَعماله الصالحة واحسانه إلى الخلق طرّا وشجاعته ووفور ثروته وعلمه . مات وهو ابن أَربعة ومائة عام (انظر في البيت الثامن) في ٢٤ من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٦ هجرية (١٢ من شهر آب عام ١٩٦٦ م) فدفن في جامعة بكبمير بعد جنازة فخمة وصلّى عليه صلاة الميت الحاج عبد العزيز سِهْ الخليفة للطائفة التجانيّة السنغالية . وكان إذا احتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم يذبح سبعة ثيران ويحيي الليلة المولدية الشريفة بشتى قراءات القرآن وذكر مناقب سيرته صلى الله عليه وسلم وفي يوم النحر كان يذبح أَيضاً خمسة أَكباش ويحسن إلى الفقراء وينعم على الشعراء الذين يمدحونه . والآن فابنه حمزة صَمْبَهْ هو إمام الجامع الذي دُفِنَ أَبوه فيه وهو شهير بالورع والعلوم والدماثة هاكم المرثية :

بكت السما والأَرض فقد امامي ... كبكا الليالي أو بكا الأَيام
يتساءلون بكل ليلة مولد ... هل جاء أَحْمَدُ أَنْتَ صَمْبَ إمَامِي
فتراه في تلك الليالي حينما ... سجت الظلام وكان نور ظلام
أَو يوم عيد قد تراه باسما ... إذ جاءه الفقرا مع الأيتام
جمّ الرماد يجود جود سحابة ... أَكرم به من لابن لحّام
جاء النعيّ فقال أَحمد أَنت قد ... حقّا ترحّل للعلي العلام
يوم العروبة (قَدْ) تكمل عمره ... (كد) أَ الربيع تاريخ وفسش عام
قلنا فمن للجود من لكرامة ... من بعد والد حمزة ضرغام
قلنا لمن هذي المساجد بعده ... من للأرامل بعده والأَيام
من للمصاحف بعد أَحمد أَنت من ... يقري ويقرأ سورة الأَنعام
من للصلاح لذات بين بينكم ... يغدو فيرحل واصل الأَرحام
من للتلاميذ الذين إذا أَتوا ... جاءوا بالأَرواح والأَجسام
ضيعوا وضيع الضيف ضاع جميع ما ... كان الكريم معوّدا لكرام
لولا تقدّم موت طه المرتضى ... خير الخيور وخير كل أَنام
دام البكاء لنا ولكن كلّنا ... يوما يصير أَسير كف حمام
فعلى ضريحته سحابة رحمية ... هتّانة تبكي بدمع هام

ثم الصلاة مع السـلام تجازيا وتداولا بتـداول الأيام
أبـدا على خير الأنـام محمد ما تمّم الباكي بلفظ سلام
مع آلـه مع صحبه سـاداتنا غرر الوجـوه بدور كلّ ظلام

وله أيضاً يرثي الشيخ محمد البشير البكيّ بن الشيخ أحمد بَمْبَهْ الخديم للرسول محمد صلى الله عليه وسلم :

يا عين جودي بدمع منك هتّان تبكي على فقد جار خير جيران
تبكي على سيد صاف سرائره حلو شمائله سـلوان احزان
جزل عطاياه للعافـين منخضعـاً ذي الجمع بين فنون عـلم عرفان
بشير امبك إلى الرحمن مرتحل بعام وفسش في أكن وايمان
يا ليلة غـاب عنّا في دجنتهـا روح المطهر من ظلم وعدوان
بشير امبك ابن أحمد بمب خادم خيـ ـر الخلق كلهم من نسـل عدنان
عليك في كـل يوم صوب سـارية هتّانة من رحيم الخلق حنان
عليك يا ابن حبيب المرتضى ابن خليـ ـل المجتبى بن خديم المصطفى الهان
من ربنا ديمـة في رحمـة هطلت يسقيك ربك منها ملء كيزان
يا نجل فاطم .. تركت ورا فعلا جميلا وقولا غير قولان
كل يقولون ذا علم وذا أدب وذا سكون سكوت غير هذيان
لمثل ذلـك فليعلمـه ذو عمل فليعتبر عـاقل بل كل إنسان
لأن السن هذا الخلق كاتبـة اقلام حق رووه أيها الفان
سل عن شمائله مِنْ شَيْخِ أَمْبَكِ وَسَلْ عن شيخ حَوْبَلَّ سَلْ عن مُودُ خبَّانِ[1]
في أيّ وقت أتى ريب المنـون لـه بشر البشير إلى جنـات رضوان
وهل بطوبى لهـم طـابت نفوسهم حفر له مصحفا من صحف قرآن
يا يمن قبر له من مقبر سلفت فيها نفوس كرام خير جيران
يكفيك جارا أب يـدعى الخديم لمن قد كان فردا بلا ثنيا ولا ثان

---

(١) وكلهم شيوخ من مشايخ المريدية وأقارب للمغفور له .

محمد المصطفى سرّ الوجـود لدى عيْن الشهود بلا ريب وبهتان
عليه من ربّه أزكى الصلاة كما يرضى ويرحم موتى أهل ايمان

وبالختام نقول اننا نرجو أن يجمع يوما ديوان الحاج محمد بن زبير كله وتجمع أيضاً جميع كتبه إذ هو من فحول شعرائنا وكبار كتّابنا فأطال الله عمره ونفعنا بعلومه وبركاته آمين .

الشيخ محمد جُولْدِ بن عمر بن زبير

هو محمد بن عمر بن زبير من كبار مشايخ كَاسَمَنْسَا وهو في قيد الحياة في قريته اِيلِيَّاء وقد كان يجاري في الشعر الحاج محمد الامين بن زبير .

قال محمد جُولْدِ يخاطب خاله ان يزوجه باحدى ابنتيه بركة أو حوّاء :

حوت قلبي المتيّم بنت خـالي أشبّه مرطها ببرود خـال
حوا أحوى هـواي ولا كحوّا خذولة ربرب بقفـا الرمال
احنّ لحبّها كحنـين بـكـر مصقلة تـزمـم للرحـال
أنادي كلّما نـادى المنـادي فلا تذهب بها يا ذا الجلال
سأخطبها كمجنـون ليـلـى[1] وغيلان[2] لـيـة في الأيـال
أخال بأنّ خـالي لا يـبالي خيالي في المقـال وفي الفعال
إلى التجـان أحفز هـذرمـاتي فتى الفتيان مشحوذ النبـال
سمعت بما شدوت وعشت دهرا فنعم الكفء كنت وذو الجمال
عليك بملجـا الضعفاء خـالي براحة رايـة أرمي جبـال
فان هو ردّ رأيك فارددنـه فان هم زوّجوك فلا أبال

---

(١) مجنون ليلى هولقب قيس بن الملوح ، التقى بامرأة اسمها ليلى ونحر بعيره ليخطب ودّها فأحبته ولكن أباها زوّجها إلى غير قيس فجن الشاب وذهب يتيه في الصحراء ويتغنى بحبه لها إلى أن مات .

(٢) وغيلان لمية من أشهر الشعراء العشاق .

أتعرف من عنيت باسم خالي   هو الاستاذ ذو تاج اللآلي
أبو حوّاء أحلم من يصلّي   خليفة من يدبّ على النعال
فنحن وأهل شيج واهل مانا   بشرعته نعامل بالرجال
بحق قلت والرحم المرجي   وعمري والنبيّ وذي الجلال

وخاله هذا هو الحاج محمد الامين بن زبير ، وقال أيضاً في ذلك بحرا ومعنى كما يلي :

لقد خفقت لنصرتنا اللواء   وحان الفوز وانقشع الحياء
من الأستاذ آمل كل يوم   جوابا ما يكون به الشفاء
إذا نزل السخاء بدار قوم   يساعد من يؤمهم القضاء
إذا اعترك الاحبة في فناء   يشتت جيش جمعهم الوفاء
أسارع في هوى لكن   بما يرضاه والدها أشاء
فنوا بالتشاور والتراضي   سوى ما لا يطابقه الرجاء
إذ عض الزمان بكف قرم   باخوته يكون له الدواء
فجد من فيض جودك يا ملاذي   جوابا لا يكون به الاباء
أشاء بما يشاء واتقي ما   يسوء ولا يشيع به الثناء
إذا اختلفت أقاول في حديث   تساقا عن سرادقه الاخاء
إذا ازدحم الرعاة على طويّ   تشابك في ركيّهم الدلاء
يقربني لك الرحم المرجى   ومعرفة التجاور والولاء
إذا الخطاب ازدحموا وزاروا   وضاق على كفيتهم اناء
هناك أغوص دستك بالقوافي   إذا الخطاب اعوزها الهجاء

وفي ذلك قال أيضاً يخاطب ابنه محمود بن أَلْفَا مُحَمَّد :

يا دار حوّاء جودي بالتحيات   حيّاك ذو العرش جبار السموات
لله ما هجت من شوق وقد بخلت   أم الغزالة كاسات التحيّات
تشقي حشاشة مؤود بريقتها   سهل الخليفة من هاك ومن هات
لو كان يجدي فتيلا من تناولها   طعن الرماح وارنان الرشيقات
لو كنت أرجو وان شطّ المزار بها   برشفة أشتفى منها فهيهات

إلى ابن خالي ارسالي بمالكة ... محشوة بخلاصات السلافات
لله درّك من حبر وقد رسخت ... بمهجتي حبكم شوقا للأبيات
ابلغ سلامي إلى الأستاذ من شهدت ... له الملوك وأصحاب المروآت
بأنه الرحمة المهداة من قدم ... حامي الذمار بآداب سنيّات
يا قوم عوجوا الهنا الشيخ واحترموا ... وعظموه تنالوا كل خيرات
ثم الصلاة على الهادي وشيعته ... والآل والصحب طرّا ثمّ زوجات

قال جُولْدِ : « فهذه أولى القصائد إلى الخال أبي حوّاء المشهور :

خليليّ عوجا عند مأوى الأقارب ... تحيي على الأتراب ميض الترائب
خليليّ هل صبر بصك النوائب ... أم الوجد اجدى عند فقد الرغائب
وهل يكتم النحرير بالعشق والهوى ... مخافة ان تشربه لومة عائب
أخلاق تبليغ الرسالة واجب ... عليكم وان شطّت مسافة راكب
إلى السّائس النحرير من جدّ جدّه ... ومن صيته أعلى بروج الكواكب
حلفت برب العرش والفرش والتي ... يخر لها بالرهب شيب المشارب
بانجيل والفرقان والصحف والذي ... تلاوته من عند موسى وكالب
لقد خفت ان أفشي الصبابة عفّة ... بحوّاء لكن تلك ضربة لازب
عليك رجائي أيها الخال بالمنى ... فهل لك من مسترشد الرأي حاطب
إليك مددت الكف لمسترهب التي ... بآبائها يروى صحيح المذاهب
فهل لك أن تلقي إلينا زمامها ... بنقد صحيح من مهور النجائب
عسى الله ان يستنتج الفوز عندنا ... بيمن وفأل من صميم المآرب
نزورك الحافا لعلّ مرادنا ... يتاح بحر جوج السراسف شازب
فلست أحاشي ان ساجل باسمها ... بشوس طواط أو غلاظ المناكب
بجاه رسول الله أرجو وسيلتي ... سلالة مجد من لويّ ابن غالب
بيمن أبي العباس أحمد من له ... إذا جتيب بالأهوال عذب المشارب
فان حالت الاقدار وانقذت القوى ... فلا بأس فالسلوان سيف المصائب
فقد نلت قدما من جداك جداية ... اعزّ على المشتاق من أوب آئب
فخذه مقالا من فقبر مؤانس ... جهينة أخبار القرون الأجانب
شج القلب وابن الأخت من لا تشوقه ... زخاريف هذي الدار شهم الشوائب

قويّ بتجميع الضرائر غـافـل   بريبة حار ذائـد الجور ذائـب

قال محمد جُولْدِ : لما أراد رجل ان يغصبه أرضه مكرا :

لقد حيّاك بركـة ذو الجـلال   وزاد جمال وجهك ذو الجمال
وسقتك وان بخلت على حديثي   ملائكة الكرام من السجال
وابركة هـل سمعت بما أقاسي   من الأنذال من أجل الجدال
بعيشك هـل رأيت بعبقـريّ   يعـادي بالحمير وبالبغال
سألتك بالذي أعطـاك قلـبي   وجاء أباك روحي بالخصال
أحقا قد نكحتـه برغم أنـفي   بميمون الطوامـع ملرّجال
صبرت فسيمتي صـبر جميل   أجامل بالمقـال وبالفعـال
صبوت بقلب صوفيّ تـقـيّ   جرحت شغافـه خرق النعال
أبركة هـل سمعت بأنّ ذئبـا   أغار بسرح مشحوذ النبال
فبينا استفيـض بمشكـلاتي   إذا الجنديّ يهتف بي تعال
فقمت إليـه أرفـل باختيـالي   أميد كمشية البطـل المغال
فناولني بمصحفـة وجـاهـا   فقال خصومة لأبي المعـال
فقلت قيـامة قـامت وحاقت   فقال فـلا وحقّك لا تبال
فقلت وأيّ سـلطان تحـدّى   بسيد معشر شـوس طوال
فقال حزقّـة يدعوك قـهـرا   ليغصب ما لديك من النوال
فكدت أموت غيظا مـن سفيه   ينـازعني بممسود الحبـال
فلولا مـا حذرت بلـوم خالي   طعنت وريده بظـبي النبـال
تـراه كأنـه ضبـع طريـح   بمزبلة يجر عـلى الرمال
فلا غفر الإلّه لـه بـذنـب   ولو صلّى وصام مدى الليالي

وقال جُولْدِ أيضاً في الحاج بَابَ عام زَار كَاسَمَانْسَا :

لقد سـقيت عصبتنا سـجالا   من البركات تفتعـل افتعالا
لقد حيّـاك خالقنـا تعـالى   ومدّك ما جبت لنـا خصالا
وزاد بجـاه جـاهك مستغيثا   مع الثقلين مؤيّـدة عضالاً
كأنّ النـاس عين تمـرّ فيهم   رفـاق الحاج ابتصروا الهلالا

أبوك الخطب سادَ بكل أرض — وجدّك جدّه جدّ الجدالا
فحسبك أنت مـن عيصين فرد — أبوك أبوك خالك نعم خالا
فيا لـك خصلة قد فزت منها — أواصر قـد وجدّت لها مجالا
طفئت الحرب كدنـا نصطليها — وأرحام فتلت لهـا حـبـالا
وفقت وفـزت بالقـدح المصلّى — ورضت لنـا الأرامـل والرّجالا
بأرت بمـا بنيت على احتفـال — لدى الروضين مصطبحا فعالا
هنيئا مـا ظفرت بـه مريئـا — وعشت بلطف من نصب الجبالا

ولمحمد جولد بن عمر بن زبير شتّى قصائد أخرى غير أنّ ما قد سبق من نظمه حملنا على شاعريّته ومواهبه مع الحاج محمد الامين بن زبير بكُلْدًا وابن عمّه جُولْدِ بِإيلِيَاء نحن في كَاسَمَنْسًا فلنبق بها ونذهب إلى بلدة دَارِ ٱلْخَيْرِ .

مدرسة دار الخير

الشريف محمد شَمْسُ الدينِ بْنُ الشيخِ المَحْفُوظِ

ألّف الشريف محمد شمس الدين ثلاثة كتب وهي كتاب « قصّة الأمجد في حياة الوالد » ـ وهو سيرة أبيه الشيخ المحفوظ ـ وكتاب « أحسن المفيدة في الجغرافيّة » وكتاب « هدى المهتدين المسمّى بحياة الشريف محمد شمس الدين » سيتيح لنا الكتاب الأخير أن نتعرّف إلى السيد الشريف محمد شمس الدين الكبير بدار الخير في كَاسَمَنْسًا السنغالية . قال المؤلف في التوطئة الأولى : « فيعلم الواقف على هذه السطور بأن سبب تأليف هذا الكتاب هو اسعاف طلب واحد من اخواني لمّا استغرب ما سمع منّي من بعض النكت التي جرت بيني وبين الناس واستحلى ذلك جدّا ثمّ حثّني بجمع ذلك كله في كتاب . فشمرت عن ساعد الجد والاهتمام فأجبته إلى اعطاء سؤاله ممّا يحتاج إليه من غير اقتصار عليه فهذه جملة من النعم والأخلاق التي تفضل الله تعالى عليّ وكان ذلك من جملة شكر نعمة الله تبارك وتعالى التي تفضل عليّ وقال تبارك وتعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

وقمت على تأليفها لأمور :

(أحدها) ليقتدي بي اخواني فيتخلقوا بها ويشكروا الله تعالى على ذلك وفي الحديث « من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله » . (وثانيها) : اعلام أهل عصري

بدرجة الاشياخ ليقتدوا بهم وتعريفا بحالي فانّ طريق الاشياخ محررة على الكتاب والسنة . (وثالثها) دوام شكر الله تبارك وتعالى بعد موتي مدّة بقاء الكتاب كما قيل « ما مات من أحيا علما » (ورابعها) تحدثنا بنعمة الله تبارك وتعالى على الاخوان والتحدث بالنعم شكر لا افتخار على الاقران وقال تبارك وتعالى في كتابه العزيز « وقليل من عبادي الشكور » لأنّ العباد مع كثرتهم وكثرة ما أعطاهم الله من النعم قليل منهم الذي يشكر الله على نعمه ... أما بعد فلكل شيء صناعة وصناعة التأليف هي صناعة العقل وبالعقل تعرف حقائق الأمور ، ولولا العلم لكان الناس كالبهائم ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير فانّ سيرة الأولين تهدي بالضرورة فهما وحكما إلى المنافع الدنيوية والدينية وتضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره أخبار الماضين وما جرى لهم فيتخذها وسائل وتنبيها للآخرين قال تبارك وتعالى « انّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل داء دواء ودواء القلب العقل ولكل حرث بذر وبذر الآخرة العقل ولكل شيء فسطاط وفسطاط الأبرار العقل » وقيل انّ الفصاحة والبيان أزين ما تحلت بهما الأعيان قال الله تعالى « الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان » وقال عليه الصلاة والسلام « ان من البيان لسحرا » وقال سهل بن هارون البيان ترجمان اللسان وروض القلوب ويقال بالفصاحة والبيان استولى يوسف عليه السلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الجَلِيّ من أمره والمستور فانّ العزيز لما رأى فصاحة لسانه وحسن بيانه أعلى مكانه وأعظم شأنه « وشرف اللسان من خصائص الاحسان » (قالوا) اللسان جوهر الإنسان من خصائصه انّ الله رفع قدره على سائر الأعضاء فأنطقه بتوحيده وألهمه لتمجيده (ومن خصائصه) انه أداة يظهر بها البيان وظاهر يخبر عمّا بطن في الجنان وحاكم يفصل بالخطاب وناطق يردّ الجواب وواصف تعرف به الأشياء وواعظ ينهى عن الفحشاء وشاهد يسأل به الغائب وشافع تدرك به المطالب ومونق يلهي الخاطر ومؤنس يزيل وحشية النافر ومعز تسكن به غلة الخليل ومزين يدعو إلى الجميل وزارع ينبت الوداد وحاصد يذهب الضغائن والاحتقاد » .

ثم قال الشيخ شمس الدين بالواجب على كل مسلم أن يتبع شيخانا صحا

مرشدا » فيسلم نفسه لخدمته ... ويعرف الشيخ مريده كيفية الرجوع إلى سيده ويدلّه على الطريق المؤدّية إلى رشده ... وليكن في كريم علمكم أنّي في خدمة شيخي [1] ليلا ونهارا ومن خدم الاشياخ خدم وكان شيخي رضي الله عنه يرسلني لبعض حوائجه وتارة لطلب الهدية وأمرني بالسفر إلى أرض البرتغاليين في سنة ١٣٤٠ هـ يوم السبت عشرون من ربيع الأول موافق سنة ١٩٢٢ العيسوية . وأنا إذ ذاك ابن سبع عشرة سنة ونصف لأنّي ولدت في يوم السبت الحادي عشر من رمضان سنة ١٣٢٢ هجريّة » ولهذا الكتيب ٥٧ صفحة وما هو إلا نوع من رواية إذ دوّن الشريف شمس الدين كل ما لقي من واقع في جولة قام بها خلال منطقة كَاسَمَانْسَا وغينيا بسا وإذا هو أشبه جريدة السّفر في الحقيقة ولم يقل فيه فتيلا من حياته مع قوله في العنوان غير أنّنا نستطيع أن نلتقط منه بعض حكم وفكر ومواعظ قالها المؤلف مستنتجها من كل حكاية أو أمر أو حادثة عاشها في سفره وفي بعض الأحيان ذكر فكره من القرآن أو السنة وأهل النظر في الإسلام وذكر بيتاً من الحكمة لشاعر . قال الشريف : « العجلة مفتاح الندامة وأول الحزم المشورة ولكن إذا قوي العقل كثر يقينه ... والعين باب ترجمان القلب فما كان في القلب يظهر في العين ... انّ لسير الناس في الحياة سنناً يؤدّي بعضها إلى الخير والسعادة وبعضها إلى الهلاك والشقاء وان من يتبع تلك السنن فلا بدّ أن ينتهي إلى غايتها سواء كان مؤمنا أو كافرا ... وقلت في نفسي رأس الدين صحة اليقين مع علمي يقينا ان لكل مرض دواء إلّا الغرور والعاقل من وعظه التجارب وجليس الخير غنيمة وجليس السوء شيطان والرضى بالقضاء واجب ودواء القلب في القضاء وكل إنسان يميل إلى شكله ... ولقد أحسن من قال استعذ بالله من شر الناس وكن من خيارهم على حذر فأحرى النساء وقال تبارك وتعالى « انّ كيدكنّ عظيم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بلاء من السماء إلا وسببه النساء ... والإنسان الحرّ لا تكون رآسته امرأة ... انّ ميزان المرء قلبه والطبيب مطمح أنظار

---

(١) كان اخوه محمد الفاضل شيخه هذا بعد موت ابيهما الشيخ المحفوظ فقال : « بايعته مبايعة الوالد وجعلته كوالدي وشيخي وكنت معه كالعبد مع سيده » .

كل إنسان رفيعا كان وضيعا وهو ركن عظيم في انتظار حال البشر وبالطب صحت جسوم الناس من سقم وبالأطبّاء أضحى الكون معمورا ... من استخفّ بشريف دلّ على لؤم أصله مع أنّ التدبير نصف المعيشة والجمال في الرجال اللسان ... إذا صحّ الودّ سقطت شروط الأدب ... حسن العهد من الايمان والجاهل لا يفيق من جهله ما دام الطمع غالباً عليه ربّ حال أفصح من لسان ... انّ آفة المرء خلف الوعد وبلاء الإنسان من اللسان وقيل لسانك أسدك قال الشاعر :

احفظ لسانك لا تقـــول فتبتـــلى انّ البـــلاء موكـــل بالمنطـــق

... وطاعة اللسان ندامة ... اعلم ان زينة الباطن خير من زينة الظاهر والحقد مفتاح كل شرّ ورضى الناس غاية لا تدرك ... قيل كن حكيماً لأنّ الحكمة تنير سبيلك وجاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ... واعلم أنّ كل نعمة عليها محسود ... فحق على كل عاقل أن يحقر عمله من حيث هو ولا يرى له مقدارا ويرى المنة لله تعالى الذي شرفه بذلك العمل ويسره له ... ان الطائف من شيطان هو الغضب لعله يزول عنه الغضب وهلاك المرء في العجب والصبر مفتاح الفرج ... العزيمة لنا والقضاء لله والحبّ كالموت يغير كل شيء ... وأصعب شيء أن يعرف الرجل نفسه والدنيا ساعة فاجعلها طاعة ... إذا بذل شخص جهده في شيء ولم ينجح فلا تلمه ... ولا يفهم الشبعان معنى الجوع وأيسر شيء الدخول في العداوة ... انّ اللسان قيمة الإنسان فمن قوّمه زادت قيمته وخير الكلام ما قلّ ودلّ ولم يطل فيملّ وقال لقمان المعروف : كنز فانظر من تودعه ومن آثر اللهو ضاعت رعيته وطاعة اللسان ندامة ... من نصحك أحسن إليك والحكمة أحسن مزيّة وكل فتاة بأبيها معجبة ... انّ كثرة الاخوان معونة على حوادث الزمان ... انّ الحيلة قد تمت وقالوا بالحيلة يستنزل الطير من جوّ السماء ويستخرج الحوت من جوف الماء وربما كانت الحيلة وسيلة إلى درك المطلوب والجبن خير أخلاق النساء وشر أخلاق الرجال وإذا حلت المقادير ... فالشجاعة من أعظم الفضائل ولهذا جعلها القدماء من أمّهاتها وهي غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده « ان الله يحبّ الشجاعة ولو على قتل حية » أما الضعف والجبن فهما رذيلتان من شر الرذائل لأنّهما قد تصاحبهما في نفس صاحبهما آلاف الأوهام والخزعبلات » .

وبهذا الدّرر من الحكمة خاض شمس الدين غمرات تجارب وغاص عليها وكل ذلك جعله ممتعا وجعله مثير اهتمام كلّ ما وصفه من أخلاق القبائل التي لقيها في سفره وكلُّ ما عاشه من حوادث في شتّى قرى عبرها ومن أمور استنتج منها تلك الدّرر الحكميّة . ولنا في إيفَانْ مخطوطة هذا الكتاب .

أمّا كتاب أحسن المفيدة في الجغرافية فقال الشريف شمس الدين في أوّله : « جمعته ليكون مرشداً للطلاب في استيعاب حقائق (جغرافية) أرض (كَاصَ مَاصْ) ومعرفة مساحة الاقليم وعدد سكّانه وجنسهم وأصلهم وكثير من عناصر مناخه ومن غلاته النباتية والحيوانية وغير ذلك من المعلومات (الجغرافية المفيدة) ... فرحم الله تعالى من عذرني في العجز عن الوفاء بما حاولته فانّ أعقل الناس اعذرهم للناس ولا أقول ان كل خطإ سهو جرى به القلم بل اعترف أنّ ما أجهل أكثر مما أعلم وما تمام العلم الا لمن علم الإنسان ما لم يعلم قال الشاعر :

دعيني أجدّ السعي في طلب العــلى فأبلغ سؤلي أو أموت فاعذرا

ولما كانت دراسة علم الجغرافية لا تتم فائدتها الا بوجود كتاب يعاين للطلاب مواقع البلاد وأشكالها وطرقها وقصورها وغير ذلك حيث يمكنه ان يعتبر نفسه من السّياحين المتجوّلين وهو جالس على بساط الراحة ان نظر في الكتاب النظرة الكافية (الجغرافية) وهي جغرافية لبلدنا الامين الذي نسكنه نحن وآباؤنا من قبلنا فمن الواجب اذن على كل أحد من الاخوان أن يعرف (جغرافية) وطنه وان يحب وطنه العزيز ويبذل جهده فيما يعود عليه وعلى أهله بالنفع والخير ويخدمه بكل ذمّة وصدق ويفديه بروحه متى دعت الحاجة إلى ذلك.

فلا شيء أنفع للإنسان من معرفة الجغرافية إذ هو يعرفنا حقيقة الأرض التي نحن ساكنوها والدنيا التي نحن أهلوها . أليس من العار ان يجهل الإنسان زوايا داره ولا يعرف كلّ ساكن بجواره ؟ فاذا كنت مالكا لقطعة أرض مثلا أفلا يلزمك أن تجتهد في معرفة ما تشتمل عليه من ينابيع وغدران ومستنقعات وغير ذلك ومعرفة مواقع البلاد المختلفة وأبعادها عن بعضها وأنواع حاصلاتها وأجزاء الأرض التي حثه الله على السير فيها والتأمل في أنحائها وغير ذلك من الفوائد الجليلة التي تعود على الإنسان بما قدر حيث قال تبارك وتعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر

وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ... وقال عليه الصلاة والسلام « سافروا واتضحوا وتغنّموا » وقال : « الحركة والود والسكون عاقر » . فينبغي لكل عاقل أن يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لأهلها من الأحوال والعادات وغير ذلك . وقال تبارك وتعالى « فسيروا في الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فسيروا في الأرض واستقروا ما حل بالأمم يحصل لكم العلم الصحيح التفصيليّ بذلك وهو الذي يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم ومعرفة تلك الأمور مع الاعتبار بها كما ينبغي . نعم ان النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة يهديه إلى تلك السبيل ويفيده فائدة اعتبار ولكن دون اعتبار من يسير في الأرض بنفسه ويرى الآثار بعينه ولذلك أمر بالسير والنظر ثم اتبع بذلك بقوله « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » ... فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم الماضية اليوم إلى ما فيه من سعة العمران وأعزة السلطان وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة الخلق هو المرشد الثاني ... وبالجملة فالتاريخ مرآة الاعصر الغابرة والحاضرة به ينير العقل ويحيي القلب ويلجم الارادة ويدعو إلى المقاصد الحسنة وهو نور الحق وحياة الذكر ومدبر الحياة ورسوم القدم فيه معرفة أحوال الأمم وبلداتهم وعاداتهم وأعمالهم المادية والأدبية وصنائعهم وأنسابهم إلى غير ذلك فتعبر بأحوالهم الماضية والتنصح بها ... فالتاريخ يكسب صاحبه النباهة حتى يفوق أمثاله واشباهه فيحوز المراتب العلية ويفوز بالمطالب السنيّة . نكتفي الآن بهذا التنبيه ونعود إلى الجغرافية .

« الجغرافية وأقسامها »

علم الجغرافيا هي وصف سطح الأرض وما عليه من بحار وجبال ومدن وسكّان وحكومات وما شابه ذلك . وتسمّى عند العرب (تخطيط الاقاليم أو علم تقويم البلدان) ليعدّ الدعاة لكل بلاد منها عدتها إذا أرادوا السفر إليها وقد كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم أهل زمانهم بالتاريخ ويسمّى الآن بتقويم البلدان وبالجغرافيا . ولذلك أقدموا على الفتوح ومحاربة الأمم فانتصروا عليهم بالعلم

لا بالجهل فلو كانوا يجهلون مسالك بلادهم وطرقها ومواقع المياه وما يصلح موقعا للقتال فيها لتعبوا وكان الجهل أول سبب تعبهم ومن قرأ ما حفظ من خطبهم وكتبهم التي كانوا يتراسلون بها ومحاوراتهم في تدبير الأعمال يظهر له ذلك بأجلى بيان وينقسم إلى أقسام كثيرة كل منها مستقل بذاته أشهرها :

– الجغرافية الطبيعية .
– والجغرافية السياسية .
– والجغرافية الاقتصادية .

ثم طبّق هذه المبادئ كلّها على أرض كَاسَمَانْسَا بعد أن يحدّد مكانها في السنغال وموقع السنغال في افريقيا . ومن الملاحظ ان تلك المبادئ تتّفق والنظرية العلمية العصرية في هذه المسألة وأما تحديد المؤلّف السنغاليّ للجغرافيا وللتاريخ فقلّما نجد تحديدا أكثر منه مطابقة للعلم الحديث وأشدّ منه ايضاحا وبيانا واشتمالا . ومنهاجه ذو ايضاح وبيان أيضاً فانظر كيف بدأ تأليفه « وقرية المؤلف الشريف محمد شمس الدين بن الشيخ المحفوظ بن شيخنا آب بن الشيخ محمد فاضل بن مَامَيْنِ (الادريسي الحسني) تسمّى (دار الخير) رجاء من الله تبارك وتعالى وجود الخير في الدّارين بجاه أفضل الثقلين سنة (١٣٥٥ هـ) موافقة سنة (١٩٣٧م) المسيحية مع أنها قرية صغيرة منعزلة عن المدن بعيدة عن ضجّتها وضوضائها جُلّ سكانها مواريد منشمّرون عن ساعد الجدّ يحبون العمل ويفضلونه على البطالة والكسل لأنّ العمل يبعد عنا ثلاثة عيوب العداوة والرذالة والحاجة [1] ولهذا أحبّهم وسأظل مقيما على حبّهم وسأخدم قريتي وأفديها كما أفدي لوطني بأعزّ ما أملك وأرجو لهم العناية من الله والتوفيق . (ودار الخير) في أرض كَاصَ مَاصْ في أعمال (بنحون) قريباً من قرية (جُلُّنْ) وأرض جُلُّنْ واقعة في منتهى أرض كَاصَ مَاصْ غرباً وفي جهة شمال خليج كَاصَ مَاصْ ومن احدى أقاليم المشرق

---

(١) قد قال وُلْتِيرْ الفيلسوف الفرنسي : « يُبْعِدُ عنّا العَمَلَ ثلاثة أشياء عيباً هَمّاً وحَاجَةً » وان لم يقرأ الكاتب السنغاليّ قطّ مؤلفات صاحب رواية (زَدِيْك) .

أرض سيّات وجنوبا خليج كَاصَ مَاصْ وقد قسم الفرنسيون بالقسم الجنوبي من خليج (هلهن) المفرع من بحر اطلانطق إلى خليج كَاصَ مَاصْ (ودار السلام) في مقاطعة (بنجون) قرية والذي بنيت في سنة (١٣٢٠ هـ) وهو الوطن الذي فيه ولدت سنة (١٣٢٢) هجرية وفي أرضه نشأت والوطن طينة المرء التي نبت فيها أصله ونما فرعه ونشأت حياته التي تغذت بهوائه واستظلت بكنفه ودوائه ومقرّه الذي تتجاذبه عوامل الشفقه عليه والحنين إليه إذا شطّ المزار وبعدت عنه الدار وكنه الذي يأوي إليه إذا نبت به البلاد ويتوسع فيه إذا ضاقت عليه الارباب والواجب عليكم أيها الاخوان أن تحبّوا وطنكم محبة صادقة وتبذلوا كل ما في وسعكم لخيره واعلاء شأنه ففي حياته حياتكم ولو متم وفي موته موتكم ولو حييتم .
وحب الوطن شعور نفسانيّ واحساس وجداني ليس بسلعة تباع وتشترى فهو أشرف خلق يتحلّى به الإنسان وأحسن شيمة ينطوي عليها الجنان وهو من أخلاق الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة المنورة يحنّ إلى وطنه مكة المكرمة حنيناً كثيراً مع انه خرج منها وهو غير راض عن أهلها لمعاداتهم له وايصالهم الأذية إليه حتى وعده سبحانه وتعالى بأن يربه ايّاها ويردّها إليها وذلك قوله تعالى « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (حبّ الوطن من الايمان) وإذ قال الشاعر :

بِلَادِي وإِنْ جَـارَتْ عَلَيَّ عَـزِيـزَةٌ ولو أنّي أعـرى بهـا وأجُـوعُ

فمن جعل نُصْبَ عَيْنَيْهِ محبة وطنه العزيز والعكوف على خدمته فقد رفع عماد أمّته وشيد ركن دولته . قال الشاعر :

وما المرء الا حيث يقضي حياته لنفع بلاد قد تربّى بخبرها

فحب الأوطان سلطان فوق كل سلطان وأثره لا ينمحى عن صفحات الجنان فكم بيعت في سبيله النفوس بيع السماح وكم رخصت دونه أرواح وغلت أرواح بل كم يرفع لِرَجُلٍ ذكرا كان خاملا ويشيد لأعمالهم أثراً ماتوا وظل باقياً (قال الشاعر) :

ولي وطن آليت أن لا أبيعـه وأن لا أرى غيري لـه الدهر مالكا

فسعادة الإنسان مرتبطة بسعادة بلاده ، والإنسان العامل في وطنه هو الأمة لأنّ الأمّة هي العمل ومن لم يعمل في وطنه فعدمه خير من حياته ومجد الوطن وسعادته ببنيه وبنوه بالتضحية والعمل حتى بلغوا الأمل والوطن أب رحيم شفيق نتقلّب في نعمه فهو أعز عزيز تسفك لأجله الدماء وتخضب السيوف وتخاض المعامع وتشعل الحروب وتباع النفوس وتقاد الجحافل وتدك الحصون وتنسف المعاقل (قال الشاعر) :

كفاني مفخرا أن أموت مجاهدا وحبّ بلادي قائدي منذ نشأتي

الوطن عائلة إذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً وإذا نزل بهم بلاء اقتسمه الواحد للجماعة والجماعة للواحد ، والفرد يفدي الأمة والأمة تحمي الفرد والوطنية أعظم سياج لاستقلال الأمة التي تصبح بدونها تحت رحمة العدو وسلطانه فالوطنيّ الحقّ لا يرى بلاده مهما أجدبت إلا جامعة للخير العامّ ولمنابع سعادته يشعر نحوه بكل انعطاف وحنوّ إذ يرى فيه ذكرى حياته الماضية كما يتمثل فيه آمال المستقبل (قال الشاعر) :

بلادي هواهـا في لساني وفي دمـي يمجدها قلبي ويدعو لها فمي
ولا خير في من لا يحبّ بلاده ولا في خليف الحبّ ان لم يتيّمي

ومن حبّ الأوطان ما حكى ان سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه فمنع أهل مصر أولياءه من ذلك فلما بعث موسى عليه السلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدسة وأوصى الاسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته : ما تشتهي قال : شربة ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر فأتت بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت : له هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك فشرب وشمّ بالوهم فنفعه من علته. وقال الحافظ كان في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه في جراب يتداوى به وما أحسن ما قال (القائل) :

بلاد ألفناها عـلى كل حـالة وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن
ونستعذب الأرض التي لا هـواءها ولا ماؤها عذب ولكنّها وطني

حق علينا أن نؤثر وطننا بكل ما أوتينا من جهد وقوة وأن نخلص له الحبّ ونفرح لخيره ونحزن لشره كما قبل أخدم بلادك أكثر مما تخدم نفسك لأنك فيها تعيش وبهوائها تسعد وبخيراتها تزهو على الاقران .

فبهذه النبذة النفيسة تتجلّى وطنية شمس الدين وصفته شاعرا وطنياً وقلّما نلقى أنغاما لحبّ وطن شابهت هذه الأنغام الرائعة الرخيمة وحبّذا لو أحبّ كلّ سنغاليّ حبّ الشيخ شمس الدين وَطَنَهُ وما أَحْسَنَ آراءه وأفكارَه في بلاده وما أَرْوَعَ ما استشهد به من أبيات شعراء الوطن وبعد ذلك وصف سطح أرض كَاسَمَانْسَا وشعوبها وأجناسها المختلفة كمَنْدِكَ وجُولَاتْ وكَرُونْ وتُكُلُوْر وفُلَانْ ووُلُفْ ومَنْجَاكْ والبَيَاضِين ثم وصف منتوجاتها وفصولها ومدنها وقراها المهمة ودياناتها قال في هذا الصدد :

« والدين الواحد في أرض كَاصَ مَاصْ هو الدين الإسلاميّ وهو الذي جاء به من عند الله خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشميّ القريشيّ صاحب الإسلام والحنفي .

وكثيرون منهم محافظون على عبادة آلهة أجدادهم وأكثر الأهالي المسلمين على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

وفيها العيسوية أو المسيحية يقولون بما أنزل على عيسى ابن مريم وفيها المجوسيون الذين يعبدون أصنام أوائلهم وأصنامهم من أشكال وتماثيل من أحجار أو خشب تمثل أشخاصاً أو بعض الحيوان أو الطيور .

وأكثر أعمال علماء الأرض الآن ترك الاهتداء بالكتاب والسنّة واستبدال الأقوال بهما وتغيير الدين بزخرف القول وتزيين أقبح المنكرات جعلوه سبلا يتشيعون منها الطرق بين أصحاب الأوراد والاحتفالات بالموالِدِ وغير ذلك . وبهذا قطعت الصلة بين ما نحن فيه وبين أصل الدين ينبوعه ولا يشهد لجميع هذا البِدع كتاب ولا سنّة ولهذا سقط المسلمون فيما سقطوا فيه .

ثم ذكر المؤلف الأعياد عندهم ثم عاد إلى التاريخ وفوائده وإلى العلم والاختراعات التقنية مثل الكهرباء وفوتغرافيا والتلغرافيا والتلفون والتلغراف الهوائي

والمذياع ثم نصّ على سكّان كَاصَمَانْسَا واختلاف لغاتهم وأصلهم وحكم أهل السوادين ونسبهم وأول من نزل في أرض كَاسَمَانْسَا من الزنوج ثم ذكر حِرَفَهُمْ وعوائِدَهم وتاريخهم قبيلة قبيلة إلى وصول البرتغاليين والانكلزيين والفرنسويّين والمجاهدين المسلمين .

ثم تصدّى للجغرافيا الاقتصادية مع وصف الأنواع الأربعين من الشجر ومنافعها وميدان التجارة وفي الختام قال « والحق به حياة الأمة الافريقية بعد استقلال الحرية والخروج من الرقّ والاستذلال والعبودية إلى السياسة الديموقراطيّة والحمد لله على الحرية » ابتدأ هذا الجزء باعتبارات سياسيّة وبأفضل صورة حكومة أي حكومة ديموقراطية وله فيها أفكار رائعة جدّا لم نجد مِثْلَهَا قطّ تحت قلم كما قال الفرنسيون وتحدث في الحرية طويلا وفي فوائد الاتحاد والتعاون وعوامل التربية والتعليم والدين الإسلامي والعلم ثم ختم كتابه النفيس هذا بما يلي : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الآية . فصار الناس كلهم كالانعام « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يسمعون النصائح النافعة ولا يبصرون الغي من الرشد » .

أهكذا دين الإسلام تيقظ الناس ونحن نيام ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذوب النار » وإلى الله نتوجه ضارعين ان يكون عوننا على السير جميعاً في خدمة وطننا والسعي في الصالح العام لأمتنا على الوجه الأكمل وان يجعل رائد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها الاتحاد والتعاطف حتى تتحقق مطامعهم وينالوا ما إليه يصبيون » .

وينبغي لنا أن نعود إلى الكتاب ونورد بعض أفكار ذات بال مثل هذه : « فيجب علينا وعلى جميع الأمة الافريقية صغارنا وكبارنا ان نتسربل بسرابيل القوة والعزة لتكون حقوقنا محفوظة وحرمتنا مصونة مع حفظ الأمانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل لا نواخذ من جانب ديننا ولا نغتال من جانب دنيانا بل نبقى أعزاء الجانبين جديرين

بسعادة الدارين وان نوقف قلوبنا بالاتحاد وهمتنا ومطلوبنا وساداتنا وأهل السياسة الجميلة الافريقية .

« وليس من الحكمة ولا من العدل ولا المصلحة أن يسمح للاخوان التصرف في شؤون الأمة ومصالحها وان يفتات عليها في أمورها العامة بغير علم وإنّما الحكمة والعدل في ان تكون الأمة في مجموعها حرّة مستقلة في شؤونها كالأفراد في خاصة أنفسهم فلا يتصرف في هذه الشؤون العامة إلا من يثق به من أهل الحل والعقد المعتبر عنهم المتمسك في كتاب الله من أولي الأمر وأثبت أنهم أهل الحل والعقد ... والواجب تفويض مثل هذه الأمور العامة إلى الإمام الأعظم والقائد العامّ وإلى أولي الأمر من أهل الحل والعقد ورجال الشورى لأنهم هم الذين يستخرجون خفايا هذه الأمور ويعرفون مصلحة الأمة فيها وما ينبغي إذاعته وما لا ينبغي .

« فهل من الانصاف أن ننازع أولي الأمر في أمر من الأمور لأننا ما رأينا فيهم الا اجتماعهم على السياسة الافريقية الجميلة التي تستوجب شكرا لا نقوم به ونشكرهم عليها غاية الشكر .

« وقد وافوا ما وجب عليهم في جنابهم العالي من تبذيل خدمة وطننا والسعي في مصالح العامة للاستقلال لافريقية والخروج من عذاب العبودية والرق والاستذلال .

« وقد أدّوا حق التأدية ما يستوجب المدح الذي يتداول في أفواه الانام لأمثالهم الذين يبخل بهم الزمان .

« فالله يجازيهم عن المسلمين بأفعالهم السنيّة وطويتهم العلية في بذل تلك الخدمة النصيحة الغرّاء واشاعتها في جميع الأقطار البعيدة والقريبة على العدل والحريّة والسياسة (الديموقراطية) ليكون الافريقيون على أعلى المقامات فيما يخص المستعمرات المجتمعة الجنسية الافريقية ويكونون متساوين في الحقوق كائنا ما كان أصلهم أو جنسهم أو دينهم وكذلك الواجبات متساوية بينهم » .

« ... ان الإنسان لا قدرة له على استيفاء الحاجة الضرورية بمفرده ولا استطاعة له على تكميل لوازمه الذاتية بنفسه بل لا بدّ له من معاونة ومساعدة قوم كثيرة

العدد يتمّ بهم ما ينقصه إليه في حياته . فما خلق الإنسان ليعيش وحيداً لأن بطبعه يَمَلّ إذا لم يجد بجانبه أنيسا يحادثه ولذلك يسمّى انسانا أو جليسا يبين إليه شكواه أو صديقا يواسيه ويسليه فالإنسان للإنسان كاليد تتواسل باليد والعين تستعين بالعين بل هو ساعده وعضده فيقوم الرجل بتحصيل الغذاء وتقوم المرأة بتدبير المنزل ثم يتعاونان : الاثنان على تربية أولادهما وتثقيف عقولهم لأن الولد يجب تربيته من صغره وتعليمه ما ينفعه في دينه ودنياه . ثم ألزمه صنعة يشترك بها مع غيره في تبادل المنافع حتى يتسنّى له ان يقوم بخدمة متى بلغ رشده وقوي عليها ويكون بذلك قد عمل لغيره كما عمل الغير له .

« ولا يترك اختياره لنفسه أو يتكل على ثروة أهله وشرف بيته فيخلد إلى الدّعَة والبطالة حتى إذا شبّ لم يجد بيده صناعة ولا وسيلة يستعين بها على الكسب ان أحوجته الضرورة إليه فانّ كرم الآباء وثروتهم لا يعتمد عليها إلا ساقط الهمة والمدار في كمال الإنسان على ما يدركه بأدبه لا بحسبه ونسبه .

« فالفخر في الهمم العالية لا الأمم البالية ومكارم الأخلاق أصدق نبأ من الاعراف والفنون على شرف الإنسان وكرم أصله هو ما يفعله لا ما يدعيه .

« فالملك يسوس البلاد بعدله والوزير يدبّر شؤون المملكة بحزمه والمشترع يسن القوانين واللوائح والمهندس ينظم والطبيب يعالج العلل والفلاح يفلح الأرض وهكذا من أحقر عامل لأكبر مخلوق تكون بينها الحركة دائمة متواصلة والعمل مستمرّا ولا يخطر ببال أحد ان هناك عملا حقيراً وآخر عظيماً فكل ما يؤدي إلى المجتمع فهو نافع لاعضائه والكبير يترتب على الصغير . إذا المجتمع كجسم إنسان لا يقوم إلا إذا قام كل عضو بوظيفة خاصة به فالعامل البسيط قد يرشد أمته إلى طريق جديدة الاتقان أي عمل حقير صغير لا يقبل في السعادة والمنفعة عن أعظم رجل أتى بما جعل شهرته تطبيق الآفاق لأن كليهما قد أفاق بني نوعه .

« وكل دولة ينبغي لها أن تكتسب الفضائل في تأسيس أركانها في أرض العدل أولا لينتفع بها آخر من يأتي وبهذا يتضح معنى قوله تبارك وتعالى « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة انّ الله سميع بصير » وكما ان الشخص الواحد يترقى

شيئا فشيئا ثم يستوي شابا ثم شيخا هكذا الدولة تَنْمُو فَتَشِبُّ وتَهرَمُ فتموت والله أعلم [1] ....

« ... ونسأل الله ان يوفقنا وساداتنا الافريقيين فيما هم بصدده من السياسة والنصح والاتخاد مهمتهم في سياستهم على الوجه الاكمل مع تضمن المساواة والحرية والعدل للأمة أفراداً وجماعات حتى يتم بذلك خلق « دِيمُوقَرَاطِيّة » افريقية بناءة يتفق مع ديننا الحنيف الذي جعل الناس سواسية كأسنان المشط ومع القرآن الكريم الذي جعل الأمر شورى بين المؤمنين وأمر نبيّه فقال « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » ومع التقاليد الوطنية التي لم تعرف من أنظمة الحكم غير امامة الإسلام القائمة على العدل والمعاملة بالحسنى للجميع ... ».

فانّ هذا النص الجميل العميق ليستحق تعليقاً طويلا عليه إذ تصدر عنه نظرية الاقتصاد السياسيّ .

وأما كتاب « قصة الأمجد في حياة الوالد » فغايته فيما قال الشريف محمد شمس الدين في مستهلّه : « وبعد اعلم أيها الواقف على هذا الكتاب أصلح الله لي ولك الحال ولجميع الأحباب أني قصدت به تسهيل معرفة وصول والدي الشيخ المحفوظ إلى أرض السوادين مع بيان بعض المناقب ليتم الكتاب على التبيان المبين » .

وفي توطئة قصيرة ذكر المؤلف أنواع سكّان كَاسَمَنْسَا ومنها بَيْنُنْكَ وَبَكَاوِ وتُكُلُوْر في ثلاث صفحات أتى بتأريخ وجيز لملوك تلك المنطقة قبل الاحتلال الفرنسيّ من أمثال أَلْفَامُولُ وابنه مُوسَى مُولُ وبُكَرْدُ مبُوْيَا وابنه فُودِي كَبَّا وابراهيم آنْجَايْ من جُولَا قرية مَرْسَاسُمْ وفُودِي سَلّ الامير المَنْدِيّ كَامْبِ و« يسمّى الناس هؤلاء مجاهدين وحربهم جهادا والجهاد هو حرب في سبيل الله بغير اعتباز فوائد الأفراد » ثم تصدّى للموضوع العام أي دخول الإسلام في أرض كَاسَمَنْسَا . قسم السكّان إلى قسمين من جهة الديانات فقبيلة بَكَاوِ هي مسلمة وقبائل بَيْنُنْكَ وجُولَا وبَلَانْتَ وغيرها هي عابدة الأصنام والأوثان .

---

(١) فانّ هذه النظرية في شأن الأمة تلحق بنظرية ابن خلدون في مقدمته الشهيرة .

ثم وصف النظام السياسيّ والاداريّ والخلقيّ عند أهل تلك القبائل قبل وصول الشيخ المحفوظ إليهم . ليس فيهم ملك يسوس مملكة غير انه على كل قرية رئيس مستقل بذاته ولم يشرك فيها غيره وكان لا يتزوج أحد إلّا في قبيلته بمن هم أقاربه محرما أو محللا . ومن مكارم أخلاقهم شجاعة وحبّ مفرط لأرضهم وتمسك شديد بلغاتهم .

ثم جاءهم الشيخ المحفوظ بالإسلام وهو من أحفاد الشيخ محمد فاضل . فأخذ يجوب في البلاد طولا وعرضا مدّة ثلاث وعشرين سنة منذ عام ١٨٧٧ م قبل أن يؤسّس قريته دار السلام سنة ١٩٠٠ م وقرية بناك عند أهل بالنت سنة ١٩٠٦ م .

ثم أقام شجرة النسب للشيخ المحفوظ وهو من أهل البيت اذن هو شريف وتحدث في مولده ١٠ من شهر كانون الأول سنة ١٨٥٨ م في أرض الحَوْض وسط الحلـة أهل الطالب مختار في البئر المعروفة بالمزيريف قريبة من نول بالجمهورية الإسلامية الموريتانية . قال « ولما بلغ سنين فر به والده آب إلى مدينة وُلَاتَ وأهلها أهل علم وصلاح وبركة وقرأ القرآن العظيم وحفظه في مدة ثلاث سنين على أجود قراءة وقيل انه عرضه على أربعين حافظا من حفّاظ تلك القرية فكان فوق ما يرجى وكعب له شيخه الاجازة وهو ابن عشر سنين وصرف همّته إلى الفقه ورجع إلى والده « وهو ابن ستّة عشر عاما ثم ارتحل الشيخ المحفوظ قاصدا عمّه الشيخ سعد أبيه ومكث عنده أربعة عشر عاما في أشد ما يكون في الخدمة » وتارة يسافر إلى الغرب وإلى تكن وإلى سمارة الساقية الحمراء عند عمّه الشيخ ماء العَيْنَيْنِ بن الشيخ محمد فاضِل في بعض حوائج شيخه وتارة في طلب الهدية في أرض السوادين ومع ذلك مجتهدا في القراءة » .

ثم رجع إلى والده آب فأمره أبوه بالذهاب إلى أرض السوادين لنشر طريقة القادرية عندهم قائلا له : « يا ابني اذهب إلى سبيلك فقد عفوت عنك » وأمره بالمسير إلى جهة أرض السوادين وقال له : « ظهورك هناك » فامتثل أمر والده فما زال يطوي بالمطايا المسافات حتّى انتهى إلى أحياء لم يعرفوه ولم يسمعوا أخباره وأخبار أهله « ثم سار إلى قرية تشيت ثم نزل في لحمنات قوم من مشظوف »

وتلمذ بعضهم عليه وأتوا معه إلى والده ويقال لهم أهل كريم بَلّ وأهل وَيس
« ثم قصد مدينة قاصّ ومدينة أنْيُورُ ونزل عند أحمد بن الشيخ الحاج عمر تَالْ
ومكث عنده أسبوعا ورحل إلى بَانَنْبِ فغَايْ » وتلقى مع « كُلُنِلْ أرْشِنَارْ » هناك
وتحدث معه ودفع له تسريحا ثم رحل إلى مدينة خاصّ ونزل عند رجل من
أولاد أنْدَرْ اسمه وَالِ بَهْ فأكرمه غاية الاكرام ثم سار إلى بافلب وإلى بسير سائلا
عن الطريق السابلة إلى الإمَامِ سَامُورِي تُرِى . « وذلك الحين الأمير سَامُورِي
كان معادياً الدولة الفرنسية لشجاعته وكثرة جيشه وعبيده مع ان الأرض أرضه
بيده » ثم قصد سكر وأرض الإمام سَامُورِي وأقام عنده سبعة أيام ثم وصف
مخاصمة الإمام لابنه جول كرم ونية قتله للشيخ المحفوظ . ثم رجع بالهدايا من
الذهب والفضة إلى الشيخ سعد أبيه الذي أمره بالمسير إلى السنغال فسار إليها ومرّ
بغَمْبِيَا وذهب إلى أرض يَانِ ونزل في قرية كَرَنْتَبَ ثم ذهب إلى فِرْدُ عند الأمير
موسى مُولُ ووجده في قرية حمد الله وذلك سنة ١٨٧٧ العيسوية ووجده في هم
ونكد وخوف من أمراء تلك الأراضي وهم : دَكُورْ وَدَنْسَا وجَبِيْرِ وجَالُكَ وبعضهم
اخوانه وأرادوا ان يخدعوه فتلقى الشيخ المحفوظ بالتبجيل فأعطاه ثمانمائة بقرة
وشيئاً من العبيد والمال فكتب له حجابا يجعله في وسط طنبور ويدفعه لأحد قوّاله
ويذهب إلى تلك الأراضي والمطلوب ملك تلك الأراضي وعهد له لا يضرب
الطنبور في وسط أرض إلا ملكها ... وهذا بعد وفاة والد موسى مُولُ . ومضى
الشيخ المحفوظ إلى أرض كَنَادِ ... وبنى داره في قرية بَكَوَا ثم رجع إلى أرض
يَانِ صَنْدَكَ أرض انكليز حينذاك ثم بنى داره في قرية نُودُ وعاد إلى جهة أنْدرْ
ثم مضى إلى الشيخ سعد أبيه ثم رجع إلى أرض كَابُ في قرية كَنَادُ عند الأمير
ألْفَا مَمَدْبَاتَ الذي أكرم مثواه فكتب الشيخ حجاباً له فأبعد الحجاب عنه ثلاثة
هموم : خرج ألْفَا يَحْيَى أمير أرض فُوتَ جَلُنْ بعساكره وجيوشه من كَابُ ،
وارتحل النصارى البُرْتُغَالِيُّون الذين أرادوا ان يذللوه ظلماً وأخرج ألْفَا مُوسَى مُولُ
من سجنه سِلٍّ كُبَادِ أخا ألْفَا مَمَدْبَاتَ وأكرمه غاية الاكرام وأعطاه هدايا نفيسة
وعبيدا .

« ودفع مَمَدْبَاتَ للشيخ المحفوظ ثلاثمائة وثلاث عشرة بقرة وعشرين عبدا
وبيتين مملوءين من لباس وكثيراً من الفضة لا أعلم قدر ذلك وجعل له في كل

يوم لقراه بقرنين واحدة عند الصباح وواحدة عند المساء مع كبش سمين مدة ثلاثة أشهر » .

فتحدث الشيخ شمس الدين في أمر ألفا يَحْيَى وقتله الفظيعة قد أخذه الفرنسيون من حيث لم يدر واغتالوه في تَجكْجْ بالجمهورية الإسلامية الموريتانية .

ثم ذهب الشيخ المحفوظ إلى أرض دَامَ في قرية بُشْرَى ونزل عند الأمير جِرْنُ ابراهيم جَلُّ الذي تلقاه بالاكرام ... وأرسل معه ابنه الكبير للتعلم بعد المبايعة اسمه جِرْنُ جَاوِ « ثم عاد إلى كَابُ فَمَرْسَاسُمْ ونزل عند مُلَايْ دَرَام الذي أكرم وفادته . ثم رجع إلى الشيخ سعد أبيه ثم عاد إلى أرض السنغال ومرّ بسَانْلُو ودَكَارْ ويَمبَاتُ وجُرْمُبَ في أرض كَمْبِ وبه أسلم أميرها . ثم ذهب إلى جُنْغُ ودعا أميرها إلى اعتناق الإسلام وهو أول من أسلم من أهل بُلُفْ . وقصد الشيخ المحفوظ جُلُلُ وتَمبَا كَنْدَا وبَرَامَ جَاتَ رئيسها تلقّى الشيخ بالتكريم ثم وافى أرض نَارَ وبنى بها قريته دار السلام الأولى سنة ١٩٠٠ م ثم قصد كَمْبِ فبُتْرَسْتَ بغَمْبيَا وعاد إلى موريتانيا ورجع إلى يُمبَاتُ وبَلَنْتَ وتَمبَا بكلم وهناك رحّب به جنك سمت . وقال الشيخ شمس الدين « ركب عامل بركار والشيخ المحفوظ مع بعض تلاميذه ونفر من عسكر النصارى في البَابُور من سيج إلى ان وصلوا إلى مرسى بَنَاكِ ونزلوا وعاينوا أرض بناك ورضي الشيخ المحفوظ بذلك المكان وكان ذلك مطلوبه ومناه ودخول الشيخ المحفوظ في أرض كَاصَ مَاصْ اولا سنة ١٨٧٧ عيسوية وقد قضى ثلاثا وعشرين سنة يدور في الأرض قبل بناء قريته دار السلام بين أرض موريتان وسدا وسنغا وغمبيا وكَاصَ مَاصْ وجَنَّ بُرْتُكِيسْ وبنى دار السلام بين بَيْنُنْكَ وجُولَاتَ ونَارَا وكُنْبُ سَرْكَلْ بَنْجُونِ سنة ١٩٠٠ عيسوية وبني بناك أرض بَلَنْتَ سَرْكَلَ سيجِ سنة ١٩٠٦ ووجد أهل الأرض ليس لهم دين ولا أدب ولا حرفة جميلة وبعد تمام البناء بالحراثة والغراسة والتجارة وغير ذلك مما لم يكن قبل مجيئه إليهم وبنى داراً كبيرة لعياله وبيتاً لخزانة كتبه ومخزناً للارز وللزرع ومخزنا للشاي والسكر المصباح ... وبنى مسجدا كبيراً في وسط القرية وله ثلاث مدارس ومدير كل مدرسة من البياضين الموريتانيين ... وكان رضي الله يعلم موارده الكبار بنفسه قبل اتيان المدرسين ... وأكثر ما يقرؤون في مدرستهم

القرآن وبعضهم يقرؤون الفقه وغير ذلك ومن عادة أولئك التلاميذ كانوا يستيقظون قبل الفجر مبكرين إلى المدرسة ولا يشتغلون الا بالقراءة ، وبعد القراءة يذكرون الله إلى ان يصلوا الصبح فيذهبون وينتشرون إلى الحوائج والخدمة كل يوم هكذا وسكّان الأرض كانوا جهلاء أغبياء ولا يعرفون أهل الفضل الا الصوصّات [1] ومجيء الشيخ المحفوظ إليهم أرقاهم بهمته العالية وببركتة الشاملة ومرنهم على الاشتغال حتى صاروا الآن يباشرون جميع الحرف ويتشبه بعضهم بأهل الفضل وأدخل فيهم دين الإسلام فهداهم الله على يديه وتلاميذه كانوا يحرثون الأرز والزرع والفجل والبقول والذرة وباقي أنواع المأكولات حتى انتشر ذلك فصار الناس يقلدونهم وقاموا للحراثة وقد اصطنع الشيخ المحفوظ في بَنَاكِ كثيراً من السّفن بين الصغار والكبار ودفعها للتلاميذ وصاروا يحملون في السّفن ما يجدون من المحصولات والامتعة للتجارة ويسوقون فيها الزيت والمطاط وغير ذلك . » ثم وصف تزوج أبيه ببنت للشريف يونس الذي كان في قرية صنديير والاحتفالات الفخيمة « كان الشيخ المحفوظ يذبح للزفاف كل يوم خمس بقرات ويعطي قفصاً من السكر وقفصاً من الطنبول وحملين من الخبز إلى اليوم الثامن » .

ثم أتى ببعض كرامات الأب في الطبّ قائلا : ومن كرامات الشيخ المحفوظ في قرية سيج كان تاجر كبير هناك في دار الكنباني اسمه لندن كنباي مشهورا بهذا الاسم وكانت زوجته كُنْبَاند تخيط فجعلت الابرة في فيها بعد فراق السلك فصارت تضحك ومن شدة ضحكها ملصت وخشت وارتشقت في حلقها فذهب بها أهلها إلى طبيب نصراني فقال لهم الطبيب لا قدرة لي على اخراجها إلا بشق عنقها فذهبوا بها إلى الشريف يونس وقال لهم اذهبوا بها إلى الشيخ المحفوظ وبعد وصولها إلى شيخنا الوالد أخذ شيئاً من الطعام وقرأ عليه البسملة وأمرها بأكله فأكلته فسقطت الابرة من حلقها مع شيء من الطعام ببركة اسم الله الاعظم فقضوا منه العجب وكان هو وزوجته لا يلتفتون إلى الشيخ المحفوظ ... وقال جميعهم هذا الشريف

---

(١) هو من شعوب السنغال .

ما رأينا على وجه الأرض من أجود منه وكفى بالله شهيدا ولسخائه رضي الله عنه كان يقول :

قبل السّؤال اصغ لمن أتاكا وان يك استعجل فاستعطاكا
فهل جواب هات غيركا فهذه نصيحتي ايّاكا

فلنصغ سمعاً إلى ما قال في وفاة أبيه : « وبعد وصوله إلى دار السلام أمر تلاميذه أن يبنوا له بيتاً صغيراً في وسط حوشه وعين لهم ذلك المكان وأمر لهم باتمام البناء قبل يوم الاربعاء الآتي لأنّ ضيفاً ينزل فيه من ضيوف الله ولا يجعلون في وسط البيت فراشا ويكون له باب واحد من جهة اليمين ويجعلون في وسط البيت التراب الأبيض وقاموا لشغلهم جميعاً حتّى تم بناؤهم في آخر يوم الثلاثاء. وفي آخر يوم الاربعاء توفي رضي الله عنه بعد صلاة الظهر سبعة عشر من ربيع الأول سنة ثمان وثلاثمائة وألف هجرية في دار السلام الموافق تسعة عشر نوفمبر عام تسعة عشر وتسعمائة وألف عيسوية وقبل وفاته رضي الله عنه وأرضاه بسته أيام كتب وصيته بخط يمينه وهذه وصية شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا شيخنا المحفوظ جعله الله في كنف اللوح المحفوظ .

بسم الله الرحمن الرحيم والسّلامان على خير الأنيم .

استودعتكم الله ربّ العالمين ورسوله محمد الأمين من شر ما يخشى عليكم أجمعين حفظكم ربي ونجاكم آمين أما بعد فأعاننا الله واياكم على رضائه ورضاء رسوله صلى الله عليه وسلم وأتباع السنّة والاستقامة على الطاعة والوقوف عند الدين أعلامكم بأنّي أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلموا يا أبناءي وأبناء أعمامي وتلاميذي أنّي تركت لكم خليفتي من بعدي وهو الذي نال مقامي من الله ورسوله لأمني ولأمنكم وأوصيكم ببره والوقوف عند أموره ونهيه وكل ما فعله لكم فمقبول ومحمود من الله ورسوله وهو ابني الشيخ محمد فاضل وأوصيكم بالاستقامة على السنّة أيها التلاميذ والتمسك بها وبالقرآن العظيم والصلاة على نبيه الكريم وأوصيكم بالصبر عن المعصية وبالصبر عند الشدائد والمصائب وانتظار الفرج من الله تعالى وبالصدقة وبالمساجد وذكر الله دائماً كما قال الله تعالى « اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » وأوصيكم

يا أبنائي بمريدي لا تأخذونهم بزلاتهم واصفحوا عنهم ؛ لأنّ الله يحب الصفح وأوصيكم بالمساكين واليتامى وبالجار وأوصيكم ببذل المال للغرباء لصلة الرّحم ومداراة اللصوص والشعراء صيانة للعرض وليس منهم أي كان ؟ وأوصيكم باكرام الضيف واكرام أهل الصلاح وتعظيم أهل الشفقة وأوصيكم بما حدّ الله للصبيان والنساء . أما النساء فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ولا سيما أخواتكم وبنات أعمامكم وأوصيكم باحبائي من بعدي وامائي من بعدي ثم أوصيكم بتقوى الله ؛ لأن التقوى رأس كل حكمة وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » وأوصيكم بالموافقة وعدم الفشل من شيم الفجار لقوله « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » أي قوّتكم وقوله صلى الله عليه وسلم يد الله مع الجماعة واوصيكم بأن توقروا كبيركم وترحموا صغيركم واوصيكم أيها الموارد بحسن الاعتقاد في أبنائي وأبناء عمهم لأنهم بضع منّي ومقتفون لأثري ما كان عندي من الأسرار عندهم وقد أشرت عليها من قبل ولولا شدة المرض عليّ لكتبت ما يكفي والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وهاكم ما كتبه شمس الدين من خلق أبيه وخلقه : « وكان شيخنا الوالد رضي الله عنه كبير الهمة العالية ذا رأي وفطنة ضبط الأمور وأحيا مجد بني الطالب مختار ، في جميع الأقطار وكان رضي الله عنه طويل القامة قوي البدن حسن اللحية مليح الوجه به أثر جدري عالماً ولياً مهيباً كريماً سخياً جواداً أديباً وبعد جلوسه في أرض السوادين طلب كثيراً من الكتب لأجل قلة وجود الله في هذه الأرض ولا يجد من يتحدث معه سوى كتبه كما قالوا خير الجليس الكتاب النفيس » .

والكتب الثلاثة للشيخ شمس الدين جديرة بالطبعة فهي كروايات وقلما نجد ذلك في الأدب السنغالي العربي وكما هو كاتب مجيد كذا هو شاعر مفلق قد عثرت في كتبه على بعض اشعار جيدة فهو الذي قال في آخر كتابه « قصة الأمجد في حياة الوالد » : « كل واحد من الناس يحتاج إلى جنسه كما قالوا ان كلّ إنسان يأنس بشكله كما ان كل طير يطير مع جنسه ولذلك يجب علينا ان نحبّ كل إنسان ونحترم كل عامل ولا نحتقر صنعة من الصنائع والفلاح هو وحده

الذي يعمل للجميع وينتفع الكل من أصحابه ما أحلى القوة والعافية .

هجرت إلى الكريم في دار الخبر أفادتني الصناعة كل خير
مع الاصلاح والتعليم شغلي وسيلة للسعاد نفع خير
بحمد الله في الدارين نرجو من الله السعادة طول عمر

وله هذه القصيدة « للترغيب في القرآن والسنّة والدين والنهي عن التفرق بالبِدَع والطرق والعوائد في الدين :

نصيحة للورى في دين أحمدنا يا حبّذا هذه سنن أفضلنا
عليكم سنتي وسنة الخلفا هذا حديث رسول الله أحمدنا
اياكم وأمور المحدثات التي تجري ببدعتكم عن شرع ملتنا
صراطه المستقيم الحقّ فاتّبعوا وعن سبيل الضلال في طرق سنّتنا
وما أتى من رسول الله متّخذ وما نهى عنه فارموا خوف شرعتنا
والطرق في الدين من جهل الضلالة ما قد خالف الشرع فالقرآن حجّتنا
مجاور البدع يعدى للفساد على ما جاء في الشرع والتبديل سنّتنا
وخالف الناس عمّا يعملون فهم عدّوا له حيلة في فرق شرعتنا
أهل الزنادقة المغرور حزبهم يرمون أضمارهم للفرق منكرنا
دلّوا مخالفة في الدين طغيانهم حلّوا المحارم في بهتانهم ديننا
فلا يغرنكم عادات أسلافكم فانّ هنّ سموم قاتلون لنا
فربّ من صام لا أجر له وكذا وقائم ليله حديث سيدنا
كم من ضريح يزار النار مطعمه قرّاء للسوء يا ويل لأمّتنا
منافقي دهرنا قرّاءهم أكثروا والشرك أخفى حديث المصطفى جدنا
لو كان للعلم من دون التقى شرف لنال ابليس فضل الله أعبدنا
عليكم بكتاب الله فيه هدى أعمالنا شرطهم تخليص نيتنا
من لا يحاسب ما للنفس من عمل ولا الخواطر مغرور برؤيتنا
وأنفقوا لن تنالوا البرّ أيكم مما تحبّون والاحسان نيتنا
وان تصدّقتم أموالكم غيركم رجاءكم في ثواب جهل سوقتنا
من يعمل الخير يجزى بالثواب ومن يعمل من السوء يؤتى عكس جملتنا

لا طـاعة لامرئ في سخـط خالقه ... بالمكر والافك مع شهوات أنفسنا
وان تولّيـتم أمـور غيركــم ... كونوا عدولا لأنّ الله يـأمرنـا
تفكروا تحزنوا في الله تحتسبوا ... قرآنه فيه تخويـف لشدتنا
أولادكم أدّبــوا للتعلّم في الـ ... ـقرآن والديـن في أحكـام سيّدنا
ترغيب تعليمهم من دون هـديهم ... مع الجلوس بغير الشغل عـورتنا
تزويج أهلكم في الشرع أفضل من ... أخذ النسا بلا عدّ لحرمتنا
أدّوا زكاتكــم عينا ومــاشيـة ... والحرث والفجل يوم الفطر اوجبنا
مع الفرائض في الاوقات مسجدكم ... والصوم والحج ان قدرت مذهبنا
خصّ السّؤال لأهـل الذكر أنكـم ... لا تعلمون وانّ الله يأمرنا
ترجون رجمته من دون طاعته ... هذا محال وأيم الله شنشننا
محمد الحنف شمس الدين يحذرنا ... عن بدعة القوم والاحزاب اخوتنا
فالله يحفظنا مـن شرّ حزبهم ... شيطانهم طردوا من حفظ قدوتنا
يا ربّ صل وسلّم عدّ قائلها ... محمد جـاء بالقرآن ينذرنـا

وله أيضاً :

أحمـد ربِّي الجليـل ... حمداً يقود لي الدليل ... من شكره يعطي المزيد ... وحمده يشفي العليل
وأنت ربِّي الكريم ... أعطيتنا فضلاً جزيل ... فرج إلاهي كـربنا ... بجاه أحمد الجميـل
من بأس أهلي نجنا ... حسّادنا يا ذا الوكيل ... وطـوّلـنّ عمــرنا ... مع التقي أنت الجليل
ذنوبنـا يـا غـافـر ... أغفر عبيـدك الذليـل ... ويسّـرنّ مســرنا ... في ذلك اليوم الطويل
عـذاب قـبر نجـا ... ياشاف واشف من غليل ... صلاة ربِّي والسّلام ... عـلى نبيّـك النّبيـل

قال الشريف محمد شمس الدين بن الشيخ المحفوظ عند بناء المدرسة العربية والفرنسيّة في قرية (دار الخير والبركة) رجاء من الله السعادة والفوز والصلاح في الدنيا والآخرة بجاه نبيّ الرحمة شفيع الأمة :

حمدا وشكرا لنيل الهمّنا الضعفا ... في دار خيري واسّ المدرس التحفا
يا حبّذا للورى نفع الطلاب الصغار ... بارك لصبياننا بحرمة المصطفى
انّ المدارس دار العلـم أمّ الأدب ... تربّي أبناءنا تـربية الشرفا

تجديد أخلاقهم بالصدق حسن الخصال

تصونهم من طوار النفس ممّا خفا

تبثّ أرواحهم بحبّ أوطانهم أشراف طرق الهدى والعلم في الصحفا

وفتح مدرس غلق السجن قال الحكيم تهذّب الابن بالفضائل الزّخرفا

سعادة المرء في علوّ همّته بالكدّ نالوا العلا اخواننا السّلفا

يا طالب العلم من جمع الفنون تريد أطلب من المهد نقش الحجر ما وصفا

والجدّ فاسدد بحبل العلم خدمته تواضعا أدبا برورنا الخلفا

فالعلم خير المواهب للفتى والكتاب نعم الصديق بيان ديننا الحنفا

بارك لكلّ طلاب العلم مطلوبهم ترغيبهم لدروس الصبح حسن الوفا

واهديهم لنجاح لامتحانهم مع السعادة في الدارين والرؤفا[1]

وله أيضاً :

« نشيد الصباح للافتتاح عند المدارس في غدو ورواح » :

مفيد الطلاب لأجل النجاح فتقوى النفوس غدوّ رواح

كما في الحديث كتاب الوهاب في زين القراءة حسن المزاح

هوت جميل يزول الهموم روى في المواق بطيب السّياح

طلاب المدارس عينوا الوطن بجدّ نشاط وحبّ الصّلاح

وهمّه التعليم حفظ الكتاب وكدّ الدروس مع خطّ الصباح

وخدمة الاشياخ والوالدين وبجل الرئيس وأهل السّلاح

علينا القيام في حق الوجوب وحق الطلاب في درس الألواح

فأب رحيم شقيق الوطن أعز عزيز في بيع الأرواح

سعادة المرء علوّ الهمم وبذر الحبوب وغرس الفلاح

وخلق ودأب وحبّ الرسول وتقوى الاله العليم الفتّاح

أمدنا بخير وكدّ اجتهاد إلهي بفضلك نرجو النّجاح

---

(١) لم ينسج هذا المنظوم على خير المنوال إذ فيه كثير من الزحافات .

وكون الشيخ شمس الدين كاتباً فهذا هو الواقع . وهو من كبار الأدباء السنغاليّين .

مدرسة غَامْبِيَا

أَليس من الانصاف أَن تشتمل الدراسة في الأَدب العربيّ بالسنغال على دراسة ما كان منه في غمبيا ؟ بلى إذ لا فرق في الحقيقة بين البلدين من كل ناحية جنسية كانت أو لغويّة إلّا فيما أَتاهما به الاستعماران الفرنسيّ والانكليزيّ . أَليست عبارة سائرة هذه بالفرنسيّة « سِنِغَمْبِهْ » ؟ فلهذه الأَسباب نتحدّث عن الأَدب العربيّ في غمبيا التي لا تمتاز من السنغال في التاريخ ولا في الجغرافيا ولا في الأَجناس ولا في اللغات ولا في العادات .

الحاج عبد الله بن ابراهيم بن محمد جُوبْ

هو الحاج عبد الله جوب ولد في بَاطُوْرَسَةَ بغَمْبِيَا سنة ١٩١٠ م ولمّا كان ابن ثمان سنين عهد به أَبوه ابراهيم إلى الشيخ محمد جَانْجَ المعروف بمَامْ مَدِكِ انكيه من جند المجاهد الأَكبر مَابَهْ جَخُ . فتلقّى التربية من الحاج مالك سِهْ . وقرأ الفقه على الحاج محمد أَنْجَايْ وقرأَ على القاضي عبد الله سِيِسِهْ منذ سنة ١٩٣٠ م الآجرومية وكتاب التصريف وملحة الاعراب مع المقامات للحريريّ وبانت سعاد ومنية المريد وزجرة القلوب وتذكرة المسترشدين ثم أَعاد قراءة رسالة ابن أَبي زيد والمقامات الحريرية ولامية العرب على الشيخ عمر جُوجُ فَالْ فعلمه الشيخ أَحمد جِيْ كنت العروض للخزرجيّ وابن المهيب وقال « ثمّ أَخذت أُطالع وأَنا قد العلماء بعد طلب العلم مدّة ثمانية عشر عاماً في مَكَّتَ » . وقد راسل السيد عمر فرّوخ اللبنانيّ وبعض علماء السودان والمغرب الأَقصى والمستشرقين في لُنْدُنْ . وقد تعلم الانكليزية وفي سنة ١٩٦١ عيّن مفتشا عاماً للبريد في غَامْبِيَا ولقد درس في المدارس العامة مدّة سبعة أَعوام . وسافر كثيراً إلى لُنْدُنْ ونيجيريَا والسودان وإلى لبنان وله كتب كثيرة وله كتاب في الفقه مسمى بـ « روضة المعاصرين في

معرفة علوم الدين » طبعه (منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت) سنة ١٩٦٨ م . باشراف الشيخ حسن تميم . والآن ينقله إلى الإنكليزية . ونظم كثيراً أيضاً ، قال منظوما في مدح القرآن في مائة وأحد عشر بيتاً .

قال الشيخ الحاج عبد الله جُوْب : فهذه قصائد تسمّى سبعيات والمعجم في مدح خير العرب والعجم وهي مجموع ثلاثين قصيدة ولكل قصيدة حرف من حروف المعجم بالمقصورة الموفية بالثلاثين » .

ودونكم المدح الأول بحرف الهمزة من البحر الخفيف :

أَحمد الله جاعل النعماء	مفرداً بالصفات والأَسماء
وأصلّي على النبي ذي المزايا	ثمّ على الأَصحاب والاتقياء
أَحمد المصطفى فريد اشتياقي	وامتداحي وسيلتي في الثناء
عين ذات الإلّه سرّ البرايا	نورها فيضها بكل السّناء
خصّه المدح ربنا ليت شعري	من له المدح في الورى بالسّواء
كل مدح وان سمى وثناء	لا يفي ما لقدره من وفاء
مقصدي في امتداحه امتثال	واعتناء كذي الرّجا بالجزاء

فهذا المدح الثاني بحرف الباء من البحر الطويل :

إذا هم خطب وانثنى عنك مذهب	فلذباب قرم وهو بالكشف مجلب
وما في الملا من جالب الكشف مطْلقا	عدى المصطفى فيه الكتابة تذهب
هو الشمس عند الله والرسل دونه	كواكب تزري بالضياء وتغرب
غنيّ عن الاكوان والكل راغب	بما عنده من امتنان ومعجب
فلا عجب إذ لا وجود ولا جدى	لكل الورى إلا به نعم موجب
كريم السّجايا مكتف محض رحمة	وحامي ذمار المسلمين ومهرب
ومن حاد عن منهاجه يلق هلكة	ومن عضّ يظفر بالمنال ويطرب

فهذا المدح الحادي عشر بحرف الزاي من بحر الرمل :

هاج قلبي باهتزاز	نحو حبّ في الحجاز
نور عيني أنس قلبي	روح جسمي وانتهازي
أحمد المحمود طه	في البهاوا في الطراز

وهو مختـار البرايا ليس فيها مـن موازي
عين مجد شمس فضـل سرّ حسن في اعتزاز
مرتضى راض كفيـل مقتفي دين المفاز
من يلذ بالماح حقّا فهو راض بالجواز

فهذا المدح بالحروف المختلفة المقصورة الرجزية والقافية متدارك :

حيّي لآل المصطفى والمجتبـى كذا جميع الصحب أخيار الورى
بالخلفـاء الراشـدين القطبـا وبالحواريين أقمار الرّجى
كذاك بالانصار عصبـة الوفا دعائم الإسلام آساد الوغى
ومن بهم قـد بايعوا وجاهـدوا واجتهدوا وأحسنوا سبل الهدى
توسّلي إلى النـبي المـرتضـى في نيل ما برى فؤادي من منى
وأن يقبل امتـداحي راضيـا تحصيلها في الابتدا والمنتهى
ثم الصّـلاة والسـلام سرمدا على النبي وآلـه ذوي البها

وله مزاجرة لسان الحال عن رعونات نفس الضال لتعيين سلوك المؤلّف نهج وسيلته ذا المعارف :

أيا النفس هـل ينسيك خطب من البأس
وهل لك من طبّ يداويك من يأس

ترومين دأباً لـذّة العيش مـن هـوى وما ذاك إلا من ذوي الفسق والنكس
فأين دواعـي المجـد فيـك سجية ومن أين تأتيك البواعث من رمس
فكم معتد سـالمته بغضـاضـة زمامك عن كثب يلاقيك من نحس
وفحش يريك الدهر طيبا مطيبا وما هو إلا مركب النكس للركب
يخرّ به طود وطيد تدكـدكا فكيف بذي روح وجسم وذي حسّ
فلا عجب ان شمت بـرق تقلّـبي بك العود عمّا يعتريك إلى التعس
فعرضك صوني واعلمي النفس انّني أعاني بما لم يخش عقباه مَنّ رغس
وأسأل ربّ العرش من فيض جوده متابا لاصلاح البواطن مـن رجس
وظفرا بما يعشو به كل سالك بأربح منهاج وبيس بذي بخس
عينت بنهج القطب شيخ شيوخنـا وسيلتنا التجان لحضرة القدس

ومشربنا من حضرة الغيب فيضه	سقانا إلهي منه كأسا على الكأس
ويجعلنا من خاصة الأهل أهله	ومجاوري الفردوس من غير ما بأس
بجاه رسول الله أفضل خلقــه	عليه صلاة الله ما مرّ مــن أمس

وكل ذلك دلّ على ان الحاج عبد الله جُوبْ راسخ القدم في الفقه وهو شاعر التقليد بمدائحه لرسول ربّ العالمين سيدنا محمد الأمين صلى الله عليه وسلم .

« الشيخ عليّ فَيْ ابن حان »

ولد علي فَيْ نقريباً عام خمسة وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية في قرية يقال لها (طِنْدِيَة) وهي قرية من قرى نهر بَنْجُولْ في بلد السنغال ثم نشأ في طلب العلم ويجول يتعلم شيخا فشيخا إلى ان حصل الكفاية في علم الفقه والنحو والبيان والمنطق . وقد قرأ على الحاج مالك سِهْ وغيره وله شتى مؤلّفات وأشعار في كثير من الفنون إذ كتب في **النحو** (مراقي التبشير في منبع الصعود) (٩٢ بيتاً) و« بحر المحيط في التصريف » (٣١٦ بيتا) [1] و« منحة الخليل في مخارج الحروف » (٤٥ بيتا) و« قنطرة الطلاب » (٢٥٤ بيتا) و« أرجوزة في نظم الآجرومية » (٣١٦ بيتا) و« كتاب تمرين الطلاب » [2] (٢٣٨ بيتا) وألّف **في العروض** : « توضيح الطلاب في معرفة أوزان العروض » (٢٦٦ بيتا) . ووضع **في الفقه** « جواب لسؤال عن مدة الحمل » (٤١ بيتا) و« هداية الازواج في بيان حقوق الازواج » (٥٠ بيتا) و« جواب على أسئلة كوس برو في الفقه » (٥٠ بيتا) و« سيف الأنوف في البيوع والاسعار » (٩٩ بيتا) و« ايضاح المنهج في النكاح وما يتعلق به » (٧ صفحات) و« خلاصة البرهان في ذمّ الدخان » (١١٣ بيتا) و« في الردّ على من قال انّ الدخان حلال » (٢٥ صفحة) و« في مسائل النكاح » (٨٠ بيتا) .

---

(١) طبع بمطبعة المنار في تونس ولنا نسخة في إيفَانْ .

(٢) طبع بالمطبعة الجديدة بفاس (المغرب الأقصى) سنة ١٣٥٨ ولنا نسـخة في ايفان .

وألّف **في الشؤون الدينية** : « تبشرة المريد في أحكام المسجد » (٦٦ بيتا) و« قبة المريد في صلاة الجمعة وأحكامها وما يتعلق بها » (١٨٦ بيتا) و« الرسالة البديعية في الردّ على من خالف الشريعة » (٣٠ بيتا) و« في السبحة وأحكامها » (٢٥ بيتا) و« تحفة المريد في بيان ما اختفى في القرآن أو الاشارات » (٩٦ بيتا) و«كنز الأكوان في معرفة رجال الغيب » (١٨٦ بيتا) و« نصيحة الاخوان في التوسل بالشيوخ » (٣٠ بيتا) .

وكتب **في علم الفلك** : « تقريب المفهوم في علم الفلك »[1] (النظم) .

وكتب **في الطريقة التجانية** » : « في بيان شرائط الطريقة التجانية » (٤٤ بيتا) و« سلاسل علي فَيْ » (٧٥ بيتا) و« في مدح أبي العباس » (٧٠ بيتا) وألّف **في مواضيع شتّى** : « راحة البلاد في عادات البلاد » (١٦٠ بيتا) وهو نقد لعوائد الناس ، و« الرحلة إلى بيت الله الحرام » (٦٠ بيتا) و« السلم في التعلم » (١٦٣ بيتا) و« أرجوزة في بيان الرحلات للحاج عمر » (١٤٠ بيتا) و« الكوكب الوقّاد في بيان ما في أرجوزة الغزاليّ » مع الشرح (١٤٠ بيتا) و« تقريظ فتح الجليل لِبَلّ فُودِي » وغير ذلك .

وفي الحقيقة انّ (عليّ فَيْ) لَنَحْوِيّ وفلكيّ وفقيه قال في مطلع كتاب (تمرين الطلاب وبغية المولع في الاعراب) :

انّ الكلام عند أهل النحو	لفظ مُرَكّبٌ مفيد الفحو
تركيبه في الجملتين فاعلما	نحو انقضى الخريف خصب معتمى
أقسامه يجمع في ذه الكلم	اسم وفعل ثم حرف قد علم

وهلمّ جرّا

وهذا المنظوم كما بيّنه هو « شرح الخلاصة الالفية في علم العربية النحوية » .

---

(١) ولنا المخطوط في إيفَانْ .

مدرسة سُوكُونْ

وبعد أن غادرنا كُلْدَى وإيلِيَاء ودَارَ الخير بكَاسَمَنْسَا وعُجْنَا بِبَنْجُلْ بِغَمْبِيَا عند الحاج عبد الله جُوبْ وعليّ فَـيْ فَلَنْرَجِعَنَّ إلى السّنغال بمنطقة « سِينْ سَالُمْ » في مدينة سُوكُونْ على خمسين كيلومترا من مدينة كَوْلَخْ فهناك مركز أدبيّ نشيط وحامل لوائه الشيخ الحاج أحمد دِمْ الشهير بسعة علومه وخصب آثاره وتنوّع مؤلفاته وقد سار الركبان بصيته إلى جميع أوطان الإسلام وهو من أكبر الشخصيات الفذّة الأدبية والدينية في السنغال وفي العالم الإسلاميّ . ولذلك كل من اعتنى بشؤون الإسلام في الاحيان الأخيرة قد عقد للحاج أحمد دِمْ فصلا كما فعله مثلا فنسان منتي في كتابه (الإسلام الأسود) من هو هذا الرجل الجليل ؟

هو الحاج أحمد دِمْ بن محمد الأمين بن أحمد أَمْبَكِ بن محمد بن سليمان ابن محمد الأمين الأكبر ولد في مدينة « جُوبِيِي كَلْ » سنة ١٣١٢ هجرية الموافقة لسنة ١٨٩٥ ميلادية هو تُكْلُورِيّ أصلا وبينه وبين أسرة الحاج مالك سِهْ وعائلة الشيخ أحمد بَمْبَهْ امْبَكِ والشيخ عثمان دَانْ فُودِي دِمْ صلات القرابة توفي والده وهو ابن خمسة أعوام واشترت له أمّه مصحفاً قرآنياً بما اكتسبته يدها من غزل القطن وقد أوصى والده قبل وفاته بأن يرسل الابن إلى عمّه محمد يَاسِينْ دِمْ فبعثت الوالدة بولده إلى عمّه المذكور ليقرأ القرآن عليه ثم ذهب الابن إلى فُوتَ طُورْ لمواصلة دراساته فأخذ عن الشيخ ابراهيم حَاوْ بقرية إِنْجَابِيِي وقرأ عليه رسالة ابن أبي زيد ثم أخذ عن أَلْفَا مُحَمَّد حَاوْ أخي الشيخ ابراهيم حَاوْ بقرية وَالَلْدِي فعلمه شتّى علوم دينية وفلكية وحسابية وأعطاه الاجازة لتدريس هذه الفنون والورد التجانيّ .

ثم ذهب إلى كِجِلْنْ عند الشيخ جِرْنُ يُرْبَالْ الذي علمه المقامات الحريرية والهمزية لمحمد البوصيري .

ولما كانت أمّه ذات مال وافر أنفقت على ابنها كثيراً من مالها واشترت له كتباً عديدة .

ولما فرغ من دراساته رجع إلى سَالُمْ وحلّ بسُوكُونْ وحجّ في سنة ١٩٢٢ م وانتهز الفرصة فدرس الفقه المالكيّ في بغداد وسار إلى عكّة فتبحّر في الطريقة

التجانية على قاض من قضاة تلك المدينة بعد ان اتصل مدّة غير طويلة بالطريقة النّقشبندية . ثم عاد إلى أفريقيا وزاد تعلمه في الطريقة التجانية عند اتباع الحاج عمر وعند الحاج مالك بعينه .

والحاج أَحْمَدُ دِمْ أطال الله عمره ونفعنا الله بعلومه قد ألّف كثيراً .

١) **في التفسير** : قضى عشرين عاماً في تأليف (كتاب ضِيَاءِ النَّيِّرَيْنِ) في عشرين مجلّدا وأنهاه في سنة ١٩٦٠ م .

٢) **وفي التوحيد** : (افادة المستفيد في عقائد التوحيد) (وتنبيه الأغبياء) .

٣) **وفي الصوفية** : (ايقاظ الوسنان) و (نصيحة الاخوان) و (تنفيس الصالحين)

٤) **وفي الحديث** : (العقد الثمين في هدية الصادق الأمين) .

٥) **وفي النحو** : (تمرين الطلّاب) .

٦) **وفي الحساب** : (كاشفة الحجاب في علم الحساب) .

٧) **وفي اللغة** : (جلاء الفهوم أو القلوب في نوادر العلوم) و (غريب اللغة العربية) .

٨) **وفي الأدب** : (الروض الندي على المقصورة الدريدية) و (عنوان الطراز في الرّحلة إلى الحجاز) .

٩) **وفي الأخلاق والوعظ** : (الحثّ على الاتفاق وترك المراء) و (جلاء القلوب من فتح علّام الغيوب) .

١٠) **وفي الخطابة** : (ديوان الخطب) .

١١) **وفي الشعر** : (ديوان الشعر) .

وقد زاد على هذا الانتاج كثيراً مثل (أسئلة وأجوبة) تلقّاها من السيد الحاج مالك سِهْ و (تشطير قصيدة ابن مرزوق) و (لمحة مطولة في شأن الشيخ عمر الفوتي) و (الردّ على رسالة الحاج أحمد جَاجَ دَائِرَهْ) وهلمّ جرّا . برغم هذه المؤلّفات العديدة لم نستطع أن نعثر إلا على قسم زهيد لأنّ بعض أولاد الشيخ الحاج أحمد دِمْ الكريم الأريحيّ لم يريدوا أن يتركوا لنا متّسعاً من الوقت لنقل الكتب من خط يده مباشرة من صورة شمسية لينفع الله بها جميع المسلمين في السنغال

وفي العالم بل بعد أن سمحوا لنا بالذهاب بها إلى إيفَانْ لتضويرها مصغرة بعثوا فجأة إلينا برسالة لا يستحقّ أن يكتبها من هو ابن للشيخ الحاج أحمد دِمْ الذي ضنّ زماننا بمثله في العلم والورع والكرم والمكانة عند أهل الحل والعقد ورؤساء الدين . وليس لنا إلّا بعض أجزاء كتاب ضِيَاءِ النَّيرَيْنِ . وقبل أن نتصدّى لإيراد بعض آثار الحاج أحمد دِمْ ينبغي لنا أن نورد نبذة من الكتيب الذي وضعه السيد محمد المصطفى دِمْ يوم الاحتفال بتمام تفسيره (ضياء النيرين) في يوم ٥ من شعبان سنة ١٣٧٩ هـ (= ٢٣ آذار سنة ١٩٦٠ م) قال محمد مصطفى دِمْ « في يوم ٥ من شعبان سنة ١٣٧٩ هجرية كنت ضيفا عند عمّي في مدينة (سُوكُونْ) ، وهو حينئذ على استعداد لاستقبال الوفود الذين دعاهم لحضور الحفلة الكريمة التي أقامها بمناسبة افتتاح تفسيره المسمّى بـ (ضِياء النيرين في علوم الطائفتين) .

« وما ان اقترب الموعد بيوم حتى أخذت الجماهير تتقاطر إلى المدينة وهم من كل حدب ينسلون . وعلى الرغم من أنّ المضيف كان قد أعدّ لهم الأماكن الفسيحة الكثيرة التي يتوفّر فيها جميع وسائل الراحة والرفاهية ولكن رحابها يضيق بهم لكثرتهم .

« وقد مددت لهم السرادقات التي كسيت أرضها بالبسط الفاخرة . وفي اليوم المحّدد اكتظت المدينة بخلق كثير من شتى العناصر والجنسيات من بين افريقي وأروبيّ ، ولا تكاد ترى تربة ساحة المسجد لامتداد السيّارات الرّابضة عليها .

« وقد اتخذ الداعي مكانه في الغرفة لمقابلة المدعوّين وفداً بعد وفد ، ولم يزل كذلك حتى بدأت الساعة المعلقة على الحائط تدق معلنة الساعة التاسعة صباحا ، وعند سماع الدقات أشار المضيف على الحضور بالانتقال إلى الساحة ، وهناك مكان لمقابلة الخاصة ، ومن الدار خرج الدّاعي الزعيم ــ نصره الله ــ إليه وعند خروجه اصطفّ المصورون لالتقاط رسمه الغالي ، كما اصطفّ رجال الشرطة وأمامهم رئيسهم لحفظ النظام .

وهنا حدث ما لم أكن أنتظر إذ صار الشرطيّ يشق لنفسه طريقاً لشدة الازدحام. وكذلك اصطفّت أصحاب البندقيات يرسلون طلقات عديدة اظهاراً لسرور المسلمين بمؤلّف (ضياء النيرين) .

« فلما استقرّ بهم المقام وساد السّكون على المنصة قامَ العلماء والرؤساء ومندوبو الحكومة الواحد بعد الآخر كلّ يلقي على آذان المستمعين عبارات التهنئة والتبجيل لصاحب التفسير الباهر . وممن خطب الزعيم الكبير الحاج ابراهيم اِنِيَّاسْ المتفاني بحبّ الإسلام وخدمته ، وأخوه المرحوم شيخ خلف انياس . والزعيم العصري النجيب صاحب الخطبة البالغة أوج الصراحة وذري الوضاحة الحاج عبد العزيز سِهْ وابن أخيه الشاب المتقدم السني المكافح العامل لآخرته كأنه يموت غداً ولدنياه كأنــه لا يموت أبداً ، شيخ تِجَانْ سِهْ المحترم والحاج عُثْمَان كَنْ ثم الحاج سعِيد نُورُ طَالْ أكبر مسلم في سنغال فشيخ ابن شيخ محمد البشير امْبَكِ صاحب البشرى والجمال وسيد الأمين كُنْتَ خليفة الشيخ أبي كُنْتَ المشهور بزهده وتصوفه . وقد خطب قاضي القضاة السيد عبد الرحمن العلوي الذي رأس وفداً من السادة العلويين المحترمين في موريتانيا والشيخ أَحمد بن أَحيبب مورتني هو الذي كان يقدم التفسير إلى الحاضرين وهو (كاف) من الأَجزاء وقد أَلفه الماجد الفاضل (الحاج أَحمد دِمْ) في مدّة عشرين عاماً ونيفا ، وقد أنزل القرآن في بضع وعشرين سنة على الأصح .»

وبعد ان يتحدث في صعوبة الاستماع إلى الخطب وإلى أقوال الترحاب بالحاضرين من قبل الداعي وبعد أن يصف استعدادات الأطعمة للمدعوّين قال محمد مصطفى دِمْ : « وقد ذبح حينئذ ثلاثون من البقر بغض النظر عمّا تقدم وما تأخر من ذلك . وأما الدجاج والاوز فلا أحصي لهما عدداً ، وأما بيوضهما فلئت أواني ، ومن الغنم للاروباويين قد تذكرت منها سبع عشرة شاة ، وأما المذبوح لغيرهم من الغنم فكان تساق إليهم القطيعة فيختارون الشاة التي تعجبهم ، وهكذا حتى الشاة الأخيرة من القطيع ، هذا غير ما يرسل لبعض الضيوف الزعماء في منازلهم ليذبح لهم .

« والحاصل أنهم حسبوا ما أنفق في هذه الحفلة فبلغ (فوق مِلْيُونِ فَرَنْكٍ) فضلاً عمّا أَسداه المضيف من المعروف بدفع نفس المال إلى بعض الوفود كما أَفعم جيبي .

« وأما رسائل التهنئة فقد وردت منها ما لا تعد ولا تحصى كثرة ، فلم تزل إلى الآن من أقصى البلاد كموريتانيا ونجيريَا وغَمْبيَا وسَاحِل العاج وبورتلم وغيرها . وقد وصلت في الأيام الأخيرة رسالة تهنئة واعجاب من جناب المفتي السّيد محمد شلتوت شيخ الجامع الأزهر حالياً في القاهرة مصر .

« أيها الطالع غير الراضي ولا المطمئنّ ، كأني سمعتك تناجي نفسك وتقول : « هذه مبالغة » ولكن ان كنت في شك مما وصفته في هذه الحفلة وتتهمني بالمبالغة فلا تقصر من أن تستشهد فيها التاجر الأمين المشرف على الحفلة الحاج أبي بكر أمْبيْ من خاصة المضيف وفّقه الله . وستعرف حقاً جدّ اختصاري عن ذكر كل شيء لعدم اطلاعي على كثير منها بوصفي ضيفاً يومذاك .

« ابقاك الله أيها العمّ الكريم وقد سبقت وبلغت الهدف ولا يدرك منك العلماء الا الغبار .

وإذا كان (الطنطاوي) هو الفيلسوف الخبير ، فأنت العالم الكبير ، والفقيه الشهير الذي لا يكل عن الاقدام ولا يمل عن خدمة الإسلام .

« وأنت لم تر معنى مقفلا الا فتحت صيصه ولا مشكلا معجزاً إلّا أوضحت مضمنه فتبارك الله أحسن الخالقين .

والسلام عليكم ورحمة الله » .

لولا صفات الأدب لفظا لم نورد نبذة طويلة من هذا الكتيّب النفيس المطبوع بمطبعة الرأس الأخضر في دَكَارْ فانّ هذا التحقيق الصحفي بالعربية وهذه الحفلة الفخيمة الجديرة بكتاب (ألف ليلة وليلة) أبدت ، إذا لزم الحال ، ما عنيت به السنغال من التّبجيل والتعظيم للمعرفة والعلم . فمن كان ليظنّ أنّ المهرجان والابتهاج والعيد مثل ما وصف لنا لتكريم الإسلام والعلم والأدب العربي تستطيع أن تجري في السنغال بدلا من أن تقع في المملكة العربية السعودية أو في بلد عربيّ ما ؟ مهما كان من الأمر ، فهاكم تلك الرواية لتقنعكم بأنّ نجمة اللغة العربية تلمع لمعان الشمس في سماء الوطن للحاجّ أحمد دِمْ .

وقد طبع تفسير العالم الجليل في طَنْجَةْ بمطبعة المملكة المغربية ولنا الجزء الأول المطبوع بدار التحرير أيضاً بالجمهورية العربية المتحدة . « ولمّا وقف أحمد بن

محمد بن احبيب الشمشويّ على تفسير الحاج أحمد دِمْ كتب ما نصّه : « هل شعرت افريقيا الغربية ؟ بهذا الشرف الذي نالته ، وهل استعدت ؟ لاستقبال طلوع هذه الشمس المضيئة فيها ، وبزغ هذا القمر المنير منها وهل عمّها ؟ وسيعمها ان شاء الله تعالى عن قريب عرف ذلك الطيب الفائح وبهاء ذلك الحلى الذي ستتحلى به ؛ لأنه أطل زمان بروز تفسيره (ضياء النيرين) الجامع بين علوم الطائفتين ، وحانت أيام طلعته أمامنا معاشر المسلمين السّنغاليين والموريتانيين فنصبح ولنا الفخر ونمسي وقد تمّ به القصد والمراد .

قال المفسّر في أوّل كتابه : « فمن رأى في تفسيرنا هذا كلاما لم يظهر له وجه تحريره على الكتاب والسنّة فليضرب عنه الذكر صفحاً إلى ما ليس فيه ذلك ويعلم أنّه من علوم القوم ، وقد تقدّم أنّ لهم ألسنة أعجمية في نظر غيرهم ، وهي عندهم عربيّ مبين يقول الشاعر :

إذا ما لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ وجاوزه إلى ما تستطيع

ويقول آخر :

العلم ذو كثرة في الصحف منتشر وأنت يا خل لم تستكمل الصحفا

ولقد كنت أعجب من قول القائل [1] :

إليّ قاد الله ما لم يكن ولا يكون أبدا لممكن

إلى أن فتح الله علينا فتوجه في فهم قوله تعالى : « بل هم في لبس من خلق جديد » فقلت :

« أعطاني الله وخصّ في الأزل ما لسواي لن تراه قد حصل

(١) القائل هو الشيخ احمد بَمْبَهْ وعرفه الحاج احمد دِمْ حقّ المعرفة .

ينبغي للشارع في علم قبل الشروع فيه معرفة مبادئه العشرة وهي حدّه أي ماهيته ، وموضوعه ، وواضعه ، واستمداده ، واسمه ، وحكمته ، ومسائله ، ونسبته ، وفائدته ، وغايته[1] .

« وأصل التفسير الكشف والابانة ، وأصل التأويل الرجوع والكشف **وعلم التفسير** : علم يبحث فيه عن احوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بحسب الطاقة البشرية .

« وهو قسمان : **تفسير** : – هو ما لا يدرك الا بالنقل كأسباب النزول **وتأويل** – هو ما يمكن ادراكه بالقواعد العربية ، فهو ممّا يتعلق بالدراية . والسرّ في جواز التأويل بالرأي بشروطه دون التفسير ، أنّ التفسير كشهادة على الله وقطع بأنه عنى به هذا المعنى ، ولا يجوز ذلك الا بتوقيف ، ولذا جزم الحاكم بأنّ التفسير الصحابيّ مطلقاً في حكم المرفوع . والتأويل ترجيح لأحد المحتملات بلا قطع فاغتفر .

« وموضوعه : آيات القرآن من حيث فهم معانيها .

وواضعوه : الراسخون في العلم من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا على التحقيق كما شهد الله بذلك .

واستمداده : من الكتاب والسنّة والآثار والفصحاء من العرب العرباء .

واسمه : علم التفسير .

وحكمه : الوجوب الكفائي .

---

(١) قد اختصر كل ذلك شاعر في هذه الأبيات :

من رام فنّا فليتقدم أوّلاً	علماً بحدّه وموضوعاً تلا
وواضع ونسبة وما استمد	منه وفضله وحكم يعتمد
واسم وما أفاد والمسائل	فتلك عشر كالمنى وسائل
وبعضهم منها على بعض اقتصر	ومن يكن يدري جميها ابتصر

ومسائله : قضاياه من حيث الأمر والنهي والموعظة إلى غير ذلك .
ونسبته : أنه أفضل العلوم الشرعية وأصلها .
وفائدته : المعرفة بمعاني كلام الله على الوجه الاكمل ، والاحكام الشرعية العملية .

وغايته : الفوز بسعادة الدارين . أما الدنيا فبامتثال الأوامر واجتناب النواهي . وأما الآخرة فبالجنة ونعيمها ، ولذلك يقال له : اقرأ وارق .

والقرآن : الكلام العربيّ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتحدّى بأقصر سورة منه ، المنقول تواترا .

ثم انّ الفرق بين التفسير والتأويل أن التفسير تعيين معنى اللفظ بواسطة نقل من قرآن أو سنّة أو أثر ، أو بواسطة التخريج على القواعد اللغوية ، وأن التأويل حمل اللفظ المحتمل لمعان على بعضها ، بواسطة القواعد العقلية الصحيحة » .

ثم أكّد الحاج أحمد دِمْ لا يمكن أن يكون الا ثلاثة مفسّرين : الأول هو من اقتصر على ما في آية ما من المنقول إذا فسّر ، والثاني هو من يستعمل فكره بمقدار ما آتاه الله تعالى من الفهم ، والثالث هو من يرى الجمع بين الأمرين والمنهاجين أي بين التقليد والتفكير وآثر الحاج أحمد دِمْ الثالث على الأولين قائلا : « ولا يخفى أنه أرفع الاصناف » .

وقال انه ليس من الانصاف أن يكون العرب ، من حيث هم العرب ، وحدهم خير المفسّرين من غيرهم بحجة أن القرآن أنزل على لسانهم وأظهر ما في تفسير الذي اقتصر قطّ على فكره وفهمه من أخطار ثم قال :

« ومما بأيدينا من تأليف أهل المشرق تفسير ابن القاسم الزمخشري وهو مسدد النظر بارع في الاعراب متقن في علم البيان ، الا أنه ملأ كتابه من مذهب المعتزلة وشرهم ، وحمل آيات القرآن على طريقتهم فتكدر صفوه ، وتمرر حلوة ، فخذ منه ما صفا ودع ما كدر » .

انّ هذا لحكم بين بين كاد أن يكون قاسياً صارماً على العالم الكبير المعتزليّ ودلّ على حذر الحاج أحمد دِمْ من المعتزلة . ثم وصف سور القرآن بحسب وقت

نزولها مدّة عشرين سنة ٨٣٠ سورة في مكة و٣١ سورة في المدينة وأتى بقائمة الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وجاء بتاريخ تدوين القرآن من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أيام سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه وإلى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ثم تحدث في عدد حروف القرآن أي ١٠٢٦٠٠٠ وفي عدد الكلم القرآنية أي ٧٧٤٥٠ وعدد آي القرآن أي ٦٦٦٦ وعدد الألفات في القرآن أي ٨٤٠٧٤٠ وفي عدد الباآت أي ١١٤٢٠ إلى عدد الياءات أي ٢٥٧١٤ .

وعلى حدّ قوله فكلمة (نُكْراً) من الآية ٧٣ في سورة الكهف يعني : « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً » فهي دلّت على نصف القرآن ثم جاء بما آثره من مناظرات قول صلى الله عليه وسلم وهو « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فاقرؤوا ما تيسّر منه » وبما في القرآن من فضل وفائدة وأورد سلسلة المساند للمصحف الذي اعتمد عليه في تفسيره من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونافع إلى شيخه عليّ جَنْكَ المفسّر السنغاليّ . ولم يتصدّ للباب الأول أي الفاتحة إلا في الصفحة الثلاثين وأعطى سورة الأولى عشرين عنواناً وعقد لها تسعا وعشرين صفحة ونيّفا فهاكم ما قاله في كلمة (رَبّ) (العالمين) « الرّبّ يطلق على السّيد والمالك والمعبود والثابت والمصلح ؛ قال في جواهر المعاني : اعلم انّ حقيقة الرّبّ هو العلي عن كل ما سواه ، ومنه سميت الربوة ربوة لعلوّها ؛ ومعناه أنه هو الملك والمتصرف والخالق والقاهر والنافذ حكمه ومشيئته في كلّ ما سواه » . وقال في (العالمين) « جميع الخلق من الانس والجن والملائكة والدواب وغيرهم ، وكل منها يطلق عليه عالم ، يقال عالم الانس ، وعالم الجن ، إلى غير ذلك ، وغلب على جمعه الياء والنون وهما لأولى العلم تغليباً لهم على غيرهم لشرفهم ، وهو من العلامة لأنه علامة على موجوده ، أو من العلم ، وجمع العالمين جمع قلة مع كثرتها جداً في الواقع تنبيهاً على أنهم وان كثروا فهم قليلون في جانب عظمته تعالى فان قلت : انّ الجمع يقتضي اتفاق الأفراد في الحقيقة وهي هنا مختلفة أجيب بأنها متّفقة من حيث انّ كلا منها علامة على موجدها ... » ثم أورد عدد العالمين وهلم جرّا .

ومن الملاحظ أنّه اتّخذ منهاجا يعطي به كلّ كلمة وكل عبارة معنى ظاهراً وباطناً ولغويًّا ومجازيًّا ولذلك نجد في تفسير الحاج أحمد دِمْ اعتبارات نحوية

وصوفية وعقلية وتوحيدية ولهذا المنهاج فضل ؛ إذ هو أكمل غير أنه يمل إذا طال الأمر فللنحيّي سعة علومه ورسوخ قدمه في اللغة العربية وصبره على التعلم والتفهم والمطالعة .

وقال مقرّظ كتابه في التفسير :

محى ظلم الضلال وكل ... بأنوار « ضياء النّيرين »
معاني النصّ ظاهرة تبدت ... وباطنه به للمقلتين

كتاب الشيخ « أَحْمَدَ دِمْ » من أحيا ... قواعد شرعنا من بعد حين

أحمد دِمْ تلميذ الحاج مالك سِهْ

قال في بعض أسئلته لشيخه « هل لنا أن نزور من ليس من أهل الطريقة زيارة صلة رحم وخلّة من غير نية استمداد ونستعين بهم في حوائجنا الدنيوية ونقدمهم في السعي عليها » وهذا جواب شيخه : « نعم وإنما الكلام في زيارة ولي اتّفق الناس على ولايته وأما العامّة فلا كلام فيهم فيجب علينا مراعاة الاخوة الإسلاميّة فيهم بالمواصلة والمزاورة » .

وكتيبه هذا متعلّق بشؤون الطريقة التجانية وقد رثى الحاج مالك سِهْ شيخه في ٢٢ حزيران سنة ١٩٢٢ .

يا إخْوَتي في الديـن والإيمـان ... صبّوا غروب الدّمع للأحزان
في موت من في موتهم ذهب الوفا ... والصدق والاخلاص في الايمان
بكت السّما والأرض من فقـدانهم ... ملئوا قلوب الخلق بالعرفان
بكت السما والأرض من ساداتنا ... في عالم الاشباح والأبدان
ذهب الاولى في فضلهم لا يوجد ... أمثالهم فينا بلا بهتان
ذهب الاولى من لم يكن في ظلهم ... وحماهم الوافي فذو حرمان
ذهب الذين ومن يكن متمسكا ... بعراهم ينجى من النّيران
مات الذين ومن يكن في غير ما ... هم فيه حقًا باء بالخسران
مات الذين ومن يمت في حبهم ... يجزى غدا بالحور والولدان

مات الذين ومن يكن لاقاهم نال المنى بالروح والرّيحان
مات الاولى ورثو النبيّ محمدا صلّى عليه الله ذو الرّضوان
هم سادتي هم قادتي أعني بهم المرتضى الحاج ذا الاحسان
ثانيه ابن محمد شيخي الرضى الحاج عبد الله ذا الاتقان
في كل فنّ شأوه لا يبلغ فقه فنحو ثم في قرآن
بحر الشريعة والحقيقة خاضه حتّى أرانا الدّرّ بالمرجان
ثلث بمن ورث المعارف والعلى أعني به نجل الرضى عثمان
وهو الذي أرجو بأن سيقودني حتى أرى في حضرة التجاني
وهو الذي أرجو بأن سيجيء بي حتّى أصافح سيد الأكوان
الحاج مالك وصلتي ووسيلتي حتّى أرى في حضرة الرحمن
يا ربّنا بارك على أولادهم أتباعهم أخوانهم جيران
عنهم وعنّا أرض ربّنا يا ربّنا يا مالك الرّضوان
وعلى النبي صلّى وسلّم ربّنا ما دامت الأفلاك في الأزمان

وقد كتب الحاج أحمد دِمْ شنّى كتب للرّدّ على من خاصمه ونافسه من مواطنيه . ألّف (كتاب تنفيس الصالحين من مشوشات الطالحين)[1] وقال في مقدمته ما يلي :

« أما بعد فقد قرأت رسالتك وتصفحت مقالتك وبكيت غير بكائك لأنك تبكي على اشاعه الأعداء في عرضي وأنا أبكي على عدم نيل غرضي في دوام الحضور مع ربّي ليغفر لي ما تقدم وما تأخر من ذنبي وقرأت في الحال قول الكبير المتعال (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) وقوله (ولمن صبر وغفران ذلك لمن عزم الأمور) اللهم انك عفو كريم تحب العفو فاعف عني يا عفو يا غفور ثم ان هذه الكلم التي اتتكم من أعدائي وحسدتي المحرفين للكلم من بعد مواضعها

---

(١) نشرته مطبعة التعاون بشارع دُوّضْ سان لوي .

الذين يرجمون بالغيب ولا يحبون الا أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويريدون بذلك ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كَرِهَ الكافرون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

شعر :

ان يسمعوا سبة طاروا بها فرحا   مني وما سمعوا من صالح دفنوا
ان يعلموا الخير أخفوه وان علموا   شرا اذاعوا وان لم يعلموا كذبوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به   وان ذكرت بسوء عندهم أذنوا

فاعلم ان هذا الافك الذي جاؤوا به لا يزيدهم عند الله الا سخطا ولا عند الصالحين الا مقتا (لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ان لم يتب تاب الله علينا وعليهم آمين وأما بكاؤك أنت ومن ذكرته لما جاءكم بعض أقاربي على قميصي بدم كذب وقالوا اني أرتكب كيت وكيت (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) شعر :

أقارب كالعقارب فاجتنبهم   لا تركن إلى عم وخال
فكم عمّ أتاك الغم منه   وكم خال من الخيرات خال

فأما أنا والله فلم أبك إلا على نفسي الأمارة بالسوء ولم أتحسر إلا عليها حين عجزت عن العكوف معها في الحضرة الإلهية دائماً أو كالدوام وأخرجها من حضرة الشيطان وأخلصها وحما العوام فقد تيقنت بأن ليس لي عدو إلا نفسي التي تحول بيني وبين ربّي لا هؤلاء الحسدة الذين غرضهم فيما يخوضون فيه ان يحاولوا بيني وبين الذكر الجميل والصيت الحسن (فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون).فلا ند ولا ضد حضرك حين برأت النفوس (بيت ولىّ) :

فيلي بجى رون قل رون بت   فيلي بجى يقكت ي- كّنه "

وبعد أن أورد هذين البيتين :

قبيح على الإنسان ينسى عيوبه   ويذكر عيبا في أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره   وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

ذكر الحاج أحمد دِمْ ما أغرى أعداءه بهتك ستره قائلا : « فأما هذا الذي وقع بيني وبين زوجتي الكبرى من الفراق على ما جرى به القدر من المولى سبحانه وتعالى ثم اتفقنا على عقد أختها للأب الصغرى على رضى منهما وشوري والقرآن والسنّة والاجماع على أن الأخت قد حلت على الزوج بعد بينونة الأولى فان كان هذا السّبب في انتهاكهم حرمتي وغرضهم في ذلك شهرتي كأني والعياذ بالله قد جئت شيئاً ادّا يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا فهل أنا بدع في هذا الأمر الذي قد سبقني إليه فلان وفلان من أكابر أولياء الرحمن في هذه العصور وفي سالف الأزمان الذين لا يخافون في الله لومة لائم ؟... أم هؤلاء بدع فيما ارتكبوه من المكر والبهتان فوالله ما زالت عامة بني آدم من قديم الزمان وحديثه يتربصون بالعلماء والصالحين الدوائر فان ايسوا منهم عدلوا بهم إلى الافتراء والبهتان ومتى رأوا أدنى شبهة اتخذوه بابا للدخول في قدح أعراضهم وثلب احسابهم » .

انّ هذه الحكاية تبيّن لنا سبباً من الأسباب التي حثّت الحاج أحمد دِمْ على تأليف هذا الكتاب فاذن هو استمدّ من أمور حقيقية عاشها ومن تجارب واقعة فعبر عن مشاعر شخصية وعن أفكار ذاتية وممّا يسليه عن آلامه وابتلائه هو أن الأنبياء عليهم السلام والأولياء والصالحين رضي الله عنهم قد كابدوا آلاماً وبلايا قبله فصبروا عليها فلا بد أن وقعت البلايا وهي المطايا للسائرين إلى الله تعالى وأورد الشيخ هذا الشعر :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالكل أعداء له وخصوم

« قالوا ان كل من أراد التمسّك بالسنّة المحمديّة في هذا الزمان الذي فسدت فيه هذه الأمة وتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثقل على القلوب ورمي بالكذب وساءت فيه الظنون وقصد بالأذى والقتل ... ولله در القائل :

بنى الله للأخيار بيتا سماؤه ... هموم وأحزان وحيطانه الضرّ
وأدخلهم فيه وأغلق بابه ... وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

... قلت وأما بكاؤك فانه والله لقليل بالنسبة إلى بكاء شيخنا أحمد بن بدر رضي الله عنه لما سمع رجلاً من الكُنْتِيِّينَ يمزق عرض شيخنا الشيخ عمر الفوتي

رضي الله عنه ويرميه بالفواحش فبكى على ذلك حتى كاد يغشى عليه وهو يقول والله انك لجاهل بحقيقته وأحواله ثم شرع في تأليف كتابه (الدرع والمغْفَر في الرد عن الشيخ عمر) فانظر هل حصل لهذا الكُنْتِيّ غرضه من الشيخ عمر لا وكلا وما زاده في قلوب الخلق الا اعتقاداً ومحبة وان كان مكرهم لتزول منه الجبال » .

وكما استمد من أمور حقيقية حضّته على وضع كتابه « تنفيس الصالحين » كذا اقتبس من أشياء واقعة مواضيع كتابه الثمين « تنبيه الأغبياء » إذ قال في المقدمة ما نصّه : « وذلك لما ظهرت في بلادنا هذه الغربية طائفة من اخواننا التجانيّين فادخلوا حيرة على العامة في دينهم بافشاء كلمات لم يقل بها أحد من العلماء المحققين من أهل السنّة والجماعة من عصر الصحابة إلى يومنا هذا ومن جملتها التحدث برؤية الله تبارك وتعالى حتى صار هذا الكلام متداولا بين هذه الطائفة بقولهم فلان يرى الله سبحانه وتعالى وفلان يقدر الآن على ان يريك المولى جل وعلا وفلان قد وصل وفلان سيصل وفلان مفتوح عليه بل فلانة قد جاوزت الآن مقام سيدي فلان من أكابر الأولياء والعارفين إلى غير ذلك وكنّا في أول الأمر نكذب بكل من يحدث بهذه عنهم ونؤول ما يبلغنا منهم ونلتمس لهم جواباً ومخرجاً حسناً عملا بحسن الظنّ المأمور به بين المسلمين لأنّ المؤمن يلتمس المعاذير والمنافقين يتبعون العيوب كما قيل :

ما كان من شيم الأبرار أن يسـموا بالفسق شيخا على الخيرات قد جبلا
الا ولكن إذا ما أبصروا خللا يكسوه من حسن تأويلاتهم حللا

فنحمل كلامهم في الرؤية على الرؤية القلبية التي هي التمكن في المعرفة على ارادة التورية ثم لما أكثروا من هذه الترهات وملئوا البلد بهاتيك الخرافات توقفنا عن الجواب عنهم لكثرة القائلين فسلمنا العلم فيه إلى الله حتى أتانا سيد هذه الطاقة وأرسل إلينا بتأليف له في الطريق والسلوك فأذن لي في مطالعته فوجدته يجوّز فيه وقوع ما يشيعه هؤلاء ويسر حسوا في الارتغاء ويدّعي لنفسه فيه أموراً لا ننازعه فيها وسلمنا الأمر فيه إلى الله لدخولها في حيّز الامكان ثم قمنا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم غيرة للدين الإسلاميّ فبذلنا وسعنا في سدّ الثلمة الحاصلة من افشاء هذه الكلمة وبيان الحق من الباطل فيما أوردوه من المسائل . فانّ من أحال

رؤيته تعالى بالابصار مطلقاً كالمعتزلة فقد فرّط ومن أجاز وقوعها رأساً ثم أثبتها له صلى الله عليه وسلم خاصة في الدنيا وله وللمؤمنين عامّة في الجنة فقد توسّط وهدي إلى الصراط المستقيم كما سنقف عليه من كلام الأئمة والمحققة ان شاء الله تعالى وما تكلمنا الا على لسان العلماء والمحققين من أهل السنّة والجماعة من عصر الصحابة إلى يومنا هذا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة :

عليّ نحت القــوافي من مواضعهــا وما عليّ إذا لم تفهم البقر

فسميتها « تنبيه الأغبياء على إستحالة رؤية البارئ تعالى بالابصار في الدنيا شرعا لغير الأنبياء صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الأصفياء » ورتبتها على ستة فصول وختمتها بخاتمة الفصل الأول في جواز رؤية الباري جلّ وعلا بالابصار عقلا في الدنيا ووجوبها سمعاً في الآخرة عند أهل السنّة ودليلهم فيه والثاني في وقوعها له صلى الله عليه وسلم خاصة ليلة الاسراء والخلاف فيه وفي تكفير من ادعاها من بعده صلى الله عليه وسلم والثالث في جواز رؤية الباري تعالى في المنام ووقوعها الكثير من الأولياء والصالحين والخلاف فيه والرابع في مراد القوم بالمشاهدة والمعرفة والفرق بين الرؤية والمشاهدة ومرادهم بالكشف والوصول والمسمّى بالعارف عندهم وان من أعظم المكر والضلال قول بعضهم العارف لا يضره ذنب والخامس في مرادهم بالفناء والبقاء والجمع والتفرقة وأقسام الفناء ممدوحها ومذمومها ومتوسطها والسادس في التحذير من ايقاظ الفتنة والسعي فيما يوقد نارها بين المسلمين وما جاء في ذلك من الوعيد الشديد والخاتمة من الله علينا بحسنها في أعلام الاخوان وتنبيههم على أن طرق ساداتنا الأولياء رضي الله عنهم لم تزل فيما مضى توصل إلى الله تعالى ولا تزال فيما يأتي موصلة إلى ان يأتي المنتظر وينزل سيدنا عيسى عليه السلام فتصير واحدة حين تصير المذاهب كلها مذهباً واحداً ... » .

ولا يخفى على كل مسلم مؤمن مخلص عالم علم اليقين بأنه جل وعلا « لا تدركه الأبصار » الخطر العظيم الذي يتمثل سلاحاً مخيفاً في يد مشعوذ إذا أقنع عامّة الناس بأنه يرى الله جلّ شأنه بعيني رأسه في يومنا هذا . أما نحن فلا نطيل الآن الحديث في هذه المسألة فلننتظر ما سنقوله ان شاء الله في مدرسة كولخ .

الحاج أَحمد دِمْ العالم اللغويّ والتنجيميّ

هاكم نبذة مما قاله في غريب اللغة العربية :

ألا أيهـا الطـبّ أَسير القلب في زينب
فما اللألاء والطاطـاء والظخيـاء والكرنب

الشرح : اللألاء : الفرح التامّ وضوء السراج ، والطأطاء : المنخفض من الأرض والجمل القصير ، والظخياء : المظلمة من الليالي ، والكرنب : نبات من نوع السلق .

ومـا اليعبوب واليعسوب والشنخوب والكبكب

الشرح : اليعبوب : النهر الشديد الجري الكثير الماء والفرس السريع الطويل ، واليعسوب ذكر النحل وأَميرها والرئيس الكبير واسم طائر أَيضاً وغرة في وجه الفرس ، والشنخوب : أَعلى الجبل ، والكبكب : اسم جبل ولعبة .

وما السّكيت والحنتيت والكبريت والفرنب

الشرح : السِّكِيتُ : الكثير السكوت ، والحنتيت : من البخور .

وما اللثلات والنفـاث واللكاث والشوشـب

الشرح : اللثلاث : البطيء المتردّد في قضاء الأمر ، والنفاث : الساحر ، واللكاث : مناء الجص ، والشوشب : القمل والعقرب والنمل .

ولا ينبغي لنا أَن نواصل ما هو سرد أَسماء عربية غريبة جدّ الغرابة .

أَمّا كتابه «كاشفة الحجاب» فهو قصيدة رجزيّة بدأَها بهذه الأَبيات بعد الحمدلة والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعد فاعـلم انّمـا الحسـاب علم مفيـد وبـه يثـاب
لما به من عـلم ذي الأوقـات من العبـادات وما يؤاتي
كالصوم والصـلاة والزكـاة وغيرها من سبب النجـاة

(إلى أَن قال في باب معرفة العربية والمهمات منها) :

أَيام هذا العام سند في العـدد وخمس يوم سدسـه في المعتمد

لذاك يأتي الكبس فيه فاعلم   فالكبس في كل ثلاث ينتمي
ان دار القمر ثنتي عشره   في الفلك مرة فذا العام تره
أفضل ما في العربي من يوم   مولد سيد الورى يا قومي
وكان في شهر ربيع الأول   ليلة يبب منه في المعول
وقال ذو الفتح الرضى الدباغ   بأنه في سبع يا باغ
في ليلة الاثنين والرسالة   أيضاً به حكاه ذو العداله
وموته قد كان والاسراء في   ذلكم اليوم أيا من يقتفي
وفيه قد أتى مدينة الرسول   فالطف بنا يا ربنا في كل سول

قد ألّفه سنة ١٣٤٠ ﻫ كما قال في هذا البيت :

تأريخه (شَمْسٌ) من السّنينا   سبحان رب الخلق أجمعينا

وكتب كتاباً نحوياً غير منظوم وهو ذو بال جدًّا وفيه أظهر كل ما هو به عليم بكونه نحوياً ولغوياً خبيراً معدوداً . ونجد فيه شواذ من عبارات نحوية مثل تصغير في أفعال الأمر هذه : خذ وكل وعد قال : « أُخيذ وأُكيل ووعيد » (برد الفاء) وهذا الكتاب يحتوي على مائة صفحة تقريباً .

الحاج أحمد دِمْ عالم الأخلاق :

في هذا الباب هو تقليديّ فلننظر إلى بعض ما كتبه في « جلاء القلوب من فتح علام الغيوب » :

لازم جماعة على أمر مبيح   وقاية للعرض فالدين فسيح
وترك سنة لصون العرض   من واجبات الدين خوف البغض
فكلما ليس عليك بالحرام   فوافق الناس عليه في المرام

إلى أن قال :

وكل من إلى إمام انتسب   غير رسول الله سيد العرب
ثم يوالي أو يعادي فيه   فانه مبتدع في تيه
وانّما سبيل كل المؤمنين   جميع ما دون للمجتهدين
حابب وباغض ان تكن ذا طاعه   في مذهب السنّة والجماعة

لأنّ للحق وجوها أكثرا ... من أن تعدّ فانتبه من الكرى

إلى أن قال :

اياك أن تغتر بالمدائح ... لما حوته النفس من فضائح
أليس بالجاهل والمغبون ... من يترك اليقين بالظّنون
بعض المسائل تغير الجواب ... فيها إلى الجواز من أهل الصواب
وذا لخوفهم دراس الدين ... والعلم في أواخر القرون
منها ذهاب العلماء الأتقيا ... إلى السلاطين كما قد رئيا
كذا خروجهم إلى أهل القرى ... في العيش والقوت وفي نيل القرى
وأخذ أجرة لتعليم القرآن ... وللإمامة كذا وللاذان
ومثله الغسّال في الأمصار ... دون البوادي والقرى الصغار
منها سلامهم على شرب الخمور ... ونحوهم من أهل لهو وغرور

إلى أن قال :

أول ما يوكل بعد الفقر ... في ذا الزّمان الدين دون نكر
والحذر الحذر من سؤال ... ما كان في أيدي الورى من مال
ان القلوب كلّها قد جبلت ... في بغض من يسأل ما تموّلت
أبغض ما إليهم من يسأل ... ما كان في أيديهم أو يبخل

وفي الختام انّ الحاج أحمد دِمْ هو من أكابر علماء السنغال إذ هو مفسّر شامل وفقيه بارع ونحويّ خبير ولغويّ عميق وواعظ جيّد وشاعر مفلق . وغني عن البيان أنه أحب اللغة العربية حبًّا جمًّا . وإذا كانت له معارف واسعة ومؤلّفات في جميع الفنون متنوعة فأصالته تصدر عمّا ألّفه مستمداً من حوادث حياته الذاتية وتجاربه الشخصية ولذا هو في أسلوبه بسيط غير مسجّع ولكن ما أكثر استشهاداته بعلماء وأدباء وكتّاب آخرين .

انتهى الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني

الفهرس

صفحة

صفحة